قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

وهو يروي تاريخ الحضارة الأوروبية خارج إيطاليا
من وكليف إلى لوثر ١٣٠٠ - ١٥١٧

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الثاني من المجلد السادس

٢٣

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL-EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
تونس

فهرس الجزء الثانى من المجلد السادس

الموضوع — صفحة

الفصل التاسع : الصقالبة الغربيون (١٣٠٠ – ١٥١٧) ١

١ – بوهيميا ١

٢ – جون هس (١٣٦٩ – ١٤١٥) ٤

٣ – الثورة البوهيمية (١٤١٥ – ٣٦) ١١

٤ – بولندة (١٣٠٠ – ١٥٠٥) ١٩

الفصل العاشر : المد العثمانى (١٣٠٠ – ١٥١٦) ٢٤

١ – الازدهار الثانى فى بيزنطة (١٢٦١ – ١٣٧٣) ٢٤

٢ – أمارات البلقان تلتقى بالترك (١٣٠٠ – ٩٦) ٣٠

٣ – السنوات الأخيرة للقسطنطينية (١٣٧٣ – ١٤٥٣) ٣٤

٤ – هانيادى جانوس (١٣٨٧ – ١٤٥٦) ٣٨

٥ – المد فى عنفوانه (١٤٥٣ – ٨١)... ... ... ٤٢

٦ – النهضة المنغارية (١٤٥٦ – ٩٠) ٤٤

الفصل الحادى عشر : البرتغال تسهل الثورة التجارية (١٣٠٠–١٥١٧) ٥٠

الفصل الثانى عشر : أسبانيا (١٣٠٠ – ١٥١٧) ٥٩

١ – التمهيد الإسبانى (١٣٠٠ – ١٤٦٩) ٥٩

٢ – غرناطة (١٣٠٠ – ١٤٩٢) ٦٦

٣ – فرديناند وإيزابلا ٧١

٤ – وسائل محكمة التفتيش ٧٧

٥ – تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ – ١٥١٦) ٨٦

٦ – هجرة إسرائيل ٩١

٧ – الفن الإسبانى ٩٨

٨ – الأدب الإسبانى ١٠٤

٩ – موت الملك ١٠٧

الفصل الثالث عشر : نمو المعرفة (١٣٠٠ – ١٥١٧) ١١٣

١ – السحرة ١١٣

٢ – المعلمون ١٢١

الموضـــوع — صفحة

٣ – العلماء ١٢٦
٤ – المعالجون ١٣٥
٥ – الفلاسفة ١٤٠
٦ – المصلحون ١٤٨

الفصل الرابع عشر : غزو البحر (١٤٩٢ – ١٥١٧) ١٥٩

١ – كولمبس ١٥٩
٢ – أمريكا ١٦٥
٣ – مياه المرارة ١٦٩
٤ – المنظور الجديد ١٧٧

الفصل الخامس عشر : أرازموس الرائد (١٤٦٩ – ١٥١٧) ... ١٨٠

١ – تربية عالم بالإنسانيات ١٨٠
٢ – المشـائى ١٨٤
٣ – الهجـاء ١٨٩
٤ – العلامة ٢٠٠
٥ – الفيلسوف ٢٠٦
٦ – الإنسان ٢١٠

الفصل السادس عشر : ألمانيا قبيـــل عهد لوثر (١٤٥٣ – ١٥١٧) ٢١٦

١ – عصر آل فوجر ٢١٦
٢ – الدولة ٢٢٧
٣ – الألمـان (١٣٠٠ – ١٥١٧) ٢٣١
٤ – نضج الفن الألمانى ٢٣٨
٥ – ألبرخت ديرر (١٤٧١ – ١٥١٧) ٢٤٨
٦ – علماء الإنســانيات الألمان ٢٦٢
٧ – أولريخ فون هوتن ٢٧٢
٨ – الكنيسة الألمانية ٢٧٦

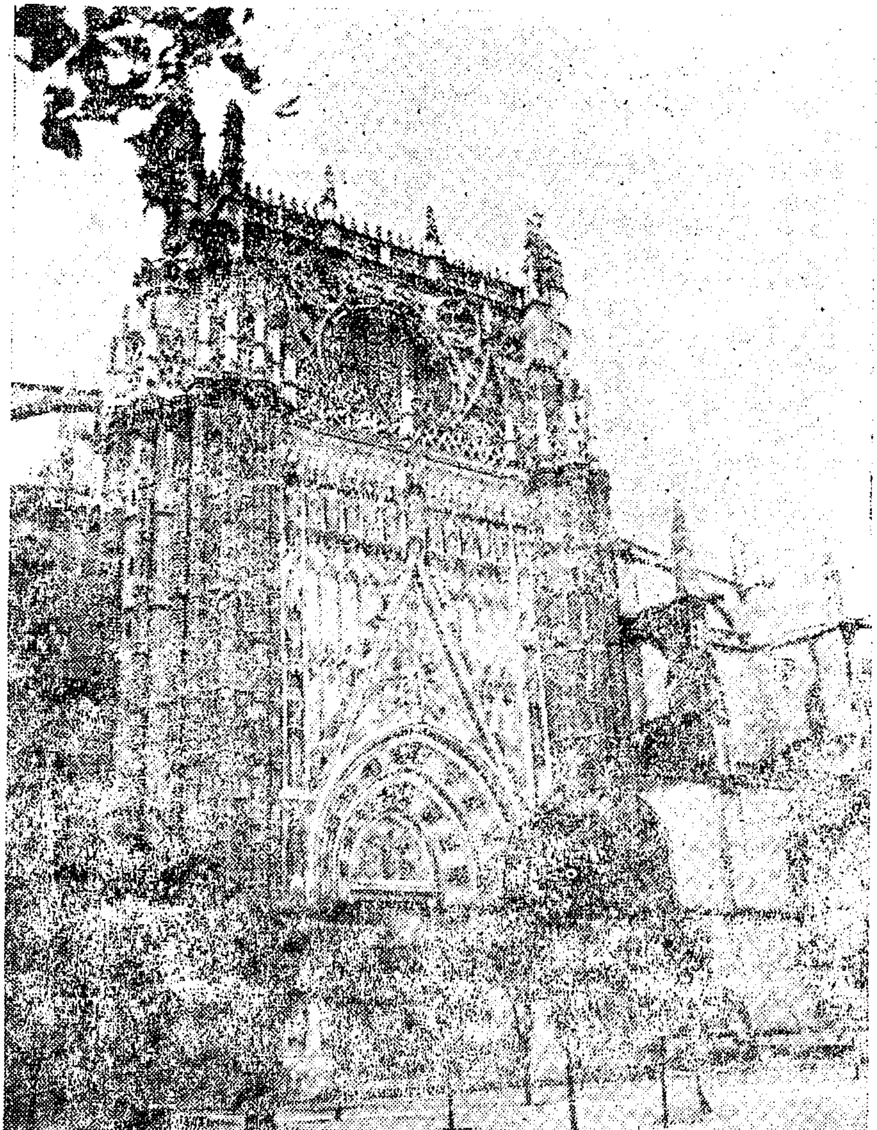

الكاتدرائية – أشبيلية (ص ٩٨)

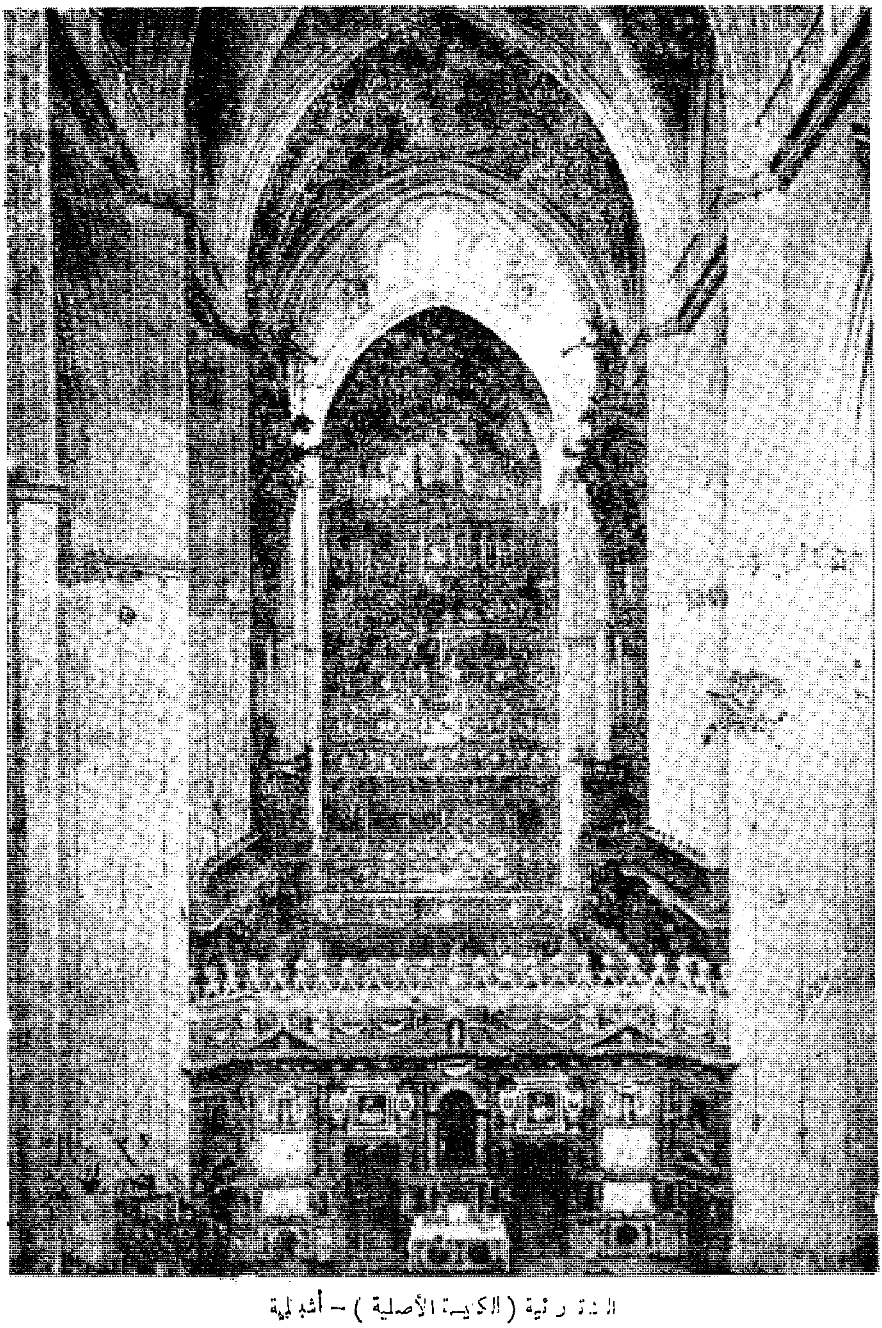

الكاتدرائية (الكنيسة الأصلية) — أشبيلية

الفصل التاسع

الصقالبة الغربيون

(١٣٠٠ – ١٥٧١)

١ – بوهيميا

لا يزال الصقالبة إلى الآن أشبه بالموجات البشرية تجيش أحياناً ناحية الغرب إلى الألب ، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وشرقاً إلى الأورال ، وشمالا إلى البحر المتجمد ، وقد ردهم إلى الغرب بعد ذلك فى الثالث عشر ، الفرسان الليفونيون والتيوتون ، أما فى الشرق فقد خضعوا لسيطرة المغول والتتار – وقادت بوهيميا فى القرن الرابع عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإصلاح الدينى قبل لوثر ، كما اتحدت بولندة مع ليتوانيا التى كانت متسعة الأرجاء : فأصبحتا دولة كبيرة ، ذات طبقة عليا على حظ رفيع من الثقافة . وتحررت روسيا فى القرن الخامس عشر من نير التتار ووحدت إماراتها المبعثرة فى دولة ضخمة . وهكذا دخل الصقالبة التاريخ كموجة من موجات المد البشرى .

وانتهت أسرة تبرزملد العريقة فى بوهيميا بموت ونسسلوس عام ١٣٠٦ وأعقبتها فترة من الزمان حكم فيها ملوك صغار الشأن ثم جاء الناخبون من البارونات ورجال الدين بجون أمير لكسمبورج ، ليؤسس أسرة حاكمة جديدة (١٣١٠) . وأصبحت بوهيميا بفضل مغامراته الباسلة قلعة منيعة من قلاع الفروسية جيلا من الزمان ، وتعذر عليه أن يعيش بلا صولات وجولات حتى إذا ثبت له أن هذه الفروسية لا ضرر منها على الإطلاق ، اندفع إلى الحرب فى كل مملكة من ممالك أوربا تقريباً . وأصبح من الكلم

المأثور فى تلك الأزمنة أنه لا يتحقق شيء بغير العون من الله وملك بوهيميا . فالتمست برسكيا التى حاصرتها فيرونا ، أن يمد لها يد المعاونة ، فوعد بالقدوم إليها ، وما كادت الأخبار تشيع بوعده هذا حتى رفع الفيرونيون الحصار واعترفت به مختارة برسكيا وبرجامو وكريمونا وبارما ومودينا بل وميلان أيضاً : سيداً إقطاعياً عليها فى مقابل أن يبسط حمايته عليها جميعاً ، وقد استطاع هذا الملك بسحر اسمه أن يحصل على معظم ما عجز عن تحقيقه بقوة السلاح فردريك الأول ذو اللحية الحمراء ، وفردريك الثانى أعجوبة الزمان وأضافت حروبه الجريئة مساحة من الأرض إلى بوهيميا ولكنها أفقدته عواطف رعاياه ، الذين لم يستطيعوا أن يغتفروا له غيابه الدائم عن بلادهم ، التى أهمل إدارتها ، وحز فى نفوسهم أنه لم يفكر قط حتى فى أن يتعلم لغتهم . وفى عام ١٣٣٦ لازمه مرض عضال كف بصره وهو يخوض معركة صليبية فى ليتوانيا . ومع ذلك - فإنه عندما علم أن إدوارد الثالث ملك انجلترا نزل إلى البر فى نورمانديا متجها صوب باريس ركب مع ابنه شارلز فى خمسمائة فارس بوهيمى ، وعبروا أوربا ليكونوا مدداً لملك فرنسا . وحارب الأب والإبن فى الطليعة عند كريسى . حتى إذا انسحب الفرنسيون ، ناشد الملك الكفيف اثنين من فرسانه ، أن يربطا جواديهما إلى جانبى جواده وأن يقوداه لمحاربة الإنجليز المنتصرين ، قائلا : « هذه مشيئة الله ، ولن يقال إن ملكاً على بوهيميا قد فر من حومة الوغى » وقتل من حوله خمسون — من فرسانه . وأثخن بجرح مميت ؛ ثم نقل وهو يحتضر إلى خيمة الملك الإنجليزى . . فأرسل إدوارد الجثة إلى شارلز ومعها رسالة مهذبة يقول فيها : لقد سقط اليوم تاج الفروسية » .

وكان شارلز الرابع ملكاً أقل بطولة وأرشد عقلا . فآثر المفاوضة على الحرب ، ولم يكن من الجبن بحيث يقبل الهوان ، ومع ذلك فقد وسع من حدود مملكته ، وجعل الصقالبة والألمان إبان السنوات الاثنتين والثلاثين من

حكمه ، يعيشون فى سلام غير مألوف . وأعاد تنظيم الحكومة ، وأصلح القضاء ، وجعل براغ من أجمل مدن أوربا . وشيد فيها مقراً ملكياً على طراز اللوفر ، والقلعة الشهيرة كارلشتين أى « حجر شارلز » لتكون داراً أمينة لمحفوظات الدولة وجواهر التاج — التى أودعت فيها لا للمباهاة والعرض بل لتكون مالا احتياطياً منقولا حصيناً يصلح غطاء للعملة . واستقدم ماثيو الأراسى لكى يصمم كاتدرائية القديس « فيتوس » وتوماسو الموديناوى ليرسم صوراً جصية على جدران الكنائس والقصور . وعمل على حماية الفلاحين من الاضطهاد ونهض بالتجارة والصناعة . وأنشأ جامعة براغ (١٣٤٧) ، ونقل إلى مواطنيه الولع بالثقافة الذى اكتسبه فى فرنسا وإيطاليا وشحذ الحافز الفكرى الذى فجر الثورة الهوسية ، وأصبح بلاطه مركز الدارسين الإنسانيين البوهيميين ، وعلى رأسهم الأسقف جون الاسترساوى صديق بترارك . ولقد أعجب هذا الشاعر الإيطالى بشارلز فوق إعجابه بأى ملك من ملوك ذلك العصر وزاره فى مدينة براغ ، وناشده أن يغزو إيطاليا ، ولكن شارلز كان أرشد فكرا وكان حكمه ، على الرغم من نشرته الذهبية هو عصر بوهيميا الذهبى . وهو باق يبتسم ، فى تمثاله النصفى من الحجر الجيرى ، فى كاتدرائية براغ .

وكان « ونسيسلوس الرابع » فى الثامنة عشرة من عمره عند ما مات أبوه (١٣٧٨) ، ولقد أكسبته فطرته الطيبة ، وحبه لشعبه ، وترفقه فى فرض الضرائب عليهم وبراعته فى الإدارة ، محبة الجميع ما عدا النبلاء الذين رأوا أن شعبيته تعرض امتيازاتهم للخطر . وانتهت سورات غضبه حيناً وإدمانه الشراب حيناً آخر بهؤلاء النبلاء إلى خلعه ، ففاجأوه فى مقره الريفى وألقوا به فى السجن (١٣٩٤) ، ولم يعيدوه إلا بعد أن أخذوا عليه العهد بأن يمتنع عن الإقدام على أى عمل له أهميته دون موافقة مجلس من النبلاء والأساقفة . ونشأت فتن أخرى ، واستدعى سيجسموند ملك المجر ، فقبض على أخيه

ويسسلوس وأخذه أسيراً إلى فينا (١٤٠٢) . وفر الرجل بعد ذلك بأعوام قلائل ، واتخذ طريقه عائداً إلى بوهيميا فاستقبله الشعب مبتهجاً ، واستعاد العرش والسلطان . واختلطت البقية الباقية من قصته بمأساة هس .

٢ — جون هس

(١٣٦٩ — ١٤١٥)

كان ونسيسلوس محبوباً مكروهاً فى آن واحد ، لأنه تسامح مع الهراطقة وتشدد مع الألمان . وأثمر التسلل السريع فى بوهيميا من عمال المناجم وأصحاب الحرف والتجار وطلاب العلم ، عداوة عنصرية بين التيوتون والتشيك ، وكان هس حرياً بألا يلقى التأييد من الملك والشعب لولا أنه رمز لكراهية قومية للتفرق الألمانى . ولم ينس ونسيسلوس أن رؤساء أساقفة ألمانيا قادوا حركة خلعه عن العرش الإمبراطورى ، وتزوجت أخته آن رتشارد الثانى ملك إنجلترا وفطنت إلى — ولعلها عطفت على — محاولات ويكليف ؛ أن يفصل إنجلترا عن الكنيسة الرومانية . وفى عام ١٣٨٨ خلف أدلبرت رانكونيس مبلغاً من المال يعين الطلاب البوهيميين على الذهاب إلى باريس أو أكسفورد . وحصل بعض هؤلاء أو نسخوا بعض مؤلفات ويكليف وحملوها معهم إلى بوهيميا ، وأقام ميلتش الكرومريزى وكونراد ولد هوزر ، براغ وأقعداها باتهاماتهما لرجال الدين والعلمانيين بالخروج على الأخلاق ، وواصل ماتياس الجنوفى وتوماس الستيتنى هذه الدعوة فأيدها الإمبراطور بل أن أرنست كبير الأساقفة قد وافق عليها ، وفى عام ١٣٩١ ، أقيمت فى براغ كنيسة خاصة سميت كنيسة بيت لحم لتقود حركة الإصلاح . وفى عام ١٤٠٢ عين جون هس واعظاً لهذه الكنيسة .

ولقد بدأ حياته فى قرية هوسينتز ، وعرف باسم جون الهوسينتزى الذى اختصره فيما بعد إلى هس . وجاء حوالى عام ١٣٩٠ إلى براغ وهو

طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة فى الكنيسة ، وكان أمله أن ينخرط فى زمرة القساوسة ، ومهما يكن من شيء : فقد انضم إلى طرائق الشباب البوهيمى جرياً على سنة العصر ، وهو ما أسمته باريس بعد ذلك « بالبوهيمية » المرحة للشباب الجامعى ، وحصل عام ١٣٩٦ على أجازة أستاذ فى الآداب ، وبدأ يدرس فى الجامعة ، واختير عام ١٤٠١ عميداً لكلية الآداب — أو بعبارة أخرى عميداً للدراسات الإنسانية ورسم فى ذلك العام قسيساً ، رأصلح حياته حتى اقترب بها إلى زهد الرهبانية ، وأصبح باعتباره رأس كنيسة بيت لحم ، أشهر واعظ فى براغ ، وكان بين المستمعين إليه كثيرون من رجال البلاط ، وقد نصبته الملكة صوفيا واعظاً لها . وأخذ يلقى عظاته باللغة التشيكية ، وعلم رجال كنيسته أن يسهموا بنصيب إيجابى فى الصلاة بترتيل الأناشيد الدينية .

ولقد أكد الذين اتهموه فيما بعد أنه ردد فى السنة الأولى من عمله الكهنوتى شكوك ويكليف حول اختفاء الخبز والنبيذ من العناصر المقدسة فى العشاء الربانى . وليس من شك فى أنه قرأ بعض مؤلفات ويكليف ، ودون نسخا منها لا تزال باقية بتعليقاته عليها ، واعترف فى محاكمته أنه قال « إننى على ثقة من أن ويكليف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن تكون روحى مع روحه » ونالت آراء ويكليف عام ١٤٠٢ فى جامعة براغ حظاً من الشهرة جعل القوامين على الإدارة الكهنوتية فى الكاتدرائية يتقدمون إلى أساتذة الجامعة بخمسة وأربعين نصاً مختاراً من كتابات ويكليف متسائلين : هل تمنع الجامعة هذه الأقوال ؟ — فأجاب عدد من الأساتذة بينهم هس بالنفى ، ولكن الأغلبية حكمت أنه لا يجوز منذ ذلك الحين لأى عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، أن يدافع أو ينتصر بصورة علنية أو سرية لقول من هذه الأقوال الخمسة والأربعين .

ولابد أن يكون هس قد تجاهل هذا التحريم ، لأن رجال الدين فى براغ التمسوا عام ١٤٠٨ من زبينك كبير الأساقفة أن يزجره . فاستجاب

لهم كبير الأساقفة بحذر لأنه كان وقتذاك على خلاف مع الملك . ولكن هس استمر فى عطفه على آراء ويكليف فأصدر عليه زبينك وعلى عدد من زملائه قرار الحرمان (١٤٠٩) حتى إذا أصروا أن يمارسوا وظائفهم الكهنوتية ، جعل براغ بأسرها تحت وطأة قرار الحرمان . وأمر بأن تسلم إليه كل ما يوجد من كتابات ويكليف فى بوهيميا وأحضرت إليه مائتا مخطوطة ، فأحرقها فى ساحة قصره . فاستأنف هس القرار إلى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين . فاستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية : فأبى أن يذهب إليها .

ورغب البابا عام ١٤١١ فى الحصول على أموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولى ، فأعلن عرضاً آخر لصكوك الغفران . ولما أذيع ذلك فى براغ وبدا للمصلحين أن عملاء البابا يبيعون الغفران بالمال ، دعا هس ومؤيده الأول جيروم البراغى ضد هذه الصكوك ، وناقشا وجود المطهر ، واحتجا على جمع الكنيسة للأموال لإهراق الدم المسيحى . وهبط هس إلى القدح فوصف البابا بأنه « نابش الأموال » وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح . وشارك جانب كبير من الشعب ، هس فى آرائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص ، إلى حد جعل الملك يحرم كل دعوة أو عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران . وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم ، فاستدعوا إلى مجلس المدينة ، ودافع هس عنهم ، واعترف بأن دعوته أثارتهم ، فأدينوا وقطعت رؤوسهم . وعمل البابا فى تلك الفترة على توجيه حرمانه إلى هس . ولما تجاهل الرجل القرار أصدر يوحنا قراراً بحرمان أى مدينة يأوى إليها (١٤١١) . ورحل هس عن براغ مستجيبا لنصيحة الملك وظل معتزلا بالريف عامين .

وكتب فى هذين العامين أهم مؤلفاته ، بعضها باللاتينية ، وبعضها بالتشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكليف ، وربما ردد بعضها الهرطقة

واختصام ، الكهنوت مما جلبته شعبة باقية من الولدانيين إلى بوهيميا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ولقد أنكر عبادة الصور والاعتراف السمعى وتعدد الشعائر الأنيقة . وأعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الألمان والدفاع عن الصقالبة و في مقالة عن « التجارة فى الأشياء المقدسة هاجم اتجار رجال الدين بالمقدسات » ، وفى « الموضوع فى ستة أخطاء » De sex erroribus نعى على القساوسة أخذ أجر على العماد وتثبيته والقداس والزواج والدفن ، واتهم بعض رجال الدين فى براغ ببيع الزيت المقدس ، وأخذ برأى ويكليف فى أن القسيس الذى اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعاً أن يناول السر المقدس ، أما رسالته عن « اجتماع مجلس شرفاء المدينة » De ecclesia فقد أصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه فى وقت واحد فإن من صفحاتها نقلت الهرطقة التى أحرق من اجلها . فقد اتبع ويكليف فى القول بالجبر ، وأيد ويكليف ومارسيليز وأكهام فى أن الكنيسة يجب ألا يكون لها طيبات دنيوية وعرف الكنيسة مثل كالفن بأنها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحى بأسره ، ولكنها المجموع الكلى فى السماء أو على الأرض للناجين من الخطيئة ، وليس البابا رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل لا البابا مرشد المسيحى . وليس البابا معصوماً ، حتى فى العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا نفسه خاطئاً معتاداً للخطيئة أو هرطيقا . وسلم هس بأسطورة صدقها جمهور كبير فى ذلك الزمان (بل صدقها جرسون) فاستغل الكثير مما ورد عن البابا المزعوم يوحنا الثامن (الذى تقول الأسطورة) أنه كشف عن جنسه النسوى بأن وضع برغمه طفلا مولودا فى شوارع روما . وختم هس كلامه بأنه لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح : « وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح »

ولما اجتمع مجلس عام فى كنستانس عام ١٤١٤ لكى يخلع ثلاثة بابوات

متنافسين ويضع برنامجاً لإصلاح الكهنوت ، بدا للعيان أن فرصة قد سنحت لإعادة الوئام بين الهسيين والكنيسة ، وكان الإمبراطور سيجسموند ، الوارث الشرعى لونسسلوس الرابع الذى لاعقب له ، تواقاً لإقرار السلم وإعادة الوحدة الدينية فى بوهيميا . فاقترح أن يتوجه هس إلى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته . ومنح هس من أجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الأمان إلى كنستانس وإبداء رأيه على الملأ أمام المجلس وحرية العودة فى أمان إلى بوهيميا إذا رفض هس حكم المجلس . وعلى الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل إلى كنستانس (اكتوبر ١٤١٤) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الأصدقاء . وذهب إلى كنستانس فى الوقت نفسه تقريباً ستيفن البالكزى وغيره من المعارضين البوهيميين لهس لاتهامه أمام المجلس .

ولما وصل ؛ عومل أول الأمر بحفاوة وترك حراً ، ولكن ما أن عرض بالكز أمام المجلس بياناً بهرطقات هس ، حتى استدعاه أعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من إجاباته ، بأنه هرطيق كبير ، فأمروا بزجه فى السجن ، فاعتلت صحته ، وأشرف فى وقت من الأوقات على الموت ، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرون أطباء من قبله لمعالجته ، وشكا سيجسموند من أن تصرف المجلس قد خالف جواز الأمان الذى أعطاه لهس ، فأجاب المجلس بأنه غير مقيد بصنيعه وبأن سلطته لا تمتد إلى الشئون الروحية ، وبأن للكنيسة الحق فى أن يعلو حكمها على حكم الدولة إذا أرادت أن تحاكم عدواً للكنيسة ، وفى أبريل نقل هس إلى حصن جوتليبن على نهر الراين ووضع هناك فى الأصفاد . وكان الغذاء الذى يقدم إليه قليلا حتى إنه أصيب بمرض خطير . واندفع فى الوقت نفسه زميله فى الهرطقة جيروم البراغى داخلا إلى كنستانس ، وثبت على أبواب المدينة والكنائس وعلى دور الكرادلة ، طلباً بأن الإمبراطور والمجلس يجب أن يمنحاه جواز أمان والاستماع إلى ما يقوله علناً . وألح عليه

أصدقاء هس فترك المدينة وقفل راجعاً إلى بوهيميا ، ولكنه توقف فى الطريق ليخطب عن سوء معاملة المجلس لهس . فقبض عليه وأعيد إلى كنستانس وزج به فى السجن :

وفى الخامس من يولية . سيق هس مكبلا بعد أن قضى فى السجن سبعة أشهر أمام المجلس ، ومثل كذلك فى السابع والثامن من الشهر نفسه . وسئل عن الآراء الخمسة والأربعين التى سبق أن اتهمت من مؤلفات ويكليف فأنكر معظمها وأيد بعضها . ولما ووجه بفقرات من كتابه « عن الكنيسة » عبر عن رغبته فى حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذى اتخذه لوثر فى ورمس) واحتج المجلس بأن الكتاب المقدس يجب أن يفسر بوساطة رؤساء الكنيسة لا بوساطة اجتهاد الأفراد وطالب هس أن يسحب جميع تلك الآراء التى استشهد بها دون تحفظ . وناشده أصدقاؤه ومتهموه أن يوافق ولكنه أبى وفقد النية الطيبة للإمبراطور المتردد ، بتصريحه أن الحاكم يفقد شرعية السلطة الدنيوية أو الروحية فى اللحظة التى يقترف فيها خطيئة مهلكة . وهكذا أبلغ سيجسموند هس بأن المجلس إذا أدانه بطل جواز الأمان من تلقاء نفسه . وبعد ثلاثة أيام من الاستجواب والجهود التى بذلها الامبراطور والكرادلة لكى يسحب هس آراءه ، أعيد إلى محبسه وسمح المجلس له ولأعضائه بأربعة أسابيع لدراسة الأمر الذى كان معقداً بالنسبة للمجلس أكثر منه بالنسبة لهس . كيف يتأتى لهرطيق أن يعيش دون أن يدمغ ذلك بعدم الإنسانية كل جرائم القتل من أجل الهرطقة التى ارتكبت فى الماضى ؟ ولقد عزل هذا المجلس بابوات ، فهل يتحداه قسيس بوهيمى بسيط ؟ أليست الكنيسة وهى إرادة المجتمع الروحية كما أن الدولة إرادته الطبيعية ، مسئولة عن النظام المعنوى الذى يحتاج إلى أساس من السلطة التى لا يرقى إليها الخلاف ؟ وبدا للمجلس واضحاً أن تحدى هذه السلطة كالخيانة العظمى بامتشاق السلاح

ضد الملك . وكان على الرأى أن يتطور إبان قرن آخر من الزمان قبل أن تمكن لوثر من تحد مماثل ويسمح له مع ذلك أن يعيش .

وبذلت محاولات أخرى للحصول على شبهة عدول هس عن آرائه وأوفد الامبراطور رسلا من لدنه للإلحاح عليه . وكانت إجابته واحدة دائماً ، إنه يتنازل عن أى رأى من آرائه لا يؤيده الكتاب المقدس . وفى السادس من يولية عام ١٤١٥ ، اجتمع المجلس فى كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف وهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرد لتوه من منصبه الدينى وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكداس من الحطب وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينقذ نفسه بكلمة تنبئ عن تنازله عن آرائه ، لكنه أبى ، وأكلته النار وهو يرتل الأناشيد .

وأنكر جيروم فى لحظة فزع تغتفر له أمام المجلس تعاليم صديقه (١٠ سبتمبر ١٤١٥) ولما أعيد إلى السجن ، استعاد شجاعته رويداً . وطالب بأن تسمع أقواله وبعد فترة طويلة سيق أمام المجلس (٢٣ مايو ١٤١٦) وبدلا من السماح له بعرض قضيته ، طلب إليه أولا أن يرد على التهم العديدة التى وجهت إليه . فاحتج ببلاغة مؤثرة حركت الشكاك الإيطالى الإنسانى برجيو براتشيولى الذى جاء إلى كنستانس ليكون كاتماً لسر البابا يوحنا الثالث والعشرين : « أى جور هذا ، فى أننى أمنح الآن ساعة أدافع فيها عن نفسى ، أنا الذى حبست فى سجن حقير مدة ثلاثمائة وأربعين يوماً ، دون أن تتوافر لى وسائل إعداد دفاعى ، بينما لغرمائى الحق دائماً فى أن تستمعوا إليهم ؟ إن عقولكم تحكم على بلا مبرر بأننى هرطيق ، لقد حكمتم على بأننى شرير قبل أن تكون عندكم وسيلة ما تعرفون بها أى نوع من الناس كنته . ومع ذلك فأنتم ناس ، ولستم آلهة ، مخلوقين ، ولستم خالدين ، أنتم معرضون للخطأ . وكلما ادعيتم بأن ينظر إليكم كمصدر هداية للعالم وجب عليكم الحرص على تأكيد العدالة للناس جميعاً . وأنا ، الذى تحكمون على قضيته ، لا أهمية لى ،

كما أننى لا أتحدث عن نفسى ، لأن الموت يحيق بالجميع ، ولكن لا أريد أن أرى عدداً كبيراً من الحكماء يقترفون ظلماً ، يتخذ سابقة فيكون بذلك أفدح ضرراً من العقاب الذى يفرضه » .

وقرئت التهم عليه ، واحدة بعد أخرى ، وأجاب عن كل منها بلا إنكار حتى إذا سمح له آخر الأمر أن يتحدث بحرية استمال المجلس أو كاد يستميله ، بحرارته وصدقه . وعرض بعض القضايا التاريخية التى قتل فيها الناس من أجل معتقداتهم وذكر كيف حكم القساوسة بالإعدام على ستيفن الرسول ، وأبدى أنه قلما توجد خطيئة أفدح من أن يقتل القساوسة قسيسا . ورجاه المجلس أن ينقذ نفسه بطلب المغفرة ، ولكنه أنكر بدلا من ذلك عدوله السابق عن آرائه ، وأكد اعتقاده فى مبادئ ويكليف وهس ، ودمغ إحراق هس بأنه جرم لابد أن يعاقب الله عليه . ومنحه المجلس أربعة أيام ليرجع عن رأيه . ولما لم يستغفر أدين (٣٠ مايو) وسيق توا إلى الموضع نفسه الذى أحرق فيه هس . وسار الجلاد خلفه ليوقد النار فى أكداس الحطب فناشده جيروم قائلا : « تعال أمامى . . . أوقدها أمام وجهى ، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لى قط أن أجيء إلى هنا » . وظل يردد أحد الأناشيد حتى خنقه الدخان .

٣ – الثورة البوهيمية

(١٤١٥ – ٣٦)

أثار موت هس ، الذى تناقله الأخباريون إلى بوهيميا ، ثورة قومية فاجتمع نبلاء بوهيميون ومورافيون وأرسلوا إلى مجلس كنستانس (٢ سبتمبر ١٤١٥) وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، وناصرت هس وجعلته كاثوليكيا طيبا مستقيما . وأنكرت إعدامه باعتباره إهانة لوطنه ، وأعلنت أن الموقعين سيحاربون إلى آخر قطرة من دمائهم دفاعا عن مبادئ المسيح ضد

القوانين التى من صنع البشر . وطالب تصريح آخر بألا يطيعوا منذ ذلك من الأوامر البابوية إلا ما يتفق مع الكتاب المقدس ، وأن الذين يحكمون على اتفاقها مع الكتاب المقدس إنما هم هيئة التدريس بجامعة براغ . وحيت الجامعة نفسها ، هس باعتباره شهيداً ، ومدحت جيروم السجين . واستدعى المجلس النبلاء المتمردين للمثول أمامه للرد على اتهامهم بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يحضر وأمر بإغلاق الجامعة ، بيد أن أغلبية الأساتذة والطلاب ظلوا يواصلون عملهم .

واقترح أحد أتباع هس حوالى عام ١٤١٢ وهو جاكوبك الاستريزيبوى ، وجوب بعث العرف المسيحى القديم الخاص بمناولة القربان بصورتيه — النبيذ إلى جانب الخبز — فى العالم المسيحى كله . ولما استولت الفكرة على الصفوة والعامة من أنصاره ، منحها هس تأييده ، فحرمها المجلس ، ودافع عن ترك العادة البدائية على أساس أنها مجازفة بسفك دم المسيح .

وبعد موت هس اتخذت جامعة براغ والنبلاء ، بقيادة الملكة صوفيا ، مناولة القربان بالنوعين جميعاً كأمر من أوامر المسيح ، وأصبح كأس العشاء الربانى شعار « ثورة الأتراكوست » Utraquist وصاغ أتباع هس عام ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة باعتبارها مطالبهم الأساسية وهى : أن القربان يجب أن يتناول خمراً كما يتناول خبزاً ، وأن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم وأن « كلمة الله » يجب أن يدعى إليها بلا تراخ باعتبارها الأساس الأوحد لحقيقة الدين وشعيرته ويجب أن يوضع حد لاقتناء القساوسة أو الرهبان للمتلكات المادية المتسعة ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس المخلفات الأثرية وعقوبة الإعدام والمطهر والقداس من أجل الموتى . ولقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الدينى اللوثرى فى هذه الثورة الهسية .

وكان الملك ونسسلوس الذى عطف على الحركة ، وربما فعل ذلك لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ، قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة

المدنية تهديدها للسلطة الدينية وفى المدينة الجديدة التى أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية فى المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهرطقة . وفى ٣٠ يوليو عام ١٤٩١ قام جمهور هس بموكب فى المدينة الجديدة . وشق له طريقا حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ إلى الطريق ، حيث قضى عليهم جمهور آخر . ونظم اجتماع شعبى انتخب أعضاء المجلس الهسيتى وأقر ونسسلوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩) .

وعرض نبلاء بوهيميا أن يقبلوا سيجسموند ملكا عليهم ، إذا اعترف « بمبادئ براغ الأربعة » . فما كان منه إلا أن طالب جميع التشيك بالطاعة الكاملة للكنيسة وألقى فى المحرقة بوهيميا أبى أن يتبرأ من تناول الكأس الربانى . وأعلن البابا الجديد مارتن الخامس ، حملة صليبية ضد الهراطقة البوهيميين وزحف سيجسموند ومعه قوة كبيرة إلى براغ (١٤٢٠) ونظم الهسيون جيشا حوالى الليلة السابقة وأرسلت كل مدينة فى بوهيميا ومورافيا تقريبا المتطوعين المتحمسين ودربهم جان زيزكا وهو فارس أعور فى الستين من عمره وأحرز بهم انتصارات رائعة . ولقد هزموا فرق سيجسموند مرتين . فجمع سيجسموند جيشاً آخر ولكن ما أن جاء خبر زائف بأن رجال زيزكا يقتربون ، حتى فر الجيش الجديد فى غير نظام دون أن يرى عدوا ما . وأسكر رجال زيزكا الطهريين النصر فأخذوا عن خصومهم فكرة القضاء على الخلاف الدينى بالقوة وساروا فى طول بوهيميا ومورافيا وسيلزيا وعرضها كأنهم عاصفة تقتلع أمامها كل شىء ، ينهبون الأديرة ويذبحون الرهبان ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ الأربعة وأصبح الألمان فى بوهيميا الذين رغبوا فى البقاء على كاثوليكيتهم ، الضحايا المفضلة للقوات الهسية وعاشت بوهيميا فى الوقت نفسه ومدى سبعة عشر عاما (١٤١٩ — ٣٦) بلا ملك .

واتحدت عناصر متعددة ومتصارعة لتكون الثورة البوهيمية . فإن المواطنين البوهيميين أسخطهم ما عند المقيمين الألمان من ثروة وما فيهم من تعاظم وأملوا فى إجلائهم عن الوطن . وطمع النبلاء فى ممتلكات الكنيسة ورأوها تستحق المصادرة . وطمح الكادحون اليدويون أن يحرروا أنفسهم من سادتهم من الطبقة الوسطى . وتاقت الطبقة الوسطى أن تضاعف من قوتها المحدودة ضد النبلاء ، فى مجلس الدايت الذى كان يحكم براغ والذى يسهم فى حكم بوهيميا وحلم عبيد الأرض وبخاصة من كان منهم يعمل فى إقطاعيات الكنيسة ، بتقسيم هذه الأراضى المباركة أو تحرير أنفسهم على الأقل من القيود الوبيلة . وقدم بعض صغار رجال الدين الذين ظلمهم رؤساؤهم تأييدهم الصامت للثورة وزودوها بالقيام على الشعائر الدينية التى حرمتها الكنيسة .

ولما ظفر الجيش الهسى بمعظم بوهيميا ، أدت غاياتهم المتناقضة إلى انقسامهم فرقاً يقتل بعضها بعضا . وبعد أن استولى النبلاء على أكثر أموال الجماعات الدينية الأرثوذكسية ، شعروا بأن الثورة يجب أن تخمد وأن يتيحوا الفرصة لمؤثرات الزمن . بينما صخب عبيد الأرض الذين أفلحوها من أجل الكنيسة مطالبين بتقسيمها فيما بينهم باعتبارهم أحراراً فإن الملاك النبلاء طالبوا عبيد الأرض بأن يخدموا السادة الجدد على أسس العبودية السابقة نفسها . وأيد زيزكا الفلاحين ، وحاصر فترة من الزمن « الكأسيين » أو بعبارة أخرى الهسيين أصحاب الكأس الربانى فى براغ الذين أصبحوا محافظين . ولما تعب من الصراع قبل هدنة وانسحب إلى بوهيميا الشرقية وأسس (أخوه حوديب)[١] هدفها تحقيق المبادئ الأربعة وقتل الألمان . ولما مات (١٤١٤) أوصى أن يصنع من جلده طبل حربى .

---

(١) على اسم جبل بشبه جزيرة سيناء .

وتألفت فى تابور فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحقة تتطلب تنظيما شيوعيا للحياة . ولقد وجدت فى بوهيميا قبل هس جماعات من الوالدينيزيين والبجهاردينيين وغيرهم من الهراطقة الذين لا رادع لهم يمزجون المثل الدينية بالمثل الشيوعية . واحتفظوا بهدوء يحمدون عليه إلى أن اقتلعت قوات زيزكا سلطة الكنيسة من معظم بوهيميا ، فظهروا علنا ، واستولوا على القيادة المذهبية فى تابور . وأنكر كثير منهم « الوجود الحقيقى » والمطهر والصلاة للموتى ، وكل الأسرار المقدسة ما عدا العماد والعشاء الربانى ولم يشجعوا تقديس المخلفات الأثرية والصور والقديسين ، واقترحوا إعادة الشعيرة البسيطة لكنيسة الحواريين . وأنكروا جميع الشعائر والأزياء الكهنوتية التى لم يجدوها فى المسيحية الأولى . وعارضوا المذابح وآلات الأرغن الموسيقية وفخامة الزخرف الكنسى وأتلفوا كل ما عثروا عليه من هذه الزينة . وأنقصوا العبادات مثلهم فى ذاك مثل البروتستانت المتأخرين ، إلى القربان والصلاة والقراءة فى الكتاب المقدس والعظة وترتيل الأناشيد ، ويقوم على هذه الشعائر رجال دين لا يختلفون فى الزى عن غيرهم من المدنيين .

ولقد استخلص معظم التابوريين ، الاتجاه الشيوعى من المعتقد بعودة المسيح وحكمه ألف سنة . فإن المسيح سرعان ما يجىء ويوطد مملكته على الأرض ، ولا تكون فى هذه المملكة ملكية ولا كنيسة ولا دولة ولا تفرقة طبقية ولا قوانين وضعية ولا ضرائب ولا زواج ، وفى المؤكد أن المسيح ، سيسره عند مجيئه أن يجد عباده قد أنشأوا مثل هذه المدينة الفاضلة السماوية وطبقت مثل هذه المبادئ فى تابور وبعض المدن الأخرى ، وقال أستاذ معاصر من أساتذة جامعة براغ : كل شىء هناك على المشاع : لا يملك أحد شيئاً لنفسه وحده ، ولذلك عد التملك دائماً يستحق مقترفه

الموت . وهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا أخوة وأخوات متساوين » .

وقد تحول فلاح بوهيمى إلى فيلسوف ، واسمه بيتر تشلجى وذهب فى آرائه إلى أبعد من ذلك ، وكتب بلغة تشيكية قوية مجموعة من المقالات التولستوية يدعو فيها إلى فوضوية مسالمة . وهاجم الأقوياء والأغنياء ، وأنكر الحرب وعقوبة الإعدام وعدهما قتلا ، وطالب بمجتمع لا سادة فيه ولا عبيد ، ولا قوانين من أى نوع . وناشد أتباعه أن يتبعوا المسيحية اتباعا حرفيا ، كما وجدوها فى العهد الجديد وألا يعمدوا إلا البالغين ، وأن يديروا ظهورهم للدنيا ومناهجها والحلف اليمين والتعلم والامتيازات الطبقية ، وللتجارة وحياة المدينة وأن يعيشوا فى فقر اختيارى وأن يؤثروا فلاحة الأرض ، وأن يتجاهلوا تمام التجاهل الحضارة والدولة . ووجد التابوريون هذه الدعوة السلمية لا تناسب مزاجهم . فانقسموا إلى أحرار معتدلين ومتطرفين « وهؤلاء دعوا إلى مبدأ العرى وشيوعية النساء » ، وتحولت الفرقتان فى الجدل إلى الحرب . وفى غضون سنوات قلائل تطورت القدرات غير المتساوية إلى تفاوت فى القوة والامتياز ، ثم إلى تفاوت فى السلع آخر الأمر ، وحل محل رسل السلام والحرية ، مشرعون لا رحمة عندهم يقوم تدبيرهم على الاستبداد الغاشم .

واستمع العالم المسيحى فى فزع إلى هذه المسيحية الشيوعية المزعومة ، وبدأ الهسيون فى البارونات وسكان المدن يتطلعون إلى كنيسة روما باعتبارها المنظمة الوحيدة التى لها من القوة ما يتيح لها أن تقضى على التحلل الوشيك للنظام الاجتماعى القائم وهللوا عندما رحب مجلس بازل بالتوفيق . وذهب وفد من المجلس إلى بوهيميا دون الحصول على موافقة البابا ، ووقع مجموعة من المواثيق ، صيغت بحيث يفسرها المسالمون من الهسيين والكثالكة بأنها

تقبل وترفض مبادئ براغ الأربعة (١٤٣٣) . ولما أبى التابوريون الاعتراف بهذه العهود انضم الهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية فى بوهيميا وهاجموا التابوريين المنقسمين على أنفسهم وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية (١٤١٤) واصطلح مجلس « الدايت البوهيمى » مع سيجسموند واعترف به ملكاً (١٤٣٦) .

ولكن سجسموند الذى ألف أن يتوج انتصاراته بما لا نفع فيه ، مات فى السنة التالية . وبلغ الحزب الأرثوذكسى ، إبان الفوضى التى أعقبت ذلك ، المكانة العليا فى براغ . وألف قائد محلى قدير هو جورج البوديبرادى جيشا من الهسيين ، واستولى على براغ ، وأعاد جان روكيكانا . إلى كرسى كبير الأساقفة ونصب نفسه حاكما على بوهيميا (١٤٥١) . ولما أبى البابا نيقولاس الخامس الاعتراف بروكيكانا فكر الأتراكوست فى أن يتحولوا بولائهم إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ولكن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك وضع حداً للمفاوضات وفى عام ١٤٥٨ اختار مجلس الدايت البوديبرادى ملكا لما رآه من إدارته الفائقة التى وطدت النظام والازدهار فى البلاد .

فتحول بجهوده إلى إقرار السلام الدينى . وأرسل بموافقة مجلس « الدايت » وفداً إلى بيوس الثانى (١٤٦٢) يطلب التصديق البابوى على عهود براغ فأبى البابا وحرم على المدنيين فى كل مكان أن يتناولوا القربان بنوعيه وعمل « البوديبرادى » بنصيحة « جريجور هايمبورج » وهو فقيه ألمانى ودعا عام ١٤٦٤ ملوك أوربا لكى يؤلفوا اتحاداً دائماً للدول الأوربية له سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وجيش ومحكمة لها حق الحكم فى المنازعات الدولية فى الحاضر والمستقبل . فلم يجب الملوك على هذه الدعوة ، وكانت البابوية المنتعشة من القوة إلى الحد الذى لا تأبه فيه « بحلف أممى » وأعلن البابا بول الثانى

أن البوديبرادى هرطيق وحرر رعاياه فى يمين ولائهم له ودعا الدول المسيحية إلى خلعه (١٤٦٦) ، وأخذ مارتكاس كورفينوس الهنغارى على عاتقه القيام بهذه المهمة ، فغزا بوهيميا وتوّجه فريق من النبلاء الكاثوليك (١٤٦٩) ملكاً ؛ وعرض البوديبرادى العرش على لاديلاس بن كازيمير الرابع ملك بولنده . وأنهكته الحرب وداء الاستسقاء فمات وله من العمر إحدى وخمسون سنة (١٤٧١) . وتمجده بوهيميا وهى الآن تشيكوسلوفاكيا ، باعتباره أعظم ملوكها بعد شارل الرابع .

ووافق مجلس الدايت على لاديسلاس الثانى وانسحب ماثياس إلى هنغاريا واستغل النبلاء ضعف الشباب فى الملك لكى يوطدوا سلطانهم الاقتصادى والسياسى ، ولينقصوا من عدد نواب المدن والقرى فى مجلس الدايت وأن يعيدوا إلى هوان العبودية الفلاحين الذين حلموا بالمدينة الفاضلة وفر آلاف من البوهيميين إبان هذه الفترة من الثورة والنكسة إلى بلاد أخرى . وفى عام[1] ١٤٨٥ وقع الحزبان الكاثوليكى والأتراكوست معاهـــدة كتفاهورا وتعهدا بالتزام السلم ثلاثين سنة .

---

(١) خلط الفرنسيون بين البوهيميين المبعدين والغجر (Gypsies) الذين وصلوا إبان القرن الخامس عشر إلى أوربا الغربية ، مفترضين مجيئهم من بوهيميا فجعلوا اسم بوهيمى يرادف الغجرى . واسم جيبسى Gypsy تحريف لاسم ايجبشيان أى مصرى ، ويوحى بما زعمته القبيلة فى أنها جاءت من مصر الصغرى . ويرجع برتن نشأتهم إلى الهند . وسموا فى الأراضى البيزنطية باسم الروم — أى الرومان (الشرقيين) ، وأطلق عليهم فى البلقان وأوربا الوسطى بشتقان من آرزيجان (سزيجانى ، زيجر ، زنجارى) . وهى كلمة يشك فى أصلها . وبدأ ظهورهم فى السجلات الأوربية فى أوائل القرن الرابع عشر بوصفهم جماعات متجولة من أصحاب الحرف والموسيقيين والراقصين والعرافين واللصوص — كما كان الاعتقاد السائد . ووصلوا حوالى عام ١٤١٤ إلى ألمانيا وعام ١٤٢٢ إلى إيطاليا وعام ١٤٢٧ إلى فرنسا وعام ١٥٠٠ إلى إنجلترا .

وكانوا يقبلون العماد فى العادة ؛ ولكنهم تساهلوا فى الدين والتزام الوصايا ومم عان ما وقعوا تحت طائلة محاكم التفتيش . وطردوا من إسبانيا (١٤٩٩) ومن الإمبراطورية

وألف أتباع الثلجكى فى بوهيميا الشرقية ومورافيا (١٤٥٧) فرقة مسيحية جديدة ، اسمها كنيسة الأخوة ، ووقفوا أنفسهم على حياة زراعية بسيطة على مبادىء العهـــد الجديد وفى عام ١٤٦٧ أنكروا سلطة الكنيسة الكاثوليكية وقدسوا قساوستهم ورفضوا المطهر وعبادة القديسين وأرهصوا بمذهب لوثر فى التزكية بالعقيدة ، وأصبحوا أمل الكنيسة الحديثة التى تدين بالمسيحية ، وما أن جاء عام ١٥٠٠ حتى بلغ أعضاؤها مائة ألف مسيحى . ولقد قضى على هؤلاء « الإخوان المورافيين » تقريباً فى سورة حرب الثلاثين سنة ، وهم إنما عاشوا بفضل جون كومنيوس ، ولا يزالون موجودين فى جماعات مفرقة فى أوربا وأفريقيا وأمريكا ، وهم يدهشون عالما يتسم بالعنف والشك ، بتسامحهم الدينى وتقواهم [غير المزعومة وولائهم السلمى للمبادئ التى يعتنقونها .

٤ — بولنده
(١٣٠٠ — ١٠٥٥)

إن المحافظة على السلم عسيرة : حتى فى المناطق التى تستمد وحدتها ومناعتها من الحواجز الجغرافية ، ولنلاحظ كيف تكون المحافظة على هذا السلم أعسر كثيراً فى الدول التى تتعرض على أحد حدودها أو أكثر لجيران متعطشين للغزو أبدا ، ينزعون إلى التغرير حيناً وإلى القوة حيناً آخر ، واختنقت بولنده بعض الاختناق إبان القرن الرابع عشر على يد الفرسان التيوتون واللتوانيين والهنغاريين والمورافيين والبوهيميين والألمان وذلك بالضغط على حدودها . وما كاد لاريسلاس « القصير » يصبح الأمير الأكبر لبولنده الصغرى أى الجنوبية (١٣٠٦) حتى واجه حشداً من الأعداء . ورفض الألمان طاعته فى

= الرومانية المقدسة (١٥٠٠ — ١٥٤٨) ومن فرنسا (١٥٦١) . وتنحصر مساهمتهم فى الحضارة إذا استثنينا لباسهم المشرق المنوع الألوان والحلى الخاصة بنسائهم الموسرات : فى الرقص والموسيقى — وقد أوحى تبادلهم فى الألحان بين الحزن والقوة إلى بعض كبار الملحنين والموسيقيين .

بولنده الكبرى أى الغربية واستولى الفرسان على دانزج وبوميرانيا ، وتآمر مارجراف — الحاكم العسكرى — حارس تخوم براندنبرج للقضاء عليه ، وادعى ونسسلوس الثالث صاحب بوهيميا العرش البولندى لنفسه ، وجاهد لاريسلاس فى هذا الخضم من المتاعب بالسلاح والسياسة والزواج ، حتى حد بولنده الصغرى والكبرى فى مملكة متماسكة ، وعمل وتوج نفسه ملكاً فى كراكاو عاصمته الجديدة (١٣٢٠) . ولما مات بالغاً من العمر ثلاثاً وسبعين سنة (١٣٣٣) أوصى بعرشه العصى إلى ابنه الوحيد كازيمير الأكبر .

وقد يستكثر البعض هذا اللقب على كازيمير الثالث ، لأنه كان يؤثر المفاوضة والمصالحة ، على الحرب ، وتنازل عن سيليزيا إلى بوهيميا وعن وميرانيا إلى الفرسان ، وقنع بالحصول على غاليسيا حول لواء ومازوفيا حول وارسو ؛ ووقف حكمه مدى سبع وثلاثين سنة على الإدارة ، فجعل أقاليمه المختلفة تحت ظل قانون واحد ، « يجب ألا تبدو الدولة كوحش كثير الرؤوس » ووحد بتوجيهه ، فريق من الفقهاء القانون والعادات المتفاوتة للولايات فى قوانين كازيمير — وهى المحاولة الأولى فى وضع القوانين البولندية فى مجموعة واحدة . . . وهى مثال على الاعتدال الإنسانى ، إذا قورنت بمجموعات القوانين المعاصرة ، ولقد حمى كازيمير اليهود والروم الأرثوذكس وغيرهم من الأقليات العنصرية والدينية ، وشجع التعليم والفنون وأسس جامعة كراكاو (١٣٦٤) وشيد الكثير من المبانى حتى قال الناس أنه وجد بولنده مبنية من الخشب فأعاد بناءها بالحجر وشجع بحكمته البارعة شئون الأمة الاقتصادية حتى لقبه الفلاحون « بملك المزارعين » ، وأثرى التجار فى ظل السلام وأجمعت الطبقات كلها على تلقيبه « بالكبير » .

ولم يكن له وريث من الذكور ، فترك تاجه لابن أخيه لويس الكبير ملك هنغاريا (١٣٧٠) ، آملا أن يحرز لبلاده حماية ملكية منيعة ونصيباً من الحافز الثقافى الذى جلبته الأسرة الإنجفينية من إيطاليا وفرنسا ، ولكن

لويس حصر اهتمامه فى هنغاريا وأهمل بولنـــده ، وأراد أن يجعل النبلاء المزهوين بأنفسهم على ولاء له فى غيابه بمقتضى « امتياز كاتسا » (١٣٧٤) الذى ينص على الإعفاء من معظم الضرائب واحتكار المناصب العليا . ولما مات نشبت الحرب فى سبيل العرش (١٣٨٢) واعترف مجلس « السيم » أى البرلمان بابنته جادويجا البالغة من العمر إحدى عشر سنة (ملكا) ، ولم يقض على الاضطراب إلا زواج جاجللو أمير أمراء ليتوانيا من جادويجا (١٣٨٦) فوحد بذلك مملكته الشاسعة وبولنده ومنح الحكومة شخصية آمرة .

وكان نمو ليتوانيا ظاهرة كبيرة من ظواهر القرن الرابع عشر فلقد ضم جيديمن وابنه ألجيرد تحت حكمهما الوثنى روسيا الغربية بأسرها : بولتسك وبنسك وسمولنسك وتشرنيجوف وفولهنيا وكيث وبودوليا وأوكرانيا ، وفرح بعض هؤلاء أن وجدوا فى ظل الأمراء الكبار ، عاصما من القبيلة الذهبية التترية التى جعلت روسيا الشرقية التزاما إقطاعيا لها . ولما خلف جاجللو ، ألجيرد (١٣٧٧) كانت الإمبراطورية اللتوانية ، التى تحكم فى ويلنو تمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وتكاد تصل إلى موسكو نفسها . وكانت هذه هى الهدية التى نقلها جاجللو إلى جادويجا أو بعبارة أخرى كانت بولندة بأسرها هى الصداق الذى قدمته إليه ، ولم تتجاوز السادسة عشرة عند زواجها ، ولقد نشأت رومانية كاثوليكية فى محيط أرفع ثقافة للاتينية عصر النهضة ، أما هو فكان فى السادسة والثلاثين من عمره ، أميا كافراً ولكنه قبل العماد واتخذ لنفسه الاسم المسيحى لاديسلاس الثانى ، ووعد أن يدخل ليتوانيا بأسرها فى المسيحية .

وكان ذلك اتحاداً مؤقتاً ، لأن تقدم الفرسان الألمان ناحية الشرق كان يهدد بالخطر دولتى الزوجين معاً . وتحولت « جماعة الإخوان فى الصليب » التى وقفت نفسها فى الأصل على تنصير الصقالبة ، إلى فرقة من المحاربين

الغزاة يأخذون بحد السيف كل ما يستطيعون اختطافه من الأرض من أصحابها سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين وأنشأوا عبودية إقطاعية غليظة على الأراضى التى أفلحها يوما من الأيام مزارعون أحرار . وحكم السيد الأكبر عام ١٤١٠ من عاصمته مادينبرج ، استونيا وليفونيا وكورلند وبروسيا وبوميرانيا الشرقية وبهذا فصل بولنده عند البحر والتقى فى « حرب شمالية » ضروس ، جيش السيد الأكبر وجيش نجاجللو ، ولقد أنبئنا أن كلا منهما كان يتألف من عشرة آلاف من الأشداء — فى موقعة بالقرب من جرونيفولد أوتاتنبرج (١٤١٠) وهزم الفرسان ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم أربعة عشر ألف أسير وثمانية عشر ألف قتيل ، بينهم السيد الأكبر نفسه . وأفل نجم جماعة الإخوان فى الصليب منذ ذلك اليوم سريعا حتى تنازلت فى صلح ثورن (١٤٦٦) عن بوميرانيا وبروسيا الغربية إلى بولنده بما فى ذلك ميناء دانزج الحر باعتباره منفذا إلى البحر.

وبلغت بولنده فى عهد كازيمير الرابع (١٤٤٧ — ٩٢) أقصى اتساعها وذروة قوتها وأوج فنها . ومع أن كازمير كان أميا ، إلا أنه ختم كراهة الفروسية للقراءة والكتابة ، بأن منح أولاده تعليما كاملا . وخلفت الملكة جادويجا وهى تحتضر ، جواهرها للإنفاق على إعادة افتتاح جامعة كراكاو — وهى التى قدر لها أن تعلم فى القرن التالى كوبرنيكوس . وتوسل الأدب إلى جانب الفلسفة والعلم باللغة اللاتينية ، وكتب جان ولوجوز كتابه الكلاسى « تاريخ بولنده » (١٤٧٨) ودعا عام ١٤٧٧ فيت ستوس النورمبرجى إلى كاراكاو ، فمكث فيها سبع عشرة سنة ، وبلغ بالمدينة مكاناً رفيعاً فى فن ذلك العصر ، ولقد نقش لكنيسة سيدتنا مائة وسبعة وأربعين مقعداً للمرتلين ، ومذبحاً كبيراً ، وهو أربعون قدماً فى ثلاثة وثلاثين مع ضريح مركزى للقيامة ، وهو فى روعة صورة تيتيان ومع ثمانى عشرة صورة جدارية تقص حياة مريم وطفلها — وهى صور

جدارية جديرة — وإن كانت فى الخشب — بأن تضارع الأبواب البرونزية التى حققها غيبرتى لموضع العماد الفلورنسى قبل ذلك بقرن . وحفرستوس لكتدرائية كراكاو مدفنا فخماً من المرمر الأحمر المزرقش لكازيمير الرابع ؛ وباغ النحت القوطى بهذه الآثار فى بولنده أوجه ونهايته . أما فى عهد ابن كازيمير ، وهو سيجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) فقد اتخذ الفن البولندى ، لوثرية عصر النهضة الإيطالية الذى تسرب فى ألمانيا ، وهكذا بدأ عصر جديد .

الفصل العاشر

المد العثمانى

(١٣٠٠ – ١٥١٦)

١ – الازدهار الثانى فى بيزنطة ١٢٦١ – ١٣٧٣ .

أعيدت الإمبراطورية البيزنطية بلا إراقة دماء فى ظل أسرة بلايولوجيا جديدة عام ١٢٦١ ، وبقيت برغمها حوالى قرنين من الزمان وانتقص من أطرافها تقدم المسلمين فى آسيا وأوربا ، وتوسع الصقالبة فى مؤخرتها وتناثر الأجزاء المفرقة التى استقلت عنها على يد أعدائها المسيحيين الذين استباحوا القسطنطينية عام ١٢٠٤ — النورمانديين والبندقيين والجنوبيين . وتخلفت الصناعة فى مد الإمبراطورية ، ولكن منتجاتها كانت تحمل على سفن ايطالية لا تدفع إيراداً للخزانة . ولم يبق من الطبقة الوسطى كثيرة العدد إلا بقية وفوقها نبلاء مترفون ، ومطارنة ذوو ملابس فضفاضة ، لم يتعلموا شيئاً من التاريخ ونسوا كل شىء اللهم إلا امتيازاتهم . وتحتهم طبقات من من رهبان مشاغبين خلطوا التقوى بالسياسة ، وملاك مزارعون هبطوا إلى مستأجرين كما هبط الفلاحون المستأجرون إلى عبيد أرض وحلم العمال اليدويون بمدينة فاضلة تقوم على المساواة . وطردت ثورة فى سالونيك (١٣٤١) الطبقة الأرستقراطية ، ونهبت القصور وأقامت جمهورية شبه شيوعية حكمت ثمانى سنوات قبل أن تقضى عليها قوات الجيش المسيرة فى فى العاصمة . وظلت القسطنطينية مركزاً زاخراً بالتجارة بيد أن أحد الرحالة المسلمين لاحظ عام ١٣٣٠ « كثيراً من البيوت المهدمة والحقول المبذورة فى داخل أسوار المدينة » ، وكتب السفير الأسبانى روى جونزاله

ده كلافيجو حوالى عام ١٤٠٩ يقول : « فى كل مكان فى أنحاء العاصمة توجد القصور العظيمة والكنائس والأديرة ولكن معظمها أطلال » . فقد هجر المجد ملكة البوسفور .

وفى وسط هذا الاضمحلال السياسى امتزج التراث اليونانى النفيس أبداً فى الفلسفة بالتقاليد البيزنطية الشرقية فى العمارة والتصوير ليؤلف الأنشودة الثقافية للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ولبثت المدارس تشرح أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقى ، وإن تحاشوا أبيقور باعتباره ملحداً ، ونقح العلماء النصوص الكلاسية وذيلوها بالحواشى . وصنف ماكسيموس بلانوديس المبعوث البيزنطى إلى البندقية « مجموعة الشعر اليونانى » وترجم الآثار الكلاسية اللاتينية إلى اليونانية وأعاد بناء جسر ثقافى بين بيزنطة وإيطاليا وتوضح سيرة تيودوروس ميتوتشيتيس هذه النهضة الباليولوجية . فلقد كان كبير وزراء أندرونيقوس الثانى وفى الوقت نفسه من أعلم علماء زمانه وأغزرهم إنتاجا ولقد كتب عنه نيقفورس جريجورس وهو عالم ومؤرخ يقول : « لقد كان يقف جهده كله من الصباح إلى المساء على الشئون العامة ، كأنما لا علاقة له بالدراسة ولكنه يصبح بعد مغادرته القصر وفى الجانب الأخير من المساء مستغرقاً فى الدراسات بدرجة عالية كأنه دارس لا علاقة له البتة بمهمة أخرى » . وقد ألف تيودوروس فى التاريخ والشعر والفلك والفلسفة ، بتفوق لا يضارعه فيه يونانى آخر فى هذا القرن الرابع عشر . وخسر فى الثورة التى خلعت مولاه عن العرش منصبه وداره وماله وألقى به فى السجن ، واعتلت صحته فسمح له أن ينفق أيامه الأخيرة فى دير « المخلص » فى كورا (أى فى الحقول) . الذى زين جدرانه بفسيفساء من أجمل ما فى التاريخ البيزنطى .

واستعادت المناظرة القديمة بين الأفلاطونيين والأرسطيين مكانتها . فدافع الإمبراطور جون السادس كانتاكوزين عن أرسطو ، بينما ظل

أفلاطون إله جمستوس بليثو . ولقد درس هذا الفيلسوف الذى يعد من أشهر السفسطائيين اليونان فى بروسا بأسيا الصغرى ، عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة الزحف العثمانى ودرس على أحد اليهود هناك حكمة الزرادشتيين حتى إذا عاد إلى مسقط رأسه بيلوبونيزس ، وقد عاد إليها اسم موريا — ترك فيما يبدو العقيدة المسيحية . واستقر فى مسترا ، فأصبح قاضياً وأستاذاً فى آن واحد . وكتب عام ١٤٠٠ رسالة تحمل عنوان أفلاطون ، « القوانين » اقترح فيها أن تحل ديانة الإغريق القدماء محل المسيحية والإسلام ، بمجرد تحويل جميع آلهة الأولمب ، ما عدا زيوس إلى مشخصات رمزية لعمليات إبداعية أو أفكار ، ولم يعرف بليثو أن الأديان تولد ولا تصنع . ومع ذلك فقد اجتمع حوله التلاميذ مشغوفين ، وقدر لأحدهم وهو جوهانز بساريون أن يكون الكاردينال الدارس للآثار الكلاسية فى إيطاليا ، ولقد صحب كل من جمستوس وبساريون الإمبراطور جون الثامن إلى فرارا وفلورنسه (١٤٣٨) لحضور المجلس الذى اتفقت فيه الكنيستان اليونانية والرومانية فى علوم الدين وفى السياسة . وفى فلورنسه حاضر جيمستوس عن أفلاطون لصفوة من المستمعين ، وكاد يتأثر عصر النهضة الإيطالية . وهناك أضاف كنية بليثو (الكامل) إلى اسمه ، وأخذ يلعب باسمه جمستوس ومعناه « التام » وأفلاطون وعاد إلى مسترا ولم ينشط فى علوم الدين ، فأصبح كبير أساقفة ومات بالغا من العمر خمسا وتسعين سنة « ١٤٥٠ » .

وكان البعث الفنى ملحوظاً دعودة الفتوة إلى الآداب . وكانت الموضوعات والرسوم لا تزال كهنوتية ، بيد أن لمسة من منظر خلوى أو نسمة من الطبيعة ودفئاً جديداً ينم عنه الخط واللون قد أسبغ الحياة على الفسيفساء بين حين وحين . وفى الفسيفساء التى كشف عنها حديثا ديركورا « مسجد قاهرية الجامع » حيوية دافقة جعلت المؤرخين الغربيين يعترفون

بأنهم يرون فيها تأثيراً إيطالياً جديداً . وتراخت القبضة الكهنوتية عن الصور الجدارية التى حلت محل الفسيفساء ، باهظة النفقة فى زخرف الكنائس والقصور وظهرت رسوم من الخيال الرحب والقصص الدنيوى إلى جانب قصص القديسين . ومع ذلك تشبث صناع الأيقونات بالطراز الموروث القديم ، أشكال ضامرة ووجوه يحرقها ورع طهرى غائبة بصورة أخاذة عن أخلاقيات العصر . وتعرض حينذاك تصوير المنمنمات البيزنطى لانحلال كبير ، بيد أن نسج الرسوم التصويرية بالحرير ظل ينتج روائع لا تنافس فى العالم الغربى ويعود تاريخ ما يسمى « زنار شارلمان » إلى القرن الرابع عشر ، أو الخامس عشر ، ولقد نسج صانع بارع على قاعدة من الحرير المصبوغ بالزرقة صممها فنان ، بخيوط من الفضة والذهب ، مشاهد من حياة مريم والمسيح وقديسين مختلفين . وتحققت آثار رائعة مماثلة فى التصوير على النسيج فى ذلك العصر فى سالونيك والصرب وملدافيا وروسيا .

وعادت اليونان مرة أخرى مركزاً للفن العظيم . وما كاد القرن الثالث عشر يشرف على نهايته حتى كان الفرنجة الذين نثروا على الأماكن الكلاسية القلاع البهيجة قد أخلوا السبيل للقوة البيزنطية ، وفى عام ١٣٤٨ أرسل الإمبراطور جون السادس ابنه عمانويل ليكون حاكماً على المورة ، فأقام مقره المحلى على تل مشرف على إسبرطة القديمة . فوفد على العاصمة الجديدة نبلاء وأعيان ورهبان وفنانون وعلماء وفلاسفة وبنيت أديرة فخمة ، واحتفظت ثلاثة منها فى كنائسها ، ببعض صورها الجدارية التى ترجع إلى القرون الوسطى : ديرا متروبوليس وبريليبتوس من القرن الرابع عشر وبانتاتسا من أوائل القرن الخامس عشر ، وهذه هى أحسن الجداريات فى التاريخ البيزنطى الطويل ، وهى تضارع خير ما أنتجته إيطاليا فى العصر نفسه من الصور الجدارية بدقة رسمها ورشاقة صورها الفياضة وعمق وإشراق ألوانها ، والحق ، أنها تدين

ببعض ما تتسم به من الروعة إلى كيما بووجيوتو أودكشيو — وهم جميعاً يدينون بالكثير للفن البيزنطى .

وعلى الشاطئ الشرقى لبلاد اليونان ، على ارتفاع قمة « جبل أثوس » أقيمت الأديرة فى القرن العاشر ، وظلت تقام هناك فى معظم القرون بعد ذلك فى القرن الرابع عشر بانتوكراتور الفخم ، وفى القرن الخامس عشر دير القديس بول . ولقد نسب إبان فترة التقهقر « دليل يونانى للتصوير » يرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر ، أحسن الجداريات إلى عمانويل بانسيلينوس السالونيكى الذى « أظهر تفوقاً وحذقاً فى فنه حتى وضع على رأس جميع المصورين القدماء والمحدثين » ، وليس من المستطاع التحقق من تواريخ عمانويل وآثاره فقد يرجع إلى القرن الحادى عشر أو السادس عشر ، ولا يستطيع أحد أن يجزم بما صدر عن يده من الصور التى فوق جبل أثوس .

وبينما كان الفن البيزنطى يجتاز هذا الوجد الأخير فى تاريخه أفل نجم الحكومة البيزنطية . فقد اضطرب نظام الجيش واضمحل الأسطول ، وسيطرت سفن جنوه والبندقية على البحر الأسود ، وأخذ القرصان يتجولون فى الأرخبيل اليونانى ، واستولت على غاليبولى (١٣٠٦) فرقة مرتزقة من قطلونية — « وهى الشركة القطلونية الكبرى » — وفرضت الإتاوات على تجارة الدردنيل ، وأنشأت جمهورية من اللصوص فى أثينا (١٣١٠) ، ولم توفق حكومة فى القضاء عليهم وتركوا تحت رحمة شططهم . وانضم البابا كليمنت الخامس عام ١٣٠٧ إلى فرنسا ونابلى والبندقيـــة فى مؤامرة لاستعادة القسطنطينية . وفشلت المؤامرة ، بيد أن الأباطرة البيزنطيين لبثوا سنوات كثيرة يستشعرون الخوف من الغرب المسيحى حتى لم يكن عندهم من النشاط والحمية ما يدفعون به الزحف الإسلامى وما كاد هذا الخوف يتبدد حتى كان العثمانيون على الأبواب .

ولقد اشترى بعض الأباطرة هلاكهم بأنفسهم . فى عام ١٣٤٢ تورط جون السادس كانتاكوزين فى حرب أهلية وطلب العون من أورخان سلطان آل عثمان فأرسل إليه أورخان السفن وساعده فى الاستيلاء على سالونيك ، فما كان من الإمبراطور المعترف بالجميل إلا أن أرسل إليه ابنته تيودورا لتكون زوجة ثانية له ، وبعث إليه السلطان بفرق جديدة تتألف من ستة آلاف جندى . وأخذ جون باليولوج على عاتقه أن يخلعه — فما كان من جون كانتاكوزين إلا أن نهب الكنائس القسطنطينية ليدفع إلى أورخان ثمن عشرين ألف جندى تركى آخرين ووعد السلطان بحصن فى شيرزونيس بتراقيا ، وفى لحظة انتصاره الظاهرى انقلب الشعب عليه وعده خائناً ، وحولته الثورة فى ليلة واحدة من إمبراطور إلى مؤرخ — (١٣٥٥) فاعتزل فى دير ، وكتب تاريخ عصره كمحاولة أخيرة لإرباك أعدائه .

ولم يجد جون الخامس باليولوجس العرش ذلولا ، فذهب إلى روما مستشفعاً (١٣٦٩) ، ووعد ، فى مقابل ما يقدم له من عون ضد الأتراك أن يدخل شعبه فى طاعة البابوية ، وأنكر الكنيسة اليونانية الأورثوذكسية أمام المذبح الكبير للقديس بطرس . ووعد البابا إربان الخامس بأن يمد له يد العون ضد الكفار ، وأعطاه رسائل إلى أمراء العالم المسيحى ، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا منصرفين إلى شئون أخرى . وبدلا من أن تقدم له البندقية المساعدة المنشودة اعتبرته رهينة فى مقابل الديون اليونانية . وأحضر ابنه عمانويل المال المطلوب ، وعاد جون إلى القسطنطينية أفقر مما رحل عنها ، وأنكره شعبه لأنه حنث بعهده للمذهب الأرثوذكسى . وفشل فى محاولة ثانية للحصول على المدد من الغرب ، فاعترف بالسلطان مراد الأول مولى عليه ، ووافق على أن يمد الجيش العثمانى بالمدد العسكرى ، وقدم ابنه الحبيب عمانويل ليكون رهينة على الوفاء بتعهده وهدأت ثائرة مراد فترة ما وتنكب بيزنطة ، وتحول لإخضاع أمارات البلقان .

٢ ـ أمارات البلقان تلتقى بالترك ١٣٠٠ ـ ٩٦

لقد كان القرن الرابع عشر إلى ذلك الوقت بالنسبة لأمارات البلقان بمثابة القمة فى تاريخها . . . وعمل الصقالبة الأشداء فى ولاشيا وبلغاريا والصرب والبوسنة وألبانيا على قطع الأخشاب من الغابات والبحث عن المناجم وفلاحة الأرض ورعى قطعان الماشية وكانوا يحرصون على تربية دوابهم . وحمل الصقالبة والإيطاليون والمجريون والبلغار واليونان واليهود تجارة الشرق والغرب من بحر الأدرياتى إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البلطيق ، وكانت المدن تدر عليهم الرزق كلما ساروا .

وكان الرجل العظيم من الصرب فى هذا القرن هو ستيفن دوشان . ولقد أنجبه والده ستيفن أروش الثالث فى انفلاتة قصيرة عن روابط الزوجية وسماه بهذا الاسم المحبوب دوشا — أى الروح — وتوجه ولياً للعهد حتى إذا جاء ابن آخر شرعى وحمل بدوره ألقاباً محببة ، خلع ستيفن أباه ، وشنقه وحكم بلاد الصرب بيد قوية مدى جيل كامل . وكتب أحد معاصريه عنه يقول : « كان أطول رجال زمانه وأبشعهم منظراً » ، واغتفرت له الصرب كل شىء لأنه شن حرباً مظفرة . فقد درب جيشاً جراراً ، وقاده بحنكة ، وفتح البوسنة وألبانيا وأبيروس وأكارنانيا وأيتوليا ومقدونيا وتساليا ونقل عاصمة ملكه من بلجراد إلى سكبلجة حيث جمع برلمانا من النبلاء ، وناشده أن يوحد ويجمع قوانين ولاياته المختلفة ، وكانت ثمرة ذلك هى : « زابونيك تساد دوشانه» أى « مجموعة قوانين القيصر دوشا » (١٣٤٩) وهى تكشف عن مستوى فى التطور القانونى والعرف المتمدين لا يقل كثيراً عما فى أوربا الغربية ، وأفاد الفن الصربى فى القرن الرابع عشر من هذه النهضة السياسية فى التمويل وربما فى الحافز حتى ضارع الازدهار المعاصر فى القسطنطينية والمورة ، فأقيمت الكنائس الفخمة ، وكانت الفسيفساء فيها أكثر

حرية وحياة مما سمح به الاتجاه الكهنوتى المحافظ فى العاصمة اليونانية . وفى عام ١٣٥٥ حشد دوشان جيوشه للمرة الأخيرة . وسألهم هل يؤثرون أن يسيروا ضد بيزنطة أم ضد هنغاريا . فأجابوا أنهم على استعداد لمتابعته إلى أى مكان يختاره لقيادتهم . فصاح « إلى القسطنطينية » ومرض فى الطريق ومات .

وكانت إمبراطوريته من التنافر إلى حد لا يجمعها غير رجل له ذكاء نافذ ونشاط منظم ، فشقت البوسنة عصا الطاعة ، والتمست لحظة مواتية . فى كنف ستفين ترتكو ، لقيادة البلقان . وحصلت بلغاريا على المرحلة الأخيرة من مراحل عظمتها فى عهد جون الإسكندر . وانفصلت ولاشيا ، التى كانت فى يوم من الأيام جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية (١٢٩٠) وحكمت دلتا الدانوب الشاسعة . وخرجت ملدافيا عن ولائها لهنغاريا (١٣٤٩) . وداهم الترك هذه الدويلات المتنافرة حتى قبل أن يجعل جون الخامس باليولوجس من بيزنطة التزاماً إقطاعياً لمراد الأول . وقاد سليمان الابن المقدام للسلطان أورخان الجيوش التركية لمعاونة جون السادس كانتاكوزين ، فتسلم أو أخذ مكافأة له ، حصن زمبه على الجانب الأوربى للدردنيل (١٣٥٣) ولما هدم الزلزال غاليبولى المجاورة دخل سليمان المدينة العزلاء واستجاب الأتراك المستعمرون لدعوته فعبروا من الأناضول وانتشروا على طول الشاطئ الشمالى لبحر مرمرة وكادوا يبلغون القسطنطينية نفسها وزحف سليمان بجيش متزايد صوب تراقيا واستولى على أدرنة (١٣٦١) . وبعد خمس سنوات جعل منها مراد عاصمته الأوربية . وفى هذا المركز صوب الأتراك ضرباتهم مدى قرن من الزمان إلى إمارات البلقان المنقسمة على نفسها .

وأدرك البابا اربان الخامس مغزى هذا التسلل التركى إلى أوربا فاستنفر العالم المسيحى بأسره لحرب صليبية أخرى . فاتجه جيش مؤلف من الصرب والهنغاريين والولاشيين ، ببسالة صوب أدرنة . وأقاموا عند نهر مارتزا احتفالا بزحفهم الذى لم يلق مقاومة ، وفيما هم يشربون الأنخاب

يعربدون إذا بهم يفاجأون بهجوم ليلى من قوة تركية صغيرة بالقياس إليهم . وذبح كثيرون قبل أن يتمكنوا من حمل أسلحتهم ، وغرق كثيرون آخرون وهم يحاولون الانسحاب عبر النهر وفر الباقون (١٣٧١) . وفى عام ١٣٨٥ استسلمت صوفيا وسقط نصف بلغاريا فى أيدى العثمانيين . واستولوا عام ١٣٨٦ على نيس وعلى سالونيك عام ١٣٨٧ . وأصبحت اليونان بأسرها مكشوفة أمام الأتراك .

وأوقفت بوسنه الصغرى الزحف فى غضون سنة بطولية واحدة . وضم ستيفن توتكو جنوده إلى جنود الصرب بقيادة لازار الأول وهزموا الأتراك فى بلوشنيك (١٣٨٨) . وبعد عام سار مراد غرباً على رأس جيش فيه فرق كثيرة من الجند المسيحيين . والتقى فى قوصوه بحلف من الصرب والبوسنين والمجريين والفلاشيين والبلغار والألبان والبولفريين وادعى فارس حربى إسمه ميلوش كوبيلتش ، أنه آبق فى الخدمة العسكرية وجاسوس واستطاع بذلك أن يشق طريقه إلى خيمة مراد وأن يغتال السلطان فضرب حتى مات . واستثار ابن مراد ووريثه بايزيد الأول الحمية الغضوب فى نفوس الأتراك وقادهم إلى النصر . فأسر الملك لازار وقطعت رأسه وأصبحت الصرب إمارة إقطاعية تدفع الجزية للأتراك ، وأرغم ملكها الجديد ستيفن لازار فتش على إرسال السلاح والرجال إلى بايزيد ، وفى عام ١٣٩٢ انضمت ولاشيا فى عهد جون شيشمان ، إلى قائمة الدول البلقانية التى تدفع الجزية للعثمانيين . ولم تقو على الدفاع غير بلغاريا وبيزنطة .

وفى عام ١٣٩٣ غزا بايزيد بلغاريا . وسقطت ترنوفو بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ودنست الكنائس وأضرمت النيران فى القصور ودعى زعماء النبلاء إلى اجتماع ، ثم أعمل السيف فيهم . فاستصرخ البابا مرة أخرى العالم المسيحى ودعا الملك سيجسمند ملك هنغاريا ، أوربا لحمل السلاح . ومع

أن فرنسا كانت مشغولة بصراع حياة أو موت مع انجلترا إلا أنها أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة كونت نيفير ، وجاء كونت هوهنزلون والسيد الأعظم لفرسان القديس يوحنا مع أتباعهما ، وأحضر أمير بلتين ثلة من الفرسان الباڤاريين ، وأنكرجون شيشمان تبعية الإقطاعية وجاء بجنده ليحارب تحت قيادة الملك الهنغارى .

وسار الجيش المتحد الذى يتألف من ستين ألفاً من الجنود الأشداء عبر الصرب وحاصر الحامية فى نيكوبوليس . وبلغهم التحذير بأن بايزيد فى طريقه ، ومعه جيش من آسيا لرفع الحصار ، فوعد الفرسان الفرنسيون وقد لعبت الخمر والنساء برءوسهم بأن يبيدوا هذا الجيش ، وقالوا مفاخرين لو سقطت السماء على الأرض فسيرفعونها برماحهم ، أما بايزيد فقد أقسم ليربطن جواده بالمذبح الرفيع فى كنيسة القديس بطرس فى روما ووضع ضعف قواته فى المقدمة بخطة حربية بادية الوضوح . فاندفع الفرسان الفرنسيون وسط هذه القوات مستشعرين للنصر ، ثم وسط عشرة آلاف من الانكشارية ثم وسط خمسة آلاف من الفرسان الأتراك ، ثم هجموا مصعدين فى غير تبصر أحد التلال ، وإذا بهم يواجهون وراء القمة مباشرة الجزء الرئيسى من الجيش التركى المؤلف من أربعين ألفا من حملة الرماح . وحارب النبلاء ببسالة وكانوا بين قتيل وأسير ولائذ بالفرار ، وباندحارهم وقع الاضطراب فى صفوف المشاة المتحالفين خلفهم . ومع ذلك فقد كان الهنغاريون والألمان يردون الأتراك على أعقابهم بينما كان ستيفن لازارفتش أمير الصرب يقود خمسة آلاف من . المسيحين ضد الجيش المسيحى وانتصر فى موقعة نيكوبوليس الحاسمة لمصلحة السلطان (١٣٩٦) .

وثارت ثائرة بايزيد عندما رأى الجم الغفير من رجاله صرعى فى حومة القتال ، وعندما سمع ما زعمته الحامية التى أنقذت من أن المحاصرين المسيحيين قتلوا أسراهم من الترك ، فأمر بقتل أسراه البالغين عشرة آلاف

رجل . وسمح لكونت نيفير أن يتخير أربعة وعشرين فارساً فى مقابل الفدية التى يحضرونها . وذبح آلاف من المسيحيين فى مقتلة دموية استمرت من طلوع الشمس إلى فترة متأخرة من المساء ، حتى توسل قواد السلطان أن يخلى سبيل الباقين . وظلت بلغاريا منذ ذلك اليوم إلى عام ١٨٧٨ ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية وبذلك استولى بايزيد على معظم اليونان ، ثم اتجه صوب القسطنطينية .

٣ — السنوات الأخيرة للقسطنطينية ١٣٧٣ — ١٤٥٣

لم تكن هناك حكومة جديرة تماماً بالسقوط كالحكومة البيزنطية . فلم ترسل فرقاً من الجنود إلى الجيوش المسيحية فى مارتزا وقوصوه أونيكوبوليس لأنها فقدت الرغبة فى الدفاع عن نفسها وعجزت عن إقناع اليونان الممعنين فى السفسطة بأن الاستشهاد فى سبيل الوطن عمل مجيد ونبيل ، فقد جهزت اثنى عشر ألف جندى للسلطان عام ١٣٧٩ والفرق البيزنطية هى التى أجبرت بأمر جون السابع باليولوجس مدينة فيلادلفيا البيزنطية بأسيا الصغرى على التسليم للأتراك (١٣٩٠) .

ولما واصل بايزيد حصار القسطنطينين (١٤٠٢) كانت الإمبراطورية البيزنطنية قد انحسرت فى عاصمتها . وسيطر بايزيد على شاطئ بحر مرمرة وتحكم فى الدردنيل وحكم معظم آسيا الصغرى والبلقان تقريباً وتنقل فى أمن بين عواصمه الأسيوية والأوربية . ويبدو أن الساعة الأخيرة للمدينة المحاصرة قد حانت . وكان اليونان المشرفون على الموت جوعاً يلقون بأنفسهم من الأسوار ، ويلجأون إلى الأتراك لكى يطعموا . وفجأة ظهر من الشرق الإسلامى مخلص « كافر » للحدود الأمامية للعالم المسيحى . وهو تيمور الأعرج — أى تيمورلنك الكبير — الذى عزم على أن يضع حداً لنمو القوة العثمانية ووجودها . ولما أخذت حشود التتار تطوى الأرض متجهة إلى الغرب رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وعاد ليعيد جمع قواته فى الأناضول . والتقى التتار والأتراك فى أنقره (١٤٠٢) فهزم

بايزيد ووقع أسيراً وانحسر المد التركى فترة جيل . وبدا أن الله قد ناصر آخر الأمر المسيحيين .

واستعادت بيزنطة بفضل حكم عمانويل الثانى السديد ، معظم اليونان وأجزاء من تراقية . ولكن محمد الأول أعاد تنظيم الجيش التركى وتحول به مراد الثانى من الهزيمة المنكرة إلى انتصارات باهرة . وكان جنود الإسلام لا يزالون ، يستلهمون من اعتقادهم بأن الشهيد فى سبيل الإسلام له الجنة ، وحتى ولولم تكن هناك جنة وحور عين ، فإن فيهم من الإنصاف ما يجعلهم يرون الجمال فى بنات يونان[1] . أما المسيحيون فلم يكونوا على هذا القدر من الأنصاف . فإن اليونان الكاثوليك كانوا يمقتون الرومان الكاثوليك ، وكان الفريقان مكروهين بدورهما . ولما أخذ البنادقة يقنصون اليونان الكاثوليك فى جزيرة كريت ويعملون السيف فى رقابهم انضم البابا أربان الخامس إلى بترارك فى تهنئة أمير البندقية على حمايته للكنيسة الواحـــدة الصادقة (١٣٥٠) ولقد نفر الشعب وصغار القساوسة من كل محاولة لإعادة توحيد المسيحية اليونانية واللاتينية — وصرح أمير بيزنطى بأنه يفضل أن يرى العمامة التركية فى القسطنطينية على القبعة الحمراء لكاردينال رومانى . وكرهت معظم الحكومات البلقانية جيرانها أكثر من كراهيتها للأتراك ، وآثر البعض أن يخضع للمسلمين ، الذين لا يفرضون ضرائب أكثر مما يفرضه الحكام المسيحيون واضطهادهم للهرطقة أقل أو هم لا يضطهدونها على الإطلاق ويسمحون بأربع زيجات .

وفى عام ١٤٢٢ أعاد مراد الثانى الهجوم على القسطنطينية . وأرغمته ثورة فى الولايات البلقانية على رفع الحصار . وسمح لجون الثامن باليولوجس أن يحكم فى سلام نسبى بشرط أن يدفع جزية باهظة للأتراك . وأعاد مراد فتح اليونان وسالونيك ومعظم ألبانيا . وقاومت الصرب ببسالة تحت إمرة

---

(١) أثبتت الوقائع قوة إيمان المسلمين وهو الإيمان الذى جعلهم يطوون رقعة الأرض بالفتوح على الرغم من قلة عددهم وعتادهم وأقام دولتى الفرس والروم . (المترجم)

جورج برانكوفتش ، وألحق جيش موحد من الصرب والهنغاريين تحت إمرة هانياد جانوس الهزيمة بمراد عند كونوفتزا (١٤٤٤) وحكم بارنكوفتش الصرب إلى أن مات بالغاً من العمر تسعين سنة (١٤٥٦) ووقع مراد . بعد انتصارين فى فارنا ووقعة قوصوه الثانية (١٤٤٨) ، صلحاً مع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر باليولوجس وانسحب إلى أدرنه ومات هناك (١٤٥١) .

ولقد جلس محمد الثانى الملقب بالفاتح على العرش العثمانى وهو فى الواحدة والعشرين من عمره . وأيد المعاهدة التى أبرمت مع قسطنطين وأرسل ابن أخيه أورخان ليتعلم (وربما ليكون جاسوساً) فى البلاط البيزنطى ولما تحدت دول إسلامية أخرى سلطانه على آسيا الغربية جعل جنوده يعبرون المضايق وترك ممتلكاته الأوربية تحت إمرة وزيره خليل باشا المعروف بصداقته لبيزنطة . وكان قسطنطين يتحلى بالشجاعة أكثر من الذكاء ، فأبلغ الوزير أنه إذا لم يضاعف المعاش الذى يدفع لرعاية ابن أخى محمد فإن بيزنطة ستجعل أورخان مطالباً بالسلطنة العثمانية . ويبدو أن قسطنطين قد رأى أن الثورة فى آسيا فرصة لإضعاف الأتراك فى أوربا . ولكنه أهمل أن يحافظ على محالفاته فى الغرب ومواصلاته بالجنوب . وعقد محمد الصلح مع أعدائه من المسلمين ومع البندقية وولاشيا والبوسنة وهنغاريا . وعبر ثانية إلى أوربا وشيد حصناً منيعاً على البوسفور مشرفاً على القسطنطينية ، ومن ثم أمن المعبر المكشوف الذى تجوزه جنوده بين القارتين ، وتحكم فى التجارة كلها التى تدخل البحر الأسود . وظل ثمانية أشهر يجمع المواد والرجال . واستأجر صناع المدافع المسيحيين ، ليصنعوا له أكبر مدفع عرف لذلك العهد ، يرمى بقذائف وزنها ستمائة رطل ، وفى يونيه عام ١٤٥٢ ، أعلن الحرب ، وبدأ الحصار الأخير للقسطنطينية ومعه مائة وأربعون ألف رجل .

ودافع قسطنطين بعزم اليائس وجهز جنوده السبعة آلاف بمدافع صغيرة ورماح وقسى وسهام ومشاعل وبنادق ساذجة ترمى قذائف من الرصاص فى

حجم الجوزة ، وكان لا ينام إلا لحظات خاطفة ، وأشرف كل ليلة ، على إصلاح ما يصيب الأسوار من عطب فى غضون النهار . ومع ذلك فإن الحصون القديمة أخذت تنهار أكثر فأكثر تحت وطأة قذائف المنجنيق ومدفعية الأتراك المتفوقة ، وهكذا انتهى تحصين المدن فى القرون الوسطى بالأسوار. وفى التاسع والعشرين من مايو شق الأتراك طريقهم عبر خندق مكتظ بجثث قتلاهم ، ودخلوا كالموج المتلاطم من فوق الأسوار ومخترقين إياها إلى المدينة التى أخذها الفزع من كل جانب ، وضاعت حشرجة المحتضرين فى طبول الموسيقى العسكرية وأبواقها . وحارب اليونان بشجاعة آخر الأمر ، وكان الإمبراطور الصغير فى كل مكان من حومة الوغى ، واستشهد النبلاء الذين كانوا معه عن بكرة أبيهم دفاعاً عنه . ولما أحاط به الأتراك صاح قائلا : « ألا يوجد مسيحى يضرب عنقى » . وخلع عن نفسه رداءه الإمبراطورى وحارب كجندى عادى واختفى فى طريق جيشه الصغير ، ولم يسمع عنه شىء قط بعد ذلك .

وقتل المنتصرون الألوف ، حتى توقفت كل محاولة للدفاع . ثم بدأوا النهب والسلب الذى يجنح إليه الظافرون والذى طال تعطشهم إليه ، وأخذ كل بالمغ ينتفع به فى العمل غنيمة ، واغتصبت الراهبات كغيرهن من النسوة فى ثورة من الشهوة لا تعرف التمييز ، ووجد السادة والخدم من المسيحيين بعد أن زال عنهم الكساء الذى يدل على مكانتهم ، أنفسهم متساوين فجأة فى العبودية التى لا تمييز فيها وكبح جماح النهب والسلب هوناً ما ، فعندما رأى محمد الثانى رجلا مسلحا تدفعه عاطفته الدينية يتلف الممر الرخامى لكنيسة القديسة صوفيا ، ضربه بسيفه الملكى الأحدب ، وأعلن أن كل المبانى يجب أن تصان لتكون غنيمة ينظمها السلطان . وحولت كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد بعد التطهير المناسب فأزيلت عنها كل الأمارات المسيحية ، وطليت فسيفساؤها بالبياض ونسى ما كان عليها خمسمائة سنة ، وصعد مؤذن فى نفس اليوم الذى

سقطت المدينة فيه أو فى يوم الجمعة التالى له إلى أعلى برج من أبراج أيا صوفيا ودعا المسلمين للصلاة فيها جماعة لله الناصر ؛ وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة فى أشهر مزار فى العالم المسيحى .

وهز الاستيلاء على القسطنطينية كل عرش فى أوربا . فقد سقط الحصن الذى طالما حمى أوربا من آسيا أكثر من ألف سنة ، فإن القوة والعقيدة الإسلاميتين اللتين أمل الصليبيون فى ردهما إلى داخل آسيا ، قد شقتا الآن طريقهما على جثة بيزنطة ، وعبرتا البلقان إلى أبواب هنغاريا ؛ ورأت البابوية ، التى حلمت بإخضاع جميع المسيحيين اليونان لحكم روما ، بفزع سرعة تحول الملايين من سكان جنوب شرقى أوربا إلى الإسلام . وأصبحت طرق التجارة التى كانت مفتوحة فى يوم من الأيام للسفن الغربية فى يد أجنبية ، تفرض عليها المكوس فى وقت السلم أو تسدها المدافع فى وقت الحرب ، وهجر الفن البيزنطى موطنه ولجأ إلى روسيا . بينما اختفى تأثيره فى الغرب بالقضاء على عزمه . وأخذت هجرة العلماء إلى إيطاليا وفرنسا ، التى كانت قد بدأت عام ١٣٩٧ ، تزداد وتثمر فى إيطاليا الدعوة إلى إنقاذ اليونان القديمة . وإذا أخذنا بوجه من الوجوه فإنه لم يضع شىء ، إلا أن الموتى قد ماتوا . فقد أتمت بيزنطة دورها ، وأسلمت مكانها ، فى موكب الإنسانية الذى يتألف من البطولة والقتل ومن النبل والخسة .

٤ – هانيادى جانوس (١٣٨٧ – ١٤٥٦)

وكان سكان هنغاريا البالغ عددهم حوالى سبعمائة ألف فى القرن الرابع عشر مزيجاً من المجر والبانونيين والسلوفاك والبلغار والخزر والباتزيناك والكومان والسلافونيين والكرواتيين والروس والأرمن والولاشيين والبوسنويين والصرب . والخلاصة أن أقلية من المجر كانت تحكم الأغلبية من الصقالبة .. وبدأت تتكون فى المدن الناشئة إبان القرن الرابع عشر طبقة وسطى تجارية وأخرى من عمال

الصناعة — ولما كان هؤلاء . فى الغالب مهاجرين من ألمانيا وفلاندز وإيطاليا فقد أضيفت خلافات عنصرية إلى الكيان الجنسى المعقد .

وانتهت بموت أندرو الثالث أسرة أرباد المالكة (٩٠٧ — ١٣٠١) ، فقسمت الحرب التى اشتجرت فى سبيل العرش الأمة أكثر مما هى عليه ، ولم يعد السلام إلا عندما جعلت الطبقة العليا من النبلاء الملكية بالانتخاب ، ووضعوا تاج القديس ستيفن على رأس تشارلز روبرت أمير أنجو (١٣٠٨) : فأحضر معه فكرات فرنسية من إقطاع وفروسية وفكرات إيطالية عن التجارة والصناعة فنهض بمناجم الذهب الهنغارية وشجع المشروعات وضرب السكة ، وطهر القضاء ومنح الأمة إدارة مناسبة . وأصبحت هنغاريا فى عهد تشارلز وابنه لويس دولة غربية وذلك رغبة فى الحصول على معاونة الغرب أمام الشرق المتكاثر .

وكتب فولتير « لقد حكم لويس الأول هنغاريا حكما سعيدا أربعين سنة (١٣٤٢ — ٨٢) » وحكم بولنده اثنتى عشرة سنة (حكما غير موفق كذلك) — ولقبه شعبه بالكبير ، الذى يستحقه عن جدارة ، ومع ذلك فإن هذا الأمير قلما يعرف فى أوربا (الغربية) لأنه لم يحكم قوماً يستطيعون أن ينقلوا شهرته وفضائله إلى أمم أخرى . وما أقل الذين يعلمون أنه كان فى القرن الرابع عشر ، لويس الكبير فى جبال الكربات » . . . ومزجت أخلاقه بين الثقافة المدنية ومشاعر الفروسية بالحمية والقدرة العسكريتين : ولقد انغمس فى الحروب بين حين وآخر ليثأر لمقتل أخيه فى نابلى وليستعيد من البندقية الثغور الدلماشية التى اعتبرتها هنغاريا زمناً طويلا منافذها إلى البحر ، وليضع حداً للتوسع العدوانى للصرب وتركيا وذلك بجعل كرواتيا والبوسنه وبلغاريا الشمالية تحت سيطرة هنغاريا ونشر بالقدرة والمبدأ مثل الفروسية الأعلى بين النبلاء ، ورفع مستوى الأخلاق والعادات بين شعبه . وحقق الفن القوطى الهنغارى فى عهده وعهد أبيه أجمل آثاره ،

ونحت نيقولاس كولوزفارى وأبناؤه من التماثيل البارعة مثل تمثال القديس جورج الذى يوجد الآن فى براغ . وأسس لويس عام ١٣٦٧ جامعة بيس ، ولكنها اختفت مع الكثير من أمجاد هنغاريا فى القرون الوسطى فى الصراع الطويل المضنى مع الأتراك .

واستمتع سيجسموند الأول وهو زوج ابنة لويس بحكم كان من الممكن أن يؤدى طوله (١٣٨٧ — ١٤٣٧) إلى وضع سياسة طويلة بعيدة النظر . ولكن أعماله كانت فوق طاقته . فقاد جيشاً جراراً ضـــد بايزيد فى نيكوبوليس ، ولم ينج من الكارثة إلا بحياته . وأدرك أن الزحف التركى قد أصبح أخطر مشكلات أوربا ، وبذل عناية فائقة وأموالا لا تكفى لتحصين الحدود الجنوبية ، وشيد عند ملتقى الدانوب بالساف حصن بلغراد الكبير . بيد أن انتخابه لإدارة الإمبراطورية جعله يهمل هنغاريا إبان غيبته الطويلة فى ألمانيا ، كما أن حصوله على تاج بوهيميا قد وسع من مسئولياته دون أن يزيد فى قدراته .

وغزا الأتراك المنتشرون هنغاريا بعد سنتين من وفاته . وأثمرت الأمة فى هذه الأزمة أشهر أبطالها . ولقد حصل هانيادى جانوس على لقبه من قاعة هانيادى فى ترانسلفانيا ، وهو معقل منيع منح لأبيه لحسن بلائه فى الحرب ودرب جانوس — أى جون — على الحرب كل يوم تقريباً فى صباه . وبرز بانتصاره على الأتراك فى سيمندريا ، وجعله الملك الجديد ، لاديسلاس الخامس ، كبير القواد على الجيوش التى تقاوم الأتراك . وأصبح رد العثمانيين على أعقابهم هو الشغل الشاغل فى حياته . فلما دخلوا ترانسلفانيا قاد لمحاربتهم فرقاً حديثة التنظيم تلهبها وطنيته وقيادته . وفى هذه الموقعة بذل سيمون كيمينى ، الأثير فى الأدب الهنغارى ، حياته فى سبيل قائده : وكان قد علم أن الأتراك طلب إليهم أن يفتشوا عن هانيادى ويقتلوه ، فناشد سيمون قائده أن يتبادل الأزياء وإياه فسمح له بذلك .

ومات تحت وطأة الهجمات المركزة عليه ، بينما قاد هانيادى الجيش إلى النصر (١٤٤٢) وأرسل مراد الثانى فرقاً جديدة تتألف من ثمانين ألف رجل إلى الجبهة ، فاستدرجهم مخيلا إليهم أنه يتراجع ، إلى ممر ضيق — لا يسمح إلا لجزء يسير منهم بالقتال دفعة واحدة ، وانتصرت خطة هانيادى مرة أخرى . وأزعجت مراد الثورات فى آسيا ، فسعى إلى الصلح ووافق على دفع تعويض مادى . فوقع الملك لاديسلاس وحلفاؤه هدنة مع مندوبين عن مراد ، هدنة تدعو الفريقين إلى الإخلاد إلى السلم . وأقسم لاديسلاس على الكتاب المقدس ، وأقسم سفراء الترك على القرآن (١٤٤٢) .

ولكن الكاردينال جوليانو شيزاريني ، القاصد الرسول فى بودا ، ما لبث أن وجد الوقت مناسباً للهجوم . فإن مراداً أخذ ينقل جيشه إلى آسيا وبذلك يستطيع أسطول إيطالى يتحكم فى الدردنيل أن يحول بينه وبين العودة واحتج الكاردينال الذى عرف باستقامته وقدرته ، بأن القسم لكافر لا يقيد المسيحى . ونصح هانيادى بالإخلاد إلى السلم ، وأبت الفرقة الصربية أن تحنث بالقسم . ووافق مندوبو الأمم الغربية شيزاريني ، ووعدوا بأن يسهموا بالمال والرجال فى حرب صليبية مقدسة . ولم ير لاديسلاس بدا من التسليم ، وقاد بنفسه هجوماً على مواقع الأتراك . ولم يأت المدد الموعود من الغرب ، وراغ الجيش العثمانى المؤلف من ستين ألف رجل من الأشداء ، من أمير البحر الإيطالى وعبروا عائدين إلى أوربا . وفى فارنه بالقرب من البحر الأسود ألحق مراد هزيمة منكرة بجند لاديسلاس البالغ عددهم عشرين ألفاً (١٤٤٤) وكان حامل اللواء فى الجيش التركى يرفع المعاهدة الممتهنة على رمح . فنصح هانيادى الملك بالانسحاب ولكنه أمر بالتقدم . وناشده هانيادى أن يبقى فى المؤخرة ، بيد

أن الملك اندفع إلى المقدمة ، وقتل . ولم يسترد شيزاريني شرفه ببذل حياته .

وحاول هانيادى بعد ذلك بأربع سنوات أن يرفع البلاء . فشق طريقه عبر الصرب المعادية له ، والتقى بالأتراك فى قوصوه فى معركة حامية استمرت ثلاثة أيام . واندحر الهنغاريون ولاذ معهم هانيادى بالفرار ، واختفى أياما فى بطيحة ماء ، وبرز ، بعد أن أشرف على الموت جوعاً . فعرفه الصرب وأسلموه إلى الأتراك . وأطلق سراحه بعد أن وعد بألا يقود جيشاً على أرض الصرب بعد ذلك .

وفى عام ١٤٥٦ حاصر الأتراك بلغراد . وصوب محمد الثانى على القلعة المدفعية الثقيلة التى هدمت أسوار القسطنطينية . ولم يعرف الأوربيين قبل ذلك قصفاً عنيفاً بالقنابل كهذا . وقاد هانيادى الدفاع بحنكة وشجاعة لم يغفلهما الشعر الهنغارى قط . وآثر المحاصرون ، آخر الأمر خوض المعركة على الموت جوعاً ، فاندفعوا من الحصن ، وشقوا طريقهم إلى المدفع التركى ، وهكذا انتصروا على العدو انتصاراً حاسماً فتخلصت هنغاريا ستين سنة بعد ذلك من أى هجمة إسلامية . وبعد أيام قلائل من هذا الدفاع التاريخى مات هانيادى بالحمى فى خيمته . وتمجده هنغاريا باعتباره أعظم رجالها .

٥ — المد فى عنفوانه (١٤٥٣ — ٨١)

تابع الأتراك فتح البلقان واستسلمت الصرب آخر الأمر عام ١٤٥٩ ، وظلت ولاية تركية إلى عام ١٨٠٤ . واستولى محمد الثانى على كورنثة بعد أن حاصرها وأثينا دون أن يرفع رمحاً (١٤٥٨) ومنح الفاتح ، مثله فى ذلك مثل قيصر ، الأثينيين شروطاً سهلة احتراماً لأسلافهم وأبدى اهتماماً ينم عن الثقافة بالآثار الكلاسية وحق له أن يبتهج ، لأنه لم ينتقم من الصليبيين فحسب وإنما ثأر لوقعة مرثون أيضاً . وقبلت البوسنه ، التى

لقبت عاصمتها وثغرها راجوسه بأثينا الصقلية لمظهرها الثقافى ، الحكم التركى عام ١٤٦٣ وقبلت الإسلام فى يسر أذهل الغرب .

وكان أشجع غرماء الترك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر هو اسكندر بك الألبانى . واسمه الحقيقى جورج من كاستريوتا ، ولعله كان من أسرة صقلية متواضعة ، ولكن الأساطير المحببة لشعبه تجعله من أسرة ملكية أبيروسية وتسبغ عليه شباباً مغامراً . ولقد أنبئنا أنه قدم فى صباه رهينة لمراد الثانى ، وأنه نشأ فى بلاط العثمانيين بأدرنة . وأحب السلطان فيه الشجاعة والاحتيال حتى عامله كأحد أبنائه وجعله ضابطاً فى الجيش التركى . ودخل فى الإسلام وسمى بهذا الاسم اسكندر بك — أى الأمير اسكندر — وبعد أن قاد الأتراك فى وقائع كثيرة ضد المسيحيين ندم على ارتداده عن المسيحية واحتال للفرار . وأنكر الإسلام ، واستولى على العاصمة الألبانية كروجا من حاكمها التركى وأعلن العصيان (١٤٤٢) وأرسل محمد الثانى الجيش تلو الجيش لمعاقبته ، فهزمها جميعها اسكندر بك بسرعة تحركاته العسكرية وبراعته فى المراوغة وشغل محمد بحروب أكبر ، فمنحه هدنة عشر سنوات (١٤٦١) . ولكن مجلس شيوخ البندقية والبابا بيوس الثانى أقنعوا اسكندر بك بأن يخرج على الهدنة ويواصل الحرب (١٤٦٣) . وتوعد محمد المسيحيين باعتبارهم كفاراً حانثين بوعودهم وعاد إلى حصار كروجا . وأبلى اسكندر بك بلاءاً حسناً فى الدفاع عنها مما اضطر السلطان إلى رفع الحصار مرة أخرى ، وبين حطام النصر مات اسكندر بك (١٤٦٨) واستسلمت كروجا عام ١٤٧٩ ، فأصبحت ألبانيا ولاية تابعة لتركيا ؟

وفى الوقت نفسه ابتلع محمد الذى لا يشبع الموره وأطرابزنده ولسبوس ونجروبونت (أثيوبيا القديمة) والقرم . وفى عام ١٤٧٧ عبر جيش من

جيوشه الأيزونزو وخرب الجانب الشمالى الشرقى لإيطاليا على مسيرة اثنين وعشرين ميلا من البندقية وعاد إلى الصرب محملا بالغنائم . وسلمت البندقية التى استولى عليها الفزع والتى حاربت طويلا دفاعاً عن ممتلكاتها فى بحرى ايجه والأدرياتى ، بكل حق لها فى كروجا وسكوتارى ، ودفعت تعويضاً مقداره عشرة آلاف بندقى[1] . أما أوربا الغربية التى فشلت فى معاونة البندقية ، فقد أنكرت عليها أن تبرم وتحافظ على الصلح مع الكافر . ووصل الأتراك بذلك إلى الأدرياتى ، ولم يعد هناك ما يفصلهم عن إيطاليا وروما والفاتيكان ، غير جانب ضيق من البحر ، عبره قيصر بقارب صغير . وفى عام ١٤٨٠ أرسل محمد جيشاً عبر هذا الجانب الصغير لمهاجمة مملكة نابولى . واستولى على تورنتو فى يسر ، وأعمل السيف فى نصف عدد السكان البالغ اثنين وعشرين ألف نسمة ، واسترق الباقين وشطر أحد كبار الأساقفة نصفين . وأصبح مصير المسيحية ووحدانية الزوجة معلقاً فى كفة ميزان . وأنهى فيرانت ملك نابولى حروبه مع فلورنسه ، وأرسل خير فرقة لاستعادة تورنتو . وكان محمد قد ورط نفسه فى حصار رودس ومات أثناء المغامرة ، وظلت رودس مسيحية إلى عهد سليمان ورفع الأتراك قبضتهم عن تورنتو وعادوا إلى البانيا (١١٨١) . وتوقف المد العثمانى عن السير لحظة .

٦ — النهضة الهنغارية (١٤٥٦ — ٩٠)

فى نصف القرن الذى ظفر فيه هانيادى لهنغاريا بالأمن ، قاد ابنه ماتياس كورفينوس بلاده إلى أوجها التاريخى . وكان فى السادسة عشرة من عمره

---

(١) الدوقات هى البندقى ، عملة أجنبية قديمة تنسب إلى البندقية وتستعمل أيضا عياراً للذهب .

فقط عند جلوسه على العرش ، ولم يكن فيه سمت الملوك ، إذ كانت ساقاه قصيرتين -- بالقياس إلى جذعه ، ولا يبدو طويل القامة إلا إذا امتطى صهوة جواد ، ومع ذلك فقد كان له صدر مصارع وذراعه وقوته وإقدامه ، وبعد تتويجه بوقت غير طويل تحدى إلى مبارزة فردية فارساً ألمانيا ضخم الجثة عظيم القوة ، صرع فى جولة واحدة فى مدينة بودا جميع منافسيه ، وتوعد ماتياس غريمه بأن يشنق إذا أخفق فى المبارزة بكل ما أوتى من عزيمة وبراعة . وأكد المؤرخون الهنغاريون بأن الملك الشاب وقد حفزه هذا المأزق العصيب قضى على العملاق قضاء مبرماً . وأنضجت الأيام ماتياس حتى أصبح جندياً باسلا وقائداً محنكا ، فهزم الأتراك كلما التقى بهم ، واستولى على مورافيا وسيليزيا ولكنه أخفق فى فتح بوهيميا وخاض أربعة حروب ضد الإمبراطور فريدريك الثالث ، وأخذ فينا وألحق بها النمسا (١٤٨٥) ، وكانت الإمبراطورية النمساوية الهنغارية فى الواقع هنغارية .

وجعلت انتصاراته الملكية متفوقة على طبقة النبلاء بعض الوقت ، وكانت مركزية الحكم هنا كما كانت فى غرب أوربا طابع العصر ، وضارع بلاطه فى بودا وفى القصر الملكى فى فيسجراد أية أبهة ملكية وجدت فى ذلك العهد ، وأصبح كبار النبلاء خدامه ، واشتهر سفراؤه بفخامة أرديتهم وخدمهم وحشمهم ، وكانت دبلوماسية ماتياس ماكرة غير مترددة ، ودودة سخية ، فقد اشترى بالذهب ما يكلف ضعفه بالحرب ، ووجد فى الوقت نفسه الوقت والحماسة لإصلاح كل إدارة فى الحكومة ؛ وليعمل بنفسه كإدارى يقظ وقاض إمبراطورى . وأخذ يتجول متخفيا بين أفراد الشعب والجند والمحاكم ، فاختبر لتوه سلوك موظفيه ، وأصلح من شأنهم بالمنافسة والعدل وبغير محاباة أو خوف وعمل ما يستطيعه لحماية الضعيف من القـــوى ، والفلاحين من سادتهم المغتصبين . وبينما استمرت الكنيسة تزعم أن البلاد ملك بابوى ، فإن ماتياس قد بين ونظم تعيين الأساقفة واستمتع بحماسته عندما

عين صبيا إيطاليا فى السابعة من عمره كبير أساقفة هنغاريا فأرسل تجار مدينة فرارا ، رداً على هذه الفكاهة ، إلى كبير الأساقفة الجديد مجموعة من اللعب.

وتزوج ماتياس عام ١٤٧٦ بياتريس أميرة أرجون ، ورحب فى هنغاريا بالروح النابولية المرحة والأذواق الإيطالية المصقولة لحفيدة الفونسو الهمام . وشجع الاتصال بين هنغاريا ونابولى تلك القرابة الأنجوية[1] بين الأسرتين المالكتين ، ولقد تعلم فى إيطاليا كثير من رجال الحاشية فى بودا . وتشبه ماتياس نفسه بالحكام المستبدين لعصر النهضة الإيطالية ، فى نزعاته الثقافية إلى جانب اتجاهه المكيافلى فى الحكم ، وأرسل لورنزو ده مدتشى نقشين بارزين من البرونز صنعها فيروكشيه وأوفد لودوفيكو ألمورو ، ليوناردو دافنشى ؛ ليصور العذراء وطفلها للملك الهنغارى مؤكداً للفنان أنه من القلائل الذين يستطيعون تقدير الصورة العظيمة . وقام فيليبينوليبى بعمل صورة أخرى للعذراء وطفلها وذلك لكورفينوس ؛ وزين تلاميذه القصر الملكى فى إذترجوم بالصور الجدارية ؛ ووضع نحات إطالى تمثالا نصفيا لبياتريس ؛ ولعل الصائغ المشهور ، كارادوسو ، وهو من مدينة ميلانو هو الذى صمم صورة المسيح على الصليب البارعة فى أذترجوم ؛ ونقش بينيدتو داميانو زخارف القصر فى بودا ؛ وشيد إيطاليون مختلفون هيكل الكنيسة الصغيرة على طراز عصر النهضة فى القسم الداخلى من العاصمة :

واتبع النبلاء والمطارنة الملك ، فى رعاية الفنانين والعلماء ، بل إن المدن المشهورة بالتعدين فى داخل البلاد قد وجد فيها من الأغنياء من يرفعون من قدر الثروة ، بالإنفاق على الفن ، وشيدت دور جميلة مدنية ودينية لا فى بودا وحدها ولكن فى فيزجراد وتاتا وأنترجوم وناجيفا وفاك أيضاً ، وزين مئات

---

(١) نسبة إلى أنجو .

من النحاتين والمصورين هذه المبانى . ووضع جيوفانى دلمانا تماثيل مشهورة لهانيادى جانوس وغيره من الأبطال الهنغاريين وتألفت فى كسا ، مدرسة صحيحة للفنانين ، ولقد نقش هناك « المعلم ستفين » وغيره ، للمذبح الكبير لكنيسة القديسة اليزابث ، حظاراً زخرفياً ، تبدو تماثيله الأساسية إيطالية فى صقلها ورشاقتها وجمالها ، ونحت فريق آخر فى الصخر لكنيسة بزترزبانيا نقشاً بارزاً عظيماً ، وهو « المسيح فى بستان الزيتون » ، يدهش من رآه بتفاصيله الدقيقة وتأثيره الدرامى ، وظهرت قوة مماثله فى التعبير والفن فى الصور الهنغارية التى بقيت من ذلك العصر ، مثل ما نجده فى « صورة مريم » تزور اليزابث ، رسمها « المعلم م . س » وهى الآن فى متحف بودابست » ولقد تلف أوضاع كل الفن تقريبا الذى أثمرته تلك المرحاة المشرقة من تاريخ هنغاريا إبان الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر ، وبعض التماثيل يوجد الآن فى اسطنبول ، نقلها إليها الأتراك المنتصرون .

وكانت اهتمامات ماتياس أدبية أكثر منها فنية ، كما كان دارسو الكلاسيات الأجانب منهم والوطنيون محل ترحيب فى بلاطه ، ويحصلون على رواتب كبيرة لوظائف اسمية فى الحكومة . وكتب أنطونيو بونفينى تاريخا لهذا العهد بلغة لاتينية على منوال ليفى ، وجمع جانوس فيتيز ، كبير أساقفة حران ، مكتبة عامرة بالكتب الكلاسية القديمة ، وخصص الأموال لإرسال شباب الدارسين لتعلم اليونانية فى إيطاليا . وأنفق أحد هؤلاء وهو جانوس بانونيوس سبعة أعوام فى مدينة فرارا ، وسمح له بأن يكون فى حلقة لورنزو بفلورنسة ، وأدهش البلاط بعد أن عاد إلى هنغاريا ، بأبياته اللاتينية ومحاضراته اليونانية . وكتب بونفين عندما تحدث بانونيوس باليونانية ، « نعتقد أنه لا بد وأن يكون قد ولد فى أثينا » ولعل إيطاليا وحدها هى التى كان يجد فيها المرء ، مثل هذه الكوكبة من الفنانين والعلماء ويحصلون على معاش لهم فى بلاط ماتياس ، وذلك فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر . وتعد الرابطة

الأدبية للدانوب من أقدم الجمعيات الأدبية فى العالم ، وقد أسست فى بودا عام ١٤٩٧ .

وجمع كورفينوس مثل معاصريه من آل المدتشى الآثار الفنية والكتب وأصبح قصره متحفا للتماثيل والقطع الفنية ، وتذهب رواية إلى أنه كان ينفق على الكتب ثلاثين ألف كرون كل عام ، وهى فى أكثر الأحوال مخطوطات أنفق الكثير على تزيينها ولم يكن مع ذلك مثل فيديريجودا مونتيفلترو يرفض الكتب المطبوعة ، فلقد أسست مطبعة فى بودا عام ١٤٧٣ ، أى قبل دخول الطباعة إنجلترا بثلاثة أعوام . وكانت مكتبة كورفينوس التى ضمت عشرة آلاف مجلد عند وفاة ماتياس ؛ أجمل مكتبات القرن الخامس عشر خارج إيطاليا . ولقد وضعت هذه الكتب فى قصره بمدينة بودا وخصصت لها قاعتان فسيحتان ؛ لهما نوافذ من الزجاج الملون تطل على الدانوب ؛ وكانت الرفوف كثيرة النقوش ؛ والكتب مجلدة فى معظمها برق الغزال وعليها ستائر من المخمل المزركش . ويظهر أن ماتياس قرأ بعض هذه الكتب ، وتوسل بكتاب ليفى على الأقل طلبا للنعاس ، ولقد كتب إلى أحد دارسى الكلاسيات « أيها العلماء ، ما أسعدكم ! إنكم لا تجاهدون فى سبيل المجد المصبوغ بالدم ؛ وفى سبيل تيجان الملوك ؛ وإنما تجاهدون فى سبيل أكاليل الغار التى تتوج الشعر والفضيلة . بل إنكم تستطيعون أن ترغمونا على نسيان ضجيج الحرب » .

ولم تعش السلطة المركزية التى نظمها ماتياس إلا فترة وجيزة بعد وفاته (١٤٩٠) . ولقد بعثت قوة كبار الأمراء وسيطروا على لاديسلاس الثانى ، واختلسوا الموارد التى كان ينبغى أن تنفق على فرق الجيش فانفض الجيش وعاد الجنود إلى دورهم ؛ وبدد النبلاء ، الذين أعفوا من الضرائب ، دخلهم وجهدهم فى حياة معربدة صاخبة ، بينما كان الإسلام يهدد الحدود ، والفلاحون الذين استنزفهم الاستغلال ؛ يتهيأون للثورة . وفى عام ١٥١٤ أعلن مجلس الدايت الهنغارى حربا صليبية على الأتراك ، وعن حاجته لمتطوعين واستجاب

جم غفير من الفلاحين لفداء الصليب إذا لم يجدوا فارقا كبيراً بين الحياة والموت . ولما وجدوا السلاح فى أيديهم ، انتشرت بينهم هذه الفكرة وهى لماذا ننتظر حتى نقاتل الأتراك البعيدين ، فى حين أن النبلاء المبغضين قريبون ؟ وقادهم جندى اسمه جيورجى دوزا فى ثورة عارمة فاكتسحوا هنغاريا بأسرها ، يحرقون جميع القلاع ويقتلون جميع النبلاء الذين يقعون فى أيديهم — رجالا ونساء وأطفالا — فطلب النبلاء النجدة من كل ناحية . . . جنداً نظاميين ومرتزقة ، وفاجأوا الفلاحين غير المنظمين وعذبوا زعماءهم تعذيبا مروعا . ومنع دوزا ومعاونوه الطعام أسبوعين . ثم ربط إلى عرش حديدى محمى بالنار ووضع على رأسه تاج محمى بالنار أيضا ، ووضع فى يديه صولجان محمى بالنار . وسمح لرفاقه المشرفين على الموت جوعا أن ينزعوا اللحم المشوى عن جسده وهو لا يزال حيا يعى . وقد تحتاج النقلة من الهمجية إلى الحضارة قرنا من الزمان ، أما التحول من الحضارة إلى الهمجية فإنما يحتاج إلى يوم واحد .

ولم يذبح الفلاحون لأنهم كانوا لا يعوضون بغيرهم ، ولكن القانون الثلاثى (١٥١٤) يقرر : « أن التمرد الحديث . . . يضع فى كل وقت وصمة الخيانة على كاهل الفلاحين ، ومن أجل ذلك فقد تنازلوا عن حريتهم وأصبحوا خاضعين لسادتهم الملاك فى عبودية دائمة غير مشروطة . . . . وكل نوع من أنواع الملكية يحوزه المالك الإقطاعى ، وليس من حق الفلاح أن يطالب العدل ويحتكم إلى القانون ضد أحد النبلاء .

وبعد ذلك باثنى عشر عاما سقطت هنغاريا فى يد الأتراك .

الفصل الحادى عشر

البرتغال تستهل الثورة التجارية

١٣٠٠ – ١٥١٧

لقد جعلت البرتغال الصغيرة من نفسها فى هذا العصر ، دولة من أغنى وأقوى دول أوربا ، مع أنه لم يكن لها من المزايا الطبيعية غير ساحل يطل على البحر ولم تبلغ هذه المكانة إلا بالعزيمة الخالصة والمغامرة الجسور . ولقد أنشئت الملكية فيها عام ١١٣٩ ، فبلغت حكومتها ولغتها وثقافتها مكانة وطيدة فى عهد أحب حكامها إليها وهو دينيز « العامل » — الإدارى والمصلح والبناء والمعلم ، وداعى الفنون والمكابد الحاذق للأدب والحب . ولقد نضج ابنه أفونسو الرابع بعد حوادث إعدام وقائية ، فأصبح عهده مثمراً ، ربطت فيه التجارة النامية مع إنجلترا ، فى اتحاد سياسى بين الأمتين لا يزال باقياً إلى اليوم . ووجه فونسو ابنه بدرو إلى الزواج من دونا كنستانزا مانويل ، توكيداً لمحالفة رشيدة مع قشتالة الآخذة فى القوة . فاستجاب الابن وتزوجها ، ولكنه استمر على حبه إينيه ده كاسترو ، وهى من أصل ملكى . ولما ماتت كنستانزا ، كانت إينيه عقبة فى سبيل زواج ديبلوماسى آخر لبدرو ، وأمر أفونسو بها فقتلت (١٣٥٥) على مضض . ولقد أورد كامبونز ، الذى يعد ملتن البرتغالى ، هـذه القصة الغرامية المشهورة فى ملحمته القومية ، وهى لوزياد :

وهكذا جاءت جماعة القتلة ضد اينيه . . .
وأنفذ الوحوش سيوفهم فى نهديها الأبيضين . . .

وفى سورة غضب صبغوا باللون القرمزى ؛
ولن يكون هناك انتقام سماوى بعد ذلك مثله .

واحتفظ بدرو بالرغبة فى الثأر ، حتى إذا ورث العرش بعد عامين من هذا الحادث اقتص من القتلة ، ونبش القبر عن جثمان حبيبته وتوجها ملكة ، ثم أعاد دفنها بما تستحقه من مراسيم ملكية . وحكم بقسوة غذتها هذه المأساة .

وثمة قصة أقل شأناً شوهت حكم خلفه . ذلك أن فرناندو الأول فقد رأسه وقلبه فى سبيل ليونورا ، زوجة أمير بومبيرو ، وفك خطبته لأميرة قشتالية ، وتزوج من ليونورا على الرغم من زوجها الذى على قيد الحياة ومن كنيسة قد أهينت . وبعد أن توفى فرناندو (١٣٨٣) ، ادعت أنها نائبة ملك ، وجعلت ابنتها بياتريز الملكة ، وخطبتها إلى جون الأول ملك قشتالة . وثار الشعب لأنه توقع أن يصبح إقطاعاً تابعاً لقشتالة ، وأعلن مجلس نواب اجتمع فى كوامبرا أن العرش البرتغالى انتخابى واختار دون جوًا — جون — ابن بدرو من أبيه ملكاً على البرتغال . وأخذت قشتالة على نفسها ، أن تعيد ملك بياتريز بالقوة ، فحشد جون جيشاً ، واقترض خمسمائة من حملة السهام من انجلترا ، وهزم القشتاليين فى ألجوباروتا ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٣٨٥ — وهو اليوم الذى يحتفل به سنوياً على أنه عيد استقلال البرتغال .

وهكذا افتتح جون الكبير حكمه الذى استمر ثمانى وأربعين سنة ، كما بدأ أسرة — بين افز — التى جلست على العرش قرنين من الزمان . واعترف بالإدارة وأصلح القانون والقضاء ، وجعلت اللغة البرتغالية هى اللغة الرسمية ، وبدأ أدبها فى الظهور . وكان العلماء هنا ، كما كانوا فى أسبانيا ، يستعملون اللغة اللاتينية ، حتى القرن الثامن عشر ، ولكن فاسكو دا لوبيرا كتب باللغة القومية قصة فروسية ، أما ديس دا

جولا (١٤٠٠) التى أصبحت بعد ترجمتها أشيع كتاب غير دينى فى أوربا . وعبر الفن القومى عن نفسه مزدهيا فى كنيسة سانتا ماريا دا فكتوريا ، التى شيدها فى باطلها جون الأول ، تمجيداً لوقعة ألجوباروتا ، وهى تضارع كاتدرائية ميلان فى الحجم ، وكنيسة نوتردام فى باريس ، فى الفخامة المعقدة للركائز والأبراج . وفى عام ١٤٣٦ أضيفت كنيسة صغيرة جميلة التصميم والزخرف تستقبل رفات الملك ابن السفاح » .

ومجد فى بنيه . فخلفه دوارت — إدوارد — وأحسن الحكم مثله تقريباً ووحد بدرو القوانين ، واستهل — هنريك — « هنرى الملاح » الثورة التجارية التى قدر لها أن تغير خريطة الكرة الأرضية . ولما استولى جون الأول على سبته من المغاربة (١٤١٥) خلف هنرى البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة حاكماً على هذا المعقل المنيع ، وهى عند مضيق جبل طارق تماماً . وفتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال والذهب والعاج والعبيد التى يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربى لأفريقيا ، فعزم الشاب الطموح على أن يكتشف تلك الربوع ويضمها إلى البرتغال . فربما قاده نهر السنغال الذى تحدث عنه من أخبروه ، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية ، وبذلك يُفتتح طريق مائى عبر إفريقيا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر — ومن ثم إلى الهند ، ويتحطم الاحتكار التجارى للتجارة مع الشرق ، وتصبح البرتغال دولة كبرى . وقد يدخل سكان الإقليم بعد فتحه فى المسيحية ويحصر الإسلام فى إفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية ؛ ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية . ويبدو أن هنرى لم يفكر فى طريق يدور حول أفريقيا ، ولكن هذا الطريق كان ثمرة جهده .

ولقد أقام حوالى عام ١٤٢٠ فى ساجرس على الطرف الجنوبى الشرقى للبرتغال وأوربا ، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلقة بالمعرفة والمغامرة

البحريتين . وجمع ودرس هناك ، هو ومعاونوه ، وفيهم فلكيون ورسامو خرائط من اليهود والمسلمين فى مدى أربعين سنة تقارير الملاحين والرحالة ، وسيروا إلى البحار المحفوفة بالمخاطر ، سفناً خفيفة ، مزودة بالأشرعة والمجاذيف ، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلا . وكان أحد قباطنة هنرى قد أعاد كشف ماديرة (سنة ١٤١٨) ، التى سبق أن رآها البحارة الجنويون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفّى عليها النسيان ، ولقد طور وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها ، وسرعان ما عوضت غلة من السكر وغيره من المنتجات ، نفقات الاستعمار ، وشجعت الحكومة البرتغالية على الاستجابة لمطالب هنرى إلى المال ولاحظ جزر الآزور على خريطة إيطالية رسمت عام ١٣٥١ ، فأرسل جنزالو كابرال للبحث عنها ، وتحقق مراده ، وبين عامى ١٤٣٢ — ٤٤ ، ضم هذه الجواهر البحرية ، الواحدة بعد الأخرى إلى التاج البرتغالى .

بيد أن أفريقيا هى التى استهوته أكثر من غيرها . ولقد أبحر البحارة القطلونيون والبرتغاليون ، ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربى إلى بوجا دور (١٣٤١ — ٤٦) . ومع ذلك . فإن النتوء الكبير للقارة العظيمة الممتد غربا فى المحيط الأطلسى ، قد ثبط همم البحارة فى الكشف عن الجنوب ، فانسحبوا إلى أوربا متعللين بحكايات عن المواطنين المفزعين ، وعن بحر تشتد كثافة الملح فيه إلى حد لا تستطيع معه أن تشقه أى سفينة ، وعن دلائل تؤكد أن كل مسيحى يجاوز بوجا دور ينقلب إلى زنجى . ولقد رجع القبطان جيليان إلى سامبرس بأعذار مشابهة عام ١٤٣٣ ، فأمره هنرى أن يعيد الكرة ، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضى والبحار جنوبى الرأس المحرم . وأدى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن بوجادور (١٤٣٥) . وأذهله ما رآه من وفرة النبات فى المناطق الاستوائية ، مناقضاً ما قال به أرسطو وبطليموس ، من أن

الصحارى هى التى توجد فقط تحت الشمس المحرقة ، وبعد ذلك بست سنوات أبحر نونوترستاو ، إلى رأس بلانكو ، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء ، الذين سرعان ما عمدوا واستعبدوا ، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون فى المزارع البرتغالية ، وكانت أول نتيجة هامة لجهود هنرى ، هى افتتاح تجارة الرقيق . وزود الأمير بمعونة مالية جديدة . وأبحرت سفنه لتستكشف وتنصر الأهلين فى الظاهر ، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد فى الواقع . وعاد القبطان لانزاروت عام ١٤٤٤ ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً ، وقد شرعوا فى فلاحة أراضى فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية . ولقد وصف معاصر برتغالى اقتناص هؤلاء الزنوج بقوله :

كان رجالنا يهتفون ، « القديسة ياجو ، القديس جورج ، البرتغال » . ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقع عليه أيديهم . وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن ، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم وكل منهم يبذل — قصاراه للنجاة . يقفز بعضهم فى البحر ، ويرى بعضهم أن يختبئ فى أركان أخصاصهم ، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات . . . حيث كان رجالنا يعثرون عليهم . والله الذى يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر فى ذلك اليوم النصر على أعدائهم : وتعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء فى خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال ، ولم يحسب القتلى فى هذا العدد » .

ولم يأت عام ١٤٤٨ حتى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد ، ويجب أن نضيف أن المسلمين فى شمال أفريقيا قد سبقوا المسيحيين فى نشر تجارة الرقيق ، وكان زعماء الزنوج أنفسهم يبتاعون الرقيق من البرتغاليين فى مقابل الذهب والعاج ، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة .

ولقد بلغ دينيز دياز عام ١٤٤٥ الجبل الخصب الداخل فى البحر المعروف بالرأس الأخضر ، واكتشف لانزاروت عام ١٤٤٦ مصب نهر السنغال ،

وعثر كادا موستو عام ١٤٥٦ على جزر الرأس الأخضر . وفى هذه السنة مات الأمير هنرى ، ولكن المغامرة استمرت بالحافز الذى منحها إياه وبالغنم الاقتصادى الذى يمولها . وعبر جواو ده سانتارم خط الاستواء (١٤٧١) . ووصل دو يوجوكاو إلى نهر الكونغو (١٤٨٤) ، وأخيراً شق بارثلميوديار ، بعد نصف قرن من حملة هنرى الأولى ، طريقه وسط العواصف وإغراق السفن ، حتى طاف بأقصى الطرف الجنوبى لأفريقيا (١٤٨٦) . وابتهج عند ما وجد أنه يستطيع بذلك الإبحار شرقا ، فالهند مستقيمة أمامه ، وقد بدت فى قبضته تقريبا ، ولكن رجاله المتعبين أرغموه على العودة ، فندب البحار القاسية التى خلعت قلوب رجاله فأطلق على الطرف الجنوبى لأفريقيا اسم رأس النداب ، ولكن الملك جون الثانى ، رأى الهند بعد الانحناءة أطلق على الموضع اسم رأس الرجاء الصالح .

ولم يعش دياز أو الملك ليريا تحقق الحلم الذى أثار البرتغال بأسرها وهو طريق مائى كامل إلى الهند ، واستشعر الملك عمانويل الغيرة للثروة والتشريف اللذين جلبهما كولمبوس إلى إسبانيا فكلف عام ١٤٩٧ فاسكودا جاما ، أن يبحر حول إفريقيا إلى الهند ، ولقد أبحر القبطان البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما ، وقد أرغمته العواصف أن يتخذ طريقا دائريا ما يقرب من خمسة آلاف ميل فى مائة وسبعة وثلاثين يوما حتى بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم رحل أربعة آلاف وخمسمائة ميل فى مائة وثمانية وسبعين يوما أخرى . تتخللها مئات المخاطر والأهوال حتى بلغ كاليكوت وهى ملتقى رئيسى للتجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فى آسيا ، وألقى مراسيه هناك فى العشرين من مايو عام ١٤٩٨ ، أى بعد عشرة أشهر واثنى عشر يوما من تركه لشبونه ، وما أن هبط إلى البر حتى قبض عليه باعتباره قرصانا ونجا من الإعدام بأعجوبة . وتغلب بشجاعته النادرة ومنطقه الخلاب على ارتياب الهنود فيه وغيرة المسلمين منه وظفر بالترخيص للبرتغاليين

بالتجارة وأخذ معه مقداراً عظيما من الفافل والزنجبيل والقرفة وجوز الطيب والجواهر وترك كاليكوت فى التاسع والعشرين من أغسطس فى رحلة شاقة استغرقت سنة عائداً إلى لشبونة . وهكذا وجد البرتغاليون آخر الأمر طريقا إلى الهند متحرراً من نقل السلع من سفينة إلى أخرى ومن المكوس المفروضـــة على الطرق البحرية والبرية فى إيطاليا عبر مصر وبلاد العرب وفارس . وكانت النتائج الاقتصادية أكثر حيوية لأوربا مدى قرن كامل من تلك التى نجمت عن اكتشاف أمريكا .

ولم يفكر البرتغاليون إلى عام ١٥٠٠ فى محاولة الإبحار غربا لأنهم اعتزلوا بالوصول إلى الهند الحقيقية ، بينما كان الملاحون الإسبان يتخبطون فى جزر الهند المزعومة بالبحر الكاريبى . بيد أن بدرو كبرال وقع على البرازيل فى تلك السنة بعد أن جرفته الرياح عن الطريق الذى سلكه إلى الهند عن طريق إفريقيا ، وفى هذه السنة أيضا أعاد جاسبار كورت ريال اكتشاف لبرادور . وفى عام ١٥٠٣ اكتشف أمريجو فيسبوتشى فى ظل العلم البرتغالى ريوبلاتا وباراجواى ، وعثر ترستاو داكونها على الجزيرة التى تحمل اسمه فى النصف الجنوبى من المحيط الأطلسى . ومع ذلك فقد رأى السياسيون البرتغاليون ، البرازيل قليلة الغناء فى حين أن كل حمولة تأتى من الهند تملأ خزانة الملك وجيوب التجار والملاحين .

واحتفظت الحكومة البرتغالية بالسيطرة الكاملة على التجارة الجديدة ، ما دامت التجارة تحتاج إلى حماية عسكرية صارمة . وكان التجار المسلمون قد وطدوا أقدامهم منذ أمد طويل فى المراكز الهندية ، وانضم إليهم بعض ذوى النفوذ من الهنود فى مقاومة الغزو البرتغالى ، واختلطت إذ ذاك التجارة بالحرب والمال بالدم فى هذه الثورة التجارية العارمة . وأصبح أفونسو ده ألبوكرك أول حاكم على الهند البرتغالية عام ١٥٠٩ وشن هجوما بعد هجوم على المسلمين والهندوس حتى استولى على عدن وهرمز على الساحل العربى

وحصنهما . كما استولى على جوا فى الهند وملقة فى شبه جزيرة الملايو ، ومن ملقة أحضر إلى بلاده غنيمة مقدارها مليون بندقى . وأصبحت البرتغال بفضل تسلحها على هذا النحو سيدة التجارة الأوربية مع الهند وجزر الهند الشرقية مدى مائة وخمسين سنة . ووطد التجار البرتغاليون أقدامهم شرقاً حتى بلغوا مولوكاس (١٥١٢) وابتهجوا إذ وجدوا جوز الطيب والتوابل والقرنفل فى جزر التوابل هذه ألذ طعماً وأرخص ثمناً منها فى الهند . ولم يقنع البوكرك بما حققه فأبحر ومعه عشرون سفينة إلى البحر الأحمر واقترح على ملك الحبشة المسيحى أن يجمعوا قواتهما ليحفرا قناة من النيل الأعلى إلى البحر الأحمر وبذلك يحولان مجرى النهر ويجعلان مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة . وأرغمت المتاعب البوكرك أن يقفل راجعاً إلى جوا حيث مات عام ١٥١٥ . وفى العام التالى فتح دوارت جولهو ، الصين الكوشينية[1] وسيام للتجارة البرتغالية ، وفى عام ١٥١٧ أنشأ فرناو بيرز ده اندراد علاقات تجارية مع كانتون وبيكين .

وأصبحت الإمبراطورية البرتغالية — وهى أول إمبراطورية استعمارية حديثة — أوسع الإمبراطوريات رقعة فى العالم ، لا تضارعها إلا الامبراطورية التى تتكون لأسبانيا فى الأمريكتين . وأضحت لشبونة سوقا تجارية نافقة ، ترسو فى مياهها سفن آتية من بلاد رومانسية بعيدة . ووجد تجار أوربا الشمالية أن تفشل البندقية وجنوة فى الحصول على السلع الآسيوية بأرخص الأسعار . وحزنت إيطاليا على احتكارها المفقود للتجارة الشرقية . وأصيبت النهضة الإيطالية بضربات قاضية على يد كولمبوس وفاسكو دا جاما ولوثر فى جيل واحد ، فضعف أمرها وذبلت ، بينما سبقت البرتغال وأسبانيا ، اللتان سيطرتا على البحار المفتوحة فى الازدهار الدول التى على المحيط الأطلسى .

---

(١) أخص دولة نامية الجنوب فى الهند الصينية الفرنسية .

وانتعش الأدب والفن بهذا المجـد الطريف . وأخذ فرنار لوبس يصف مدى عشرين سنة (١٣٣٤ — ٥٤) « تاريخه » الضخم الذى سرد فيه قصة البرتغال تتدفق فى السرد وقدرة على التشخيص يضارعان ما عند فروسار . واستهل جيل قيسانت الدراما البرتغالية بمسرحيات صغيرة للبلاط وفصول تمثل فى الأعياد العامة (١٥٠٠) وظهرت مدرسة برتغالية فى التصوير ، اتخذت قدوتها فى غلاندرز ولكنها حققت مزاجها ومزاياها الخاصة . وبلغ نوتوجونكالفز شأو مونتانيا وكاد يضارع آل فان ايكس ، فى مجموعة صوره القائمة التى رسمها لدير القديس سانت فنسنت . فإن الصور الجدارية بدائية فى المنظور والنسق ، بيد أن صور الأشخاص الخمسة والخمسين — وأحسنها صورة هنرى الملاح — تبرز الشخصية الفردية ببراعة واقعية . وأراد الملك عمانويل المحدود أن يخلد ذكرى رحلة فاسكودا جاما المظفرة ، فكلف المعمارى جواد القشتالى ، أن يشيد بالقرب من لشبونه ديربلم (١٥٠٠) الفخم على الطراز القوطى المشع . وهكذا دخلت البرتغال فى عصرها الذهبى .

الفصل الثانى عشر

أسبانيا

١٣٠٠ – ١٥١٧

١ – الشهيد الأسبانى : ١٣٠٠ – ١٤٦٩

لقد وجدت أسبانيا فى جبالها وقايتها ومأساتها فى وقت واحد : فقد منحتها أمناً نسبياً من الغزو الخارجى ، ولكنها عوقت تقدمها الاقتصادى ووحدتها السياسية وإسهامها فى الفكر الأوربى . وقد عاش فى ركن صغير من الشمال الغربى شعب نصف بدوى من الباسك وكانوا ينتقلون بأغنامهم من السهول إلى التلال ثم يهبطون إلى السهول مرة أخرى تبعاً لتقلبات الفصول . ومع أن كثيرين من الباسك كانوا رقيق أرض ، إلا أنهم جميعاً زعموا نبل المحتد ، وحكمت ولايتهم الثلاث نفسها تحت السيادة الواهية لقشتالة أو ناقار . وظلت ناقار مملكة قائمة برأسها ، حتى ضم فرديناند الكاثوليكى قسمها الجنوبى إلى قشتالة (١٥٥٥) بينما أصبحت البقية الباقية منها إقطاعاً ملكياً تابعاً لفرنسا . وتملكت أراجون سردينيا منذ عام ١٣٢٦ وتبعتها جزر البليار عام ١٣٥٤ . وصقلية عام ٤٤٠٩ . وزادت ثروة أراجون نفسها بفضل صناعة وتجـارة بلنسية وطركونه وسراقسطة وبرشلونة — وهى عاصمة ولاية قطلونية ضمن مملكة أراجون . وكانت قشتالة أقوى الممالك الأسبانية وأوسعها رقعة . وقد حكمت المدن الآهلة أفيدو وليون وبرجس وبلد الوليد وسلامنكا وقرطبة وإشبيلية وطليطلة ،

وهى عاصمتها ، ولعب ملوكها أدوارهم أمام أكبر عدد من النظارة وفى سبيل أعظم المخاطر فى أسبانيا .

وأصلح ألفونسو الحادى عشر (١٣١٢ — ٥٠) قوانين قشتالة ومحاكمها وحول منافسات النبلاء إلى حروب تشن على المسلمين ، وشجع الأدب والفن ، وكافأ نفسه بخليلة نجيبة . ولقد حملت له زوجته ابناً شرعياً واحداً ، نشأ فى ظروف غامضة وإهمال وحقد وأصبح فيما بعد بدرو الغشوم ومن الواضح أن اعتلاءه على العرش ولما يناهز الخامسة عشرة (١٣٥٠) جلب اليأس لأبناء الفونسو التسعة غير الشرعيين ، فقد أقصوا جميعاً عن البلاد ، وأعدمت أمهم ليونورا ده جزمان ، ولما جاءت عروسه الملكية بلانش البوربونية من فرنسا من تلقاء نفسها ، تزوجها وأنفق ليلتين معها ثم أمر أن يدس لها السم متهماً إياها بالتآمر (١٣٦١) وتزوج عشيقته ماريا ده باديلا ، التى تؤكد الأسطورة أن جمالها بلغ من الخلابة حداً ، جعل فرسان البلاط يشربون بنشوة ماء اغتسالها . وكان بدرو محبوباً فى الطبقات الدنيا التى أيدته إلى النهاية المريرة ، ولكن المحاولات المتكررة من اخوته غير الأشقاء لإقصائه عن العرش ، قد دفعته إلى مجموعة من الدسائس والقتل وانتهاك الحرمات ، تقف فى وجه كل حكاية وتلطخها بالدم . واستطاع هنرى التراستامارى ، أكبر أبناء ليونورا أن ينظم ثورة موفقة ويقتل بدرو بيديه ويصبح هنرى الثانى ملك قشتالة (١٣٦٩) .

ولكننا نظلم الأمم إذا حكمنا عليها من ملوكها ، لأنهم اتفقوا مع مكيافلى فى أن الأخلاق لم تجعل للملوك . وبينا نجد الحكام يتلهون بالقتل الفردى أو المتخذ صفة القومية ، فإن الشعب الذى بلغ عدده عشرة ملايين عام ١٤٥٠ ، هو الذى أنشأ حضارة اسبانيا ، ومع أنهم كانوا يعتزون بنقاء أرومتهم إلا أنهم كانوا مزيجاً غير ثابت من الكلت والفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والقوط الغربيين والوندال والعرب والبربر واليهود ، وعند سفح الكيان

الاجتماعى قليل من العبيد ، وطبقة من الفلاحين ظلوا رقيق أرض إلى عام ١٤٧١ ، وفوقهم العمال اليدويون والصناع وتجار المدن ، وفوق أولئك وهؤلاء الفرسان (caballeros) فى طبقات رفيعة من الشرف ، والنبلاء الذين يعتمدون على الملك (أبناء الأسر العريقة bidalgos) والنبلاء المستقلون (proceres) وإلى جانب هؤلاء المدنيين طبقات الكهنوت تبدأ من قساوسة الأبروشيات فالأساقفة ورؤساء الأديرة وتنتهى برؤساء الأساقفة والكرادلة . ولكل مدينة مجلسها البلدى (conseijo) وهى ترسل مندوبين عنها ، ينضمون إلى النبلاء والمطارنة فى المجالس الإقليمية والقومية ، والأصل النظرى أن مراسيم الملوك تتطلب موافقة هذه المجالس لتصبح قوانين . ونظمت الأجور وشروط العمل والأسعار ومعدل الفائدة على الأموال ، المجالس البلدية أو النقابات . وتعثرت التجارة بسبب الاحتكارات الملكية وبالمكوس الحكومية التى تفرضها الدولة أو الأقاليم على الواردات والصادرات وتنوع الموازين والمقاييس وبالعملات المتدهورة وقطاع الطرق وقرصان البحر الأبيض المتوسط ورفض رجال الدين للحساب واضطهاد المسلمين — الذين غذوا معظم الصناعة والتجارة بالقوة البشرية — واليهود ، الذين كانوا يدبرون شئون المال . وافتتح مصرف حكومى فى برشلونة (١٤٠١) بضمان حكومى لودائع المصرف ، وصدرت صكوك للتعامل ، وأنشئ تأمين بحرى قرابة عام ١٤٣٥ .

ولما كان الإسبان يجمعون فى أرومتهم بين الأصول السامية والأصول المناهضة للسامية ، لذلك احتفظوا بحرارة إفريقيا فى دمائهم ، وكانوا يميلون مثلهم فى ذلك مثل البربر ، إلى الوداعة والعنف فى القول والعمل فهم سورة وفى عقولهم تطلع وفضول ، وهم جد أغرار ويؤمنون بالخرافة إلى حد مخيف واحتفظوا باستقلال للروح وكرامة للشجاعة حتى فى النكبات والفقر . كانوا يحبون اقتناء المال ولقد فطروا على ذلك ، ولكنهم لم يحتقروا الفقراء ولم

يلعقوا نعال الأغنياء . واحتقروا العمل وتقاعسوا عنه ، بيد أنهم احتملوا الشدائد برباطة جأش ، كانوا كسالى ومع ذلك غزوا نصف العالم الجديد . وظمئوا إلى المغامرة والعظمة والفروسية ، وكانوا يستمتعون بالمخاطر ولوكانت بالتفويض فحسب ، فإن مصارعة الثيران ، وهى من آثار كريت وروما كانت قد أصبحت لعبة قومية تقليدية رسمية زاخرة بالألوان محكمة ، تعلم الشجاعة والبراعة الفنية وسرعة الخاطر . ولكن الإسبان تناولوا مباهجهم بشيء من الكآبة ، وهم يشبهون الإنجليز المحدثين (وعلى خلاف إنجليز عصر اليزابث) .ولقد أضفى جدب التربة وظلال المنحدرات الجبلية على نفوسهم كآبة جارفة ، وكانت أخلاقهم جادة مستقيمة كاملة وهى أحسن كثيراً من المحافظة على صحة أبدانهم ، وكان كل إسبانى مهذباً ، بيد أن القليلين منهم . كانوا مفتولى الأجسام ، وازدهرت صور ألعاب من الفروسية وسط التاذورات التى اكتنفت الجماهير . وأصبحت مسألة الشرف عقيدة ، وكانت النساء فى إسبانيا ربات وسجينات أما زى الطبقات العليا فكان بسيطا فى أيام الأسبوع ويتحول إلى الأبهة أيام الآحاد والأعياد بالحرير الزاهى والقباء المكشكش والملون المخرم والذهب . وكلف الرجال بالعطور والكعوب العالية ، ولم يقنع النساء بفتنتهن الطبيعية فخلبن ألباب الرجال بالبنيقة والمخرمات والخمار يخفى وجوههن واتخذت المطاردة الجنسية آلاف الأشكال وتنكرت فى آلاف الصور ، وجاهدت صنوف الإرهاب الدينى والقوانين الصارمة ومسائل الشرف ، فى الحد من تلك المطاردة ولكن فينوس انتصرت على الجميع ، وزادت خصوبة النساء على غلة الأرض .

وكانت الكنيسة فى إسبانيا حليفا لا ينفصل عن الدولة ، ولم تدخل بابا روما فى حسابها إلا قليلا ، وتقدمت بمطالب كثيرة لإصلاح البابوية حتى عنـــد ما أعطتها اسكندر السادس الذى لا يعترف بالإصلاح ، وفى سنة ١٥١٣ حرم الكاردينال اكزيمينس نشر صكوك الغفران التى قدمها

يوليوس الثانى فى إسبانيا لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، ونتج عن ذلك أن عد الملك رئيسا للكنيسة الإسبانية ، ولم ينتظر فرديناند فى هذا الشأن ، هنرى الثامن ليعلمه ، ولم تكن إسبانيا فى حاجة إلى إصلاح دينى يجعل الكنيسة والدولة أو الدين والقومية شيئا واحداً ، وحصلت الكنيسة على امتيازات مادية كجزء من هذا الاتفاق غير المكتوب فى ظل دولة تعتمد عليها اعتماداً واعيا فى توطيد النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى والعمل على قياد الشعب لها . ولم يكن موظفوها ، حتى الطبقات الدنيا منهم ، يخضعون إلا للمحاكم الكهنوتية . وامتلكت مساحات كبيرة من الأرض ، يفلحها مستأجرون لها ، وكانت تتسلم عشر غلة العقارات الأخرى ، ولكنها كانت تدفع ثلث هذا العشر للخزانة ، ولقد أعفيت من الضرائب علاوة على ذلك . ولعلها كانت أغنى إذا قيست إلى الدولة منها فى أى بلد آخر باستثناء إيطاليا . ومن الواضح أن أخلاق الإكليروس ونظام الأديرة ، كانت فوق مستوى القرون الوسطى ، بيد أن اتخاذ الحظايا قد شاع وسمح به كما حدث فى غير إسبانيا واستمر الزهد فى إسبانيا بينما أخذ ينقرض شمالى جبال البرانس ؛ بل إن العشاق كانوا يجلدون أنفسهم ليذيبوا مقاومة ما فى السيدات من حنان وخفر أو ليحصلوا على شيء من الوجد الماسوشى[1] .

وكان الناس على ولاء شديد للكنيسة والملك ، لأن عليهم أن ينتظموا لمحاربة أعدائهم الألداء المسلمين بشجاعة ونجاح ، ولقد عرض الصراع لتخليص غرناطة على أنه حرب فى سبيل العقيدة المقدسة . فسارت مواكب حاشدة من الرجال والنساء والأطفال ، الأغنياء منهم والفقراء ، أيام الأعياد فى الطرقات صامتين فى حزن أو مرددين الأناشيد ، وأمامهم تماثيل كبيرة تجسم العذراء أو أحد القديسين . واعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأن العالم الروحى هو بيتهم الحقيقية وموطنهم الأبدى . والحياة الدنيا إلى جانبه

---

(١) الماسوشية ضرب من الانحراف الجنسى يقوم على إيلام البدن .

إنما هى شر وحلم مؤقت . وكرهوا المراطقة باعتبارهم خائنين للوحدة والمبدأ القوميين ، ولا اعتراض لهم على إحراقهم ، وهــذا هو أقل ما يستطيعون أن يبذلوه من أجل إلههم الذى انتهكت حرمته ولم تنعم الطبقات الدنيا بشىء من التعليم المدرسى إلا قليلا وهو دينى فحسب . ولما وجد كورتز القوى بين المكسيكيين الوثنيين ، شعيرة تشبه القربان المسيحى — شك بأن الشيطان هو الذى علمهم إياها لكى يضلل الفاتحين .

وشجع على قوة انتشار الكاثوليكية فى أسبانيا تلك المنافسة الاقتصادية بين الأسبان وبين المسلمين واليهود ، الذين كانوا يؤلفون عشر عــدد السكان فى أسبانيا المسيحية . ومن الأمور السيئة فى نظرهم أن يحتل المسلمون غرناطه الخصيبة ، وأكثر من هذا مضايقة لهم أولئك المدجنون — أى المسلمين الذين لم يتنصروا ، الذين عاشوا بين الأسبان المسيحيين والذين أدت براعتهم فى التجارة والحرف إلى حسد شعب تستعبده الأرض استعباداً بدائياً . أما الأسبان اليهود فلم يصفح عنهم قط . ولقد اضطهدتهم أسبانيا المسيحية مدى ألف سنة : فقد أخضعوهم لضرائب مهنية وقروض مغتصبة ولمصادرة الأموال والاغتيال والتعميد الإجبارى ، وأرغموهم على الاستماع إلى العظات المسيحية ؛ وحرضوهم حتى فى معابدهم أحياناً على التنصر ، بينما جعل القانون تهود المسيحى جريمة عقوبتها الإعدام . ودعوا أو ألزموا على الاشتراك فى مناظرات مع علماء الدين المسيحى ، وهم فيها بين اثنتين إما أن تحيق بهم هزيمة فاضحة أو يحصلون على انتصار محفوف بالمكاره . وأمروا هم والموديجار عدة مرات أن يرتدوا شارة مميزة ، وكانت فى العادة دائرة حمراء توضع على الكتف فى أرديتهم وحرم على اليهود أن يستأجروا خادماً مسيحياً ، ولم يسمح لأطبائهم أن يعالجوا المرضى المسيحيين ، ورجالهم الذين يعاشرون امرأة مسيحية يقتلون .

ولقد حرض راهب فرنسسكانى عام ١٣٢٨ فى عظاته بمدينة ستلا من

أعمال ناڤار ، المسيحيين أن يعملوا القتل فى خمسة آلاف يهودى وأن يحرقوا منازلهم ، وفى عام ١٣٩١ أثارت عظات فرنان مارتينيز الجماهير فى كل مركز كبير بأسبانيا ، أن يقتلوا كل من يجدونه من اليهود الذين يرفضون التحول إلى المسيحية . وفى سنة ١٤١٠ تحركت بلد الوليد وغيرها من المدن ببلاغة فيسنت فرر الذى يشبه القديس المتعصب ، فأمرت أن يحصر اليهود و المسلمون أنفسهم فى أحياء معينة — جوديريا أو الباما — تغلق أبوابها من غروب الشمس إلى شروقها وربما كانت هذه العزلة من أجل حمايتهم .

واستغل اليهود كل فرصة للتطور بما اتسموا به من الصبر والعمل والذكاء فتكاثروا وازدهرت أحوالهم حتى تحت وطأة هذه العوائق . وأحب بعض ملوك قشتالة ، أمثال الفونسو الحادى عشر وبدرو الغشوم ، اليهود وعينوا النابهين منهم فى المناصب الحكومية الرفيعة . وجعل الفونسو دون يوسف الأسيجى وزيراً لماليته ، واختار يهودياً آخر هو يوسف ابن وقار طبيباً خاصاً له ، فأساءا استعمال منصبيهما ، واتهما بالتآمر فسجنا وماتا فى السجن . وتكررت الحادثة مع صمويل يوسف أبى لافيسه فقد عين قواما على خزانة الدولة فى عهد بدرو ؛ فجمع ثروة طائلة ؛ فحكم الملك بقتله . وكان صمويل قد شيد قبل ذلك بثلاثة أعوام (١٣٥٧) فى مدينة طليطلة معبداً يهودياً جميلا على بساطته ، على الطراز التقليدى ، وهو الذى حوله فرديناند إلى الكنيسة المسيحية « الترنسيتو » وتحافظ الحكومة عليها اليوم باعتبارها أثراً من الآثار العبرية — الإسلامية فى أسبانيا وكانت حماية بدرو لليهود من سوء طالعهم ، ذلك لأن هنرى أمير تراستامارا — عندما عزله عن الملك ، أعمل الجنود المنتصرون السيف فى ألف ومائتى يهودى (طليطلة ١٣٥٣) ، وتبعت ذلك مذابح أسوأ ، عندما أحضر هنرى

إلى اسـبانيا « الصحاب الأحرار » ، الذين جمعهم دى جيكلان من أوشاب فرنسا . .

وآثر آلاف من اليهود الأسبان التعميد على الفزع من النهب والقتل ، فلما أصبحوا مسيحيين من الناحية الشرعية استطاع هؤلاء المتنصرون أن يرقوا سلم الحياة الاقتصادية والسياسية ، وفى المهن بل وفى الكنيسة ذاتها وأصبح بعضهم من كبار رجال الكهنوت وآخرون من مستشارى الملوك . وأكسبتهم مواهبهم المالية نجاحاً يثير الحسد ، فى جمع الدخل القومى وتدبيره . وأحاط بعضهم نفسه بمظاهر الشرف الأرستقراطى ، وجعل بعضهم نجاحه عدوانياً واضحاً ، ووصم الكاثوليك الغضاب ، هؤلاء المتنصرين بهذا الاسم الفظيع « حلوف العرب المورسكو » (marranos) ومع ذلك فإن الأسر المسيحية التى كانت عراقة نسبها أكثر من مالها ، أو التى كانت تحترم القدرة من الناحية العملية ، قبلت الإصهار إليهم . وبهذه الطريقة ساط الشعب الأسبانى وبخاصة طبقاته العليا ، الدم اليهودى بصورة مادية ملموسة . وكان لفرديناند الكاثوليكى وتوركيمادا قاضى محكمة التفتيش أسلاف من اليهود . وأطلق البـابا بول الرابع على خصمه الذى يحاربه فيليب الثانى ، وعلى الأسبان « أنهم بذرة لا قيمة لها من اليهود والمسلمين » .

٢ ـ غرناطه (١٣٠٠ ـ ١٤٩٢)

وصف ابن بطوطة موقع غرناطة على أنه لا يضارعه موقع مدينة أخرى فى العالم . . . وحولها من كل جانب بساتين وحدائق ومراعى مزهرة وكروم ، وفيها مبانى جليلة . واسمها العربى غرناطه ـ ومعناه غير محقق ؟ ونصرها الفاتحون الأسبان وجعلوه (جراناداً Granada) ومعناه الممتلىء بالحبوب ـ ولعله مأخوذ من شجرة الرمان التى تكثر فيما جاورها . ولم يطلق الاسم على المدينة فقط ، وإنما أطلق على إقليم يضم شريش وجيـان

والمرية ومالقا وغيرها من المدن ، ويبلغ عدد سكانه نحوا من أربعة ملايين نسمة . ونهضت العاصمة ، التى كانت تضم عشر هؤلاء السكان مثل « برج المراقبة » إلى قمة تسيطر على واد رائع ، يكافئ العناية بالرى والزراعة على أساس علمى بمحصولين فى السنة . وقام على حراسة المدينة من أعدائها المحيطين بها سور عليه ألف برج . واتخذت الأرستقراطية قصوراً رحبة جميلة التصميم ، ورطبت نوافير المياه فى الميادين العامة سعير الشمس ، وعقد السلطان أو الأمير أو الخليفة بلاطه فى أبهاء الحمراء الرحبة .

وكانت الحكومة تأخذ سبع غلة الأرض كلها ، وربما أخذت الطبقة الحاكمة مقداراً مماثلا كنفقات للإدارة الاقتصادية والقيادةالعسكرية ، ووزع الحكام والنبلاء بعض مواردهم على الفنانين والشعراء والدارسين والعلماء والمؤرخين والفلاسفة ، وتولوا جامعة سمح فيها لعلماء المسيحيين واليهود أن يكونوا أساتذة وعمداء أحياناً . ونقش على أبواب الكلية خمسة أسطر : « دعائم الدنيا أربعة : علم الحكماء ، وعدالة العظماء ، وصلوات الأبرار ، وأقدام الشجعان » . وأسهم النساء فى الحياة الثقافية بحرية ، ونحن نعرف أسماء بعض العالمات فى غرناطة الإسلامية . ولم يمنع التعليم السيدات مع ذلك ، من تحريض رجالهم ، لا على العواطف العارمة بل على حب الفروسية ومبارزاتها . وقال أحد ظرفاء العصر : « يميز النساء بدقة ملامحهن ورشاقة أجسامهن وطول شعورهن وتموجها ، وبياض أسنانهن ، وخفة حركاتهن التى تسر الناظرين . . . وسحر حديثهن ، وعطر أنفاسهن » وكانت النظافة الشخصية ورعاية الصحة العامة أكثر تقدماً منها فى العالم المسيحى المعاصر . وكانت الأزياء والأخلاق رائعة وزينت المباريات الفروسية أو المهرجانات أيام الأعياد . والأخلاقيات سهلة ، ولم تكن أعمال العنف نادرة بيد أن الكرم والشرف الإسلاميين اكتسبا مدح المسيحيين . فقد قال مؤرخ اسبانى : « لقد اشتهر سكان غرناطة بأنهم أهل

للثقة ، إلى حد أن كلمتهم كان يعتمد عليها أكثر من اعتمادنا على عقد مكتوب » . وبين هذه التطورات العظيمة اعتصر الترف النامي قوة الأمة ودعا التفكك الداخلي إلى الغزو الخارجي .

وما أن دعمت اسبانيا المسيحية ببطء ممالكها وزادت في ثرواتها حتى نظرت بعين العداوة الحسود إلى تلك الإمارة المزدهرة المحاصرة التي تحدت ديانتها المسيحية بأنها شرك كفور والتي قدمت ثغورها ، منافذ خطيرة للدولة من الكفار يضاف إلى ذلك أن تلك الحقول الأندلسية الخصبة قد تعوض كثيراً من فدادين الأرض القاحلة في الشمال . ولم تحتفظ غرناطة بحريتها ، إلا لأن أسـبانيا الكاثوليكية ، قد انقسمت إلى مذاهب وملوك . بل إن الإمارة المعتزة بنفسها وافقت (١٤٥٧) على دفع جزية سنوية إلى قشتالة . ولما أبى أمير مغامر هو على أبو الحسن أن يستمر على دفع رشوة السلام هذه (١٤٦٦) لم يجبره هنري الرابع على الدخول في الطاعة لأنه كان منغمساً في ملذاته . بيد أن فرديناند وإزابيلا سرعان ما أرسلا الوفود بعد اعتلائهما العرش مطالبة بمواصلة دفع الجزية . فأجاب الأمير على بجرأة مهلكة : « قولوا لملوككم إن ملوك غرناطة الذين دفعوا الجزية قد ماتوا وإن سكتنا التي نتعامل بها الآن ليست سوى حداً لسيوف » . ولم يعلم أبو الحسن بأن فرديناند أقوى منه سلاحاً وادعى السخط على غزوات المسيحيين على الحدود فباغت الثغر المسيحي الزهراء واستولى عليها ، وساق أهلها جميعاً إلى غرناطة لبيعهم بيع العبيـد (١٤٨١) فثأر مركيز فارس بنهب المعقل الإسلامي المنيع الحامة (١٤٨٢) وهكذا بدأ فتح غرناطة .

وعمل الحب على تعقيد الحرب . فقد فتن أبو الحسن بإحدى جواريه حتى أن زوجته السلطانة عائشة أثارت الشعب لخلعه عن العرش وتتويج ابنها أبي عبد الله ، الذي عرفه الغربيون باسم (Boabdil) (١٤٨٢) فثر

أبو الحسن إلى مالقة وسار جيش اسبانى لمحاصرة هذه المدينة ، وأبيد كله تقريباً فى ممرات سلسلة جبال أجاركيه ، على يد فرق لا تزال موالية للأمير المخلوع ، وثارت غيرة أبى عبد الله على انتصارات أبيه العسكرية فسار على رأس جيش من غرناطة لمهاجمة قوة مسيحية بالقرب من الأشانة وحارب بشجاعة ، ولكنه هزم وأخذ أسيراً . واشترى خلاصه بأن وعد بمساعدة المسيحيين ضد أبيه . وبأن يدفع للحكومة الأسبانية اثنى عشر ألف دوكات كل سنة . وفى الوقت نفسه نصب عمه أبو عبد الله المشهور بلقب عزغرل « أى الشجاع » نفسه أميرا على غرناطة ، ونشبت حرب أهلية ثلاثية بين الأب والابن والعم على العرش الغرناطى ، ومات الأب واستولى الابن على الحمراء ، وانسحب العم إلى وادى آش **Guadix** حيث حاول مراراً أن يهاجم الأسبان كلما وجدهم وأراد أبو عبد الله أن يقلد عمه فامتنع عن الوفاء بوعده ودفع الجزية وأعد عاصمته لمقاومة الهجوم الذى لا مفر منه .

فوزع فرديناند وايزابلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التى تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها . فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض الزيتون والبرتقال ، وحوصرت مالقة ليمنعوها من تلقى المؤن إلى غرناطة أو إرسالها وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط ، وكانوا يموتون بالمئات من الجوع أو المرض . وأرغمها فرديناند على أن تسلم بلا قيد ولا شرط ، واستعبد الاثنى عشر ألف الذين بقوا من سكانها ، ولكنه سمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه . واستسلم عز زغرل وأصبح إقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة فى أيدى المسيحيين .

وشيد الملكان الكاثوليكيان ، فسطاطاً كاملا لجندهم ، حول القلعة المحاصرة وأطلقوا عليها اسم سانتافيه ، وانتظروا أن يموت أهلوها جوعاً ،

ليجعلا مفخرة الأندلس تحت رحمتهما . وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة ، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد ، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل ، بيد أن فرديناند لما رأى أن خير المحاربين من رجاله يقتلون واحداً بعد واحد ، على أساس خطة الفروسية هذه ، وضع حداً لتلك المبارزة ، وقاد أبو عبد الله قواته فى هجوم يائس ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من سلطان تركيا ومصر ، ولم يتلقوا شيئا ، فقد كان العالم الإسلامى منقسما على نفسه كالعالم المسيحى .

ولم يجد أبو عبد الله بداً من توقيع شروط التسليم التى أسبغت شرفا نادراً على الفاتحين . ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم ، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضاتهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات ، وعند ذاك يؤخذ منهم ما كان يجبيه الحكام المسلمون ، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان ، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا ، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب فى العبور إلى إفريقية الإسلامية .

ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبى عبد الله . وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند (٢ يناير ١٤٩٢) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين ، وسط صفوف المسيحيين ، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التى كان عليه أن يحكمها تابعا لقشتالة ، ومن فوق الصخور الشماء التى عبر عليها ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التى فقدها ، ولا تزال هذه القنة تسمى آخر زفرة للعربى El Ulxtimo Sospiro del Moro وأنبته أمه على بكائه قائلة « ابك كالنساء ملكا لم تحافظ عليه كالرجال » .

ودخل فى الوقت نفسه الجيش الإسبانى بالمدينة . ورفع الكاردينال مندوزا صليبا فضيا عظيما فوق الحمراء ، وركع فرديناند وايزابلا فى ساحة

المدينة شكراً لله الذى أخرج الإسلام من إسبانيا بعد إحدى وثمانين وسبعمائة سنة .

٣ — فرديناند وايزابلا

يعد القرن الذى يقع بين موت هنرى أمير ترستمارا (١٣٧٩) ، واعتلاء فرديناند لعرش أراجون ، فترة ركود لإسبانيا . فقد تعاقبت مجموعة من الحكام الضعفاء وسمحوا للنبلاء بأن يعيثوا فى الأرض فساداً بتنازعهم ، وكانت الحكومة مهملة فاسدة ، ولم يكن هناك رادع للثأر الشخصى ، وكثرت الحروب الأهلية إلى حد أن الطرق لم تكن آمنة للتجارة ، وكثيراً ما احتلت الجيوش الحقول ، حتى اضطر الفلاحون إلى تركها جرداء . ولقد حكم جون الثانى القشتالى فترة طويلة (١٤٠٦ — ٥٤) وكان كلفه بالموسيقى والشعر قد جعله لا يعنى بشئون الدولة ، وتبعه تملك هنرى الرابع الوبيل ، وهو الذى اكتسب لقب انريك العقيم بعدم كفايته الإدارية وعبثه بالعملة وبعثرة الموارد على المقربين الطفيليين . وأوصى بعرشه إلى جوانا ، التى ادعى أنها ابنته ، وأنكر النبلاء الغضاب أبوته وقدرته على الإنجاب ، وأجبروه على أن يستخلف أخته إيزابلا ولكنه أعاد تأكيد بنوة جوانا وحقها فى الحكم عند ما جاءته الوفاة (١٤٧٤) ومن هذا الاضطراب المعطل للمرافق ، صاغ فرديناند وإيزابلا النظام والحكم اللذين جعلا اسبانيا أقوى دولة فى أوربا مدى قرن من الزمان .

ومهد السفراء لتحقيق ذلك بإقناع إيزابلا ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها أن تتزوج ابن عمها فرديناند ، البالغ من العمر سبع عشرة سنة فقط (١٤٦٩) وكان العروسان معا من نسل هنرى أمير ترستامارا ، وكان فرديناند قد أصبح بالفعل ملكا على صقلية ، وإذا مات أبوه يصبح ملكا على أراجون أيضا ، فجمع الزواج لذلك ثلاث دول فى مملكة قوية واحدة ،

وامتنع بول الثانى من إعطاء الوثيقة البابوية المطلوبة لتجعل زواج أبناء الأعمام شرعيا ، وزيفت الوثيقة المنشودة على يد فرديناند وأبيه وكبير أساقفة برشلونة ، وبعد أن تم هذا الصنيع صدرت وثيقة أصيلة عن البابا سكتوس الرابع ، وبقيت صعوبة مادية أكبر هى فقر العروس ، الذى أبى أخوها أن يعترف بالزواج ، وفقر العريس الذى أنهمك أبوه فى الحرب ، انهماكا يجعله لا يستطيع إقامة حفل ملكى ، وبسر محام يهودى طريق السياسة الخالصة ، بأن قدم قرضا مقداره عشرون ألف سولدس سددتها إيزابلا عند ما أصبحت ملكة على قشتالة[1] (١٤٧٤) .

وتحدى حقها فى اعتلاء العرش افرنسو الخامس ملك البرتغال الذى تزوج من جوانا . وحددت الحرب فى تورو النتيجة إذ قاد فرديناند القشتاليين إلى النصر (١٤٧٦) وبعد ذلك بثلاث سنوات ورث عرش أراجون وهكذا أصبحت إسبانيابأ سرها ما عدا غرناطة وناڤار فى ظل حكومة واحدة . وظلت ايزابلا ملكة على قشتالة فقط ، وحكم فرديناند أراجون وسردينيا وصقلية وشارك فى حكم قشتالة واحتفظ لإيزابلا بالإدارة الداخلية لقشتالة ، ولكن المواثيق والمراسيم الملكية كانت توقع منهما معا ، وحملت العملة الجديدة رأسيهما معا . وجعلت صفاتهما الحميدة فرديناند وايزابلا أكثر زوجين ملكيين تأثيرا فى التاريخ .

---

(١) كانت وحدة العملة القشتالية فى القرن الخامس عشر هى المارافيدى النحاسية وكل ١٨٠٧ من هذه العملة تساوى سويلد وآراجونى ، وكل ٢٤ تصبح ريالا فضيا و ٣٧٤ تصبح اكسكود وأودوكات ذهبية وأن تغير سعر هذه العملات يجعل من الصعب أن نفترض المكافئة لها من العملة الحديثة . ولكن لما كان أجر العامل فى اسبانيا إبان القرن الخامس عشر نحوا من ستة مارافيدى يوميا ، فلن تكون مبالغين إذا جعلنا المارافيدى يعادل ٧٦ ٪ من الدولار فى عملة الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ والسويلد ويعادل ١٫٢٠ دولار والريال يعادل ٢٫٢٨ دولار والاسكودو يعادل ٢٥ دولار .

وكانت ايزابلا ذات جمال لا يعادله جمال ، هكذا قال رجال حاشيتها أى انها كان لها نصيب من الجمال ، كانت متوسطة القوام ، ذات عينين زرقاوين وشعر كستنائى يميل إلى الحمرة . ونالت من التعليم حظا أكبر من فرديناند ، وكانت أقل منه ذكاء وأرق حاشية . وكانت تستطيع أن ترعى الشعراء وأن تتحدث إلى الفلاسفة الحذرين ، ولكنها آثرت صحبة القساوسة . واختارت أكثر الأخلاقيين تزمتا ليكونوا أصحاب هدايتها واعترافها . ومع أنها زفت إلى زوج غير أمين فيبدو أنها حافظت على العهود الزوجية الكاملة إلى النهاية ، وعاشت فى عصر مائع كعصرنا إلا أنها كانت نموذجا للخفر . وظلت وسط الموظفين الفاسدين والسفراء المنحرفين صريحة مستقيمة لا يتطرق إليها الفساد . ولقد ربتها أمها على الصرامة فى اتباع السنة والتقوى ، وتوسعت ايزابلا فيهما إلى حد التقشف ، وكانت شديدة قاسية فى القضاء على الهرطقة بمقدار ما كانت رحيمة كريمة فى كل أمر آخر . وكانت الرقة نفسها بالنسبة لأطفالها ، وسند الوفاء لأصدقائها . وبذلت وأعطت فى سـعة للكنائس والأديرة والمستشفيات . ولم تمنعها أرثوذكسيتها من اتهام بعض بابوات عصر النهضة بالخروج على الأخلاق . وتفوقت فى كل من الشجاعة المادية والمعنوية ، ولقد صمدت للنبلاء الأقوياء وأخضعتهم ونظمتهم واحتملت بهدوء أقصى ضروب الحرمان . وواجهت بشجاعة تنتقل منها إلى غيرها أهوال الحرب وأخطارها . ورأت أن من الحكمة أن تحرص على مظهر الملكة أمام الشعب وغالت فى المظاهر الملكية إلى حد البذخ فى الحلل والحلى ، أما فى حياتها الخاصة فقد كانت بسيطة الثياب ، معتدلة فى طعامها وتزجى فراغها بالتطريز الدقيق للكنائس التى تؤثرها . وعملت بضمير حى فى القيام بشئون الحكومة وأخذت على عاتقها المبادأة فى الإصلاحات الرشيدة ونهضت بالقضاء وربما كانت فى ذلك صارمة أكثر من اللازم ، ولكنها صممت على أن ترفع مملكتها من

الاضطراب الذى لا يعرف قانونا إلى سلم يعتصم بالقانون ووضعها المعاصرون الأجانب أمثال باولو جيوفيو وجويشياردين والفارس بايار ، بين أقدر ملوك العصر ، وشبهوها بالبطلات العظيمات فى التاريخ القديم . وقدسها رعاياها ، بينما احتملوا الملك بصبر نافذ .

ولم يستطع أهل قشتالة أن يغتفروا لفرديناند أنه دخيل عليهم — أى أرجونى ورأوا فيه نقائص كثيرة حتى وهم يمجدون انتصاراته باعتباره رجل دولة وسياسيا ومحاربا ووازنوا بين مزاجه الفاتر المتحفظ وبين حرارة الملكة فى عطفه ، وبين انطوائه الحذر وبين صراحتها المستقيمة ، بين تقتيره وكرمها ، بين كزازته فى معاملة معاونيه وبين انبساط يدها بالمكافأة على ما يقدم لها من خدمات ، بين صبواته وبين قناعتها الهادئة ؛ ولم ينكروا عليه إنشاءه لمحاكم التفتيش ولا استغلاله لعواطفهم الدينية كسلاح من أسلحة الحرب ؛ فقد استحسنوا حملته على الهرطقة وفتحه غرناطة وطرده اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، وكان أكثر ما يحبون فيه أقل ما يعجب به الخلف . فلم نسمع احتجاجاً على صرامة قوانينه — قطع اللسان على السب والإحراق حياً على اللواط ولاحظوا أنه يجنح إلى العدالة بل إلى التساهل ، إذا لم يمنع ذلك امتيازاً شخصياً أو يعطل سياسة قومية وأنه يستطيع أن يقود جيشه بشجاعة وبراعة ، وإن آثر مساجلة العقول بالمفاوضة أكثر من منازلة الإنسان فى الحرب وأن بخله لم يكن للإنفاق على أسباب الترف الشخصى ولا بد أنهم تثبتوا من عاداته التى تؤثر الاعتدال ورباطة جأشه فى الملمات ، واتزانه عند النجاح ، واختياره الرشيد لمعاونيه ، وجهده المبذول بلا كلل على شئون الحكومة وشعبه وراء أهداف بعيدة بكياسة مملة ووسائل حذرة . واغتفروا له الظهور بوجهين باعتباره سياسيا وكثرة حنثه بوعده ، ألم يحاول جميع الحكام غيره بوسائل مماثلة أن يدعوا قرابتهم له ويحتالوا على إسبانيا ؟ ولقد قال متجهما « إن ملك فرنسا يشكو أننى خدعته مرتين . إنه يكذب ، ذلك الغبى لقد

خدعته أكثر من عشر مرات » . ودرس مكيافلي بعناية سيرة فرديناند وأفاد من دهائه ومدح أعماله . . . . بأنها كلها عظيمة وبعضها صادق . ووصفه بأنه أفضل ملك فى العالم المسيحى . وكتب جويكشياردينى « ما أعظم الفرق بين أقوال هذا الأمير وأفعاله ، وكيف يضع خططه فى عمق وتكتم » . ورأى البعض أنه مجـــدود . ولكن الحق أن حظه الموفق إنما كان فى تدابيره للأحداث بعناية وانتهازه للفرص السانحة وإذا أحكم التوازن بين فضائله وجرائمه ، فإنه يبدو أنه دفع إسبانيا بوسائل شريفة وأخرى دنيئة ، من أجزاء متناثرة عقيمة متعددة الألوان ، إلى وحدة وقوة جعلتاها فى الجيل التالى المسيطرة وحدها على أوربا .

ولقد تعاون فرديناند مع إيزابلا على إعادة الاستقرار للأنفس والأموال فى قشتالة ، وفى بعث السانتا هرماندادأو الآخرة المقدسة لتكون حرسا أهليا محليا لتحافظ على النظام ، وفى إنهاء السطو فى الطرق العمومية والدسائس الجنسية فى البلاط ، وفى إعادة تنظيم المحاكم وتوحيد القوانين ، وفى استرداد أراضى الحكومة التى سلمها الملوك السابقون بغير اكتراث إلى المقربين ، وفى أخذ النبلاء بالطاعة الكاملة للتاج ، وهنا أيضا ، كما كان الحال فى فرنسا وإنجلترا ، أسلمت الحرية والفوضى الإقطاعيان إلى النظام المركزى للملكية المطلقة وتنازلت المجالس البلدية بدورها عن امتيازاتها ، وقلما اجتمعت المجالس الإقليمية وكان اجتماعها فى الغالب للموافقة على أموال تمنح للحكومة ، وذبلت ديمقراطية واهية الجذور وماتت فى ظل ملك صعب المراس . بل ان الكنيسة الإسبانية التى كانت عزيزة على الملكين الكاثوليكيين(١) los reyes católicas انتزع منها جانب من ثروتها وكل حقها فى التشريع المدنى ، وأصلحت إيزابلا أخلاق رجال الدين بصراحة ، وأكره البابا سكتوس

---

(١) أى الملكان الكاثوليكيان — لقد أسبغه على فرديناند وإيزابلا البابا اسكندر السادس عام ١٤٩٤ .

الرابع ، على التنازل للحكومة عن حق تعيين كبار رجال الكهنوت فى الكنيسة الإسبانية ورقى الكهنة القادرون أمثال بدروجنزالس ده مندوزا واكسمنس ده نيروس ، لينصبوا كبار أساقفة دفعة واحـــدة لطليطلة ورؤساء وزراء فى الدولة .

وكان الكاردينال اكسمينس شخصية إيجابية قوية كالملك ، ولقد انحدر من أسرة نبيلة وإن كانت رقيقة الحال ، فذهب فى طفولته للكنيسة ، وأحرز فى جامعة سالامنكا وهو فى سن العشرين ، أجازات الدكتوراه فى كل من القانونين المدنى والكنسى . وعمل سنوات قسيسا وناظراً لمندوزا فى أسقفية سيجونزا وكان ناجحا ولكن غير سعيد ، ولم يأبه بالجاه أو المناصب ، فالتحق بأكثر فرق الأديرة صرامة فى أسبانيا — وهى الفرنسيسكان الملتزمون بالأوامر والنواهى «Observantine Franciscans» . ولم يبهجه غير الزهد فكان ينام على التراب أو الأرض الصلبة ويكثر من الصوم ويضرب نفسه بالسياط ، ويلبس قميصا من الشعر على جلده . وفى عام ١٤٩٢ اختارت إيزابلا الورعة هذا المتعبد النحيل راعيا لكنيستها الخاصة ومتلقيا لاعترافاتها . وقبل ولكن بشرط وهو أن يسمح له بالاستمرار فى سكن الدير والتزام قواعد الفرنسسكان الصارمة ، وجعلته الفرقة رئيسها المحلى ، واستجابت لإلحاحه فى الإصلاح العسير . ولما رشحته إيزابلا كبيراً لأساقفة طليطلة (١٤٩٥) رفض قبول المنصب ، ولكنه استسلم بعد إباء ستة أشهر لنشرة بابوية تأمره بالخدمة . وكان قد أشرف على الستين من عمره ، ويبدو أنه كان يرغب صادقا أن يعيش راهبا . واستمر على طباعه الخشنة وهو مطران إسبانيا ورئيس المجلس الملكى ، وكان يلبس تحت الأردية الفخمة التى يتطلبها منصبه ، ذلك الجلباب الفرنسسكانى الخشن ، وتحته قميص الشعر كما اعتاد قبل ذلك . وطالب جميع فرق الرهبان فى الأديرة بأن تجرى نفس الإصلاحات التى أجرتها فرقته

فعارضه كبار رجال الدين ولكن الملكة أيدته وكأنما تجرد القديس فرنسيس من تواضعه وزود فجأة بتقوى برنارد ودومنيك وقدرتيهما .

ولم يكن ليرضى هذا القديس العبوس ، أن يجد يهوديين لم يتنصرا لهما مكانة مرموقة فى البلاط . أحدهما من أكثر مستشارى إيزابلا ثقة وهو إبراهام سنيور . وقد أخذ هو وإسحاق إبرابانيل يجمعان الموارد لفرديناند وينظمان تمويل حرب غرناطة . وكان الملك والملكة وقتذاك معنيين بالمتنصرين بصفة خاصة آملين أن يأتى وقت يصبح فيه هؤلاء مسيحيين مخلصين وأجرت إيزابلا مدرسة لأصول الدين لتعليمهم ، ومع ذلك فقد احتفظ كثير منهم بعقيدته السالفة سراً ولقنوها أبناءهم . وسكنت كراهية الكاثوليك لليهود غير المعمدين إلى حين ، بينما اشتد الحنق على « المسيحيين الجدد » ونشبت الفتن ضدهم فى طليطلة (١٤٦٧) وبلد الوليد (١٤٧٠) وقرطبة (١٤٧٢) وسيجوفيا (١٤٧٤) وأصبحت المسألة الدينية عنصرية أيضا ، ودبر الملك والملكة الفتيان الوسائل التى تحول هذا المزيج المضطرب فى الشعوب واللغات والمذاهب المتصارعة إلى وحدة منسجمة وسلام اجتماعى . ورأيا أن خير وسيلة لبلوغ هـذه الأهداف هى إعادة محاكم التفتيش إلى إسبانيا .

٤ — وسائل محكمة التفتيش

نحن اليوم غير متحققين ومختلفون فى آرائنا حول أصل العالم والإنسان ومصيرهما حتى إننا أمسكنا فى معظم البلاد ، عن معاقبة الناس لمجرد أنهم يختلفون عنا فى معتقداتهم الدينية . ونحن إنما نوجه تسامحنا الحاضر إلى أولئك الذين يناقشون مبادئنا السياسية والاقتصادية ، ونحن نفسر مذهبنا الثابت المروع على أساس أن أى شك يثار فى وجه ادعائنا الذى نقيم عليه الدليل ، يهدد تماسكنا وبقاءنا القوميين . ولقد كان المسيحيون واليهود والمسلمون

إلى منتصف القرن السابع عشر ، أكثر تشبثا بالدين مما نحن عليه الآن ، وكانت علوم الكلام هى أثمن وأوثق ما يملكون ، ونظروا إلى أولئك الذين ينكرون هذه المذاهب كأنما يهاجمون أصول النظام الاجتماعى وجوهر الحياة الإنسانية . واعتقاد كل جماعة بصحة مذهبها جعلها متشددة إلى حد التعصب ودمغ الآخرين بأنهم كفار .

وانتشر مبدأ محكمة التفتيش فى يسر بين الأشخاص الذين لم تتأثر مذاهبهم الدينية بالتعليم والرحلة ، والذين كانت عقولهم أكثر خضوعا لحكم العادة والخيال . واعتقد جميع مسيحيي القرون الوسطى تقريبا عن طريق تعليمهم فى الطفولة والوسط الذى عاشوا فيه بأن الكتاب المقدس من وحى الله بكل لفظ فيه ، وأن ابن الله قد أنشأ الكنيسة المسيحية مباشرة . وبدا أنه ينتج عن هذه المقدمات أن الله يريد أن تكون جميع الأمم مسيحية وأن الإيمان بديانات غير مسيحية — أو ضد المسيحية على التحقيق — يعد كبيرة فى حق الله . يضاف إلى ذلك ، أنه ما دامت كل هرطقة مادية تؤدى بالضرورة إلى عقاب أبدى فإن المختصين منها قد يعتقدون (ويظهر أن كثيرين منهم قد اعتقدوا بإخلاص) أنهم بإزهاق روح هرطيق ، إنما ينقذون الهدى الكامن فيه وربما أنقذوه هو نفسه من الجحيم الأبدى .

ومن المحتمل أن إيزابلا ، التى عاشت فى جو علماء الدين ، قد شاركت فى هذه الآراء . ولعل فردينان ، الذى كان رجلا صلبا من رجال الدنيا قد ارتاب فى بعضها ، ولكن يبدو أنه اقتنع بأن توحيد العقيدة الدينية يجعل إسبانيا أيسر حكما ، وأقدر فى التغلب على أعدائها . ولقد أصدر البابا سكستوس الرابع ، بناء على رغبة فردينان وايزابلا قرارا (أول نوفمبر ١٤٧٨) يفوض لهما أن يعينا ستة قسس ، من حملة الاجازات العليا فى علوم الدين والشريعة ، ليؤلفوا هيئة محكمة التفتيش ليحققوا تهم الهرطقة ويعاقبوا عليها . وأبرز شيء فى هذا القرار هو إعطاء السلطة لملوك إسبانيا ،

أن يعينوا هيئة محاكم التفتيش ، التى كانت فى صورها السابقة ، تختار بوساطة رؤساء فرق الفرنسسكان والدومنيكان المحلية . وهكذا أصبح الدين هنا خاضعا للدولة مـــدى ثلاثة أجيال ، كما حدث فى ألمانيا وإنجلترا البروتستانتيتين بعد ذلك بقرن ، وكان قضاة هذه المحاكم يرشحهم الملوك فقط من الناحية العملية ، ثم يعينهم البابا ، ويستمدون سلطتهم من هذا القرار البابوى ، وظلت المنظمة كهنوتية ، ووسيلة من وسائل الكنيسة وفى الوقت نفسه وسيلة من وسائل الدولة . وكان على الدولة أن تدفع نفقاتها وأن تحصل على دخلها الخالص ويراقب الملوك تفاصيل أعمالها ، وإليهم قد تستأنف أحكامها . وآثر فرديناند بمحبته هذه الوسيلة من بين جميع وسائل حكمه . ولم تكن أهدافه أول أمرها مالية ، فقد غنم من الأموال المصادرة للمحكوم عليهم ولكنه رفض رشـــاوى مغرية من الضحايا الأغنياء للتأثير على القضاة ، وكان همه منصباً على توحيد أسبانيا .

وأعطى القضاة سلطة استخدام المعاونين من رجال الدين ومن المدنيين كمحققين ومنفذين للأحكام . ووضعت المنظمة برمتها بعد عام ١٤٨٣ تحت إمرة وكالة حكومية ، هى هيئة التفتيش العامة وتسمى عادة « مجلس محكمة التفتيش العليا والعامة » Concejo de la Suprema-y General Inquisicior ، وشمل تشريع محكمة التفتيش جميع المسيحيين فى أسبانيا ، ولم تمس اليهود الذين لم يتنصروا ، ووجهت أهوالها إلى المتنصرين الذين يشك أنهم ارتدوا إلى اليهودية أو الإسلام وإلى المسيحيين المتهمين بالهرطقة ، وكان اليهودى غير المتنصر إلى عام ١٤٩٢ آمنا على نفسه أكثر من المعمد . وطالب القسس والرهبان والمتعبدون الإعفاء من التفتيش ؛ ولكن مطالبهم رفضت ، وقاوم اليسوعيون تشريعها نصف قرن ولكنهم غلبوا على أمرهم أيضاً . والحد الوحيد لقوة الهيئة العليا إنما هو سلطة الملوك ، بل

أن هذا الحد قد أهمل فى القرون المتأخرة . وطالبت محكمة التفتيش وتلقت عادة التعاون من جميع الموظفين المدنيين .

وشرعت محكمة التفتيش القوانين والإجراءات الخاصة بها . وكانت قبل أن تقيم قضاتها فى مدينة من المدن تذيع فى الشعب عن طريق منابر الكنائس منشوراً دينياً « يطالب كل من له علم بهرطقة أن يكشف عنها لرجال التفتيش . وشجع كل امرئ على أن يكون شاهدا ، ليبلغ عن جيرانه وأصدقائه وأقاربه . (ولم يكن يسمح فى القرن السادس عشر مع ذلك باتهام الأقربين ووعد المبلغون بالسرية الخالصة والحماية التامة ، وأوقع حرم صارم — أى حرمان ولعنة — على هؤلاء الذين يعرفون هرطيقاً ويخفونه . فإن ظل يهودى معمد يأمل فى عودة المسيح ، وإذا حافظ على قواعد الطعام التى فى الشريعة الموسوية وإذا اعتبر السبت يوم عطلة وعبادة أو غير ملابسه لذلك اليوم ، وإذا احتفل بأى وجه من الوجوه بيوم من أعياد اليهود ، وإذا ختن أى واحد من أطفاله أو أسماه باسم عبرى ، أو باركهم دون أن يقوم بعلامة الصليب ، وإذا صلى بحركات رأسه أو ردد مزموراً من مزامير الكتاب المقدس دون أن يضيف تمجيد الله فى الأعالى ، وإذا اتجه بوجهه إلى الحائط وهو يحتضر ، فإذا فعل هذا وأمثاله ، كانت عند رجال التفتيش من الشواهد على الهرطقة السرية التى لابد من إبلاغها إلى المحكمة فوراً . ولكل من يشعر بأنه اقترف هرطقة فله فى خلال « مهلة صفح » أن يأتى إلى المحكمة ويعترف بها ، فيحكم عليه بغرامة أو تفرض عليه كفارة ويصفح عنه بشرط أن يكشف عن كل ما يعرفه عن هراطقة آخرين .

ويلوح أن قضاة محكمة التفتيش كانوا يفحصون بعناية القرائن التى جمعها المبلغون والمحققون . حتى إذا اقتنعت المحكمة بالإجماع بإدانة شخص من الأشخاص فإنها تصدر أمراً بالقبض عليه . ويتحفظ على المقبوض عليه

فى سجن انفرادى ، حيث لا يسمح لغير عملاء محكمة التفتيش بالتحدث إليه ، ولا يزوره أحد من أقربائه ؛ وكان يقيد بالسلاسل عادة . ويطلب إليه أن يستحضر معه فراشه وملابسه ، وأن يدفع جميع نفقات محبسه وطعامه . فإذا لم يقدم المال الكافى لهذا الغرض فإنه يباع القدر المناسب من متاعه ليفى بالمبلغ المطلوب . أما باقى أمتعته فيحجز عليه بوساطة مندوبى محكمة التفتيش حتى لا يخبأ أو يتنازل عنه هرباً من المصادرة . وفى معظم الأحوال يباع جانب منه لإعانة من يعجزون عن العمل من أسرة الضحية .

وعندما يدفع المقبوض عليه للحضور أمام المحاكمة فإن المحكمة وقد سبق أن حكمت عليه بأنه مذنب ، تلقى على كاهله عبء إثبات براءته . وكانت المحكمة سرية خاصة وعلى المدافع عن نفسه أن يقسم على أنه لن يفشى أية واقعة من الوقائع فى حالة إطلاق سراحه . ولا يستدعى شهود إثبات التهمة إليه ، ولا يذكر له اسم أحد ، وبرر قضاة التفتيش هذا الإجراء بأنه ضرورى لحماية مبلغهم . ولم يكن يخبر المتهم أولا عن التهم الموجهة ضده ، وإنما يستدعى لمجرد الاعتراف بتقصيره كما تقضى بذلك العقيدة والعبادة الصحيحتان وأن يشى بكل الأشخاص الذين يتهمون بالهرطقة . فإن أقنع اعترافه المحكمة فقد يصدر عليه حكم غير الإعدام ، وإذا أبى الاعتراف سمح له باختيار محامين للدفاع عنه ، ويتحفظ عليه فى الوقت نفسه فى سكن انفرادى . وفى كثير من من الأحوال كان يعذب ليكره على الاعتراف وتستمر القضية عادة شهوراً ، ويكفى التقييد بالسلاسل فى السجن الانفرادى غالباً للحصول على أى اعتراف .

ولم يكن يلجأ إلى التعذيب إلا بعد أن يقترع عليه أغلبية قضاة المحكمة على أساس أن الذنب محتمل ، وإن كانت القرائن لا تقطع به . ويؤجل التعذيب الذى يحكم به على هذا النحو غالباً على أمل أن الفزع منه يدفع إلى الاعتراف ويبدو أن قضاة التفتيش اعتقدوا بإخلاص أن التعذيب خدمة

للمدافع عن نفسه وهو الذى سبق أن عد مذنباً ، فقد يكسبه بالاعتراف عقاباً أخف ، بل أنه إذا حكم بإعدامه بعد اعترافه يحصل من قسيس على المغفرة تنجيه من الجحيم ؛ ومع ذلك ، لم يكن الاعتراف بالذنب كافياً ، فقد يلجأ إلى التعذيب مع مدافع عن نفسه لإكراهه على ذكر شركائه فى الهرطقة أو الجريمة . وربما عذب الشهود المتناقضون للكشف عمن يذكر الحقيقة منهم ؛ وقد يعذب العبيد ليقيموا الدليل على سادتهم . ولم يكن هناك حد فى السن ينقذ الضحايا ، ذلك أن فتيات فى الثالثة عشرة ونسوة فى الثمانين قد ألزمن العذراء[1] ، بيد أن قواعد محكمة التفتيش الأسبانية حرمت التعذيب بالنسبة للمراضع أو ذوى القلوب الضعيفة أو المتهمين بهرطقات صغيرة كالأخذ بالرأى الشائع الذى يقول إن الزنا خطيئة صغيرة يصفح عنها . ويجب أن يحال بين التعذيب وبين إصابة الضحية بعاهة مستديمة ، ولا بد أن يوقف كلما أمر الطبيب المسئول ، ولا ينفذ إلا بحضور قضاة التفتيش المنوط بهم القضية ، وأحد الأعيان وكاتب للتسجيل وممثل للأسقف المحلى . واختلفت الوسائل باختلاف الزمان والمكان . وقد توثق يد الضحية خلف ظهرها ويعلق منهما أو يربط وثاقه حتى يعجز عن الحركة تماماً ، ثم يقطر الماء فى حلقه حتى يشرف على الاختناق ؛ وقد تربط يداه ورجلاه بالحبال ربطاً وثيقاً حتى تقطع اللحم إلى العظام . ولقد أنبئنا أن وسائل التعذيب التى استعملتها محكمة التفتيش الأسبانية كانت أخف مما استخدمته محاكم التفتيش البابوية السابقة ، أو مما توسلت به المحاكم المدنية فى ذلك العصر . وكان أهم وسائل التعذيب السجن الطويل الأمد .

ولم تكن محكمة التفتيش تتألف من مدع وقاض ومحلفين فقط ، ولكنها أصدرت أيضاً أوامر خاصة بالعقيدة والأخلاق وأنشأت مراتب للعقوبات ؛ وكانت رحيمة فى معظم الأحوال ، وتتسامح فى جزء من العقوبة بسبب

---

(١) وهى آلة تعذيب تمط الجسم .

سن المحكوم عليه أو جهله أو فقره أو سكره أو سمعته الحسنة بصفة عامة .
وكانت أخف العقوبات هي التعنيف . وأقسى منها هو الإكراه على المجاهرة بالإقلاع عن الهرطقة أمام الناس — التي تترك حتى البرىء ميسوماً بها إلى إلى آخر حياته ، وكان يطلب عادة إلى المعاقب بالأشغال الشاقة أن يحضر القداس بانتظام ، مرتدياً لباس الإدانة « sanbenito » وهو جلباب رسم عليه صليب برّاق . وربما عرض فى الطرقات وقد جرد من ثيابه إلى وسطه وحمل شعار جريرته . وقد يحرم هو وذووه من المناصب العامة إلى الأبد . أو ينفى من مدينته ، وقلما ينفى خارج أسبانيا . وقد يجلد من عشر جلدات إلى مائة جلدة إلى الحد الذى لا تزهق فيها روحه . وكانت هذه العقوبة تطبق على النساء كما تطبق على الرجال . وقد يلقى به فى السجن أو يدفع به إلى السفن — وهو ما أوصى فرديناند بأنه أنفع للدولة ، وربما دفع غرامة مادية أو صودرت أمواله . وقد اتهم بعض الموتى بالهرطقة فى أحوال متعددة وحوكموا بعد الموت وحكم عليهم بالمصادرة فيفقد الورثة فى هذه الحالة ميراثهم . وكان المبلغون عن الهراطقة الموتى يمنحون من ٣٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ من المتحصل . ودفعت الأسر المفزعة من هذه المحاكمات ذات الأثر الرجعى للمبلغين فى بعض الأحيان « مصالحات » تأميناً لهم من مصادرة ميراثهم فأصبحت الثروة خطراً على صاحبها وإغراء للمبلغين والمفتشين والحكومة . حتى إذا انسابت الأموال فى خزائن محكمة التفتيش فإن موظفيها أصبحوا أقل اهتماماً بالمحافظة على العقيدة الصحيحة من الحصول على الذهب وانتشر الفساد انتشاراً مروعاً .

وكانت العقوبة القصوى هي الإحراق فى المحرقة . وهى للذين حكم عليهم بأنهم اقترفوا هرطقة عظيمة ، ولم يعترفوا قبل بدء المحاكمة ، ولأولئك الذين اعترفوا فى الوقت المناسب وخففت عنهم عقوبتهم أو صفح عنهم ولكنهم ارتدوا إلى الهرطقة . وصرحت محكمة التفتيش نفسها بأنها لم تقدم

على القتل قط ، وقصاراها أنها كانت تسلم المحكوم إليه إلى السلطات المدنية ؛ وقد علمت أن القانون الجنائى يجعل الإحراق فى المحرقة نافذاً فى جميع العقوبات على الهرطقة الكبيرة أو التى لا توبة عليها . وإن حضور رجال الكهنوت عند المحرقة يدل على مسئولية الكنيسة ، ولم يكن المشهد الخاص بالإيمان هو مجرد الإحراق ، ولكنه الاحتفال المؤثر المروع كله بالنطق بالحكم والتنفيذ . ولم يكن غرضه مقصوداً على ترويع المخالفين فى السر ؛ وإنما لتهذيب الشعب كأنما يطلعونهم مقدما على يوم الحساب .

وكان الإجراء فى أول أمره بسيطاً فإن الذين يحكم بإعدامهم يقادون إلى الساحة العامة ، وكانوا يوثقون بأربطة على كومة حطب ، بينما يجلس قضاة التفتيش فى أبهة على منصة تواجهها ، ويطلب للمرة الأخيرة إلى المحكوم عليه أن يدلى باعترافه ، وتقرأ عليه الأحكام ، وتشعل النيران . ويبلغ الفزع منتهاه . بيد أن كثرة الإحراق وفقد بعض سلطانها النفسى ، جعل الاحتفال أكثر تعقيداً ورهبة وعنى بإظهاره بكل أسباب العناية والنفقة ، التى يتطلبها إخراج مسرحى كبير . وكان يحدد ميعاده كلما أمكن ذلك للاحتفال بالاعتلاء على العرش أو الزواج أو الزيارة من ملك أو ملكة أو أمير أسبانى . وكان يدعى موظفو البلديات والحكومة وهيئة محكمة التفتيش والقسس والرهبان المحليون ، بل فى الواقع كان يطلب حضورهم : وفى أمسية التنفيذ ينضم هؤلاء الأماثل إلى موكب كئيب يسير فى طرق المدينة الرئيسية ليضع صليب محكمة التفتيش الأخضر فوق مذبح الكاتدرائية أو الكنيسة الرئيسية . وتبذل محاولة أخيرة للحصول على اعترافات المحكوم عليهم ، فيستسلم كثيرون منهم . وتخفف أحكامهم إلى السجن فترة من الزمن أو مدى الحياة . وفى الصباح التالى يساق المسجونون وسط الجموع الغفيرة إلى إحدى ساحات المدينة . وفيهم الدجالون والمجدفون فى الدين والمضارون[1] والهراطقة والمرتدون . وفى

(١) المتزوج من امرأتين .

الأيام المتأخرة كان يساق معهم البروتستانت ، وينتظم الموكب أحياناً دمى تمثل المحكوم عليهم غيابياً أو — صناديق تحمل عظام الذين حكم عليهم بعد الموت . وفى الساحة على مدرج مرتفع أو أكثر ، يجلس قضاة محكمة التفتيش ورجال الدين من قساوسة ورهبان وموظفو المدينة والدولة ، يرأسهم الملك بين حين وآخر . وتذاع عظة ، يؤمر بعدها جميع الحضور بترديد يمين الطاعة لحكام محكمة التفتيش المقدس وعهد ينكر ويحارب الهرطقة بجميع أشكالها وفى كل مكان . ثم يساق المسجونون واحدا بعد واحد ، أمام المحكمة ، وتتلى عليهم الأحكام الخاصة بهم . ويجب علينا ألا نتخيل معارضة باسلة لذلك ، وربما كان كل سجين فى هذه المرحلة مشرفا على التلف الروحى والانهيار البدنى . بل إنه قد ينقذ حياته فى هذه اللحظة بالاعتراف . وفى تلك الحالة تقنع محكمة التفتيش بجلده ومصادرة أمواله وسجنه مدى الحياة . وإذا لم يعترف إلا بعد صدور الحكم عليه ، فإنه يغنم الرحمة بشنقه قبل إحراقه ، ولما كانت الاعترافات فى اللحظة الأخيرة كثيرة ، فقد أصبح إحراق الأحياء نادرا نسبيا ، أما الذين يحكم عليهم بالهرطقة الكبيرة ، وينكرون ذلك إلى النهاية ، يحرمون (وظل ذلك مرعيا إلى عام ١٧٢٥) من الكنيسة المقدسة ، ويتركون برغبة محكمة التفتيش للجحيم الأبدى . أما الذين تخفف أحكامهم فيعادون إلى السجن ، والذين لم تقبل توبتهم فيدفع بهم إلى السلطة المدنية ، مع تحفظ وردع بعدم إراقة دم . ويساقون إلى خارج المدينة وسط حشود تجمعت من مسافات بعيدة للفرجة على هذا المشهد من مشاهد العطلة . حتى إذا وصلوا إلى مكان التنفيذ شنق المعترفون ثم أحرقوا بينما يحرق المعاندون أحياء . وتظل النيران تغذى بالوقود حتى تصير العظام رمادا ، ينتثر على الحقول والجداول . ثم يعود القساوسة والمشاهدون إلى مذابحهم ودورهم مقتنعين ، بأن قربانا قدم استعطافا لإله غاضب من الهرطقة . وهكذا أعيد القربان البشرى .

٥ ـ تقدم محكمة التفتيش (١٤٨٠ ـ ١٥١٦)

عين فرديناند وإيزابلا القضاة الأوائل لمحكمة التفتيش فى سبتمبر من عام ١٤٨٠ ، لمنطقة إشبيلية . ففر كثيرون من الإشبيليين المتنصرين إلى الريف ، وبحثوا عن الملجأ الأمين عند السادة الإقطاعيين ، وكانت عند أولئك رغبة فى حمايتهم ، ولكن قضاة التفتيش هددوا البارونات بالحرمان من غفران الكنيسة ومصادرة الأموال ، فما كان منهم إلا أن سلموا اللاجئين ، أما فى المدينة نفسها فقد دبر بعض المتنصرين المقاومة المسلحة ولكن التدبير أفشى ، وقبض على الضالعين فى هذا التدبير وسرعان ما امتلأت السجون . وتبعت ذلك محاكمات متعجلة غضوب ، واحتفل بأول محرقة أثمرتها محكمة التفتيش الإسبانية فى السادس من فبراير لعام ١٤٨١ بإحراق ستة من الرجال والنساء . وما أن جاء الرابع من نوفمبر للعام نفسه ، حتى كان قد أحرق ثمانية وتسعون ومائتا شخص وسجن مدى الحياة تسعة وسبعون شخصاً .

وفى عام ١٤٨٣ عين البابا أسكستوس الرابع بترشيح وطلب من فرديناند وإيزابلا ، راهباً دومينيكيا ، هو توماس ده توركيمادا ، مفتشاً عاماً لإسبانيا بأسرها ، وكان مؤمناً متعصباً لا يتطرق الفساد إليه ، يحتقر الترف ويعمل بحماسة شديدة ويحتفل بفرصته السانحة ليخدم المسيح بتصييد الهراطقة وكان يؤنب قضاة التفتيش على التساهل ، ونقض كثيراً من أحكام البراءة وطالب الربانيين فى طليطلة مهدداً إياهم بالموت أن يبلغوا عن الذين ارتدوا إلى اليهودية . وفزع البابا اسكندر السادس من قسوته ، وهو الذى سبق أن مدحه على أخلاقه لعمله ، فأمره (١٤٩٤) أن يشرك فى سلطته مفتشين عامين آخرين . وتجاوز توركيمادا هذين الزميلين ؛ واحتفظ برآسة حازمة عليهما . وجعل محكمة التفتيش حكومة فى داخل الحكومة تضارع سلطة الملوك . وأحرقت محكمة التفتيش فى سوداد ريال بدافع منه فى سنتين (١٤٨٣ ـ ٨٤) اثنين وخمسين شخصاً وصادرت أموال مائتين وعشرين شريداً

وعاقبت مائة وثلاثة وثمانين تائباً . وفى مدى سنة واحدة من نقل المفتشين لمقرهم الرئيسى إلى طليطلة قبضوا على سبعمائة وخمسين يهودياً متنصراً وصادروا خمس أموالهم ، وحكموا عليهم بأن يسيروا فى مواكب حاشدة فى ستة أيام جمعة ، يضربون أنفسهم بسياط من القنب ، وفى هذه السنة (١٤٨٦) أقيمت محرقتان أخريان وأحرقت رفات ألف وستمائة وخمسين تائباً . وبذلت جهود مماثلة فى بلد الوليد ووادى لوب وغيرهما من مدن قشتالة .

وقاومت أراجون محكمة التفتيش بشجاعة يائسة . فقد أغلق حكام تيرول أبواب المدينة فى وجه المفتشين . فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرار الحرمان على سكانها وأوقف فرديناند مرتبات موظفى المجلس البلدى ، وسير جيشاً يكره الأهلين على الطاعة ، أما الفلاحون المجاورون الذين كانوا على عداء دائم للمدينة ؛ فقد هرعوا يؤيدون محكمة التفتيش ، التى وعدتهم بالإعفاء من جميع الإيجارات والديون التى عليهم لأشخاص المتهمين بالهرطقة . واستسلمت مدينة تيرول وأعطى فرديناند المفتشين سلطة نفى كل شخص يشكون فى أنه اشترك فى المقاومة ، وفى سرقوسة انضم إخوة المسيحيين القدماء إلى الإخوة « المسيحيين الجدد » فى الاحتجاج على دخول محكمة التفتيش مدينتهم ، ومع ذلك فلما أقيمت محكمة التفتيش هناك اغتال بعض المتنصرين أحد رجالها (١٤٨٥) وكان ذلك خطأ مهلكاً ، لأن الأهلين المفزعين احتشدوا فى الطرقات صائحين « احرقوا المتنصرين » وسكن كبير الأساقفة من روع الغوغاء بأن وعد بالمحاكمة السريعة . وقبض على جميع المتآمرين تقريباً وأعدموا ، وقفز أحدهم ليلقى مصرعه من البرج الذى سجن فيه ؛ وحطم آخر مصباحاً من الزجاج وابتلع شظاياه ، ثم وجد ميتاً فى محبسه . ورفض مجلس الكورتيس فى بلنسية ، السماح للمفتشين بمزاولة عملهم ، فأمر فرديناند بالقبض على كل من يحول بينهم وبين أداء مهمتهم ، واستسلمت بلنسية . وخنق الملك تأييداً للتفتيش الحريات التقليدية لأرجون ، الواحدة

بعد الأخرى ؛ وأثبت اتحاد الكنيسة مع الملكية ، بقرارات الحرمان والجيوش الملكية ، بأنه أقوى من أن تقاومه مدينة أو ولاية بمفردها . وحددت فى بلنسية وحدها عام ١٤٨٨ تسعمائة وثلاثة وثمانون حكماً بالهرطقة وأحرق مائة رجل .

فكيف نظر الباباوات إلى اصطناع محاكم التفتيش كأداة من أدوات الدولة ليس من شك فى أن عدداً من الباباوات قد حاولوا أن يوقفوا مثل هذا الإفراط وأن يبسطوا حمايتهم على ضحايا التفتيش بين حين وآخر ، منكرين هذا التحكم المدنى ؛ ومدفوعين فى الغالب بالعواطف الإنسانية مع إدراكهم للمصاريف الباهظة التى تدفع للتصديق على أحكام محكمة التفتيش . فقد أصدر البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٢ منشوراً بابوياً لو نفذ لوضع حداً لمحكمة التفتيش فى أراجون ؛ وشكا فيه من أن المفتشين يبدون طمعا فى الحصول على الذهب أكبر من الإخلاص للدين ، وأنهم سجنوا وعذبوا وأحرقوا مسيحيين مؤمنين بشهادة مريبة من أعدائهم وعبيدهم وأمر بأن على المفتش فى المستقبل ألا يباشر مهمته إلا بحضور بعض ممثلى الأسقف المحلى والحصول على موافقتهم ؛ وأن يعلن المتهمون بأسماء الذين اتهموهم واتهاماتهم ولا يبيت المسجونون إلا فى سجون الكنيسة ؛ وأن يسمح للشاكين فى الظلم الواقع عليهم أن يقدموا ظلاماتهم إلى السدة الأسقفية المقدسة ، وأن يؤجل كل تصرف فى القضية حتى يحكم فى الاستئناف ، وأن يحصل جميع المتهمين بالهرطقة ، على حكم البراءة إذا اعترفوا وتابوا ؛ وبذلك يصبحون فى حل من المحاكمة والاضطهاد بسبب هذه التهمة . وكل الإجراءات السابقة المناقضة لهذا المرسوم تعد باطلة وملغاة ، وكل من يخرج على هذه القواعد فى المستقبل يكون عرضة للحرمان من غفران الكنيسة . لقد كان مرسوما متنوراً وأحكامه توحى بصدقه ومع ذلك فيجب أن نلاحظ اقتصاره على أراجون التى أنفق المتنصرون فيها بسخاء فى سبيل الحصول عليه . ولما رفضه فردنياند

وقبض على مبايعيه وطالب المفتشين بأن يواصلوا عملهم ، لم يتخذ البابا سكستوس إجراء آخـــر ؛ اللهم إلا تعطيله لمفعول قراره بعد ستة أشهر من إصداره .

وأخذ المتنصرون اليائسون يصبون الأموال صبا فى مدينة روما ، مناشدين الحصول على فتاوى شرعية وبراءة من استدعاء محكمة التفتيش لهم أو حكمها عليهم . وقبلت هذه الأموال ، وأعطيت الفتاوى ، بيد أن المفتشين الأسبان الذين يبسط عليهم الملك حمايته جملة تجاهلوها ، وكان البابوات فى حاجة إلى حماية فرديناند وإلى المنحة الأسبانية السنوية ، فلم يصروا على تلك الفتاوى ، وكان المال يدفع فى سبيل الحصول على قرار بالعفو فيصدر ثم يسحب بعد ذلك . وعمل البابوات بين حين وآخر على تأكيد سلطتهم مستدعين المفتشين إلى روما للرد على اتهامات وجهت إليهم بسوء السلوك وحاول إسكندر السادس أن يخفف من قسوة المحكمة . وأمر يوليوس الثانى بمحاكمة المفتش لوسيرو على سوء استعماله لسلطته ، وأصدر قرار الحرمان على مفتش طليطلة . ومع ذلك فقد عد ليو المهذب العالم ، القول بعدم إحراق الهراطقة ، من الهرطقة التى تستوجب اللوم .

كيف كان موقف الشعب الأسبانى من محكمة التفتيش ؟ لقد عارضتها الطبقات العليا والإقليمية المتعلمة معارضة ضعيفة ، أما عامة المسيحيين فقد أيدوها عادة . وأظهرت الجماهير التى احتشدت عند المحرقة تعاطفا واهنا ، وأبدوا دائما عداوة فعالة للضحايا ، وحاولوا فى بعض الأماكن قتلهم حتى لا ينجيهم اعترافهم من المحرقة . وتجمع المسيحيون لابتياع أمتعة المحكوم عليهم المصادرة بالمزاد .

كم بلغت كثرة الضحايا ؟ قدر ليورنت(١) بأنهم بلغوا بين عامى

---

(١) جوان أنطونيو ليورنت ، قسيس إسبانى ، كان أمينا عاما لمحكمة التفتيش فى سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٠١ وانتدبه يوسف بونابرت عام ١٨٠٩ لفحص محفوظات محكمة التفتيش وكتابة تاريخها . وقد ترك إسبانيا مع الفرنسيين المنسحبين ونشر تاريخه عن محكمة التفتيش فى باريس عام ١٨١٧ .

١٤٨٠ و ١٤٨٨ ثمانية آلاف وثمانمائة أحرقوا ، وستة وتسعين ألفا وأربعمائة وتسعين عوقبوا ، وبين عامى ١٤٨٠ — ١٥٠٨ بواحد وثلاثين ألفا وتسعمائة واثنى عشر أحرقوا ومائتين وواحد وتسعين ألفا وأربعمائة وأربعة وتسعين حكم عليهم بعقوبات صارمة ، وكانت هذه الأرقام فى معظمها تخمينية . ويرفضها اليوم بصفة عامة المؤرخون البروتستنت ويعدونها تطرفا فى المبالغة . ويذهب مؤرخ كاثوليكى إلى أنه قد أحرق ألفان بين عامى ١٤٨٠ و١٥٠٤ ، وألفان آخران حتى سنة ١٧٥٨ . وأحصى كاتب سر ايزابلا واسمه هرناندو ده بولجر عدد الذين أحرقوا ، بألفين قبل عام ١٤٩٠ وفاخر ذوريتا أمين محكمة التفتيش بأنها أحرقت أربعة آلاف فى إشبيلية وحدها وكانت هناك ضحايا فى معظم المدن الأسبانية . بل فى الإمارات التابعة لأسبانيا مثل البليار وسردينيا وصقلية والأراضى الواطئة وأمريكا .

ونقص معدل الإحراق بعد عام ١٥٠٠ . ولا تصور الإحصائيات أيا كانت الفزع الذى عاش فيه العقل الأسبانى فى تلك الأيام والليالى . فقد كان على الرجال والنساء حتى فى ستر منازلهم ، أن يرقبوا كل كلمة يتلفظون بها حتى لا يؤدى بهم نقد عارض إلى سجن محكمة التفتيش . لقد كان ضغطا عقليا لا نظير له فى التاريخ .

هل نجحت محكمة التفتيش ؟ نعم ، نجحت فى تحقيق غرضها الذى أعلن عنه ، وهو تخليص أسبانيا من الهرطقة الصريحة . فإن الفكرة القائلة بأن اضطهاد المعتقدات لا تأثير له أبداً ، ضلال ، فقــد سحق الألبيجينزيين والهيجونوت فى فرنسا ، والكاثوليك فى انجلترا فى عهد اليزابث والمسيحيين فى اليابان — وانتزعت ، فى القرن السادس عشر ، الجماعات الصغيرة التى عطفت على البروتستانتية فى أسبانيا . ولعلها قوت من ناحية أخرى البروتستانتية فى ألمانيا واسكنديناوه وانجلترا بإثارة خوف قتال فى نفوس شعوبها ، مما قد يحيق بهم ، إذا أعيدت الكاثوليكية .

ومن العسير أن نقدر نصيب محكمة التفتيش فى القضاء على الفترة المزدهرة من تاريخ أسبانيا ، الواقعة بين كولومبس وفيلاسكيه (١٤٩٢ — ١٦٦٠) وبلغت هذه الفترة أوجها بمجيء سرفانتس (١٥٤٧ — ١٦١٦) لوب ده فيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) وذلك بعد انتشار محاكم التفتيش فى أسبانيا بمائة عام . ولقد كانت محكمة التفتيش نتيجة كما كانت سبباً لقوة المذهب الكاثوليكى ، وسيطرته على الشعب الإسبانى ، وإن هذه الحالة الدينية ، قد نمت خلال قرون فى الصراع ، ضد المسلمين : ولعل انحلال اسبانيا من جراء حروب شارل الخامس وفيليب الثانى وضعف الاقتصاد الاسبانى بفضل انتصارات بريطانيا فى البحر والسياسة التجارية للحكومة الأسبوعية ، كان أشد تأثيراً فى اضمحلال اسبانيا من أهوال محكمة التفتيش. ولقد أظهر الحكم بإعدام العرافين فى أوربا الشمالية ونيوانجلاند نزوعا فى الشعوب البروتستانتية قريباً لما فى محكمة التفتيش الاسبانية . ومن العجيب أن نقول إن محكمة التفتيش الاسبانية قد عاملت العرافة بتعقل وعدتها وهما يستحق الإشفاق والعلاج لا العقاب . ولم تكن محكمة التفتيش وإحراق العرافين سوى تعابير عن عصر مصاب بالإيمان ، الباعث على القتل ، لفرط ثقته بعلوم الدين ، كما تعود بعض أسباب المذابح الوطنية فى عصرنا إلى الإيمان. الباعث على القتل ، بنظرية عنصرية أو سياسية . ويجب علينا أن نحاول نفهم مثل هذه الحركات بمصطلحات زمانها ، ولكنها تبدت لنا الآن أكبر جريمة لا تغتفر من الجرائم التاريخية . ذلك لأن عقيدة سائدة لا تنازع عدو ومهلك للعقل الإنسانى .

٦ — هجرة إسرائيل

كان الغرض من محكمة التفتيش أن ترهب جميع المسيحيين المحدثين والقدامى على السواء ليتمسكوا بالسنة الظاهرة على الأقل ، على أمل أن يقضى على الهرطقة فى مهدها وأن الجيل الثانى أو الثالث من اليهود المعمدين سوف

ينسون يهودية أسلافهم . ولم تكن هناك نية للسماح لليهود المعمدين أن يرحلوا عن اسبانيا ، فلما حاولوا الهجرة حرمها عليهم فرديناند ومحكمة التفتيش ولكن ماذا كان مصير اليهود غير المعمدين ؟ لقد ظل حوالى مائتين وخمسة وثلاثين ألفاً منهم فى اسبانيا المسيحية . فكيف السبيل إلى تحقيق الوحدة الدينية للدولة ، إذا سمح لهؤلاء أن يمارسوا شعائر عقيدتهم وأن يصرحوا بها ؟ ورأى توركيمادا استحالة ذلك ، وأوصى بإكراههم على التنصر أو نفيهم .

فتردد فرديناند . ذلك أنه كان يعرف القيمة الاقتصادية لقدرة العبرانيين فى التجارة والمالية . ولكنه أخبر أن اليهود عنفوا المتنصرين منهم ، وحاولوا أن يعيدوهم إلى اليهودية ، بشرط واحد هو أن يكون ذلك سراً . واتهم طبيبه رباس ألتس ، وهو يهودى معمد ، بأنه علق فى رقبته كرة ذهبية تحتوى على صورة له على هيئة فيها تنجيس الصليب ، ويبدو أن التهمة غير صحيحة ولكن هذا الطبيب أحرق (١٤٨٨) . وزيفت رسائل نصح فيها زعيم يهودى فى القسطنطينية ، رئيس الجماعة اليهودية فى أسبانيا بأن يسرق ويدس السم للمسيحيين كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وقبض على متنصر بتهمة وجود رقاقة مقدسة فى جعبته ، وعذب مراراً فتكراراً حتى وقع على عبارة مفادها أن ستة من المتنصرين ومثلهم من اليهود.قتلوا طفلا مسيحياً ، ليستعملوا قلبه فى شعيرة سحرية ، دبرت لتؤدى إلى هلاك جميع المسيحيين والقضاء الكامل على المسيحية . وكانت اعترافات الرجل المعذب يناقض أحدها الآخر ولم يبلغ عن فقد طفل من الأطفال ، ومع ذلك أحرق أربعة من اليهود ، بعد أن انتزع لحم اثنين منهم بوساطة كلابة متوهجة وربما أثرت هذه الاتهامات وأمثالها فى نفس فرديناند، ومهما يكن من شىء فقد مهدت لرأى عام يطلب إجلاء اليهود غير المعمدين عن أسبانيا . ولم تعد المساهمة الاقتصادية لليهود حيوية بعد أن استسلمت غرناطة (٥ نوفمبر ١٤٩١)

وانتقل النشاط التجارى والصناعى من المسلمين إلى أسبانيا المسيحية . وجعل التعصب الشعبى الذى تلهبه المحرقة وعظات الرهبان ، السلام الاجتماعى مستحيلا ، إلا إذا قامت الحكومة بحماية اليهود أو طردهم .

وفى ٣٠ مارس ١٤٩٢ — وهى سنة مزدحمة بالأحداث فى تاريخ أسبانيا وقع فرديناند وايزابلا مرسوم نفى اليهود . ومؤداه أن جميع اليهود غير المعمدين ، أيا كانت أعمارهم أو أحوالهم ، عليهم أن يتركوا أسبانيا فى موعد غايته ٣١ يوليه ، ولا يسمح لهم بالعودة ، ومن يفعل عقوبته الإعدام ، ولهم أن يتخلصوا من متاعهم فى هذه الفترة القصيرة بأى ثمن يحصلون عليه ولهم أن يأخذوا معهم المتاع المنقول وصكوك المعاملات دون النقد من ذهب وفضة . وقدم أبراهام سنيور وإسحاق ابرابانل ، للملكين مبلغاً كبيراً من المال ليسحبا مرسومهما ولكنهما رفضا . ولم يتم اتهام ملكى على اليهود سوى رغبتهم فى إغراء المتنصرين للارتداد إلى اليهودية . وصدر ملحق لذلك المرسوم ، يجعل الضريبة إلى آخر العام يجب أن تجبى على جميع أملاك اليهود ومبيعاتهم . أما الديون المستحقة على المسيحيين والمسلمين فلا تدفع إلا عند بلوغ سن الرشد ، عن طريق العملاء الذين يستطيع المنفيون العثور عليهم ، أو تحل هذه المطالب بخصم لمشترين مسيحيين . وهكذا انتقلت أموال اليهود فى هذه المدة الإجبارية القصيرة إلى أيدى المسيحيين بجزء ضئيل من قيمتها . فكانت الدار تباع فى مقابل حمار والكرمة فى مقابل قطعة من القماش . وأحرق بعض اليهود فى نوبة يأس منازلهم « أليجمعوا قيمة للتأمين عليها ؟ » وتنازل بعضهم الآخر عنها للمجلس البلدى . ووضع المسيحيون أيديهم على المعابد وحولوها إلى كنائس . وتحولت مدافن اليهود إلى مراع . وذاب فى شهور قليلة ، الجانب الأكبر من ثروات اليهود الأسبان ، التى كدسوها خلال قرون . وقبل خمسون ألف يهودى تقريبا التنصر ، وسمح لهم بالبقاء ، وترك أسبانيا أكثر من مائة ألف فى موكب خروج طويل كئيب .

وقبل رحيلهم زوجوا جميع أطفالهم الذين فوق الثانية عشرة . وساعد الصغار الكبار ، وأعان الأغنياء الفقراء . وسار الحجيج على متون الخيل أو الحمير وفى العربات أو على الأقدام . وناشد المسيحيون الطيبون — من رجال دين ودنيا — المنفيين عند كل منعطف أن يذعنوا للتعميد . فقابل الربانيون ذلك بأن أكدوا لأشياعهم بأن الله سيهديهم إلى أرض الميعاد ، وذلك بأن يفتح لهم معبرا فى البحر كما فعل لآبائهم فى القديم . وانتظر المهاجرون الذين أجمعوا فى قادس يملؤهم الأمل بأن يتفرق الماء ويسمح لهم بالعبور إلى إفريقيا دون أن تبتل أقدامهم . فلما انجاب عنهم الوهم دفعوا الأجور الباهظة للنقل بالسفن وفرقت العواصف أسطولهم الذى كان يتألف من خمس وعشرين سفينة ، وردت ست عشر منها إلى أسبانيا حيث آثر الكثيرون من اليهود اليائسين التعميد على دوار البحر . وتحطمت السفينة بخمسين من اليهود بالقرب من صقلية ، فسجنوا عامين ثم بيعوا رقيقاً . ولم يجد الآلاف الذين أبحروا من جبل طارق ومالقة وبلنسية أو برشلونة فى العالم المسيحى بأسره إلا إيطاليا الراغبة فى استقبالهم بدافع إنسانى .

وكانت البرتغال أكثر الأهداف ملاءمة للمهاجرين . فقد وجدت فيها من قبل جماعة كبيرة من اليهود ، وبلغ بعضهم مكانة من الثراء والمركز السياسى فى كنف ملوك لايضمرون لهم عداوة . ولكن جون الثانى أفزعه عدد اليهود الإسبان — ربما بلغوا ثمانين ألفا — الذين تدفقوا عليها . فمنحهم مهلة ثمانية أشهر ، عليهم أن يرحلوا بعدها . وتفشى بينهم الطاعون وانتشر منهم إلى المسيحيين . الذين طالبوا بإجلائهم فوراً . فيسر جون خروج اليهود المهاجرين بأن هيأ لهم سفنا بأجور زهيدة ، بيد أن الذين اعتصموا منهم بهذه السفن ، تعرضوا للسرقة والاغتصاب ، وألقى بكثيرين على شواطئ غير مأهولة وتركوا للموت جوعاً أو ليسبيهم المسلمون ويبيعونهم . وهام مائتان وخمسون يهودياً على ظهر سفينة فى البحر أربعة

أشهر ؛ ترفض ميناء بعد ميناء نزولهم ، لأن الطاعون لما يزل متفشيا بينهم . واعتقل قرصان بسكاى إحدى السفن ونهبوا ركابها ثم استاقوا السفينة إلى مالقة ، حيث خير القسس والحكام اليهود بين التعميدأ و الموت جوعا . وبعد أن مات خمسون منهم زودت الساطات الباقين بالخبز والماء وطالبتهم بالإبحار إلى إفريقيا .

وما أن انتهت مهلة الثمانية أشهر ، حتى باع جون الثانى بيع الرقيق ، أولئك اليهود المهاجرين الذين بقوا فى البرتغال وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم وأرسلوا إلى جزر القديس توماس لينشأوا تنشئة مسيحية . ولما ذهبت التوسلات إلى منفذى المرسوم عبثا ، فقد آثرت بعض الأمهات إغراق انفسهن وأطفالهن، على تحمل آلام فراقهم، ومنحهم خليفة جون واسمه مانويل فرصة جديدة يجمعون فيها أنفاسهم ، فقد حرر اولئك الذين استرقهم جون وحرم على القسس أن يثيروا الدهماء على اليهود ،وأمر محاكمه أن ترفض جميع المزاعم بأن اليهود قتلوا أطفال المسيحيين باعتبارها حكايات خبيثة . ولكن مانويل خطب ايزابلا فى الوقت نفسه ، وهى ابنة فرديناند وايزابلا ووريثتهما ، حالما أن يوحد العرشين فى فراش واحد ووافق الملكان الكاثوليكيان بشرط أن مانويل ينفى من البرتغال جميع اليهود غير المعمّدين سواء أكانوا مواطنين أم مهاجرين . وخضع مانويل لهذا الشرط ، مؤثرا الجاه على الشرف وأمر جميع اليهود والمسلمين فى مماكته أن يتنصروا أو يطردوا من البلاد (١٤٩٦) . ولما وجد أن فئة قليلة منهم آثرت التنصر ، وكره أن تباد المهن والصناعات التى تفوق فيها اليهود أمر جميع الأطفال اليهود دون الخامسة عشرة ، أن يفصلوا عن آبائهم وينصروا كرها . وعارض رجال الدين الكاثوليك هذا الإجراء ، ولكنه نفذ . نقد روى أحد الأساقفة « لقد رأيت أطفالا كثيرين يسحبون إلى حوض التعميد من شعورهم » . واحتج بعض اليهود على ذلك بوأد أطفالهم ثم قتل أنفسهم ،

وأصبح ما نويل شرساً ، فعطل خروج اليهود ، ثم أمرهم بأن ينصروا كرها . فسحلوا إلى الكنائس ، الرجال من لحاهم والنساء من شعورهن ، وقتل كثيرون منهم نفسه فى الطريق وأرسل المتنصرون البرتغاليون رسالة إلى البابا إسكندر السادس يرجون توسطه ولا يعرف رده ، ولعله كان فى مصلحتهم ، لأن مانويل منح إذ ذاك (مايو ١٤٩١) جميع المتنصرين كرها إذنا رسمياً مدته عشرون سنة لا يقدمون أثناءها إلى أى محكمة بتهمة التشيع لليهودية . ولكن مسيحي البرتغال رفضوا منافسة اليهود معمدين وغير معمدين ، فإذا جادل يهودى فى معجزة تنسب إلى كنيسة فى لشبونه فإن الغوغاء يمزقونه إربا (١٥٠٦) ، وانتشرت المذابح ثلاثة أيام لا يمنعها أحد ، وقتل فيها ألفا يهودى ودفن مئات منهم أحياء . وأنكر المطارنة الكاثوليك هذه السورة من الغضب ، وقتل راهبان دومينيكان حرصا على الشغب . واستتب السلام ، أو كاد ، باستثناء هذه الأحداث مدى جيل من الزمان .

وتم خروج اليهود الرهيب من اسبانيا . بيد أن الوحدة الدينية لم تكن قد تحققت بعد : فقد بقى المسلمون . ذلك أن غرناطة سقطت ، ولكن سكانها المسلمين منحوا الحرية الدينية . وانتدب كبير الأساقفة هرناندو ده تالافيرا ، حاكما على غرناطة . فنفذ الميثاق فى شيء من السرية وحاول أن يستدرج المسلمين إلى التنصير بالرفق والعدل . ولكن اكسيمينيس لم يوافق على مثل هذا الاعتناق للمسيحية . فألح على الملكة ، بأن العهد لا يحافظ عليه مع الكافرين ، وأقنعها بأن تصدر مرسوماً (١٤٩٩) يخير المسلمين بين الدخول فى المسيحية وبين مغادرة اسبانيا . وذهب بنفسه إلى غرناطة ، وتسلط على طلبيرة وأغلق المساجد ، ونصب المحارق العامة التى التهمت جميع الكتب والمخطوطات العربية التى وصلت إليها يده ، وأشرف

على التنصير الإجبارى بالجملة . وكان المسلمون يمسحون الماء المقدس عن أطفالهم عندما يبتعدون عن عين القسيس ونشبت الثورات فى المدينة والولاية ، وسحقت . وخير جميع المسلمين فى قشتالة وليون بمقتضى مرسوم ملكى صدر فى الثانى عشر من فبراير لعام ١٥٠٢ بين الدخول فى المسيحية ومغادرة البلاد وأعطوا لذلك مهلة غايتها آخر إبريل من العام نفسه . واحتج المسلمون بأن أسلافهم عند ما حكموا معظم اسبانيا ، فإنهم سمحوا بالحرية الدينية ، إلا فى القليل النادر ، للمسيحيين الذين تحت سلطانهم ، ولكن الملكين لم يتأثرا بهذا الاحتجاج وحرم على الأطفال الذكور دون الرابعة عشرة والإناث دون الثانية عشرة أن يغادروا اسبانيا مع آبائهم وسمح للأمراء الإقطاعيين بأن يحتفظوا بأرقائهم المسلمين على أن يوضعوا فى الأغلال . ورحل الألوف ، أما الباقون فقبلوا أن ينصروا بفلسفة أكبر مما فعل اليهود وتعرضوا باعتبارهم عربا موريسكيين "moriscos" محل اليهود المعمدين لتحمل عقوبات محكمة التفتيش على عودتهم إلى ديانتهم السابقة وترك اسبانيا إبان القرن السادس عشر ثلاثة ملايين من المسلمين المتظاهرين بالمسيحية ووصف الكاردينال ريشليه مرسوم عام ١٥٠٢ بأنه « أكبر حدث همجى فى التاريخ » ، بيد أن الراهب بليدا رآه « أمجد حادث فى اسبانيا منذ عهد الرسل » . واستطرد قائلا : « الآن أصبحت الوحدة الدينية فى مأمن ، وأوشك عهد من الازدهار أن يبزغ » .

وفقدت اسبانيا كنزاً لا يقدر بخروج التجار وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين ، وأفادت الأمم التى تلقتهم من الناحيتين الاقتصادية والفكرية . ولما لم يعد يعرف الشعب الإسبانى منذ ذاك غير ديانة واحدة ، فقد أذعن تماماً لرجال الدين وتنازل عن كل حق له

فى التفكير إلا فى حدود العقيدة التقليدية . وآثرت اسبانيا أن تحتفظ بطابع القرون الوسطى ، وسيان كان ذلك لخيرها أو لشرها ، فى حين اندفعت أوربا نحو التقدم العصرى بفضل الثورات التجارية والطبوغرافية والفكرية والبرتستانتينية .

٧ — الفن الإسبانى

لقد عبرت العمارة الإسبانية المتشبثة بالطراز القوطى تعبيراً قوياً عن ذلك الطابع المكين للقرون الوسطى . ولم يسخط الشعب على المرويدات(١) التى أعانت ضمير الملوك والنبلاء على إنفاق المال أو السياسة الدينية ، لبناء الكتدرائيات الضخام كما دفعت إلى الإسراف فى الزينة باهظة النفقة والنحت والتصوير الرائعين على القديسين الأثيرين لديهم وعبادة أم الرب بكل مشاعرهم . وأقيمت كتدرائية برشلونة فى بطء بين عامى ١٢٩٨ ، ١٤٤٨ : وبين فوضى الطرق الضيقة ترتفع أعمدتها الساحقة وبابها الذى لا مزية له وصحنها المنيف بينما لا تزال أروقتها ذوات النوافذ الكثيرة تصلح ملجأ يعتصم الناس فيه من جهاد النهار . ومدت بلنسية وطليطلة وبرجوس وبرغشت ولاردة وطراكونة وسرقسطة وليون أو زينت معابدها التى كانت موجودة من قبل ، بينما أقيمت معابد جديدة فى وشقة وبمبلونة التى تعد أروقتها من الرخام الأبيض ، ذوات النقش الرشيق ، تعدّ فى جمال أبهاء الحمراء . وفى عام ١٤٠١ قررت هيئة الكتدرائية فى إشبيلية أن تشيد كنيسة تبلغ من العظمة والجمال حداً يجعل الذين يشاهدونها فى الأجيال المقبلة يرون أننا مجانين لإقامتها . » فأزال المعماريون المسجد المتهالك الذى يقوم على المكان المختار لبناء الكنيسة ولكنهم أبقوا على أسسه ، وعلى تخطيطه ومئذنته

---

(١) المرويدات جمع مرويدة ، وهى عملة إسبانية تساوى ربع بنس إنجليزى فإذا كانت ذهبية بلغت قيمتها ١٤ شلناً .

الجيرالدا ، البديعة . وظلوا يضعون حجراً فوق حجر طوال القرن الخامس عشر حتى أكملت إشبيلية تشييد أكبر بناء قوطى فى العالم[1] ، وقال عنها تيوفيل جوتييه : « إن كنيسة نوتردام فى باريس قد تسير منتصبة القامة فى صحنها . » ومع ذلك فإن نوتردام كاملة ، وكتدرائية إشبيلية فسيحة . وعمل سبعة وستون نحاتاً وثمانية وثلاثون مصوراً من موريللو إلى جويا ، على تزيين هذا الكهف العظيم للآلهة .

واقترح المعمارى جويللوموبو فى حوالى عام ١٤١٠ على هيئة كنيسة جيرونا أن يزيل الأعمدة والعقود ، التى تقسم داخلها إلى صحن ممرات ، وأن يوحد الجدران بعقد واحد عرضه ثلاثة وسبعون قدما . ونفذ ذلك ، وهكذا أصبح لصحن كتدرائية جيرونا أعرض عقد قوطى فى العالم المسيحى . وكانت نصراً للهندسة وهزيمة للفن . وشيدت أضرحة لم تبلغ هذه الضخامة إبان القرن الخامس عشر فى بربنيان ومانريزه واسترقة وبلد الوليد . وتوجت شقوبية عمارتها بتشييد كتدرائية على شكل حصن عام ١٤٧٢ ، وأتمت سجيونزا أروقتها المشهورة عام ١٥٠٧ ، وبدأت سلمنقة فى إقامة مزارها الجديد عام ١٥١٣ وترتفع فى كل مدينة كبيرة فى أسبانيا ، ما عدا مدريد ، كتدرائية تبدو من الخارج بناية ضخمة فى جلال رائع وداخلها يسترحم الشمس بظلامه الدامس ويروع النفس بالتقوى ، ومع ذلك تبدو زاهية بالألوان الناصعة التى يتسم بها فن التصوير الأسبانى ، وبتماثيلها الملونة وبريق الجواهر والفضة والذهب . وهذه هى دور الروح الاسبانى ، الخاضع فى خوف المتكبر فى وحشية .

وعلى الرغم من هذا كله وجد الملوك والنبلاء كما وجدت المدن ،

---

(١) على مساحة مقدارها ١٢٥ ألف قدم مربع ، وكتدرائية القديس بطرس على مساحة تبلغ ٢٣٠ ألف ، ومساحة مسجد قرطبة ٦٠٠ ألف .

الأموال لتشييد القصور الباهظة . وكان بطرس الغشوم وفرديناند وايزابلا وشارل الخامس يعيدون تشكيل القصر "Alcazar" الذى صممه معمارى مسلم فى إشبيلية عام ١١٨١ ، وقام بمعظم الترميم مسلمون من غرناطة حتى ليبدو البناء أخا ضعيفا للحمراء . ولقد شيد دون بدرو انرنيكز على طراز إسلامى مشابه ، لأمراء القلعة "Alcala" فى إشبيلية (١٥٠٠) قصراً منيفا ، وهو قصر بيلاطس وكأنما يكرر الدار التى يقال أن بيلاطس ، أسلم من بابه المسيح للصلب ولقد زود ديوان بلنسية (١٥٠٠) للبلاط المحلى بصالون دوراد وينافس فى فخامته سالا دل ماجيور كونسيجليو ، فى قصر الدوج فى البندقية .

وكان فن النحت لا يزال خادما للعمارة والعقيدة ، يزحم الكنائس الاسبانية بتماثيل العذراء من المرمر أو المعدن أو الحجر أو الخشب ، وهنا نجد التقوى تتجسم فى أشكال دينية صارخة ، أو زهدية جافية ، يذكيها اللون ويضاعف من إثارتها للروع كآبة صحونها . ويفاخر الفن الأسبانى خاصة بالحواجز المنقوشة والملونة المقامة خلف منضدة المذبح ، وأنفقت مبالغ طائلة اغتصبت تحت وطأة التهديد بالموت ، لجمع أحذق الصناع — والاحتفاظ بالمصممين والنقاشين والنحاتين والدورادور الذين يذهبون أو يدمشقون[1] السطوح والاستوفادور الذين يصبغون الثياب والحلى والانكارنادور الذين يلونون الأجزاء التى تحكى اللحم ، وعمل الجميع معا أو بالتناوب فى الضريح. وخلف المذبح الرئيسى لكتدرائية إشبيلية حاجز يتألف من خمسة وأربعين قسما (١٤٨٣ — ١٥١٩) — ويصور الأساطير المحببة ، فى تماثيل ملونة أو مذهبة على الطراز القوطى المتأخر ، بينما يعرض حاجز آخر فى كنيسة القديس سانت جيمس فى كتدرائية طليطلة فى خشب شربين مذهب وبواقعية متجهمة سيرة أكبر قديس أسبانيا تمجيداً .

---

(١) يدمشقون يزخرفون بزخارف دمشقية .

وقد يمثل الأمراء والمطارنة فى فن النحت ؛ ولا يكون ذلك إلا على قبورهم التى توضع فى الكنائس أو للأديرة التى تعد المداخل إلى الجنة وعلى هذا النحو دفنت دونا منسيا أريكيز ، دوقة البوكرك فى حدث منقور نقرا جميلا ، وهو الآن موجود فى متحف الجمعية الأسبانية فى نيويورك ، وحفر بابلو أرتيز لكتدرائية طليطلة ، تابوتين فخمين لدون الفاروده لونا وزوجته . وصمم جيل ده سيلوى فى دير ميرا فلورس الكارثوسى بالقرب من برغشت ، مدفنا فخما على الطراز الإيطالى لوالدى الملكة وأخوتها . وبلغ من ابتهاج إيزابلا بهذه المدافن الشهيرة للرفات الملكية إنها عندما علمت بمصرع وصيفها ، جوان ده باديلا (الذى كان شجاعاً فى استهتار حتى أطلقت عليه « معتوهى ») بإصابة فى رأسه إبان حصار غرناطة ، كلفت ده سيلوى ، أن ينقر مدفنا ملكيا لضم رفاته ، ونافس جيل مرة أخرى أحسن ما فى فن النحت الإيطالى فى عصره .

وليس هناك فن أكثر تميزاً من الفن الاسبانى ، ومع ذلك فليس بينها ما أسلم للتأثير الأجنبى بخشوع مثله . وخضع أول أمره ، بطبيعة الحال ، للتأثير الإسلامى ، الذى استقر طويلا فى شبه الجزيرة ، وإن استمد جذوره من العراق وفارس وأدخلت فى الطراز الأيبيرى ، دقة فى الصناعة ، وكلفابالزينة قلما تضارع فى أى بقعة من بقاع العالم المسيحى . أما فى الفنون الصغرى ، حيث يحتل الزخرف المكان الأكبر ، فإن اسبانيا قلدت فيها أساتذتها العرب ولم تتفوق عليهم فيها قط . فترك الخزف بأكمله للمدجنين ، الذين لم يضارعهم فى لمعان آثارهم سوى الصينيين ، والذين زادت قراميدهم الملونة — وبنوع أخص الزلزلى الأزرق — من أبهة الأرضيات والمذابح والنوافير والجدران والسقوف فى أسبانيا المسيحية . كما أن الحذق الإسلامى نفسه ، قد جعل المنسوجات الاسبانية من المخمل والحرير والمخرم — أدق ما فى العالم المسيحى من نوعه . وهذا الحذق يبدو مرة أخرى فى المصنوعات الجلدية

الاسبانية ، وفى الزخارف العربية « أرابسك » وفى الحواجز المعدنية وفى أوعية السر المقدس الدينية وفى النقش على الخشب الذى تصنع منه الحواجز خلف المذبح ومقاعد الشمامسة والأقبية وتسللت تأثيرات متأخرة من التصوير البيزنطى ثم من فرنسا وبرجنديا والأراضى الواطئة وألمانيا . واستمد النحت والتصوير الاسبانيان واقعيتهما الرائعة من الهولنديين والألمان — وهى الواقعية التى أظهرت رسوم العذراء مخيفة بالتمدر الذى يجعل سنها ملائمة لأن تكون أم المصلوب ، على الرغم من رأى ميشيل انجيلو من أن العذرة التى تبتعث الشباب — ولقد انحسرت جميع هذه التأثيرات إبان القرن السادس عشر أمام انتصار الطراز الإيطالى الذى شمل القارة الأوربية .

وسار التصوير الاسبانى فى تطور مماثل ، ولكنه تقدم ببطء ، وربما كان ذلك لأن المسلمين لم يبذلوا فى هذا المجال معاونة أو توجيها . وكانت الصور الجدارية القطلونية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أحط من حيث التصميم ، من الرسوم على جدران كهف التاميرا التى تعود إلى ما قبل التاريخ فى إسبانيا . ومع ذلك فما جاء عام ١٣٠٠ حتى أصبح التصوير الفتنة التى تأخذ بالألباب فى شبه الجزيرة بأسرها ، وصور ألف فنان صوراً جدارية كثيرة ولوحات ضخمة على المذبح ، وقد بقى بعضها مما يرجع إلى عام ١٣٤٥ مدة طويلة أكثر ما يستحق — وفى عام ١٤٢٨ زار جان فان ايك ، إسبانيا وأدخل معه تأثيراً فلمنكيا قويا . وأرسل ملك أرجون بعد ذلك بثلاثة أعوام ، لويس دلو ، ليدرس الفن فى بروجس ، ولما عاد صور لويس صورة مغرقة فى الفلمنكية هى « عذراء مجلس الشورى » . وأخذ المصورون الاسبان منذ ذاك ، وإن ظلوا يفضلون الألوان غير اللامعة ، يغمسون ألوانهم فى الزيت شيئا فشيئا .

وبلغ عصر البدائيين فى التصوير الاسبانى ، ذروته على يد بارتلومة برميجو (المتوفى عام ١٤٩٨) وقد حفر نفسه اسما فى فترة مبكرة عام ١٤٤٧

بصورته سانتو دومنجو المعلقة فى البرادو . أما صورتا : سانتا انجراسيا التى اشتراها متحف جاردنر فى بوسطن ، وسانت ماكايل الموجودة فى مجموعة ليدى ليدلو ، فإنهما جديرتان برفائيل ، الذى جاء بعده بجيل من الزمان . ولكن أحسنها جميعها هى صورة بيتا (١٤٩٠) فى كتدرائية برشلونة : وفيها جيروم أصلع على عينيه نظارات ، ومريم سمراء أسبانية تمسك بابنها الكسيح الهزيل الذى لا حياة فيه ، وفى مهاد الصورة أبراج أورشليم تظللها سماء قريبة ، وإلى اليمين صورة جافية للمنعم الكاهن ديسبلا ، غير مرجل الشعر غير حليق اللحية ، يشبه قاطع طريق تائباً محكوما عليه ، ويوحى تصور برميزو المريض الإنسانية . وهنا نجد أن الرشاقة الإيطالية تتحول إلى قوة اسبانية ، وتحتفل الواقعية بانتصارها فى الفن الإسبانى .

واستمر التأثير الفلمنكى فى فرناندو جاليجوس ، وأثمر رائعة مذهلة بـ « فارس من جماعة قلعة رباح » ، صورها ميجويل سيثيوم وهو فلمنكى فى حاشية إيزابلا ، وهى من أجمل صور الأشخاص فى المعرض القومى بواشنطن . ولكن التأثير الإيطالى بدأ مرة أخرى عندما عاد بدرو برجوت إلى اسبانيا بعد تمرس طويل فى إيطاليا . وهناك درس مع بيرو دلافرنشسكا وميلوزودا فورلى ، وتمثل طريقتهما الهادئة فى التظليل . ولما أراد فيديريجو أمير أربينو ، مصورين يزينون قصره ، اختار جستوس فون جنت وبيرو سبانيولو ، ولما توفى الدوق (١٥٨٢) جلب بدور فن التكليل معه إلى اسبانيا ، ورسم لوحات مذبح مشهورة فى طليطلة وأبلة والصور المنسوبة إليه فى اللوفر والبريرا والرادو ومتحف كليفلند ، فلم تؤيد شهرته الحالية ، أباعتباره فيلاسكين الملوك الكاثوليك ؟ ولكنها تبدو فى الرسم والتأليف أعظم من جميع الآثار التى ظهرت فى اسبانيا قبلهم .

وأخذت العوامل الأجنبية تتفاعل ببطء مع العبقرية الوطنية لتمهد الطريق لظهور الآثار الفنيةالناضجة التى قام بها الونزوكواللو والجريكو فى عهد فيليب

الثانى ، وانتصارات فيلاسكيه وزرباران وموريللو فى عصر اسبانيا الذهبى إبان القرن السابع عشر . والعبقرية موهبة فردية من القوة والإرادة . ولكنها فى الوقت نفسه ميراث اجتماعى للنظام والقدرات تشكلت على الأيام وتمثلها النمو والعبقرية تولد وتصنع فى آن واحد .

٨ ـ الأدب الاسبانى

وكان على النفوذ الإيطالى فى الأدب أن يتريث فى الوقت الذى تبادلت فيه أسبانيا التأثير مع فرنسا فى القرون الوسطى . وربما أخذ التروبادور فى برفانس عن أسبانيا الإسلامية والمسيحية ، قوالبهم وأخيلتهم الشعرية ومع ذلك فقد أرسل جون الأول ملك أرجون وفدا إلى شارل الرابع ملك فرنسا (١٣٨٨) يطلب مجىء — التروبادور من تولوز إلى برشلونة ، لينشئوا فيها فرعا من فرقتهم ، الحكمة المرحة وتحقق له ذلك وعقدت المطارحات الشعرية فى برشاونة وطرطوشة على النهج البروفانسى ، وشغفت الأقلية المتعلمة فى أرجون وقشتالة بنظم الشعر وإلقائه . وأنشد منشدون جوالون القصائد الغنائية فى الحب أو العقيدة أو — الحرب بمصاحبة آلات وترية بسيطة .

وإذا كان الجيل الثانى فقد أيد جون الثانى ملك قشتالة النماذج الشعرية الإيطالية . وانتشرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية طرائف النظم الإيطالى وأوزانه عن طريق نابولى وصقلية ، حيث حكم الإسبان ، وعن طريق جامعة بولونيا ، حيث تعلم الشباب الإسبانى مثل آل بورجيا ، ووجد دانتى وبترارك مقلدين لها مشغوفين بهما باللسان القشتالى . وكانت مقطعات الشعراء الإسبان الغنائية تجمع بين وآخر فى دواوين الشعر الغنائى cancioneros ، وهى أناشيد فروسية العاطفة بتراركية الأسلوب . واستورد ماركيز سنتيلانا — وهو سياسى وباحث وراعية للأدب وشاعر — قالب المقطوعة الغنائية فى إيطاليا ، وسرعان ما صنف تاريخا للأدب . وقلد جوان ده مينا ، دانتى

تقليداً صريحاً فى ملحمة شعرية ، عنوانها « قصر التيه » وقد فعلت الكثير لتجعل اللغة القشتالية لغة أدبية ، مثلما فعلت الكوميديا الإلهية ، للغة الحديثة التسكانية وسبق دون جوان مانويل فى الوقت نفسه بوكاشيو ، فى كتابة حكايات درامية اقتبس شكسبير من إحداها الشخصية التى لا يمكن تصديقها لبتروشيو فى ترويضه النمرة .

وظلت الرومانس تجد لها مدخلا لكل طبقات القراء . وترجمت أماديس ذاجولا إلى الإسبانية (١٥٠٠) على يد جارسا أردونيه ، الذى أكد لقرائه ، أنه استحدث فى الأصل البرتغالى تنقيحا كبيراً ، وما دامت هذه الترجمة قد ضاعت فنحن لا نستطيع أن نخالفه . أماديس ابن غير شرعى لأميرة بريطانية خيالية ، وقد ألقت به أمها فى البحر . فأنقذه فارس اسكتلندى وصار وصيفا للملكة اسكتلنده . ويترك ليوزيرات ملك إنجلترا ابنته أوريانا التى تبلغ من العمر عشرة أعوام فى البلاط الاسكتلندى ، ليخمد ثورة مغتصب لملكه . وتعين الملكة أماديس الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما وصيفا لاوريانا قائلة « هذا طفل يقوم على خدمتك » . . فأجابت إن هذا يسرها . واحتفظ الطفل بهذه الكلمة فى قلبه ، على نحو لم تفارقه بعد ذلك قط . . . ولم يكل قط ، طوال أيام حياته من خدمتها . وهكذا بقى حبهما مابقيا ، ولكن أماديس الذى لم يعرف مطلقا مدى حبها له ، رأى نفسه جسوراً فى أن يحصر أفكاره فيها وقد أدخل فى اعتباره عظمتها وجمالها ، ولم يجسر قط ، أن يتفوه بكلمة معها وهى أيضا ، وان أحبته من قلبها ، حرصت على ألا تكلمه أكثر مما تكلم غيره ، ولكن عينيها وجدت السلوى العظيمة فى أن تبدى لقلبها أعظم ما تحبه فى الدنيا .

ومن المطمئن أن نعلم أن حبهما قد انتصر بزواجهما ، بعد محن بلغت من الكثرة فى القصة قبل الزواج ، ما بلغته بعد ذلك فى الحياة . وفى هذه الحكاية الطويلة لحظات كثيرة تزخر بالعاطفة وبعضها يتسم بالنبل ، وإذا

كان سرفانتيس ، قد أقسم أن يمحو كل هذا النوع من القصص الخيالى فإنه أبقى هذه باعتبارها أحسنها .

وتعد الرومانس مورداً واحداً من موارد الدراما ، التى انبثقت ببطء من مسرحيات المعجزات والأخلاقيات ، فى صورة الهزليات الشعبية ومسرحيات التنكر الخاصة بالبلاط . وأقدم وقت معلوم فى تاريخ الدراما الاسبانية هو عام ١٩٤٢ ، عندما ظهرت على المسرح المحاورات الدرامية لخوان دل انسينا وسار فرناندو ده روجاس وهو من المتنصرين خطوة أخرى نحو الدراما بتأليفه La Celestina ، « القوادة » (١٤٩٩) وهى قصة تسرد بطولتها فى كل شكل حوار ، وتنقسم إلى اثنين وعشرين فصلا ، وكانت أطول من أن تمثل على المسرح ، بيد أن تشخيصها الحى وحوارها المشرق قد مهدا للكوميديا الإسبانية الإنسانية الكلاسيكية .

وكانت الكنيسة تعمل على تعويق الدراسات وتشجيعها معا . بينما قيينا أخذت محكمة التفتيش تراقب الفكر ، فإن صفوة رجال الدين قد عملوا الكثير من أجل التربية والتعليم . وجلب الإيطاليون من أمثال بيترو مارتيره وانجيرا ، الذى جاء إلى إسبانيا عام ١٤٨٧ ، أخبار الحركة الإنسانية ، كما عاد الأسبان الذين تعلموا فى إيطاليا بعدوى التحمس لها . واستجاب بيتر مارتير لطلب الملكة فافتتح فى بلاطها ، كما فعل الكوبن لشرمان قبل ذلك بسبعة قرون ، مدرسة لتعليم الآداب واللغات الكلاسيكية . ودرست الأميرة جوانا اللاتينية فى جد ومثابرة قبل أن تصاب بالجنون . وكتب بيتر نفسه التواريخ الأولى للكشوف الجغرافية فى أمريكا ، بعنوان « فى أمور المحيطات وفى أمور الكرة الأرضية الجديدة (١٥٠٤)» De rebvs Oceanis et novo orbe والكلمتان الأخيرتان تسايران استعمال فسبوتشى (١٥٠٢ ؟) لهما قبل ذلك لتدل على العالم الجديد .

وأسهم الكاردينال اكسيمنيس ، الذى كان إيمانه صارما حاداً كالصلب فى الحركة الكلاسيكية . وقد أسس عام ١٤٩٩ كلية الدوفنسو ، وفى عام

١٥٠٨ جامعة القلعة . وهناك بدأ ، عام ١٥٠٢ ، تسعة من اللغويين تحت إشرافه بأحد الأعمال الكبيرة للنهضة العلمية ، وهو « الكتاب المقدس[1] بعدة لغات » Biblia polyglotta compluti وهو أول نسخة كاملة للكتب المقدسة المسيحية باللغات الأصلية . ولقد أضاف الناشرون إلى النص العبرى الماسوريتى للعهد القديم والنص اليونانى للعهد الجديد ، على عمود متقابل أو تعليق ، الترجمة اليونانية وترجمة جيروم للاتينية وشرحا سريانيا للتوراة . فتح ليو العاشر ، لمعاونى اكسيمنيس ، خزائن مخطوطات الفاتيكان ، ونشر ثلاثة من اليهود المتنصرين علمهم العبرى ، وتم تحقيق هذه النصوص عام ١٥١٧ ولكن المجلدات الستة لم تطبع إلا عام ١٥٢٢ . وأحس اكسيمنيس بالوفاة ، فاستحث علماؤه . قائلا : « لا تضيعوا وقتا فى تنفيـذ عملنا المجيد ، وإلا ، فقدتم فى خضم حوادث الحياة داعيكم أو قدر على أن أندب فقد أولئك الذين خدماتهم أعظم فى نظرى من كنوز الدنيا وأمجادها » ، وقدم إليه المجلد الأخير قبل وفاته بأشهر قليلة مع تحيات أصدقائه . وقال لهم إنه لا يوجد بين جميع أعمال إداراته ما هو أحق من هذا بتهنئتهم . وشرع إصدار نصوص أرسطو بالطريقة نفسها ، مع ترجمة لاتينية جديدة لها . ولكن المنية حالت بينه وبين ذلك .

٩ ــ موت الملك

سبقت ايزابلا وزيرها الناشط فى المغامرة الكبرى فقد كانت على الرغم من قساوتها ، امرأة عميقة الإحساس ، احتملت ملمات أشد وطأة من الحروب . فقد دفنت أمها عام ١٤٩٦ . ومات من أطفالها العشرة خمسة عند الولادة أو فى سن الطفولة ، ومات اثنان آخران فى الشباب المبكر .

---

(١) نسبة إلى كبلوتم ، ومعناها مثمر ، وهو الاسم اللاتينى القديم لمدينة القلعة .

وفقدت ابنها الوحيد عام ١٤٩٧ ، وهو أملها الوحيد فى وراثة طبيعية للعرش ، كما ماتت أحب بناتها عام ١٤٩٨ ، وهى ملكة البرتغال ، التى ربما وجدت شبه الجزيرة توحيدا سلميا لو قدرت لها الحياة . وكابدت وسط هذه الضربات المأساة اليومية وهى تشاهد ابنتها جوانا ، التى كانت وقتذاك ولية للعهد ، تفقد عقلها ببطء .

وكانت جوانا قد تزوجت فيليب الجميل ، دوق برجندى وابن الإمبراطور مكسيمليان الأول (١٩٤٦) وأنجبت منه إمبراطورين مقبلين هما شارل الخامس وفرديناند الأول . وأهملها زوجها فيليب إما لمزاجها المتقلب ، أو لسفاهتها ، واستمر على اتصال بإحدى سيدات بلاطها فى بروكسل ، وجزت جوانا شعرها الخلاب فأقسم زوجها ألا يضاجعها — وسمعت ايزابلا بهذا كله . فوقعت مريضة وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٥٠٤ كتبت وصيتها . بأن يحتفل بجنازتها أبسط احتفال وأن المال المدخر من هذا الصنيع يجب أن يوزع على الفقراء ، وأن تدفن فى دير فرنسسكانى داخل الحمراء ، وأضافت : ولكن إذا رأى مولاى الملك أن يكون جدثه فى مكان آخر وصيتى أن ينقل جثمانى إلى جواره ، وأن الاتحاد الذى نعمنا به فى هذه الدنيا ، وقد تقتضى رحمة الله أن تتحد معا روحانا مرة أخرى فى الآخرة ، ويمثله اتحاد جسمينا فى الثرى » وماتت فى الخامس عشر من نوفمبر عام ١٥٠٤ ودفنت كما أوصت ، حتى إذا مات فرديناند نقل جثمانها ليدفن إلى جواره فى كتدرائية غرناطة . وكتب بيتر مارتير « لقد فقدت الدنيا أنبل زينتها ، لا أعرف أحداً من جنسها فى العصور القديمة أو الحديثة ، جديرة على الإطلاق بأن يوضع اسمها مع هذه المرأة التى لا تضارع » . (لقد كانت مرجريت ملكة السويد بعيدة عن مجال إدراكه ، كما أن اليزابث ملكة انجلترا كانت كذلك لم تأت بعد) .

وقد عينت وصية إيزابلا ، فرديناند ليكون نائب ملك على قشتالة

من أجل فيليب الذى تمثله الأراضى الواطئة ومن أجل جوانا التى تسرع الخطى نحو الاعتصام بالجنون . وكان أمل فرديناند أن يمنع سقوط العرش الأسبانى فى يد آل هبسبرج ، فى شخص شارل بن فيليب ، فبادر وهو فى الثالثة والخمسين إلى الزواج (١٥٠٥) من جرمين ده فوا ، ابنة أخى لويس الثانى عشر ، والبالغة من العمر سبعة عشر عاماً ، ولكن الزواج ضاعف من سخط النبلاء القشتاليين على مولاهم الأرجونى . وماتت ثمرة هذا الزواج فى سن الطفولة . فطالب فيليب بعرش قشتالة ، ووصل إلى اسبانيا ورحب به النبلاء (١٥٠٦) بينما انسحب فرديناند إلى مقره باعتباره ملكا على أرجون . وبعد ذلك بثلاثة أشهر مات فيليب ، واستعاد فرديناند ملك قشتالة باسم ابنته المخبولة . وظلت جوانا لا لوكا ، ملكة من الناحية القانونية ، وعاشت إلى عام ١٥٥٥ ، ولم تترك قصرها فى توردیزبلاس إطلاقاً ، بعد عام ١٥٠٧ ، وكانت تأبى الاغتسال أو ارتداء الثياب ولم تكل يوماً بعد يوم عن النظر من خلال إحدى النوافذ إلى المدافن التى تضم رفات الزوج الخائن الذى لم تنقطع عن محبته .

وحكم فرديناند حكماً مطلقاً وهو نائب ملك أكثر مما كان وهو ملك فقد تحرر من تأثير إيزابلا الملطف ، وتحولت عناصر الصلابة والانتقام فى شخصيته إلى التصلب الصارم . وكان قد استعاد قبل ذلك روسيلون وسردينيا (١٤٩٣) كما فتح جونزالو أمير قرطبة باسمه نابولى عام ١٥٠٣ . ونقض ذلك معاهدة وقعها فيليب مع لويس الثانى عشر فى ليون تقسم مملكة نابولى بين أسبانيا وفرنسا : وأكد فرديناند للعالم بأن فيليب تجاوز تعليماته . وأبحر إلى نابولى واستولى بشخصه على عرشها (١٥٠٦) وساوره الشك فى رغبة جونزالو فى العرش لنفسه ! ولما عاد إلى أسبانيا (١٥٠٧) أخذ معه القبطان الكبير وأسلمه إلى عزلة عدها معظم أهالى أسبانيا إذلالا لا يستحقه .

وسيطر فرديناند على كل شيء إلا الزمن . وغاضت ينابيع الإرادة والنشاط فيه شيئاً فشيئاً . وطالت فترات راحته . وأصابه الإنهاك مبكراً ، فأهمل شئون الحكومة ، وأصبح نافذ الصبر قلقاً ، سيئ الظن إلى حد المرض بأوفى خدامه له . وأضناه الاستسقاء والربو ، وتعذر عليه التنفس فى المدن فمر فى يناير عام ١٥١٦ جنوبا إلى الأندلس ، آملا أن يقضى الشتاء فى ريفه الطلق . ولكنه مرض فى الطريق ، وأقنع آخر الأمر بأن يتأهب للموت . فعين أكسيمينيس ليكون نائب الملك على قشتالة ، كما عين ابنه غير الشرعى كبير أساقفة سرقسطة ، نائب الملك على أرجون . وبات فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٥١٦ فى السنة الرابعة والستين من عمره ، والثانية والأربعين من حكمه .

ولا غرابة فى أن يمتدحه مكيافلى فيقول : كان هنا ملك قام بدور الأمير قبل أن يفكر مؤلفه فى كتابته . فقد جعل فرديناند من الدين أداة للسياسة القومية والحربية ، وغمر وثائقه بعبارات التقوى ولكنه لم يسمح لاعتبارات الأخلاق قط أن تتغلب على مقاصد الضرورة أو الغنم . ولا يستطيع أحـــد أن يشك فى قدرته وكفاءته فى الإشراف على الحكومة ، واختياره الفطن لوزرائه وقواده ونجاحه المستمر فى الدبلوماسية والاضطهاد والحرب . أما من الناحية الشخصية فلم يكن جشعاً ولا مبذراً ، وكانت شهرته تنزع إلى تحقيق السلطة أكثر من تحقيق الترف ، وكان جشعه من أجل بلاده ، يريدها موحدة قوية . ولم يؤمن بالديمقراطية ، وتضاءلت فى كنفه الحريات المحلية وماتت وكان مقتنعاً بأن النظم الإقليمية القديمة لا يمكن التوسع فيها بنجاح أمة تضم ولايات وعقائد ولغات جد كثيرة . وكان عمله وايزابلا معه أن يحل الملكية محل الفرضى والقوة محل الضعف ومهد الطريق لشارل الخامس أن يحتفظ بالسيادة الملكية على الرغم من فترات غيبته الطويلة ، كما مهد الطريق لفيليب الثانى ليركز الحكومة كلها فى رأس واحد

قاصر . وكان آثماً من أجل تحقيق هذه الأغراض بما يعد فى زماننا همجية وتعصباً وقسوة غيرإنسانية ، ولكن يعد عند معاصريه نصراً مجيداً من أجل المسيح .

وحافظ أكسيمنيس باعتباره نائب الملك بحماسة على حكم العرش المطلق ، ولعله كان بديلا من الارتداد إلى الانقسام الإقطاعى . وهو وإن كان فى الثمانين من عمره ، فقد حكم قشتالة بإرادة صلبة ، وقضى على كل محاولة من الإقطاع أو المجالس البلدية لاستعادة سلطاتها السابقة ، فلما سأله بعض النبلاء بأى حق يمنع امتيازاتهم ، لم يشر إلى وثيقة إسناد المنصب إلى شخصه وإنما أشار إلى المدفعية فى فناء قصره . ومع ذلك كانت إرادة السلطة عنده تابعة لإحساسه بالواجب ، لأنه استحث الملك الشاب شارل مراراً على أن يترك فلاندرز وأن يحضر إلى أسبانيا ليتولى ملكها . ولما جاء شارل (١٧ سبتمبر ١٥١٧) سارع اكسيمينيس شمالا لاستقباله . ولكن مستشارى شارل الفلمنكيين أيدوا نبلا قشتالة فى إعطائه تقريراً ضد إدارة الكاردينال وشخصيته ، حتى بعث الملك ، وكان لا يزال فتى غير ناضج فى السابعة عشرة من عمره ، إلى اكسيمينيس ورسالة يشكره فيها على خدماته ، مرجئا مقابلاته مطالبا إياه بأن ينسحب إلى مقره الدينى فى طليطلة لينعم براحة يستحقها . وبعث بعدها برسالة أخرى يعفى المتزمت العجوز من جميع المناصب السياسية ، وبلغته الرسالتان متأخرتين حتى لا يضاعفا من إذلاله ، فقد مات فى الثامن من نوفمبر عام ١٥١٧ بالغا من العمر واحداً وثمانين عاما . وعجب الناس من أنه على الرغم من صلاحه فى الظاهر فقد جمع الثروة الشخصية الضخمة التى خلفتها وصيته إلى جامعة القلعة .

وختم لإسبانيا عصراً غنيا بالأمجاد والأهوال والرجال الأقوياء . ويوحى الأعقاب على هذه الأحداث بأن انتصار التاج على المجالس النيابية والولايات قد أزال الوسيلة التى كانت الشخصية الإسبانية تستطيع بوساطتها أن تعبر وتحافظ

على استقلالها وتنوعها وأن توحيداً قد استتب فى مقابل أن يسيطر على اسبانيا جهاز يعمل على قمع الفكر الأصيل فى أوليات الأشياء وأواخرها ، وأن إجلاء اليهود والمسلمين الذين لم يتنصروا ، قد أنقص من القوة البشرية المعاملة فى التجارة والصناعة فى نفس الوقت الذى تطلب اكتشاف العالم الجديد فيه التوسع والتقدم الاقتصاديين ، وأن تورط أسبانيا المستمر فى سياسات وحروب فرنسا وإيطاليا (ثم فلاندرز وألمانيا وإنجلترا) وضعت أثقالا لا تحتمل على كاهل موارد الأمة فى المال والرجال ، بدلا من تحويل السياسة والمغامرة نحو تطوير الأمريكيتين ومع ذلك فهذه نظرة خلفية وهى تحكم على اسبانيا فى عهد فرديناند وايزابلا باصطلاحات لا يستطيع شعب أوربى فى عصرهما فهمها . فقد اضطهدت جميع الفرق الدينية ، اللهم إلا قليلا من المسلمين ومنكرى تعميد الأطفال ، المخالفة فى الدين ، واستعملت جميع الحكومات ، إيطاليا وفرنسا الكاثولكيتان وألمانيا وإنجلترا البروتستانتيان ، القوة فى توحيد العقيدة الدينية ، واستشعرت جميع الدول الظمأ إلى ذهب جزائر الهند — الشرقية والغربية — وكلها توسلت بالحرب والدهاء الدبلوماسى لتؤكد بقاءها وتوسع حدودها أو تزيد من ثروتها .

ولم تكن المسيحية عند جميع الأمم المسيحية حكما بالوسائل وإنما كانت وسائل إلى الحكم ، وكان المسيح أثيراً عند الشعب وميكافلى أثيراً عند الملوك . وقد حضرت الدولة الإنسان من بعض الوجوه ، ولكن من ذا الذى يحضر الدولة ؟ .

الفصل الثالث عشر

نمو المعرفة (١٣٠٠ - ١٥١٧)

١ - السحرة

لم يزل القرنان اللذان صور تاريخهما الأوربى تصويراً مجملا سريعاً فى الفصول السابقة ، يعدان جزءاً مما اصطلح على تسميته بالعصر الوسيط وهو ما نستطيع أن نحدده تحديداً تقريبياً بأنه سيرة أوربا بين قسطنطين وكولمبس ، أى من ٣٢٥ إلى ١٤٩٢ . وإذا أردنا أن نلخص الآن العلم والتربية والفلسفة فى غرب أوربا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فيجب أن نتذكر أن الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربة والهواء فى غابة من الخرافة والتعصب والخوف . وبين أحداث القحط والطواعين والحروب ، وفى الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء فى القوى الخفية عن بعض التفاسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفى وعن قوة سحرية ما تتحكم فى الأحداث ، وعن ضرب من الفرار الصوفى من الواقع المرير ، وسارت حياة العقل متعثرة فى وسط من العرافة والسحر واستحضار الأرواح وقراءة الكف وفراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيرة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائى للمواد والعلاج بالخوارق وللقوى الخفية فى الحيوان والمعدن والنبات . ولا تزال هذه الأعاجيب حية فى أعطافنا اليوم ، وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفى من كل واحد منا تقريباً ولكن تأثيرها الحالى فى أوربا اليوم أقل بكثير من سلطانها فى العصور الوسطى . .

ولم تدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنما درست من أجل التنبؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما يخبأ للأشخاص من مصير . ويبدو أن التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المد والجزر بالقمر والتوقيت القمرى للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها ، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد . وكانت أمثال هذه التنبؤات تنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطشاً لها . ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم فى أوضاع ملائمة لهذه الأغراض . ولقد حرص هنرى الخامس ملك انجلترا على الاحتفاظ باصطرلاب ليرسم خريطة السماء ، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذى يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات .

واعتقد الناس أن الملائكة تهدى النجوم ، وأن الهواء يزخر بالأرواح الخفية ، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم . وسكنت العفاريت كل مكان وبخاصة فى مخدع الإنسان ، وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن من حمل فى غير أوانه ، وأجمع علماء الدين على أن أمثال تلك الخطيات الخبيثات لهن وجود حقيقى ويستطيع كل امرئ ساذج فى كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مملكة من الكائنات والقوى المسحورة . ولكل شىء طبيعى صفات خارقة . وكانت كتب السحر من أروج الكتب فى ذلك العصر . ولقد عُذب أسقف كاهورز وجلد وألقى به فى المحرقة (١٣١٧) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمثالا من الشمع للبابا يوحنا الثانى والعشرين آملا أن يلقى الأصل مصير الشمع ، كما وعد بذلك فن السحر . واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش .

وخبت شهرة الكيماويين ، ولكنهم استمروا فى أبحاثهم الأمينة وخدعهم البراقة على السواء وفى الوقت الذى أنكرتهم فيه المراسيم الملكية والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأن الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نضبت ، وكان السذج يبتلعون « الذهب المذاب » الذى أكد لهم أنه يشفى كل شىء إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب فى علاج داء المفاصل) . .

ونافس علم الطب فى كل خطوة من خطواته ، التنجيم وعلوم الدين والدجل . ونسب جميع الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى البرج الذى ولد أو مرض فيه المريض ، وهكذا كتب الجراح العظيم جى ده شولياك (١٣٦٣) : « إذا جرح امرؤ فى عنقه والقمر فى برج الثور ، فالإصابة خطيرة » ومن أقدم الوثائق المطبوعة ، تقويم نشر فى منز (١٤٦٢) يبين أحسن الأوقات من ناحية طوالع النجوم لفصد الدم . ونسبت الأوبئة بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم . وأرجع ملايين المسيحيين ، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم فى الطب . وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيرى بلمسة ملكية ويبدو أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذى أدت قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات . وظن الناس أن قوته ، قد انتقلت منه إلى خلفائه ، كما انتقلت عن طريق ايزابلا أميرة فالوا ، وهى أم إدوارد الثالث ، إلى ملوك انجلترا . وحج آلاف أكثر إلى أضرحة تشفى المرض ؛ وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين ، وهكذا اكتظت كنيسة القديس فيتوس بالمصابين بداء الرقص الزنجى : إذ ساد الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص فى علاج هذا المرض وأصبح قبر بيير ده لكسمبورج : وهو كاردينال مات فى الثانية عشرة من عمره بسبب غلوائه فى الزهد ، مزاراً محبباً ، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين

شخص إلى قدرة عظامه السحرية . وذلك فى خلال خمسة عشر شهراً من وفاته . وراجت صناعة الدجالين ، ولكن القانون بدأ يقاومهم . ففى عام ١٣٨٢ حكم على روجر كابرك ، الذى ادعى علاج المرضى بالرقى ، أن يسير فى شوارع لندن راكباً وقد علقت المباول حول عنقه .

واعتقد معظم الأوربيين فى السحر ، أو بعبارة أخرى ، فى قوة بعض الأشخاص على التحكم فى الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها — لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبياً فى هذه الناحية . ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد فى السحر باعتباره ذنباً وعملا يوجب السخرية ، وجعله شارلمان جريمة يعاقب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كل شخص يتهم بصناعة السحر ، وحرم البابا جريجورى السابع هلديبراند ، على محكمة التفتيش ، أن تحاكم السحرة على أنهم السبب فى العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لحقيقة جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبى فى وجود الشيطان وشره فى كل مكان أو وجود أحد أعوانه ، وكم من عقل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضار أمثال هذه الشياطين لمعاونتها . واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس ، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن . ولقد شنق الرجل الإستقراطى انجراند ده مارينى بتهمة السحر عام ١٣١٥ ، وأمر البابا جون الثانى والعشرون عام ١٣١٧ بتقتيل عدد من الأشخاص غير المعروفين ، لأنهم دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين . وأنكر جون مراراً الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه ، وفرض العقوبات عليه ، ولكن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم فى وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها . وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠ ، وشنق كثير من المتهمين أو ألقى بهم فى المحرقة . وساد فى فرنسا الرأى القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية ، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه ، فلما أخفقا جز رأساهما (١٣٩٧) .

وفى عام ١٣٩٧ أصدرت كلية أصول الدين بجامعة باريس ، ثمانية وعشرين مقالة تحرم السحر ، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر . وعد قاضى القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجــود الشياطين أو نشاطها .

أما الكهانة فهى ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها فى اجتماعات ليلية أو سبتية . ويذهب الاعتقاد الشعبى إلى أن السحرة ، وأغلبيتهم من النساء يزودون بقوى خارقة فى مقابل عبادتهم لإبليس . وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية ، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون . رأيد علماء أمثال ارازمس وتوماس مور وجود الكهانة فى الواقع ، وشك فيها بعض القسس فى كلونيا ، وأيدت وجودها جامعة كلونيا . وزعم معظم رجال الكنيسة — ويوافقهم فى ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حد ما — أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هى تعلات لعلاقات جنسية مختلطة ولتحريض الشباب على الفسق . واعترف بعض السحرة اعترافا مزعوماً لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التى أسندت إليهم ، وذلك إما بوساطة وهم مخبول ، وإما للتخلص من التعذيب ، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائى لمسيحية مثقلة ، وبنزعة ترفيهية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوى لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت ويلقى بكثير من الأرواح فى الجحيم ، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد فى الأعياد الوثنية لآلهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإخصاب أمثال باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا .

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر فساد وكفر . وانتدب عدد من البابوات — فى الأعوام ١٣٧٤ و ١٤٠٩

و١٤٣٧ و١٤٥١ وبخاصة البابا انوسنت الثامن عام ١٤٨٤ -عملاء فى محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين ، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى ، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتمادا حرفيا على آية فى سفر الخروج (الأصحاح ٢٢ ; الآية ١٨) « لن تترك ساحرة تعيش » . ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة ١٤٤٦ كانت تكتفى بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق العفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه . ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام ١٤٤٦ ، عددا من السحرة فى هيلدلبرج ، وأحرقت عام ١٤٦٠ اثنى عشر رجلا وامرأة فى أراس ، وأطلق عليهم الفودوا كما أطاق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة فى فرنسا برحلة عبر الاطلنطى حتى أطلقت كلمة فودوويزم voodooism على سحر الزنوج فى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا . وفزع جاكوب سبرنجر قاضى محكمة التفتيش الدومينيكى فزعا شديدا من انتشار السحر فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه : « مطرقة السحرة » . وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم . وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقليب خميرة شيطانية فى قدر أو بوسائل أخرى ، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلتهم محصولا كاملا ، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات ، ويغضبن لبن المرضع أو يجهضن الحامل ، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية ، المرض أو الوفاة . ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم . ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالجو ، وفى إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات . وأبدى سبرنجر ، دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال ، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف رؤوسا وأكثر

شهوة من الرجال ، وأضاف أنهن ، إلى هذا كله ، وسائل محبوبة دائمة لإبليس . ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهن فى مدى خمس سنوات . ومنذ عهده ، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه فى القرن السادس عشر ، فى كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة ، على العصور الوسطى. وفاخر أحد موظفى محكمة التفتيش عام ١٥٥٤ ، بأن محكمة التفتيش ، قد أحرقت ثلاثين ألفا من السحرة على الأقل ، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله .

ولقد ألفت كتب كثيرة فى هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوى كلها على خرافات . ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس ، رسالة ينصحه أن يحرم السحر الخفى ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لايغتفر له أن يجرى فصادا فى مراحل معينة من أوجه القمر . ووجه البابا جون الثانى والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧) ، ونعى ما ظنه انتشارا متزايدا لتقديم القرابين إلى الشياطين ، وأخذ العهود على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية ، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين ، ولكنه أضمر اعتقادا فى قدرتها .

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم فى ذلك العصر ، وقد توفى وهو أسقف ليزيوه عام ١٣٨٢ . وسخر من المنجمين ، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته ، وقال أرزم إن مثل هذه الطوالع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرنا رسالة عن : « قراءة الغيب » فى الرد على مزاعم العرافين ومفسرى الأحلام وأمثالهم . ولقد سلم وسط شكه فى العلوم الخفية بصفة

عامة ، بأن بعض الأحـــداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة . وقبل فكرة « عين الحسود » : وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها . وأن نظرة الوشق[1] قد تخترق الحائط . واعترف بالمعجزات التى فى الكتاب المقدس ، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العلل الطبيعية تكفى للتفسير وقال نيقولا : إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية . وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه ، ولذلك قد تصبح أسطورة — مثل ساحر يتسلق حبلا ألقى به فى الهواء — عقيدة شائعة (وهذه هى أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلا على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن نتردد فى تصديقهم . يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها ، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركا ، والتحرك قد يبدو ساكنا ، وتبدو قطعة النقود الموضوعة فى قاع قنينة مملوءة بالماء ، أبعد منها فى قنينة فارغة . ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل ؛ وهذا أيضاً عرضة للخطأ ويقول أرزم ؛ إن خدع الحواس والفعل تفسر كثيراً من الأعاجيب التى تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية .

وعلى الرغم من هذا التقدم الجرىء نحو الروح العلمى ؛ فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب . ولم تكن مقصورة على الدهماء . فقد دفع إدوارد الثالث ملك انجلترا مبلغاً باهظاً من المـــال للحصول على قارورة ، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا فى سانت شابل : قارورة ، قيل إنها تحوى بعض

---

(١) الوشق : حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل .

دم المسيح وسأل حكماءه وعلماء الدين عنده عن صحتها ، فردوا متحفظين بالإيجاب . وفى هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو .

٢ — المعلمون

إن نهضة التجارة والصناعة قد أضفت أهمية جديدة على التعليم . وإذا كانت معرفة القراءة والكتابة تعد ترفا غالى الثمن فى نظام زراعى فإنها تعتبر ضرورة لا غنى عنها فى عالم المدينة الذى تغلب التجارة عليه . وقد أقر القانون أخيراً هذا التحول ، ذلك أن ملاك الأرض الإقطاعيين فى انجلترا التمسوا عام ١٣٩١ من ريتشارد الثانى تأييد القانون القديم الذى يحرم على رقيق الأرض أن يرسل ابنه إلى مدرسة دون أن يحصل على موافقة سيده ويقضى بتعويض المالك عن العجز فى الأيدى العاملة بالمزرعة . ورفض ريتشارد هذا الالتماس ، أما فى عهد خلفه فقد صدر قانون يسمح لأى رجل بأن يرسل من يشاء من أولاده إلى المدرسة . وفى ظل هذا القانون الذى أطلق حرية التعليم تضاعف عدد المدارس الأولية فى حين بقيت فى الريف المدارس التى يشرف عليها الرهبان . أما فى المدن فإن الكنائس والمستشفيات والبيع والطوائف الحرفية كانت تمول المدارس الكبيرة وكان الالتحاق بها اختياريا بعد أنه شاع حتى فى القرى .

وكان المعلمون فى العادة من القسس ولكن نسبة المعلمين من غير رجال الدين ارتفعت فى القرن الرابع عشر . وكان برنامج الدراسة يركز على الوعظ : والعقيدة الدينية والصلوات الأساسية والقراءة والكتابة والحساب والغناء والجلد بالسياط ، ولقد كان هذا الجلد بالسياط عماد التعليم حتى فى المدارس الثانوية وفسر أحد رجال الدين ذلك بقوله : « يجب قمع أرواح الأولاد » . وسلم معه الآباء بذلك وربما كان الأمر على هذا النحو . ولقد حثت أجنس باستون مربى ابنها الخامل قائلة : « اجلده ، إذا لم ينصلح حاله : فأنا أوثر أن يدفن حيا على أن أراه يضيع بسبب الإهمال » .

تابعت المدارس الثانوية سياسة التربية الدينية وأضافت إليها قواعد اللغة وكانت لا تشمل النحو والصرف والإنشاء فحسب ، بل كانت تشمل اللغة أيضاً كما أنها هذبت أدب روما الكلاسيكى وتعلم الطلبة من أبناء الطبقة المتوسطة قراءة اللاتينية وكتابتها وإن كان هذا قد حدث بلا اكتراث وذلك باعتبارها من الضروريات للاشتغال بالتجارة الخارجية والعمل بالكنيسة . وكانت أحسن المدارس الثانوية إبان ذلك العهد تلك التى أنشأها فى هولندا وألمانيا إخوان « الحياة المشتركة » وكان بمدرسة ديفنتر ألفا طالب . وكان لويليام الأوكهامى ، أسقف ونشستر الثرى المقدام فضل السبق فى إنشاء أولى المدارس العامة فى انجلترا وهى معاهد تعتمد على الإعانات التى تتلقاها من الأفراد والهيئات العامة لتزود عدداً محدوداً من الأولاد بالمعلومات وتعدهم للالتحاق بالكلية . وحذا هنرى السادس حذوه فأسس عام ١٤٤٠ مدرسة ايتون ومُنحت الكثير من المال لإعداد الكبار وللالتحاق بكلية الملك بكمبردج .

وكان تعليم النساء ، اللهم إلا بعض كريمات العقائل ، مقصوراً على البيت بعد المرحلة الابتدائية . وتعلم كثير من نساء الطبقة الوسطى مثل مارجريت باستون كتابة الإنجليزية السليمة وألم بضع نفر من النساء بالأدب والفلسفة . أما أبناء الطبقة الأرستقراطية فقد تلقوا تعليما يختلف عما يلقن فى المدارس إذ كانوا حتى سن السابعة يدرسون على يد نساء البيت ثم يرسلون للعمل كوصفاء عند نبيل من الأقرباء أو الجيران وهناك بعيداً عن التأثر بالإفراط فى المحبة يتعلمون القراءة والكتابة والدين وقواعد السلوك من السيدات والقس المحلى وفى سن الرابعة عشر يصبحون تابعين أى خدما كبارا لسيدهم . وفى ذلك الوقت يكونون قد تعلموا ركوب الخيل والرماية والصيد والمقارعة والقتال . أما سعة الاطلاع فقد تركوها لأتباعهم .

وفى غضون ذلك كانت هذه تطور تراثا من أعظم ما ورثوه من العصور الوسطى وهو — الجامعات — وفى الوقت الذى خمد فيه أوار الحماسة

للعمارة الكنسية اشتدت حدة الحماسة لإنشاء الكليات وفى هذه الفترة شهدت أكسفورد إنشاء كليتى أكستر وأوريل وكلية الملك والكلية الجديدة وكليات لنكولن وأول سولز وماجدالين وبراسينوز وكليات الجسد الطاهر ومدرسة اللاهوت . ولم تكن عندئذ كليات بالمعنى الحديث للكلمة بل كانت قاعات ، أو أماكن يقيم فيها عدد مختار من الطلبة وكان يعيش فيها أو يكاد عشر الطلبة فى أكسفورد وكان رجال الدين يدرسون معظم المواد بالجامعة فى فصول دراسية أو فى قاعات للمحاضرات متناثرة فى أنحاء المدينة . وتمسك الرهبان البندكتيون والفرنشسكان والدومينيكان وغيرهم من طوائف الرهبان بكلياتهم المعهودة فى أكسفورد وتخرج من هذه الكليات الملحقة بالأديرة نفر من ألمع الرجال فى القرن الرابع عشر ، من بينهم دونز سكوتوس ووليام الأوكهامى وكلاهما ألحق بعض الضرر بدراسة اللاهوت الأرثوذكسى وكان الدارسون للقانون يتلقون تدريبهم فى لندن . فى خانات المحاكم وفى أكسفورد لم يكن هناك تعاطف بين سكان المدينة وبين الطلبة فى الكليات — أى بين المواطنين وطلاب العلم . فقد حدث فى عام ١٣٥٥ أن اندفع المعسكران المتعاديان إلى حرب مكشوفة وقتل كثير من الأبطال حتى عرف هــذا العام باسم عام « المذبحة الكبرى » .

وعلى الرغم من إدخال عقوبة الجلد بالسياط فى جامعات انجلترا (عام ١٣٥٠) فإن الطلبة كانوا فئة مشاغبة وإذا كان قد حرم عليهم ممارسة الألعاب الرياضية داخل جدران كلياتهم فإنهم عددوا نشاطهم فى المجون واحتساء الخمر والصيد والقنص وكانت الحانات والمواخير تلقى رواجا بفضل رعايتهم . وانخفض عدد الملتحقين باكسفورد من ذروته فى القرن الثالث عشر إلى نحو ألف وبعد طرد ويكليف تقلصت الحرية الأكاديمية بشدة الرقابة الأسقفية .

ولقد أفادت كمبردج من الخلاف مع ويكليف ومن الفزع من اللولارد

فمنع المحافظون المتزمتون أولادهم من الالتحاق باكسفورد وبعثوا بهم إلى الجامعة الصغرى ، وعلى هذا فإنه ما أن أشرف القرن الخامس عشر على الانتهاء حتى كان عدد الطلبة المقيدين بالجامعتين المتنافستين متساويا . وأنشئت قاعات جديدة فى كامبردج : مايكل هاوس ويونيفرسيتى أوكلير وجبروك وجونفيل وكايوس وترينيتى وكوريس كرسيتى وكمجز وكويدة وسانت كاترين وجيزوس وكريست وسانت جون . وقد أصبحت هذه كليات بالمعنى المفهوم عندنا — مثل قاعات الإقامة فى أكسفورد إبان القرن الخامس عشر لأن عدداً متزايداً من المعلمين آثروها ورأوا أنها أصلح الأماكن التى تجتذب محاضراتهم فيها أكبر عدد من المستمعين وكانت الفصول تبدأ فى الساعة السادسة صباحاً وتستمر حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وفى غضون ذلك أنشأت اسكتلندا وأيرلندة بدافع من فقرهما جامعات سانت اندروز وجلاسجو وابردين وكلية ترينتى والمعاهد الأربعة فى دبلن التى شاءت الأقدار أن تصب العبقرية ، جيلا بعد جيل ، فى الحياة الفكرية فى الجزر البريطانية ، أما فى فرنسا فقد عانى التعليم — مثل أى شىء آخر — من حرب المائة عام ومع ذلك فإن الإقبال المتزايد على المحامين والأطباء بالإضافة إلى ما يحبب الناس فى الوظيفة الدينية قد شجع على إنشاء جامعات جديدة فى افنيون Avignon واورليانز وكاهور وجرينوبل وأورانج واكس آن بروفانس وبواتييه وكانوبوردو وفالنس نانت وبورج . وأصبحت جامعة باريس فى القرن الرابع عشر قوة وطنية تتحدى البرلمان وتزجى النصح للملك وتعمل كمحكمة استئناف فى شرح علم اللاهوت الفرنسى واعترف معظم المشتغلين بالتعليم فى القارة الأووبية بأنها جامعـــة «كون الأكوان» Universitas universit atis ، ولعل هذا يرجع إلى أن الملكية كانت توشك على الانهيار . وأدى إرتفاع شأن الجامعات الإقليمية والأجنبية إلى قلة عدد الطلبة المقيدين فى جامعة باريس بل إن كلية الآداب وحدها اشتهرت بأنها

تضم ألف مدرس وعشرة آلاف طالب فى عام ١٤٠٦ ، وكان بالجامعة كلها عام ١٤٩٠ ما يقرب من عشرين ألفاً . عاونت على إيوائهم نحو خمسين كلية . وكان النظام هناك أقل صرامة عما هم عليه فى أكسفورد والأخلاق التى تمتدح فى الطلبة قد آثرت رجولتهم لا دينهم وأضيفت إلى المنهج الدراسى برامج فى اللغات الإغريقية والكلدية والعبرية .

وأنشأت أسبانيا جامعاتها الرائدة فى القرن الثالث عشر فى بالانسيا وسلمنقة ولاردة وارتفع شأن جامعات أخرى فى برايبجنان ووشقةوبلد الوليد وبرشلونة وسرقسطة وبالما وسيجونرا وبلنسية والقلعة وإشبيلية . وخضعت هذه المعاهد لرقابة دينية صارمة وكان لعلم اللاهوت المقام الأول فيها . ومهما يكن من أمر ، فقد خصص فى جامعة القلعة أربعة عشر كرسيا (أستاذية) لعلم النحو والصرف والأدب والبلاغة واثنا عشر كرسيا للاهوت والقانون الكنسى ، وظلت جامعة القلعة فترة ما أعظم مركز تعليمى فى أسبانيا ، وفى عام ١٥٢٥ كان عدد الطلبة المقيدين بها سبعة آلاف . وقدمت المنح للطلبة المعوزين وكان ويتحكم فى مرتب الأستاذ عدد طلابه . وكان يطلب من كل أستاذ أن يستقيل كل أربع سنوات ولا يكون صالحاً للتعيين من جديد إلا إذا كان عمله مرضياً . وفى لشبونة وفى عام ١٣٠٠ أنشأ الملك دينيز جامعة ولكن شغب الطلبة جعله ينقلها إلى كويمبرا ولا تزال هذه الجامعة من مفاخرها حتى اليوم .

وكانت الحركة الفكرية فى هذه الفترة بأوروبا الوسطى أقوى منها فى فرنسا أو أسبانيا ، فقد أنشأ شارل الرابع عام ١٣٤٧ جامعة براغ التى سرعان ما تزعمت الحركة الفكرية لشعب بوهيميا وغدت لسانها الناطق . وظهرت جامعات أخرى فى كراكو وفيينا وبيكس وجنيف وارفورت وهايدلبرج وكولونيا وبودا ، وفورتسبرج وليبتسيج وروستوك ولوفين وترير وفرايبورج — أم — برايسجاو وجريفسفالد وبازيل وانجولشتادت وبرسبورج ومباينز

وتوبنجن وكوبنهاجن وأوبسالا وفرانكفورت – آن – أودر وفيتنبرج .
وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت هذه المعاهد تعج بأفواج الطلاب والمناظرات . وكان فى كراكو وحدها ١٨٣٣٨ تلميذاً فى آن واحد وكانت الكنيسة تقدم معظم المال ومن الطبيعى أن يطلق عليها لحن الفكر ، ولكن الأمراء والنبلاء والمدن ورجال الأعمال أسهموا فى التبرع للكليات وتقديم المنح الدراسية . فقد زود الأمير فريدريك صاحب ساكسونيا جامعة فيتنبرج جزئياً بالمال المحصل من بيع صكوك الغفران والذى رفض أن يرسله إلى روما . وأنشئت لفلسفة الكلام كراسى أستاذية فى الفلسفة بينما ارتقى شأن العلوم الإنسانية خارج أسوار الجامعة ولذلك انضمت معظم جامعات ألمـانيا إلى الكنيسة إبان عهد الإصلاح الدينى باستثناء جامعتين مهمتين : ارفورت التى درس فيها لوثر وفيتنبرج التى كان يدرس بها .

العلمـــاء

كان المزاج العلمى لا يكاد يشيع بين جهابذة العلماء أكثر مما يشيع بين عامة الناس . وكانت روح العصر تميل إلى « الإنسانيات » بل إن حركة إحياء الدراسات الإغريقية تجاهلت علم الإغريق . وفى مجال الرياضيات وقفت الأرقام الرومانية حجر عثرة فى سبيل التقدم ، وبدا أنها لا تنفصل عن الثقافة اللاتينية ثم إن الأرقام الهندية العربية ظهرت وكأنها بدعة إسلامية وقوبلت بعدم اكترات وبخاصة شمال الألب . وقد استخدم ديوان المحاسبة وإدارة حسابات الحكومة الفرنسية الأرقام الرومانية السمجة حتى القرن الثامن عشر . ومع ذلك فإن توماس برادواردين الذى مات بوباء الطاعون عام ١٣٤٩ بعد مرور شهر من تكريسه كبيراً لأساقفة كنتربرى – أدخل إلى انجلترا عـــدة نظريات عربية فى حساب المثلثات وكان تلميذه ريتشارد والنجفورد رئيس دير سانت ألبان عالما رائداً من علماء الرياضيات فى القرن الرابع عشر . وكتابه « الجزء الرابع من شرح الجيب » أول مؤلف كبير فى

حساب المثلثات فى أوربا الغربية ، وقد مات بالجذام فى الثالثة والأربعين وهو يأسف على الوقت الذى اختلسه من اللاهوت للعلم .

وكان نيكول أريزم من أنشط رجال الدين ومع ذلك فإنه اقتحم بنجاح مجال اثنى عشر علما ومهد الطريق إلى الهندسة التحليلية بتطوير الاستخدام المنهجى للأحداثيات وباستعمال الخطوط البيانية لإيضاح زيادة الدالة . وقد لعب بفكرة البعد الرابع ولكنه نبذها . وهو مثل الكثيرين من معاصريه أشار إلى قانون جاليليو الذى يقول إن سرعة الجسم الساقط تتزايد بانتظام طوال الفترة التى يستغرقها فى سقوطه ، وفى تعليق على كتاب أرسطو ، كتب يقول : إننا لا نستطيع أن نثبت بأى تجربة أن السماء تتعرض لحركة يومية وأن الأرض لا تتعرض لها فثمة أسباب وجيهة تدل على أن الأرض وليست السماء تتعرض لحركة يومية . وقد لجأ أورزم إلى النظام البطليموسى وإن كان قد أعان على الإعداد لنظرية كوبرنيكوس .

وعندما نذكر أنه فى ذلك الوقت لم يكن يوجد منظار مقرب ولا آلة تصوير ليرصد المرء بهما السماء أو يسجل ما يحدث فيها فإنه من الأمور المشجعة أن نسجل مقدرة وذكاء الفلكيين من المسلمين واليهود والمسيحيين فى العصور الوسطى . وقد وصف جان دى لينيه ، بعد سنوات من مشاهداته الشخصية ، أوضاع ثمان وأربعين نجما بدقة لا يضارعه فيها سوى المسلمين وحسب ميل دائرة البروج فى حدود سبع ثوان عن أحدث تقدير . وعرض جان دى مير وفيرين دى بوفال (١٣٤٤) إصلاح التقويم اليوليانى الذى كان يسبق الشمس — بحذف اليوم التاسع والعشرين من فبراير كل أربعة أعوام خلال الأربعين سنة التالية (التى كان يمكن أن تخطئ بالزيادة) . وقدر لهذا الإصلاح أن ينتظر حتى عام ١٥٨٢ ولا يزال فى انتظار تفاهم دولى وإخلاص متبادل .

ولقد خلص ويليام ميرل علم الرصد الجوى من علم الفلك بتسجيل الطقس خلال ٢٥٥٦ يوما . واكتشف راصدون وملاحون مجهولون خلال القرن الخامس عشر انحراف الإبرة المغناطيسية : فهى لا تشير إلى الشمال تماما بل تميل نحو خط الزوال الفلكى بزاوية صغيرة وإن كانت مهمة وهى كما لاحظ كولمبس تختلف من مكان إلى مكان . وأعظم شخصية بين علماء الرياضيات والفلك فى هذا العهد جوهان مولر المعروف فى التاريخ باسم رجيو مونتانوس منذ مولده عام ١٤٣٩ قرب كنيجزبرج فى فرانكونيا السفلى . وقد التحق فى الرابعة عشر بجامعة فيينا حيث كان جورج فون بورباخ يتقدم الإنسانيات وآخر ما وصل إليه الإيطاليون فى الرياضة والفلك وكلا الرجلين بلغ سن النضوج مبكراً ومات فى سن غضة : فقد مات بورباخ فى الثامنة والثلاثين ومولر فى الأربعين . وصمم مولر على أن يتعلم اليونانية لكى يقرأ كتاب : « المجسطى » فى الفلك لبطليموس بلغته الأصلية فذهب إلى إيطاليا ودرس اليونانية على يد جوارينو دى فيرونا والتهم كل النصوص التى وقعت فى يده سواء كانت باليونانية أو باللاتينية عن الفلك والرياضيات ثم عاد إلى فيينا وهناك قام بتدريس هذه العلوم بنجاح حتى لقد استدعاه ماتياس كورفينوس إلى بودا ثم انطلق إلى نورمبرج حيث بنى له أحد أغنياء الطبقة المتوسطة أول مرصد أوروبى وجهزه مولر بآلات أقامها أو حسنها بنفسه . وإنا لنحس بنسيم العلم النقى فى خطاب كتبه إلى زميل له من علماء الرياضة عام ١٤٦٤ : « لست أدرى متى يتوقف قلمى . إنه سوف يستهلك كل أوراقى إذا لم أتوقف عن الكتابة . إن المسائل تخطر لى واحدة إثر الأخرى وكثير منها جميل بحيث أتردد أيها أضع بين يديك » . وفى سنة ١٤٧٥ استدعاه سكستوس الرابع إلى روما لإصلاح التقويم وهناك مات جيو مونتانوس بعد عام .

وقد حدت حياته القصيرة من منجزاته . ووضع تخطيطا لمؤلفات فى الرياضيات والطبيعة والتنجيم والفلك ، وكان يأمل أن يشرف على نشر القديم

من تلك العلوم . ولم تجد طريقها للوجود والبقاء إلا شذرات من هذه الأعمال وقد أكمل خلاصة « المجسطية » لبورباخ وألف مقالا بعنوان « فى المثلثات » De triangulis ، وهو أول كتاب خصص لحساب المثلثات وحده . ويبدو أنه كان أول من رأى استخدام الماسات فى الحسابات الفلكية وسهلت جداوله عن جيوب الزوايا وظلالها الحسابات الفلكية لكوبر نيكوس . ووضع جداول فلكية تمتاز بدقة لا نظير لها فى الجداول التى وضعت من قبل . وأثبتت طريقته فى حساب درجات الطول والعرض أنها نعمة وبركة للملاحين .

وأصدر عام ١٤٧٤ تقويماً بعنوان : « اليوميات » Ephemerides أوضح فيه الوضع اليومى للكواكب السيارة خلال الأعوام الاثنتين والثلاثين القادمة ومن هذا الكتاب تنبأ كولمبس بخسوف القمر الذى سيملأ بطون رجاله بالجزع فى اليوم التاسع والعشرين من شهر فبراير عام ١٥٠٤ .

وقد وضعت الملاحظات التى أبداها رجيومونتانوس ، عن مذنب هالى أسس علم الفلك الحديث الخاص بالمذنبات . ولكن تأثيره الشخصى فى حياته كان أعظم من تأثير كتبه فقد ساعدت محاضراته المشهورة على إحداث إشراقة ذهنية فى نورمبرج فى شباب دورر وإليه يرجع الفضل فى شهرة المدينة بآلاتها وخرائطها الملاحية . ولقد رسم أحد تلاميذه ، مارتن بهايم بالألوان على الرق أقدم كرة أرضية معروفة عام ١٤٩٢ وهى لا تزال محفوظة فى المتحف الألمانى لنورمبرج .

ولا تدين الجغرافية الحديثة بوجودها للمتخصصين فى هذا العلم بقدر ما تدين للبحارة والتجار والمبشرين والمبعوثين والجنود والحجاج . وقد استخدم ربابنة السفن الاسبان من قطالونيا خرائط ممتازة وكان دليل الربان لموانى البحر الأبيض المتوسط الذى كانوا يستخدمونه فى القرن الرابع عشر لا يقل دقة عن خرائط الملاحة فى عصرنا . ولما كانت الطرق التجارية للشرق قد

سقطت فى أيدى الترك فقد طور المستوردون الأوربيون طرقاً برية جديدة تخترق أراضى المغول وبعـــد أن قضى أوديريك أف بوردنون الراهب الفرنشيسكانى ثلاث سنوات فى بكين (١٣٢٣ — ١٣٢٦ م) كتب تقريراً إيضاحياً عن رحلته إلى الصين عبر الهند وسومطره وعن رحلة عودته عبر التبت وإيران . وروى كلافيجو — كما سنرى — قصة خلابة عن بعثته إلى تيمور . وأما جوهان شنيتبرجر البافارى الذى أسره الأتراك فى نيكوبوليس عام ١٣٩٦ فقد قام بجولة اســـتغرقت ثلاثين عاماً فى تركيا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وسيبيريا وكتب فى مؤلفه « كتاب النهضة » Reisebuch أول وصف لسيبيريا لكاتب من غرب أوربا . وفى سنة ١٥٠٠ نشر جوان دى لاكوزا أحد ربابنة سفن كولمبس خريطة متسعة للعالم توضح لأول مرة بالرسوم الجغرافية استكشافات سيده وفاسكو دى جاما وآخرين . كانت الجغرافية دراما متحركة فى القرن الخامس عشر ومن أعظم الرسائل أثراً فى الجغرافية بصفة خاصة « صـــورة العالم » che Imago mundi (١٤١٠) الكاردينال بيير دايلى وهى التى شجعت كولمبس على القيام برحلته بوصفها المحيط الأطلسى بأنه يمكن عبوره فى بضعة أيام إذا كانت الريح مواتية . وكان هذا الكتاب واحداً من ست مؤلفات كتبها هـــذا القسيس المجتهد فى الفلك والجغرافية والأرصاد الجوية والرياضيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم النفس وإصلاح التقويم والكنيسة . وعند ما وجه إليه اللوم لتخصيصه وقتاً طويلا كهذا للدراسات الدنيوية أجاب بأن على رجل الدين أن يطلع دائماً على العلم بل إنه كان يرى أن فى التنجيم شيئاً من العلم وعلى أسس من التنجيم تنبأ بأن المسيحية سوف تتعرض لتغيير كبير فى خلال مائة عام كما تنبأ بأحداث تهز العالم فى عام ١٧٨٩ .

وخير فكرة علمية فى القرن الرابع عشر كانت فى علم الطبيعة ويرجع الفضل إلى ديتريش أوف فرايبورج فى أنه قدم لنا بالذات تفسيرنا الحديث

لقوس فزح وأنه يتكون نتيجة انكسارين وانعكاس واحد لأشعة الشمس من قطرات الماء . . ولجان بوريدان مؤلف رائع فى الطبيعة النظرية ومما يؤسف له أنه اشتهر بفضل حماره فحسب ولعله لم يكن صاحبه[١] . وقد ولد بوريدان قرب آراس قبل عام ١٣٠٠ وتلقى علومه ثم درس فى جامعة باريس . وهو لم يعلل دوران الأرض اليومى حول الشمس فحسب بل إنه أسقط من علم الفلك المعارف الملائكية التى نسب إليها أرسطو وأكوناس مسار الأجرام السماوية وحركاتها وقال بوريدان : « لا حاجة بنا بعد اليوم إلى تفسير حركاتها أكثر من أنها بدأت تتحرك أصلا بإذن الله وبقانون قوة الدفع — أن أى جسم يتحرك يستمر فى الحركة ما لم تمنعه قوة موجودة » . وهنا كان لبوريدان فضل السبق على جاليليو وديكارت ونيوتون . واستطرد قائلا إن حركة النجوم تحكمها نفس القوانين الآلية التى تتحكم فى الأرض . وهذه الآراء التى تعد الآن رثة بالية كان لها أثر عظيم فى هدم آراء الناس فى العصور الوسطى . وهى تكاد تؤرخ لبداية الطبيعة الفلكية .

ونقل تلاميذ بوريدان آراءه إلى ألمانيا وإيطاليا وتأثر بها ليونارد وكوبرنيكوس وبرونو وجاليليو ثم حملها ألبرت أمير ساكسونيا إلى الجامعة التى أنشأها فى فيينا عام ١٣٦٤ ونقلها مارسيليوس فون انجهن إلى الجامعة التى أسسها فى هيدلبرج عام ١٣٨٦ وكان ألبرت أول من نبذ رأى أرسطو القائل أن الفراغ مستحيل ، وطور فكرة وجود مركز الجاذبية فى

(١) لا توجد حكاية « حمار بوريدان » فى أعماله الباقية ومع ذلك فهى رواية مأثورة عن عصر خليق بالاحترام : ولعلها وردت فى إحدى محاضراته . وقد أثبت جان أن الإرادة عند ما تواجه الاختيار بين أمرين تجد لزاما عليها أن تختار ما يرى العقل أنه أكثر نفعا . وعلى ذلك انتهى أحد الأذكياء إلى القول إنه لو وضع حمار جائع على بعدين متساويين من حزمتين من العلف ، شهيتين ومتساويتين فإنه لن يجد سببا يدعوه إلى تفضيل إحداهما على الأخرى ، وإذا لم تكن هناك طعام آخر فإنه قد يهلك جوعا .

كل جسم وسبق مبادئ جاليليو عن التوازن فى حالة السكون والعجلة المنتظمة للأجسام الساقطة وتمسك بأن تعرية الجبال بسبب الماء وارتفاع الأرض التدريجى أو بعوامل بركانية تعد قوى معوضة فى الجيولوجيا — وهى فكرة خلبت لب ليوناردو .

وأحرز علم الميكانيكا العملية بعض التقدم المتواضع واستخدمت الطواحين الهوائية المعقدة لضخ الماء وصرفه من الأرض وطحن الغلال وللقيام بأعمال ومية أخرى . واستخدمت القوة المائية فى الصهر والنشر وفى تشغيل منفاخ الفرن والمطرقة الميكانيكية وآلات غزل الحرير وكان المدفع يسبك ويثقب وكان الصلب يصنع بكميات كبيرة الحجم وأقيمت أفران الصهر العالية فى أوروبا الشمالية إبان القرن الرابع عشر ونذكر الثاقب الجيد فى سنة ١٣٧٣ وكان سحب الأسلاك يمارس فى نورمبيرج فى القرن الخامس عشر ووردت صورة مضخة تتكون من دلاء مركبة على سلسلة لا نهاية لها فى مخطوط عام ١٤٣٨ . وفى رسم للمهندس كونراد كيزر وهو من أتباع هس(١٤٠٥) توجد أقدم صورة معروفة للحركة المترددة التى تتحول إلى حركة دوارة : ذراعان يتحركان على التعاقب ويديران فى دقة اسطوانة بها تدير المكابس عمود المحور لسيارة .

وكانت الحاجة ماسة إلى ميكانيكية أفضل لقياس الوقت لنمو حجم التجارة والصناعة ؛ وقسم الرهبان والفلاحون النهار إلى عدد بعينه من الفترات فى كل الفصول وجعلوا الفترات فى فصل الصيف أطول منها فى فصل الشتاء . وتطلبت الحياة فى المدينة تقسيمات للوقت أكثر تجانسا فصنعت إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ساعات حائط وساعات معصم يقسم فيها اليوم إلى أجزاء متساوية طوال العام . وفى بعض الأماكن كانت الساعات ترقم من واحد إلى أربع وعشرين كما يجرى عليه العمل لضبط الوقت عند العسكريين فى عصرنا . وفى أواخر عام ١٣٧٠ كانت

بعض الساعات الكبيرة مثل التى صنعت فى سان جوتارد وفى ميلان تدق الرقم بأكمله . وقد ثبت أن هـذا إسراف فى الضجيج . وما أن حل عام ١٣٧٥ حتى كان اليوم مقسما بانتظام إلى نصفين كا منهما به اثنتا عشرة ساعة .

وكانت القاعدة الأساسية فى الساعة الآلية ثقلا يدير عجلة ببطء ويتحكم فى دورانها ترس له أسنان مقاومته كافية بحيث تسمح للعجلة بأن تدور بمقدار سن واحدة فى فترة معينة من الزمن . ولقد وضعت هذه الساعة التى تقيس الوقت حوالى عام ١٢٧١ . وأقيمت أول ساعات آلية كبيرة فى أبراج للكنائس أو قباب يمكن رؤيتها من مساحات بعيدة فى أى مدينة . ومن أوائل هذه الساعات ما ركب فى دير سانت ألبانز على يد ريتشارد والنجفورد وكانت لاتبين الساعات والدقائق فى اليوم فحسب بل كانت تبين أيضا الجزر والمد وحركات الشمس والقمر ، وأما الساعات التى صنعت فيما بعد فقد أضيف إليها مزيج من الأجهزة المبتكرة فى الساعة الكبيرة فى كاتدرائية ستراسبورج (١٣٥٢) وكان يظهر فيها ديك يصيح وثلاثة من المجوس وتمثال شخص موضح عليه الوقت المناسب لحجامة كل عضو من أعضاء الجسم ، وكانت ساعة الكاتدرائية فى ولز تستخدم صورة متحركة للشمس تشير إلى الساعة ونجما صغيرا يتحرك على دائرة داخلية ليبين الدقيقة ودائرة ثالثة تبين أى يوم فى الشهر وعلى منصة فوق المزولة أربعة من الفرسان يبرزون ويهاجمون كلما دقت الساعة وفى إحدى الساعات التى صنعت فى القرن الخامس عشر فى فيينا كانت هناك رأس مهرج يفتح فمه الهائل ليلتهم تفاحة ذهبية من أحد الحجاج ولكنه لا يكاد يطبق عليها فمه حتى تختطف منه وكانت هذه الملهاة تمثل كل ساعة من ساعات اليوم خلال مئات الأعوام ولا تزال هذه الساعة موجودة . وقد أقيمت عام ١٥٠٦

ساعة مماثلة فى نورمبرج وأوقفتها الحرب العالمية الثانية بجفاء عن العمل ثم استأنفت عروضها المسرحية فى سنة ١٩٥٣ .

ولصنع الساعات الصغيرة استبدل بالثقل المعلق زنبرك حلزونى عام ١٤٥٠ شريط من الصلب الرقيق يلف على شكل حلقة صغيرة أو طارة وتحدث بفكها تدريجيا الأثر الذى يحدثه الثقل على العجلة البطيئة : وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى أصبحت الساعات الصغيرة متوفرة بعضها كبير فى حجم الكف والبعض الآخر صغير فى حجم اللوزة وكثير منها كان بيضى الشكل مثل « بيض نورمبرج » التى صنعها بيتر هيل (١٥١٠) وطبقت قاعدة الثقل والترس والعجلة لأغراض أخرى بحيث أصبحت الساعة الآلية سببا فى صنع عشرات الآلاف من الآلات المتعددة .

وبينما كان علم الطبيعة بشيرا بالثورة الصناعة كانت الكيميا القديمة تنمو ببطء فى علم الكيمياء وفى نهاية هذا العصر كان الكيميائيون قد اكتشفوا ووصفوا الزنك والبزموت والكبريت الحى وحجر الأثمد (الأنتيمون) والفورين القلوى الطيار ومواد أخرى كثيرة وقطروا الكحول وبخروا الزئبق وصنعوا حامض الكبريتيك بتسخين الكبريت وأعدوا الأثير والماء الملكى وصبغة قرمزية تفوق الصبغات التى تستعمل الآن وأورثوا علم الكيمياء الطريقة التجريبية التى أثبتت أنها أعظم ما وهبه علم العصور الوسطى للعقل الحديث .

وكان علم النبات لا يزال فى الأغلب مقصورا على كتيبات فى الفلاحة أولا يعدو كتابا يصف أعشابا ونباتات طيبة . وكان من رأى هنرى أوف هيس (١٣٢٥ — ١٣٩٧) أن أنواعا جديدة . بخاصة بين النباتات . يمكن أن تتطور طبيعيا عن أنواع قديمة وكان هذا رأيه قبل داروين بخمسمائة عام . وليس من شك فى أن إقامة معارض ملكية أو بابوية للوحوش

وتربية الحيوانات والطب البيطرى وعجالات فى القنص أو صيد السمك او تربية النحل أو دود القز وحكايات خرافية أبطالها من الحيوانات تروى نصصا منها ما له مغزى أخلاقى وكتبا فى فن رياضة الصقور مثل كتاب مرآة فيبوس (١٣٨٧) من تأليف جاستون الثالث كونت أوف فو ، قد جمعت بلا قصد مادة لعلم الحيوان .

وكان لا بد للتشريح والفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) من الاعتماد على تشريح الحشرات وعلى إصابات الجنود والحالات العرضية التى يحتم فيها القانون إجراء تشريح لمعرفة سبب الوفاة . وكان المسيحيون المؤمنون يحسون بأنهم على حق فى الاعتراض على تشريح جثث الآدميين فالمفروض أنهم على الرغم من وفاتهم سيبعثون من القبور وأبدانهم سليمة يوم الحساب ، وكان من الصعب الحصول على جثث لدراسة التشريح خلال القرن الرابع عشر وأتيح لعدد قليل جداً من الأطباء شمال الألب قبل عام ١٤٥٠ رؤية جثة بشرية بعد تشريحها ومع ذلك فإن جى دى شولياك أقنع السلطات فى أفنيون عام ١٣٦٠ بأن تحول لمدارس الطب جثث المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام لإجراء تشريح لها . وكانت عمليات التشريح تتم أمام طلبة الطب فى البندقية عام ١٣٦٨ وفى مونبلييه عام ١٣٧٧ وفى فلورنسا عام ١٣٨٨ و لاردة عام ١٣٩١ وفى فيينا عام ١٤٠٤ . وشيدت جامعة بادوا عام ١٤٤٥ أول مشرحة معروفة وكانت النتائج لا نهاية لها فى عالم الطب .

٤ — المعالجون

كانت أوروبا الشمالية متخلفة بنصف قرن أو أكثر عن إيطاليا فى علم الطب وممارسته شأنها فى ذلك شأن الأدب والفن بل إن إيطاليا لما تصل ثانية عام ١٣٠٠ إلى ما صل إليه جالينوس وسورانوس فى الطب قبل ذلك بألف

عام ، ولكن مدارس الطب فى مونبلييه وباريس وا دسمورد أحرزت تقدماً لا بأس به ، وكان أعظم الجراحين فى هذا العصر من الفرنسيين . وكانت المهنة وقتئذ منظمة تماماً وتدافع بشدة عن امتيازاتها ولكن لما كان الطلب على العلاج يزيد كثيرا عن عدد الأطباء فإن تجار الأعشاب الطبية وبائعى لعقاقير والقابلات والأطباء المتجولين والحلاقين والجراحين — ولا ضرورة لذكر أدعياء الطب — نافسوا فى كل مكان الأطباء المتمرسين . وأما الجمهور الذى كان يصاب بالمرض بسبب المعيشة الخاطئة ثم يبحث عن تشخيص لا يخطئ وعلاج رخيص يتم به الشفاء فى ليلة واحدة فقد كان يجأر بالشكاوى المعتادة من الأطباء المرتزقة والسفاحين ورأى فرواسار أن « هدف كل رجال الطب أن يحصلوا على مرتبات كبيرة » وكأن هذا لم يكن مرضاً متوطنا بالنسبة لكل الحضارات .

وكان أهم رجال الطب إبان هذا العصر الجراحين ولم يكونوا قد أقنعوا بعد الأطباء بالاعتراف بهم على قدم المساواة ، والحق أن جامعة باريس كانت لا تقبل طالبا فى مدرسة الطب فى القرن الرابع عشر إلا بعد أن يقسم أنه لن يجرى أية عملية جراحية . بل إن الحجامة التى أصبحت علاجا لكل الأمراض حرمت على الأطباء وكانت تترك لتابعيهم . ولجأ الناس إلى الحلاقين لإجراء عمليات كثيرة إلا أن الحلاقين الجراحين كانوا إبان ذلك الوقت يهجرون ممارسة الحلاقة ويتخصصون فى الجراحة ، وكان هناك أربعون من هؤلاء الحلاقين فى باريس عام ١٣٦٥ ، وفى إنجلترا استمروا يزاولون المهنة حتى عام ١٥٤٠ . وصدر عام ١٣٧٢ قانون قصر عملهم فى فرنسا على علاج « الجروح التى ليس من شأنها أن تسبب الوفاة » ولذلك فإن العمليات الكبيرة لا يمكن أن يجريها قانونا إلا « أساتذة الجراحة » الإخصائيون ، وصدر عام ١٥٠٥ مرسوم بإنشاء كلية ملكية للجراحين فى ادنبرة .

وأعظم المتخصصين فى الجراحة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر هم هنرى دى موند فيل وجى دى شولياك ولعل فرواسار سجل أن موندفيل ظل فقيرا حتى آخر يوم فى حياته على الرغم من أن أعماله كانت دائما فى رواج وأنه قام بعمله على الزغم من إصابته بالربو والسل . وقد استوعب كتابه « الجراحة » Chirurgia (١٣٠٦ — ٢٠) وهو أول مؤلف فى الجراحة لفرنسى ، الميدان كله بإتقان وجدارة تبوأ بهما — الجراحون مكانا مرموقاً وكان أعظم ما أسهم به تطبيق وتطوير طريقة تعلمها من تيودوريك بورجونيونى فى بولونيا لعلاج الجروح بالتطهير الكامل ومنع التقيح وتسرب الهواء وعمل الضمادات بالنبيذ ، وقد دافع عن الطريقة التى ابتدعها بأن حذر من قبـــول رأى جالينوس أو غيره من الثقات القدامى بلا مناقشة ، وكتب يقول مستخدما صفة محببة فى العصور الوسطى : « إن المؤلفين المعاصرين بالنسبة للقدامى منهم يشبهون قزما يركب فوق كتف عملاق فهو يرى كل ما يراه العملاق بل ويرى أبعد منه » .

وقد أنجب الجيل الذى جاء بعده أشهر الجراحين فى العصور الوسطى وهو جى دى شولياك وهو من أصل ريفى وولد فى قرية ريفية أخذ منها اسمه ، وقد أثر فى سادة القصر فجعلهم يتكفلون بنفقات تعليمه فى تولوز ومونبلييه وبولونيا وباريس ، وفى عام ١٣٤٢ أصبح طبيبا خاصا للبابا فى أفنيون . واحتفظ بهذا المنصب الصعب ثمانية وعشرين عاماً وعندما اجتاح وباء الطاعون أفنيون لم يغادر موقعه ومد يد العون للضحايا وأصيب بالوباء ولم ينج من الموت إلا بمعجزة ، وقد ارتكب أخطاء جسيمة مثل أى إنسان إذ كان تارة يعزو انتشار الوباء إلى اقتران بين الكواكب فى ساعة نحس وتارة يتهم اليهود بأنهم يهدفون إلى تسميم أبناء العالم المسيحى وأخر التئام الجروح بنبذه طريقة موندفيل فى اللصقات والمراهم ولكنه عاش معظم حياته وفيا لأرفع تقاليد مهنته العظيمة . ويعد مؤلفه Chirurgia magna (١٣٦٣)

الجامع فى فن الجراحة » أكمل بحث فى الجراحة وأكثر تنسيقا وأغزر ادة من الرسائل التى ألفت قبل القرن السادس عشر .

ووا كبت الصحة الجماعية والفردية بصعوبة تقدم الطب فلم تكن النظافة الشخصية شيئا مقدسا بل إن ملك إنجلترا كان لا يستحم إلا مرة واحدة كل أسبوع وكان يغفل الاستحمام أحيانا . . . وكان الألمان يستخدمون ،امات عامة — أحواضا واسعة يقف فيها المستحمون أو يجلسون عراة الأجسام وأحيانا يستحم فيها الجنسان معا . وكان فى أولم وحدها ١٦٨ حماما عاما ١٤٨٩ وفى كل أنحاء أوربا — دون استثناء للطبقة الأرستقراطية دائماً — كانت نفس القطعة من الملابس ترتدى شهورا أو سنوات أو أجيالا .

وكان فى كثير من المدن ما يكفيها من الماء ولكنه كان لا يصل إلا إلى بضع منازل وكان على معظم الأسر أن يجلبوا الماء من أقرب نافورة أو بئر أو ينبوع . وظل هواء لندن ملوثا برائحة الماشية المذبوحة إلى أن حرمت هذه المذبحة عام ١٣٧١ وكانت المراحيض تنغص حياة الناس السهلة فى الريف . ولم يكن فى منازل لندن إلا مرحاض واحد لكل السكان وخلا كثير من أى مرحاض وكانت تفرغ ما فيها من براز فى الأفنية أو الطرقات . وكانت لاف الفضلات تلقى فى نهر التيمز وقد صدر عام ١٣٥٧ قانون يحرم ذلك وإن استمر الحال على ما هو عليه وفى سنة ١٣٨٨ أقر البرلمان أول قانون للصحة العامة يسرى فى جميع أنحاء إنجلترا وقد دفعه إلى هذا انتشار الوباء أكثر من مرة « نظراً لأن كثيراً من الغائط والنفايات القذرة والأمعاء والذبائح والمواد المتعفنة الأخرى تلقى وتوضع فى الحفر والأنهار والمياه الأخرى . . . ونظراً لأن الهواء يتلوث ويفسد إلى حد كبير فتنتشر كل يوم أمراض كثيرة وأسقام أخرى لا تطاق بين السكان وبين الآخرين ممن يترددون أو يسافرون إلى هناك فقد تم الاتفاق والرضى على نشر

هذا الاعلان — فى أنحاء مملكة إنجلترا . . . إن جميع من يلقون ويضعون مثل هذه الأشياء المقلقة للراحة سيجبرون على إزالتها تماماً ... وإلا تعرضوا لعقوبة الغرامة من مولانا الملك » .

وقد صدرت قوانين مماثلة فى فرنسا فى مثل هذا الوقت وفى سنة ١٣٨٣ أمرت السلطات فى مارسيليا ، مقتفية أثر سلطات راجوزا (١٣٧٧) بعزل الأشخاص المصابين بالوباء لمدة أربعين يوماً — بالحجر الصحى . واستمرت الأوبئة فى الانتشار — الحمى الدخنية فى إنجلترا (١٤٨٦—١٥٠٨) ومرض الخناق والجدرى فى ألمانيا (١٤٩٢) — إلا أن العدوى بها قد تضاءلت وقلت الوفيات . وعلى الرغم من التهاون فى الرعاية الصحية فإن المستشفيات كانت كثيرة نسبيا فقد كان فى إنجلترا ٤٦٠ مستشفى عام ١٥٠٠ وكان فى يورك وحدها ستة عشر مستشفى .

وتجاوز علاج المجانين شيئاً فشيئاً مرحلة احترام الخرافات والأوهام والقسوة الهمجية إلى مرحلة العلاج العلمى ، فقد حدث عام ١٣٠٠ أن نبشت جثة فتاة ادعت أنها الشبح المقدس وأحرقت بأمر من رجال الدين ، وانتهت فتاتان عبرتا عن إيمانهما بما ادعته ، مصرعهما بالجلوس على الخوازيق وفى سنة ١٣٥٩ فوض كبير أساقفة طليطلة السلطات المدنية فى إحراق إسبانى حياً وكان قد ادعى أنه أخ ميكائيل كبير الملائكة وأنه يتردد على السماء والجحيم كل يوم .

وتحسنت الأمور فى القرن الخامس عشر إذ أن راهبا يدعى جان جوفر ، امتلأ قلبه عطفا على المجانين الذين كانت الغوغاء تتابعهم فى الشوارع بصفير الاستهزاء أنشأ مستشفى للمجانين (١٤٠٩) وحذت السلطات حذوه فى مدن أخرى وتحولت مستشفى سانت مارى أوف بيت لحم التى أسست فى لندن عام ١٢٤٧ ، إلى مستشفى للمجانين عام ١٤٩٢ وأصبحت

كلمة « بيت لحم » التي حرفت إلى كلمة « بدلام » — مرادفة لمستشفى المجانين .

وكان الذين يثبت إصابتهم بالجذام منبوذين من المجتمع وإن كان الجذام قد اختفى أو كاد من أوروبا الغربية في القرن الخامس عشر وحل محله مرض الزهري ، ولعله مرحلة متطورة لمرض الزهري المعروف من قبل في فرنسا وربما كان مرضا وافدا من أمريكا وظهر أخيرا في إسبانيا عام ١٤٩٣ وفي إيطاليا عام ١٤٩٥ ثم انتشر انتشارا واسعاً في فرنسا حتى أطلق عليه اسم الوباء الغالي(١) .

وقد اجتاح بعض المدن في ألمانيا فالتمست إعفاءها من الضرائب — وما أن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى سمعنا عن استخدام الزئبق في علاجه . وأخذ تقدم الطب في ذلك الوقت كما هو الآن يسابق بشجاعة كل مستحدث في المرض .

٥ — الفلاسفة

على الرغم من أن عصر واضعي النسق قد انقضى فإن الفلسفة كانت لا تزال في أوج قوتها والحق أنها زعزعت أركان العقيدة المسيحية في القرن الرابع عشر . وانتهى تذبذب علماء اللاهوت في الفلسفة بفضل تحول في الرأي : فقد اهتم قادة الفكر مثل بوريدان بالعلم اهتماما كبيرا وبالاقتصاديات مثل أريزم وبالنظام الكنسي مثل نيكولاس الكوزي وبالسياسية مثل بيير ديبوا ومارسيليوس البادوي . وكان هؤلاء الرجال أندادا في الفكر لالبرتوس ماجينوس وتوما الأكويني وسيجيردي باربان ودونس سكوتوس وظلت فلسفة الكلام — كمنهج للجدل والعرض وكمحاولة لاظهار ارتباط العقل بالإيمان — تسود الجامعات في الشمال واعتبر الأكويني قديسا عام ١٣٢٣ وبعد ذلك أحس أتباعه من الدومينيكان وبخاصة في لوفين وكولونيا أن من دواعي الشرف أن يتمسكوا بعقيدة في مواجهة كل التحديات .

---

(١) نسبة إلى بلاد الغال .

أما معارضوه من الفرنشسكان الثابتين على العهـــد فقد آثروا أن يتبعوا أوجستين ودونس سكوتوس . وصدم ويليام ديراند من سان بورسان ، وهو أحد الرهبان الدومينيكان المتحررين ، طائفته عندما انخرط بين أتباع سكوتوس وعند ما بلغ الثامنة والثلاثين (عام ١٣٠٨) بدأ فى كتابة حاشية مفصلة وفرغ منها فى سن متقدمة . ولقد نبذ أثناء تقدمه آراء أرسطو والأكوينى ورأى أن يغلب العقل على حجة كل عالم مهما كان حظه من الشهرة أو الخطر « وهنا كان فيلسوفا له نصيب من حاسة الفكاهة . وبينما ظل صراحة وفيا لآراء علماء اللاهوت فإنه مهد السبيل لأسمية أوكهام المتشددة وذلك باستعادة المذهب التصورى لأبيلار : الأشياء الفردية فقط التى تبقى وكل الأفكار المجردة أو العامة ليست إلا أقرب التصورات للعقل . وأطلق أصدقاء وليام عليه اسم دكتور ريزولوتيسيموس أما خصومه فأطلقو عليه اسم دوروس دوراندوس — ديران الصاب — وكانوا يعللون أنفسهم بأن نيران جهنم سوف تلين قناته فى النهاية .

وكان ويليام الاوكهامى أشد صلابة ولكنه لم ينتظر حتى يلقى حتفه حرقا ، وقضى حياته بأسرها فى جدل حاد ولم تخف حدته إلا بالسجن من آن لآخر وتحت ضغط الأيام ليعبر عن حرارته فى صيغة الفلسفة الكلامية ولم يسلم فى الفلسفة إلا بسلطان التجربة والعقل . وكان يتحمس لنظرياته ويمسك بخناق نصف أوربا دفاعا عن آرائه . وهو بحياته ومغامراته وأهدافه يسبق إلى تمثيل فولتير ومغامراته وأهدافه . ولعله كان أعظم منه أثرا .

ولا نستطيع أن نقول أين أو متى ولد على وجه التحديد ، ولعله ولد فى أوكهام بمقاطعة سورى حوالى نهاية القرن الثالث عشر . واندرج فى سلك طائفة الفرنشسكان وهو بعد صبى صغير وعند ما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى جامعة اكسفورد باعتباره صبيا ذكيا سيكون ولا ريب ضوء

مشرقا فى الكنيسة . وفى اكسفورد وربما فى باريس ، أحس بتأثير راهب فرنشسكانى آخر داهية هو دونس سكوتوس لأنه على الرغم من أنه عارض « واقعية » سكوتوس فإنه دفع بنقد سلفه التعقلى للفلسفة واللاهوت بضع خطوات نحو مذهب الشك الذى يذيب الفوارق بين العقائد الدينية والقوانين العلمية . وقام بالتدريس ست سنوات فى اكسفورد وربما يكون قد درس فى باريس . ويبدو أنه كتب تعليقات على فلسفة أرسطو وبيتر لومبارد قبل عام ١٣٢٤ — وهو لا يزال حدثا فى العشرين وأعظم أثر له هو كتاب « الجامع لكل علم المنطق Summa totius logicae » وهو موجز لكل قواعد المنطق .

ويبدو الأمر لأول وهلة صورة من صحراء جرداء فى تقطيع أوصال المنطق والمصطلحات اللغوية التكنولوجية ، موكب لا حياة فيه من التعريفات والتقسيمات والتفريعات والصفات المميزة والتصنيفات والمهارات . وعرف أوكهام كل شىء عن « علم المعانى » وأسف لعدم دقة الاصطلاحات المستعملة فى الفلسفة وقضى نصف الوقت فى محاولة توخى الدقة فيها أكثر من قبل . واستاء من الصرح القوطى للتجريدات يركب أحدها الآخر كالعقود فى الطبقات الموضوعة إحداها فوق الأخرى ، والتى أثارها الفكر فى القرون الوسطى . ولا نستطيع أن نجد فى أعماله الباقية بالدقة الصيغة المشهورة التى سميت فى التراث باسم « مبضع أوكهام » الذاتيات لا تتضاعف بحيث تتجاوز الحاجة . ولكنه عبر عن المبدأ بمصطلحات أخرى مرارا وتكرارا — التعددية (فى الذاتيات أو العلل أو العوامل) لا تثبت (أو تفترض) إلا لضرورة » و « من العبث أن نبحث عن إنجاز أو شرح بافتراض أو علل يمكن تفسيرها بأقل منها » ، ولم يكن المبدأ جديدا فقد قبله الأكوينى واستخدمه سكوتوس ولكنه بين يدى أوكهام أصبح سلاحا قاتلا يقطع به مئات من الأوهام الغامضة والتجريدات العظيمة .

وبتطبيق المبدأ على نظرية المعرفة رأى أوكهام أنه لا داعى لأن يفترض كمصدر ومادة للمعرفة ، أى شىء أكثر من الإحساسات ومن هذه تنشأ الذاكرة (إحساس ينعش) والإدراك (إحساس يفسر من خلال الذاكرة) والخيال (ذاكرات متحدة) والتوقع (ذاكرة تنعكس) والفكرة (ذاكرات تقارن) والتجربة (ذاكرات تفسر من خلال الفكرة) . « لا شىء يمكن أن يكون موضوعاً للحس الداخلى (الفكرة) إلا إذا كان موضوعاً للحس الخارجى (الشعور) » . وها هو المذهب التجريبى للوك قبل ظهوره بثلاثمائة عام .

وكل ما ندركه خارج نفوسنا هو ذاتيات فردية — أشخاص معينين وأشياء وأفعال وأشكال وألوان وأذواق وروائح وضغوط ودرجات حرارة وأصوات ، والكلمات التى تعبر بها عن هذه هى « كلمات أول قصد » أو المراد الأولى وتشير مباشرة إلى ما ننشرها على أنها حقائق خارجية ، وبتدوين وتجريد الملامح العامة للذاتيات المماثلة التى أدركت على هذا النحو يمكننا أن نصل إلى أفكار عامة أو مجردة — رجل ، فضيلة ، ارتفاع ، حلاوة ، حرارة ، فصاحة . والكلمات التى نعبر بها عن مثل هذه التجريدات هى كلمات « القصد الثانى » وتشير إلى المفاهيم المستخلصة من المدركات . وهـــذه « العموميات » لا تختبر فى الإحساس فهى تعبيرات ودلالات وأسماء لتعميمات نافعة للغاية (وخطرة) فى الفكر أو العقل وفى العلم والفلسفة واللاهوت ، وهى ليست أشياء توجد خارج العقل . وأن كل شىء خارج العقل مفرد ويساوى عددياً واحداً .

والعقل شىء رائع ولكن استنتاجاته لا تكون لها معنى إلا إذا كانت تشير إلى التجربة — أى إلى إدراك الذاتيات الفردية ، أو إلى أداء الأفعال الفردية وإلا فإن استنتاجاته تكون من قبيل العبث وقد تكون تجريدات خادعة وما أكثر اللغو قولا وكتابة بإساءة فهم الأفكار على أنها أشياء

والتجريدات على أنها حقائق . إن الفكرة المجردة لا تقوم بوظيفتها إلا عندما تؤدى إلى بيانات معينة عن أشياء معينة .

ومن هذا المذهب الاسمى طرق أوكهام فى تهور لا يبقى ولا يذر كل ميدان فى الفلسفة واللاهوت . وأعلن أن كلا من الميتافيزيقيا والعلم تعميات متلقة لأن تجربتنا ليست إلا عن ذاتيات متعينة فى مساحة وزمن محصورين فى نطاق ضـــيق ولذلك فإنه من الغرور أن نفترض على وجه الشمول والدوام صحة القضايا والقوانين الطبيعية التى نستمدها من هذا القطاع الصغير من الحقيقة فتصاغ معرفتنا وتحدد بوسائلنا وطرقنا فى إدراك الأمور (وهذا هو رأى كانت قبل ظهور كانت) وهى تبقى حبيسة فى سجن عقولنا ويجب ألا يدعى أنها الحقيقة الموضوعية أو النهائية عن أى شىء .

أما بالنسبة للروح فإنها تجريد أيضاً وهى لا تظهر أبداً فى إحساساتنا أو مدركاتنا سواء أكانت خارجية أم داخلية وكل ما ندركه هو الإرادة والذات (الأنا) التى تؤكد نفسها فى كل فعل وكل فكرة . والعقل نفسه وكل مجد ينسب للذهن آلات للإرادة ، والذهن ليس الإرادة التفكير تبحث عن غاياتها بالفكر « وهذا هو رأى شوبنهاور » .

ويبدو أن الله نفسه لا يصمد أمام هذه الفلسفة الحادة . ولم يجد أوكهام (مثل كانت) أية قوة باقية فى أى من المناظرات التى دارت لإثبات وجود الله . ورفض الأخذ برأى أرسطو القائل أن سلسلة الحركات أو العلل تجبرنا على أن نفترض الحركة الأولى أو العلة الأولى . ولم يَعُدْ غير مدرك ردة لانهائية للحركات والأسباب أكثر من المحرك الثابت أو العلة التى لا سبب لها فى لاهوت أرسطو ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يعرف شىء إلا بطريق الإدراك المباشر فإنه لن يتيسر لنا الحصـــول على معرفة واضحة بأن الله موجود .

ولا يمكن للعقل أن يرى أن الله قادر على كل شيء أو لا حد لقدرته ، وعالم بكل شيء أو لطيف أو واحد ، كما أن العقل لا يستطيع أن يثبت أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله تجسد إنساناً ليكفر عن خطيئة آدم وحواء بعصيانهما أو أن ابن الله حاضر فى القربان المقدس ، ثم إن التوحيد ليس مطابقاً للعقل أكثر من الشرك ، وربما يكون هناك أكثر من عالم يحكمها أكثر من إله .

إذن ماذا يبقى من البناء البهى للعقيدة المسيحية ؟ أساطيرها الجميلة وأناشيدها وفنها ، وما نصت عليه من أخلاق من وحى الله أم أملها الحصين ؟ وقد تراجع أوكهام أمام هدم العقل للاهوت وفى محاولة يائسة لإنقاذ نظام اجتماعى قائم على شريعة أخلاقية تقوم على عقيدة دفينة رأى التضحية بالعقل على مذبح الإيمان ، وربما يكون الله موجوداً على الرغم من أنه لا يمكن إثبات هذا وأنه وهب كلا منا روحا خالدة . ويجب أن نميز ، كما أشار ابن رشد ودنس سكوتوس ، بين الحقيقة اللاهوتية وبين الحقيقة الفلسفية ، وأن نقبل متواضعين فى مجال الإيمان ما يرتاب فيه العقل الفخور بنفسه .

وكان من قبيل المبالغة أن تقبل الكنيسة هذه الحاشية الذنبية التى تكرم العقل العملى كفارة لذنب أوكهام لقيامه بنقد العقل المحض . فأمر البابا جون الثانى والعشرين بتكوين مجلس تحقيق من رجال الدين للنظر فى « الهرطقات البغيضة » التى اقترفها الراهب الشاب واستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية فى أفنيون ، وجاء أوكهام ، لأننا نجده عام ١٣٢٨ فى سجن بابوى هناك ، مع راهبين من الفرنشسكان وفر الثلاثة وهربوا إلى إيجسمورتس واستقلوا قاربا صغيرا والتقطتهم سفينة أخذتهم إلى لويس ملك باڤاريا فى بيزا . وحرمهم البابا من غفران الكنيسة بينما أسبغ عليهم الإمبراطور حمايته . واصطحب ويليام لويس إلى ميونخ وانضم هناك إلى مارسيليوس من بادوا وعاش فى دير فرنشسكانى مناهض للبابا وأصدر منه سيلا من الكتب والنشرات ضد سلطان وهرطقة البابوات بعامة وجون الثانى والعشرين بخاصة .

وكما فاق أوكهام فى ميتافيزيقياته الشكية عند سكوتس فإنه فى نظريته العملية دفع مهاجمة مارسيليوس البادوى للإكليروس نتائج جريئة . وأعمل مبضعه فى العقائد والشعائر التى أضافتها الكنيسة إلى المسيحية الأولى وطلب العودة إلى عقيدة أبسط وعبادة « العهد الجديد » .

وفى لجاجة عنيدة نشر كتابه « مائة لسان » Centiloqium theologicum فى علم اللاهوت واحتكم إلى مائة عقيدة للكنيسة ورأى أن كثيراً منها يؤدى منطقياً إلى نتائج سخيفة لا تحتمل ؛ فمثلا إذا كانت مريم أم الله وكان الله والدنا جميعاً فإن مريم تكون أما لوالدها . وناقش أوكهام الخلافة الرسـولية للبابوات وعصمتهم من الخطأ ، وعلى النقيض من ذلك أكد أن كثيرا منهم كانوا هراطقة وأن بعضهم كانوا مجرمين وطالب بمعاملة رقيقة للهرطقة ورأى أن التعبير عن الرأى يجب أن يترك حرا إلا بالنسبة لنشر الزيف المتعمد . ورأى أن المسيحية فى حاجة إلى العودة من الكنيسة إلى المسيح ومن الثروة والسلطان إلى البساطة فى الحياة والخضوع لحكم الشريعة ويجب ألا تكون الكنيسة مقصورة على رجال الدين وحدهم بل يجب أن تضم المجتمع المسيحى بأسره . وهذه الزمالة الكاملة بما فيها النساء يجب أن تختار ممثلين لها يكون من بينهم نساء وتدعوهم إلى عقد مجلس عام وهذا المجلس يجب أن يختار البابا ويرأسه ويجب أن يكون على رأس الكنيسة والدولة شخص واحد .

ويجب أن تكون الحكومة نفسها خاضعة لإرادة الشعب لأنه يملك كل السلطة النهائية على وجه الأرض . وهو يفوض حقه فى التشريع والإدارة إلى ملك أو امبراطور على أساس أنه سوف يصدر القوانين لصـالح الجميع . وإذا كان الصالح العام يقتضى هذا فإن الملكية الخاصة يمكن أن تلغى .وإذا ارتكب الحاكم خطأ جسيما فإن حقيقة العقيدة الدينية تقضى عليه

بالصيام . وقد مات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى زهرة العمر .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن مصير أوكهام فهو لم يجد فى جعة ميونيخ عزاءله عن نبيذ باريس الذى افتقده ، وقد قارن نفسه بجون الإنجيلى فى باتموس وإن كانت لم تواته الجرأة على التخلى عن حماية الإمبراطور . وطبقاً لرواية أحد الفرنشسكان المعاصرين وقع الراهب المتمرد فى آخر سنى عمره إقرارا ينكر فيه هرطقاته ، ولعل تصالح لويس مع الكنيسة جعلت هذا أمراً يمليه العقل والرشد ، وربما يكون وليام قد أحس بأن التساؤل عن حقيقة عقيدة دينية أمر سخيف . ومات متأثراً بالطاعون عام ١٣٤٩ أو عام ١٣٥٠ وهو لا يزال فى مقتبل العمر .

وقبل وفاته بزمن طويل اعترف به كأقوى مفكر فى عصره وارتجت الجامعات بالجدل حول فلسفته . وقبل كثير من علماء اللاهوت وجهة نظره فى أن العقائد الأساسية للدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالعقل وأن التمييز بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية كان واسع الانتشار فى القرن الرابع عشر كما تنتشر اليوم المهادنة المفهومة ضمنا بين التحقيق العلمى والخدمة الكهنوتية الدينية . وفى أكسفورد تكونت مدرسة من أتباع أوكهام أطلقت على نفسها اسم « الحياة العصرية » (كما سمى أبيلارد مذهبه التصورى قبل ذلك بثلاثمائة عام) وسخرت من الواقعية الميتافيزيقية لسكوتوس أكويناس . وكان انتصار العصريين بخاصة ساحقا فى جامعات أوروبا الوسطى فإن هس فى براغ ولوثر فى أرفورت كانا يتلقيان المذهب الاسمى وربما يعزى تمردهما إليه . وفى باريس منعت سلطات الجامعة (١١٣٩ — ٤٠) تدريس آراء أوكهام ولكن كثيراً من تلاميذه وبعض الأساتذة هللوا له باعتباره حاملا للواء الفكر الحر وحدث أكثر من مرة أن تقاتلت الأحزا

المعارضة كما يحدث الآن ، بالكلمات واللطمات فى المقاهى أو فى الشوارع . ولعل توماس أكمبس Thomas a Kemps أدان الفاسفة فى كتاب « محاكاة المسيح » كرد فعل ضد آراء أوكهام وقد لعب أوكهام دوراً ، وإن اقتصر على صوت ، فى تأليب الحكومة الوطنية ضد الكنيسة العالمية وقد أثرت دعوته إلى أن يكون رجال الدين فقراء فى ويكليف كما أن هجماته على البابوية واستنصاره الدائم للإنجيل والمسيحية الأولى بدلا من الكنيسة مهدت لظهور لوثر الذى عده أوكهام من أعظم أساتذة فلسفة الكلام وأكثرهم عبقرية إذ عبر سلفا فى مذهبه فى الاختيار ومذهبه فى الفردية عن الروح التموية لعصر النهضة ثم إن مذهبه فى الشك انتقل إلى راموس ومونتينى وربما إلى أرازموس ، ومذهبه وتحديده الذاتى للمعرفة بالأفكار رمز إلى بركلى كما أنه سبق « كانت » بمحاولته إنقاذ الإيمان عن طريق « العقـــل العملى » وعلى الرغم من أنه مثالى من الناحية الفلسفية فإن تأكيده أن الإحساس هو المصـــدر الوحيد للمعرفة جعله يتبوأ مكاناً مرموقا فى موكب الفلسفة الإنجليزية التجريبية من روجر وفرانسيس بيكون من خلال هوبز ولوك وهيوم وميل ومن سبنسر إلى برتراند راسل . واقتحامه الطارئ لميدان العلم الطبيعى — وإدراكه لقانون القصور الذاتى ورأيه فى العمل على بعد — حث المفكرين من جان بوريدان إلى إسحق نيوتن والنتيجة العامة لعمله شأنه فى هذا شأن دونس سكوتوس ، هو تقويض الغرض الأساسى لفلسفة الكلام — وأن العقيدة المسيحية فى القرون الوسطى يمكن إثباتها بالعقل وقد حافظت فلسفة الكلام حتى القرن السابع عشر ، على وجود باهت بعد الموت ولكنها لم تسترد قوتها بعد هذه الصفحات .

٦ — المصلحون

بينما كان ابن خلدون يضع قواعد علم الاجتماع فى العالم الإسلامى كان

بيير ديبوا ونيكول أورزم ومارسيليوس البادوى ونيكولاس الكوزاوى يطورون فى العالم المسيحى الدراسات التى تبحث العلاقة بين الأقارب وإن كانت أقل تنسيقا . وقد خدم ديبوا ملك فرنسا فيليب الرابع كما خدم أوكهام ومارسيليوس الملك لويس البافارى بتوجيه حملات فكرية ضد البابوية . وفى ابتهال لشعب فرنسا للملك ضد البابا بونيفاس (١٣٠٨) وفى رسالة عن استرداد الأرض المقدسة أوصى المدره الغيور على هذا المبدأ بأن تجرد البـــابوية من كل أملاكها الدنيوية وسلطانها الزمنى ، وأن يرفض حكام أوربا الخضوع لسلطات البابا فى محاكمهم وأن تنفصل الكنيسة الفرنسية عن روما وتخضع للسلطة الزمنية والقانون . وفضلا عن هذا فإن ديبوا مضى قدماً يقول إن كل أوروبا يجب أن تتحد تحت لواء ملك فرنسا باعتباره إمبراطورا يتخذ عاصمته فى القسطنطينية وأن تكون هذه قلعة تناهض الإسلام وأنه يجب إنشاء محكمة دولية تفصل فى المنازعات بين الأمم وأن تعلن مقاطعة اقتصادية لكل أمة مسيحية تبدأ الحرب ضد أمة مسيحية أخرى وأن تتاح للنساء الفرص التعليمية نفسها وأن تكون لهن نفس الحقوق السياسية كالرجال .

ويبدو أن أحدا لم يعر هذه الآراء التفاتا ولكنها اقتحمت التيارات الفكرية التى قوضت صرح البابوية . وبعد مرور قرنين على وفاة ديبوا اتبع هنرى الثامن ، الذى لم يسمع عنه ولا ريب ، برنامجه هو ويكليف فى الدين وفى مطلع القرن التاسع عشر أقام نابليون إلى حين أوربا المتحدة تحت الزعامة الفرنسية وجعل من البابا أسيرا للدولة . وليس من شك فى أن ديبرا من زمرة المشتغلين بالشريعة الناهضين الذين كانوا يطمحون إلى ألا يقوم رجال الدين بتوجيه سياسة الحكومة . وقد فاز فى معركته ونحن نجنى اليوم ثمار انتصاره .

وقد كتب أورزم الذى أثار كثيرا من المناقشات الحامية حوالى ســنة

١٣٥٥ مقالات صريحة واضحة فى الأدب الاقتصادى ، عن الأصل والطبيعة والشريعة وتغيير العملة وقال إن عملة البلد ملك للجماعة لا للملك فهى منفعة اجتماعية وليست عائدا ملكياً وللحاكم أو الحكومة تنظيم إصدارها ولكن يجب أن يحافظ على قيمتها المعدنية ولا يخفضها وأى ملك يخفض قيمة العملة لص . وفضلا عن هذا فإن العملة الرديئة (وفقا لقانون جريشـــام) تطرد العملة الجيدة من التداول والناس يخفون أو يصدرون العملة الجيدة والحكومة غير الأمينة لن تتلقى فى دخولها سوى العملة البخسة . ولم تكن الآراء التى رددها أورزم مثلا عليا فحسب بل إنه درسها بصفته مربيا ، لابن جون الثانى . وعندما أصبح هذا الطالب شارل الخامس استفاد الملك الشاب ، بعد تدهور للعملة ، من تعليمات أستاذه واستعاد شتات أموال فرنسا بعد أن تخلصت من الحرب على أساس سليم شريف .

كان مرسيليوس البادوى ذا مزاج أكثر تقلبا من أورزم : كان فيلسوفاً لا يلين ينادى بالفردية فخورا بفكره وشجاعته وكان يجعل فلسفته السياسية جزءا لا ينفصل من حياته القلقة . وكان ابنا لموثق عقود فى بادوا ودرس الطب فى الجامعة ولعله يدين ببعض تطرفه المناهض للأكليروسية إلى جو من مذهب الشك الذى يرجع إلى ابن رشد الذى وجده بترارك وفضحه فى الجيل نفسه . وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديرا للجامعة وشغل هذا المنصب عاما . ثم ألف عام ١٣٢٤ بشىء من التعاون مع جون الجندوانى أعظم رسالة أثرت على السياسة بالعصور الوسطى وهى « المدافع عن السلام » .

ولما كان المؤلفان يعلمان أن الكنيسة سوف تستنكر كتابهما فقد فرا إلى نورمبرج ووضعا نفسيهما تحت جناح الإمبراطور لويس البافارى ثم حاربا البابا . ولم يتوقعا من محارب شديد المراس مثل جون الثانى والعشرين أن يقابل بالهدوء دفاعهما الشديد عن السلام . وقد برهن هذا الكتاب على أن

السلام فى أوروبا يقوضه النزاع بين الدولة وبين الكنيسة وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطوية أو الملكية مثل باقى الجماعات والأموال، ومن الخطأ (كما جاء فى البحث) أن تقتنى الكنيسة ممتلكات ، فليس فى الكتاب المقدس ما يبرر هذا الاقتناء .

وعرف المؤلفان الكنيسة كما فعل أوكهام بأنها طائفة المسيحيين بأكملها . وكما كان الشعب الرومانى ، صاحب السيادة الحقيقى فى القانون الرومانى ، وكان هذا الشعب هو الذى يفوض فى سلطته القناصل أو الشيوخ أو الأباطرة فإن على الجماعة المسيحية أن تفوض فى سلطاتها ، ممثليها من رجال الإكليروس وان كان لا يجب أن تسلم لهم قيادها ، ويجب أن يكون هؤلاء مسئولين أمام الشعب الذى يمثلونه وادعاء البابا أنه يستمد سلطته من بطرس الرسول خطأ تاريخى فى نظر مارسيليوس إذ لم يكن بطرس أقوى سلطة من باقى الرسل ولم يكن لأساقفة روما فى أوائل عهدهم فى القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة فى كثير من العواصم القديمة الأخرى وكان يرأس المجالس العامة الأولى الإمبراطور أو نوابه وليس البابا ، وأى مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحى يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهؤلاء يجب عليهم أن يختاروا البابا . ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدنى والقانون فى جميع الأمور الدنيوية ، ويجب أن تعين الدولة رجال الاكليروس وتمنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغنى عن القسس كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة .

ها هو صوت الدولة الوطنية الطاغية يرتفع مرة أخرى . وما إن أخضع الملوك البارونات والكومونات بفضل موازة الطبقات الوسطى الناهضة

حتى أحسوا بأنهم بلغوا من القوة حدا جعلهم يرفضون ادعاء الكنيسة بأن لها السيادة على السلطة المدنية . وانتهز الحكام الزمنيون الفرصة التى أتاحها لهم انحطاط السلطة الدولية والأدبية للكنيسة وأخذوا يحلمون بالسيطرة على كل وجوه الحياة فى ممالكهم بما فيها الدين والكنيسة وكانت هذه النتيجة تستحق الكفاح فى الإصلاح الدينى . ويعد انتصار الدولة على الكنيسة مرحلة نهائية فى العصور الوسطى .

(فى سنة ١٥٣٥ أمر هنرى الثامن ، وهو فى أوج تمرده على الكنيسة ، بترجمة كتاب المدافع عن السلام ونشره على نفقة الحكومة) وبعد أن اقترح مارسيليوس ، مثل أوكهام ولوثر ، أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة الشعب ، اضطر ، بسبب النظام الاجتماعى ومن أجل سلامته الشخصية أن يستبدل بها سلطة الحكومة . ولكنه لم يرفع من شأن الملوك حتى يصبحوا غيلانا قادرين على كل شىء فقد كان يتطلع من وراء انتصار الدولة إلى اليوم الذى يمارس فيه الشعب فعلا سيادته التى طالما ود فقهاء القانون أن يقلدوها له . ودافع عن الديمقراطية فى مجال الإصلاح بين رجال الكنيسة ، فعلى كل طائفة مسيحية أن تختار ممثلا لها فى مجالس الكنيسة وعلى كل أبرشية أن تختار قساوستها وتراقبهم وتطردهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، ويجب ألا يحرم عضو فى الأبرشية دون موافقتها ، وطبق مارسيليوس مبادئ مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل على استحياء :

طبقاً لحقيقة ورأى أرسطو ، نعلن أن المشرع — الدافع الأول والصحيح لسن القانون — يجب أن يكون هو الشعب — طائفة المواطنين بأكملها أو قسمها الأثقل وزنا ، تأمر وتقرر بمحض اختيارها أو إرادتها ، وتعبر عن رأيها شفوياً فى جمعية عمومية للمواطنين . . . وأقول قسمها الأثقل وزنا ، آخذا فى الاعتبار عدد الأشخاص وصفاتهم معا فى الجماعة التى يسن من أجلها القانون . وطائفة المواطنين بأسرها أو قسمها الأثقل وزنا إما أن تسن

القانون مباشرة أو تعهد بهذه المهمة إلى البعض أو إلى فئة قليلة ، ولكن هذه الأخيرة لا تكون ، أو لا تستطيع أن تكون ، المشرع بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، فهى تعمل فقط فى مجال هذه الأمور — ولهذه الفترات التى تخول لها من المشرع الأول . . . وفى رأيى أن المواطن هو كل من يشارك فى الجماعة المدنية بسلطة مداولة أو سلطة قضائية على حسب رتبته ، وعلى أساس هذه التعريفات يفرق القصر والعبيد والأجانب والنساء عن المواطنين ... وخير قانون يصدر هو الذى يكون نتيجة مداولة وثمرة إرادة الجماعة بأسرها . . . ويمكن لأغلبية منها ، بسرعة أكثر من سرعة أية أقسام منها ، إصدار أى قانون يقترح سنه لأن أى طائفة بأكملها أعظم سلطانا وثروة من أية أقسام منفصلة .

وهذا بيان عظيم بالنسبة لعصره (١٣٢٤) ولا شك أن ظروف العصر تبرر ما صاحبه من تردد . بل إن مارسيليوس لم يكن بوسعه أن يدافع عن المساواة فى التصويت بين جميع البالغين فى أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحداً يستطيع القراءة بين كل عشرة وحيث كانت المواصلات صعبة والانقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن . والحق أنه رفض الديمقراطية الكاملة التى تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف (مجموعة من الناس المعوزين) ولتصحيح هذا الفساد فى جمهورية كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم فى المجتمع ، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا . وأفسح مكانا للملكية ولكنه أضاف أن « الحاكم الذى ينتخب أفضل بكثير من الحكام الذين يتبوأون مناصبهم بالوراثة » فالملك يجب أن يكون نائباً وخادماً للجمهور وإذا أساء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه .

ولهذه الآراء أصل يرجع للقرون الوسطى بل إن لها أصلا قديماً ، فقد منح المحامون الرومان والفلاسفة الكلاميون بانتظام الشعب سيادة نظرية

وكانت البابوية نفسها ملكية انتخابية إذ كان البابا يطلق على نفسه اسم « خادم أجراء الله » وقد وافق توما الأكويني على رأى جون أف سالسبورى القائل بحق الشعب فى خلع أى ملك يخالف القانون . ولكن قلما بلغت هذه الآراء فى العالم المسيحى درجة تصل إلى صيغة واضحة لحكومة برلمانية ، وها هو رجل فى القرن الرابع عشر جمع بين آراء أنصار الإصلاح الدينى من البروتستانت والمؤيدين للثورة الفرنسية .

وكان مارسيليوس سابقا جدا لعصره فلم يهدأ لحظة واحدة إذ ارتفع شأنه بسرعة بارتفاع شأن لويس البافارى وسقط كذلك بسقوطه . وعندما عادى لويس البابوات طلب منه أن يطرد مارسيليوس باعتباره هرطيقا ولا ندرى شيئاً عن النتيجة ، ويبدو أن مارسيليوس مات عام ١٣٤٣ وهو منبوذ من الكنيسة التى حاربها ومن الدولة التى عمل على رفع شأنها .

ولعل نجاحه المؤقت ماكان ليتحقق لو لم تخول مهنة القانون الناهضة للدولة سلطة تنافس سلطة الكنيسة . فقد رفع المحامون « القانون الوضعى » للدولة إلى جانب ، وغالباً ضد ، القانون الكنسى ، وعلى أطلال القانون الإقطاعى والشيوعى ، وانتشر هذا القانون الملكى أو الدنيوى على الأيام وتغلغل فى أمور الناس . وأخرجت مدارس القانون فى مونبلييه وأورليانز وباريس قانونيين يتصفون بالجرأة والدهاء ، وقد استخدموا القانون الرومانى لتكوين نظرية الحق الإلهى والسلطة المطلقة لسادتهم من الملوك وذلك مقابل الادعاءات البابوية . وكانت هذه الآراء أقوى فى فرنسا منها فى أى مكان آخر إذ انتشرت هناك فى صورة شعارات مثل « أنا الدولة » و « الملك الشمس » كما سادت فى اسبانيا ومهدت بذلك إلى الحكم المطلق لفرديناند وشارل الخامس وفيليب الثانى بل إن ويكليف فى انجلترا البرلمانية قال بسلطة غير محدودة للملك المقدس . وعارض النظرية أعضاء مجلس اللوردات والعموم وأصر سيرجون

فورتيسكو على أن الملك الإنجليزى لا يستطيع أن يصدر قوانين دون موافقة البرلمان وأن القضاة الإنجليز ملزمون بمقتضى قسمهم أن يحكموا وفقاً لقانون البـلاد مهما كانت رغبة الملك ولكن انجلترا ركعت بدورها أمام حكام مستبدين فى عهد هنرى السابع وهنرى الثامن واليزابث . وبين استبدادى البابوات وأندادهم من الملوك اعتصمت بعض النفوس المثالية بفكرة « القانون الطبيعى » وهو يقوم على عدالة إلهية متغلغلة فى الضمير الإنسانى ومنصوص عليها فى الأناجيل وهو قانون أعلى من أى قانون من صنع الإنسان . ولم تعبأ الدولة أو الكنيسة بهذا المفهوم وظل فى المهاد معترفاً به ومتجاهلا فى الوقت نفسه وإن ظل هذا المفهوم حياً واهياً . وقد تبنى فى القرن الثامن عشر إعلان الاستقلال الأمريكى والإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان ولعب دوراً صغيراً وإن كان بليغاً فى ثورة قوضت لبعض الوقت عروش الحكام المستبدين الذين حكموا العالم وحارب نيكولاس الكوزاوى استبداد البابوية ثم استسلم لها .

وفى خلال حياته المتقلبة أظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة بالنسبة لألمانيا التى لم تكن تطمئن إلى الكنيسة . وقد جمع فى إهاب شخصيته القوية خير عناصر العصور الوسطى التى تلائم حياته وذلك باعتباره فيلسوفاً وإدارياً وعالماً باللاهوت وقانونياً . وقد ولد فى كولس قرب ترير (١٤٠١) وجمع بين التضلع فى القانون والتخصص فى الدين فى مدرسة « إخوان الحياة المشتركة فى ديفنتر » وفى عام قضاه بهيدلبرج تأثر بمذهب أوكهام الاسمى فى بادوا تأثر بمذهب الشـك عن ابن رشد بعض الوقت وفى كولونيا تشرب التراث الأورثوذكسى لألبرتوس ماجنوس وتوما الأكوينى . لقد كانت فيه كل العناصر التى تجعل منه أكمل مسيحى فى عصره .

ولم يتخل قط عن نزعته الصوفية التى انتقلت إليه من ما يستر اكهارت

فكتب مؤلفا كلاسيا فى التصوف عنوانه : « رؤية الله » وفى دفاع فلسفى عن مثل هذه الرؤى « دفاع عن الجهل العليم» APologia doctae ignorantiae صاغ عبارة مشهورة هى « الجهل العليم » ورفض المذهب العقلى الكلامى الذى يبحث فى إثبات علم اللاهوت بالعقل وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة فالحقيقة خفية فى الله . وأعرض بوجه عام عن التنجيم وإن كان قد انهمك فى بعض الحسابات الفلكية مستسلماً فى ذلك للأوهام الشائعة فى عهده وظن أن نهاية العالم ستكون عام ١٧٣٤ . وفى وسط حياة تزخر بالنشاط الكنسى حافظ أولا وقبل كل شىء على الفكرة العلمية وحث على القيام بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة وأشار إلى زمن سقوط الأجسام المختلفة من شتى الارتفاعات ودرس أن الأرض « لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتاً ، وكل مدار فلكى دائرى والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أى نقطة مركزا لعالم لانهائى . وكانت هذه الآراء استعارات حكيمة حينا ولمحات ذكية حيناً آخر .

وذهب نيكولاس عام ١٤٣٣ إلى بازيل ليقدم للمجلس الكنسى هناك مطالب صديق إلى كبير أساقفة كولونيا . وسقطت حجته ولكنه انتهز الفرصة ليقدم للمجلس على خلاف من البابا — عملا هو ثمرة لخطة مشهورة فى تاريخ الفلسفة . وأطلق عليه اسم : De concordontia Catholica « الائتلاف الكاثوليكى » وكان الهدف العام الذى يرمى إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدى وظيفتها بنجاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك فى قياس محكم وتركيب متقن . وبدلا من أن يستنتج نيكولاس ، كما فعل البابوات ، أن الأجزاء يجب أن تسترشد بالرأى فإنه رأى أن مجلساً عاماً فحسب هو الذى يمكن أن يمثل ويعبر عن ويوحد عناصر الكنيسة التى يعتمد بعضها على البعض

الآخر . وردد آراء الأكويني ومارسيليوس بل وسبق آراء روسو وجيفرسون في فقرة مثالية : «كل قانون يعتمد على قانون طبيعي وإذا تناقض معه فإنه لا يمكن أن يكون قانوناً صحيحاً » . . . وبما أن الناس قد خلقوا أحراراً فإن أية حكومة توجد فقط بموافقة رعاياها ورضاهم فحسب . . . والقوة الملزمة لأى قانون يتضمنها هذا الاتفاق وهذا الرضا صراحة أو ضمنا فالشعب صاحب السيادة يفوض فى سلطانه بعض الجماعات الصغيرة المزودة بالتعليم أو الخبرة لسن القوانين أو تطبيقها غير أن هذه الجماعات تستمد سلطاتها العادلة من رضا المحكومين وعندما تفوض الجماعة المسيحية فى سلطاتها مجلساً عاماً للكنيسة فإن هذا المجلس وليس البابا هو الذى يمثل السلطة العليا فى الدين . وفضلا عن هذا فإن البابا لا يستطيع أن يستند فيما يدعيه من حق شرعى مطلق ، إلى هبة قسطنطين المفترضة لأن هذه الهبة اختلاق وأسطورة . إن للبابا الحق فى عقد مجلس عام ولكن مثل هذا المجلس يمكنه أن يخلعه إذا رآه غير لائق بمنصبه . ونفس المبادئ يمكن أن تطبق على الأمراء الزمنيين : وربما تكون الملكية الانتخابية خير حكومة تتاح للناس فى حالتها الفاسدة الحالية ولكن يجب على الحاكم الدنيوى ، كما يجب على البابا ، أن يعقد بانتظام مجلساً نيابياً ويجب أن يخضع للقوانين التى يصدرها هذا المجلس .

وكان مثالا يحتذى للبطاركة فى أخريات أيامه فعندما رسم كاردينالا عام ١٤٤٨ أصبح شخصية كاثوليكية مصلحة . وقام بجولة مجهدة فى هولندا وألمانيا وعقد خلالها مجمعات مقدسة إقليمية وأحيا النظام الكنسى وأصلح أديرة الرهبان والراهبات وهاجم تسرى القسس وارتقى بتعليم رجال الإكليروس ورفع على الأقل لفترة ما المستوي الخلقى لرجال الدين والشعب. وقد كتب العلامة أبوت تريثيميوس : « ظهر نيكولاس الكوزاوى فى ألمانيا كملاك ينشر النور والسلام وسط الظلام والشك وقد أعاد وحدة الكنيسة ودعم سلطة رأسها الأعلى وزرع بذرة ثمينة فى حياة جديدة .

ويمكن لنيكولاس أن يضيف إلى ألقابه الأخرى لقب عالم بالإنسانيات فقد أغرم بالكلاسيات القديمة وشجع على دراستها وفكر فى طبع المخطوطات اليونانية التى أحضرها بنفسه من القسطنطينية لتوزيعها على نطاق واسع وكان يتسم بتسامح العلامة الحقيقى فقد طالب بتفاهم متبادل بين الأديان كالأشعة المختلفة المنبعثة من حقيقة أزلية واحدة وذلك فى كتاب « حوار حول السلام » الذى ألفه فى نفس العام الذى سقطت فيه القسطنطينية فى أيدى الأتراك . وفى فجر الفكر الحديث عندما كانت حرية الرأى سما ناقعا كتب هذه الكلمات السليمة النبيلة :

« إنها لمتعة أن تعرف وأن تفكر وأن ترى الحقيقة بعين العقل . وكلما تقدم المرء فى السن وجد فى هذا متعة أكبر ولما كان الحب هو حياة القلب فإن حياة العقل فى السعى وراء المعرفة وحقيقة الحياة . ووسط حركات الزمن والعمل اليومى وتناقضات الحياة وارتباطاتها فإننا يجب أن نرفع أبصارنا بلا خوف صوب قبة السماء الصاخبة ونحاول الحصول على إدراك أشد رسوخا لأصل كل خير وجمال ومدى قدرة قلوبنا وعقولنا وثمار العقول البشرية كلها خلال القرون وظواهر الطبيعة الرائعة حولنا على أن نذكر دائماً أن العظمة الحقة إنما تكمن فى التواضع وحده ولا يمكن الإفادة من المعرفة والحكمة إلا إذا كانتا تسيطران على حياتنا :

ولو قد ظهر كثيرون من أمثال نيكولاس لما قدر لمثل لوثر أن يوجد .

الفصل الرابع عشر

غزو البحر

١٤٩٢ – ١٥١٧

١ – كولمبس

لقد كان « قدرا ظاهرا » أن يجرؤ امرؤ فى هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطى ليكتشف الهند أو « كاثى » إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود « أطلانتس » عبر البحر بل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطى تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا وكانت لسيطرة الأتراك على شرق البحر الأبيض المتوسط وما اقترفه العثمانيون فى القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية فى فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها سببا فى جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر . وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب ولكن البرتغال واسبانيا كانتا بعيدتين جدا فى الغرب وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقا حول افريقيا ولم يعد أمام اسبانيا إلا أن تجرب حظها فى المرور غربا .

وقد أدى تقدم المعرفة إلى إثبات كروية الأرض منذ عهد بعيد وشجعت أخطاء العلم ذاتها على الأقدام وذلك بإساءة تقدير عرض المحيط الأطلنطى وبتصوير آسيا على أنها أرض سهلة للغزو والاستثمار فى الطرف الأقصى ؛

ولقد وصل البحارة الاسكنديناويون عامى ٩٨٦ و ١٠٠٠ إلى لبرادور وعادوا يحملون نبأ العثور على قارة جديدة فسيحة، وزار كريستوفر كولمبس أيسلندا عام ١٤٧٧، إذا صدقنا القصة التى رواها بلسانه، ومن المسلم به أنه سمع الروايات المأثورة التى تردد فى فخر رحلة لايف اريكسون إلى ڤنلنده Vindland .

كان المال هو كل ما تحتاجه المغامرة الكبرى وقتذاك أما الشجاعة فكانت متوفرة . وقد سجل كولمبس نفسه فى المايورازو mayorazzo أو الوصية التى حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطى أنه من مواليد جنوا . حقا إنه كان فى محرراته الموجودة لدينا يتسمى بالاسم الأسبانى كريستوبال كولون ولم يستخدم قط اسمه الإيطالى كريستوفورو كولومبو ولكن المعتقد أن هذا كان بسبب كتابته بالأسبانية لأنه عاش فى اسبانيا أو لأنه كان يقوم برحلاته البحرية لحساب ملك اسبانيا لا لأنه ولد فى اسبانيا . ومن المحتمل أن يكون أجداده أسبانيين من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وهاجروا إلى إيطاليا، والدليل قوى على أن الدم العبرى يسرى فى عروق كولمبس وعلى ميله لليهود . وكان والده نساجا ويبدو أن كريستوفورو امتهن هذه المهنة بعض الوقت فى جنوا وسافونا، وقد ورد فى الترجمة الذاتية التى كتبها ابنه فرديناند أنه درس التنجيم والهندسة وعلم الكون (الكوزموجرافيا) فى جامعة بافيا وإن لم يدرج اسمه فى سجلات الجامعة، وها هو يقول لنا بنفسه إنه أصبح بحارا فى الرابعة عشرة من عمره لأن كل طريق فى جنوا يؤدى إلى البحر .

وهاجم القراصنة عام ١٤٧٦ سفينة كان كولومبس بها نحو لشبونه وأغرقت هذه السفينة . ويروى كولمبس أنه سبح ستة أميال حتى وصل إلى الشاطىء مستعينا ببعض الحطام ولكن يبدو أن أمير البحر العظيم أطلق

لخياله العنان إذ يقول إنه سافر بعد بضعة شهور إلى إنجلترا بحارا أو قبطانا ثم سافر إلى ايسلنده فلشبونة وهناك تزوج واستقر واشتغل برسم الخرائط الجغرافية ، وكان حموه بحارا خدم الأمير هنرى الملاح ، وليس من شك فى أن كولومبوس سمع منه بعض الحكايات الممتعة عن شاطىء غينيا ، ولعله انضم عام ١٤٨٢ كضابط إلى الأسطول البرتغالى الذى أبحر حذاء هذا الشاطىء إلى المينا ، وقرأ باهتمام كتاب البابا بيوس الثانى Historia rerum gestarum « تاريخ الأجناس » وكثيرا من التعليقات مما أوحى إليه بفكرة الطواف بحرا حول إفريقيا .

ولكن دراساته مالت به شيئاً فشيئاً نحو الغرب وعرف أن سترابون روى فى القرن الأول من عصرنا محاولة للطواف حول الكرة الأرضية وكان يعلم ما كتبه سينيكا : « بعد سنوات سيأتى عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبى تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولى (أيسلندة ؟) أقصى طرف للأرض » ، وقد قرأ « كتاب سير ماركو بولو الذى امتدح ثروات الصين وحدد وضع اليابان على بعد ١٥٠٠ ميل شرق قارة آسيا . وكتب أكثر من ألف ملاحظة فى نسخته من كتاب بيير دالى (صورة العالم) Imago mundi وقبل التقدير الراجح لمحيط الأرض بأنه يبلغ من ١٨٫٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ ميل وبربط هذا بتحديد بولو لمكان اليابان حسب أن أقرب الجزر الأسيوية على بعد ٥٫٠٠٠ ميل غرب لشبونة وقد سمع عام ١٤٧٤ عن خطاب كتبه الطبيب الفلورنسى باولو توسكانيلى للملك البرتغال ألفونسو الخامس يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول افريقيا وذلك بالسفر بحرا لمسافة ٥٠٠٠ ميل غربا . وكتب كولومبوس إلى توسكانيلى وتلقى منه ردا مشجعا ونضجت الفكرة فى ذهنه .

وحوالى عام ١٤٨٤ عرض على جون الثانى ملك البرتغال أن يجهز ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر الأطلنطى والعودة منها على أن يعين كولومبس أمير بحر أعظم للمحيط وحاكما دائما لكل الأراضى التى يكتشفها ، وأن يحصل على عشر كل الإيراد والمعدن الثمين الذى تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضى (ومن الواضح أن فكرة نشر المسيحية كانت ثانوية بالنسبة للاعتبارات المادية) . وقدم الملك العرض إلى لجنة من العلماء فرفضوه على أساس أن تقدير كولومبوس للمسافة عبر الأطلنطى بأنها لا تعدو ٢٤٠٠ ميل أقل بكثير من الحقيقة (كان هذا التقدير صحيحا تقريبا للمسافة من جزر كانارى إلى جزر الهند الغربية) وعرض ملاحان برتغاليان عام ١٤٨٥ مشروعا مماثلا على الملك جون ولكنهما وافقا على تمويله بنفسيهما فمنحهما جون بركته وهـذا أضعف الإيمان ، وانطلقا عام ١٤٨٧ متخذين طريقا أقرب للشمال تحف به الرياح الغربية الشديدة ثم عادا بخفى حنين . وجدد كولومبوس طلبه عام ١٤٨٨ فدعاه الملك لمقابلته وأقبل كولومبوس فى الوقت المناسب ليشهد العودة الظافرة لبارثولوميو دياس من رحلة ناجحة طاف فيها حول افريقيا . ولما كانت الحكومة البرتغالية تطمع فى اكتشاف طريق إلى الهند يمر بأفريقيا فإنها تخلت عن فكرة البحث عن طريق عبر الأطلنطى فتحول إلى جنوا والبندقية ولكنهما بدورهما لم يقدما له أى تشجيع لأن اهتمامهما كان موجها لاكتشاف طريق للشرق بالاتجاه شرقا . وفوض كولمبس أخاه فى جس نبض هنرى السابع ملك إنجلترا فدعاه إلى مقابلته ولكن عند ما وصلت الدعوة إلى كولمبس كان قد وضع نفسه فى خدمة أسبانيا . وكان عندئذ (١٤٨٨) فى حوالى الثانية والأربعين من عمره . طويلا نحيلا له وجه مستطيل وبشرة حمراء قانية وأنف معقوف وعينان زرقاوان بوجهه نمش وشعره أحمر فاتح بدأت تتخلله الشعرات البيضاء ويوشك أن يشتعل شيبا ، وقد وصفه ابنه وأصدقاؤه

بأنه رجل متواضع ، رزين ، وديع ، فطن ، معتدل فى طعامه وشرابه ، تقى للغاية . وزعم آخرون أنه كان معجبا بنفسه ، يعرض الألقاب التى منحت له ويبالغ فيها وأنه رفع أجداده إلى طبقة النبلاء فى خياله وكتاباته وأنه ساوم بشدة للحصول على نصيب من ذهب العالم الجديد . ومهما يكن من أمر فإنه كان يستحق أكثر مما طلب . وكان بين الفينة والفينة ينحرف عن العمل بالوصايا العشر فقد حدث فى قرطبة أن أنجبت منه بياتريس انريكيز ولدا غير شرعى عام ١٤٨٨ وذلك بعد وفاة زوجته . ولم يتزوج منها كولمبس وإن كان قد وفر لها كل شىء فى حياته ولم ينسها فى وصيته ولما كان معظم علية القوم فى تلك الأيام النشيطة قد أنجبوا أبناء من علاقات عارضة فإنه يبدو أن أحدا لم يعر هذا الحادث اهتماما .

وفى غضون ذلك كان قد قدم التماسه إلى إيزابيلا صاحبة قشطالة (أول مايو سنة ١٤٨٦) فأحالتهـــا إلى جماعة من المستشارين يرأسهم صاحب القداسة رئيس أساقفة طلبيرة . وبعد أن تشاوروا طويلا قدموا تقريرا ذكروا فيه أن الخطة غير عملية واحتجوا بأن آسيا تقع على مسافة أبعد من ناحية الغرب مما ظن كولومبس ومع ذلك فإن فرديناند وإيزابيلا منحاه راتبا سنويا قدره ١٢٫٠٠٠ مارافيدس (٨٤٠ دولارا ؟) وزوداه عام ١٤٨٩ بخطاب يأمران فيه كل البلديات الأسبانية بأن توفر له الطعام والمأوى ولعلهما كانا يريدان أن يحتفظا بحق الاختيار بالنسبة لمشروعه لئلا يمنح قارة لملك منافس بطريق المصادفة ولما رفضت لجنة طلبيرة المشروع مرة أخرى بعد أن تداولت بشأن الخطة قرر كولومبس أن يقدم المشروع إلى شارل الثامن ملك فرنسا غير أن فراى جوان بيريز رئيس رهبان دير لارابيدا أثناه عن عزمه ورتب له مقابلة مع إيزابيلا فأرسلت إليه ٢٠٫٠٠٠ مارافيدس لمواجهة نفقات رحلته إلى مقر قيادتها فى مدينة سانتافى المحاصرة

وذهب هناك واستمعت فى رقة إلى حجته ولكن مستشاريها عارضوا الفكرة مرة أخرى فاستأنف استعداداته للذهاب إلى فرنسا (يناير سنة ١٤٩٢) .

وعند هذه المرحلة الحرجة حرك يهودى متنصر سير التاريخ فقد لام لويس دى سانتاندر ، وزير مالية فرديناند ، إيزابيلا لافتقارها إلى الخيال والعزيمة ، وأغراها وذلك بأن لوح لها بالأمل فى أن تحول آسيا إلى المسيحية واقترح أن يمول الحملة بنفسه بمعاونة أصدقائه وأيده فى فكرته يهود آخرون — دون إيزاك أبرابانل Abrabanel وخوان كابريرو وأبراهام سنيور ، وتأثرت إيزابيلا بالفكرة وعرضت أن ترهن جواهرها لرفع قيمة المبلغ المطلوب ولكن سانتاندر رأى أن هـذا الإجراء غير ضرورى واقترض مبلغ ١٫٤٠٠٫٠٠٠ مارافيدس من جماعة الرهبان التى كان أمينا لصندوقها وأضاف إليه مبلغ ٣٥٠٫٠٠٠ من جيبه الخاص كما حصل كولومبس بطريقة ما على مبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ عـلاوة على ما سبق .

وفى السابع عشر من أبريل عام ١٤٩٢ وقع الملك الأوراق الضرورية ثم أعطى عندئذ أو بعد ذلك لكولومبس خطابا إلى خان كاثاى ، وكان هذا فى الصين وليس فى الهند التى كان يأمل كولمبس أن يصل إليها والتى ظن حتى آخر لحظة فى حياته أنه قد اكتشفها .

وفى الثالث من أغسطس أبحرت سانتاماريا (سفينة أمير البحر) وبنتا ونينيا Nina من بالوس وعلى ظهرها ثمانية وثمانون رجلا ومؤن تكفيهم لمدة عام .

٢ ـ أمريكا

واتجهوا جنوباً نحو جزر كانارى ينشدون الرياح من الشرق قبل أن يواجهوا الغرب . وبعد إقامة طويلة فى الجزر أقدموا على السير فى خط مواز لخط عرض ثمان وعشرين (٦ سبتمبر) فى مكان لا يبعد جنوبا بدرجة تكفى لينعموا بالرياح التجارية ونحن نعلم أنهم لو اتجهوا جنوبا أكثر من ذلك لقصروا المسافة إلى أمريكا وجنبوا أنفسهم ما لاقوه من عناء فى طريقهم إليها وكان الطقس لطيفا وكتب كولمبس فى سجل سير السفينة « مثل جو أبريل فى الأندلس والشىء الوحيد الذى ينقصنا هو سماع صوت البلابل » . واعتراهم القلق ثلاثة وثلاثين يوماً وكان كولمبس يقلل من المخصصات الغذائية التى تصرف لرجاله بنسبة الأميال التى يقطعونها كل يوم ولكن نظراً لأنه بالغ فى تقدير سرعته فإن بياناته كانت صحيحة برغم أنفه .

وعندما استمر سكون الرياح غير طريقه وإذ ذاك شعر البحارة ، أكثر من أى وقت مضى — بالضياع فى خضم البحر وهم يسيرون فيه على غير هدى . وفى التاسع من أكتوبر صعد ربانا السفينتين بنتا ونينيا على ظهر سفينة القيادة وطالبا بإلحاح بالعودة فوراً إلى إسبانيا فوعدهما كولمبس بأنه سيحقق رغبتهما إذا لم يروا الأرض خلال ثلاثة أيام وفى العاشر من أكتوبر تمرد بحارة سفينته ولكنه هدأ من ثورتهم بأن تعهد لهم بنفس الشىء . وفى الحادى عشر من أكتوبر التقطوا من المحيط غصنا أخضر يحمل أزهاراً فعادوتهم الثقة فى قائدهم . وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى والقمر بدر تقريباً صاح رودريجودى تريانا القائم بالحراسة (الأرض ! الأرض !) أخيراً ها هى الأرض . .

وعند ما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة . واستقل القباطنة الثلاثة قاربا بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا والله وأطلق كولمبس على الجزيرة اسم سان سلفادور المخلص المقدس — واستولى عليها باسم فرديناند وايزابيلا والمسيح . واستقبل المتوحشون مستعبديهم فى المستقبل بدماثة المتحضرين . وكتب أمير البحر : « ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر فلكى نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزا وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيراً . ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة . واقبلوا فيما بعد سابحين إلى قوارب السفينة وأحضروا معهم ببغاوات وخيوطاً من القطن . . وأشياء أخرى كثيرة فأعطيناهم فى مقابلها خرزات صغيرة . . . وأخيراً تبادلوا معنا كل ما يملكون وهم راضون كل الرضى » .

ولعل خبر « المتوحش المسالم السلس » الذى فتن روسو وشاتوبريان وهويتمان قد بدأ عندئذ وفى ذلك المكان ولكن كان من بين الأمور التى عرفها كولمبس عن الجزيرة أن هؤلاء الوطنيين كانوا عرضة لغارات تقوم بها جماعات أخرى من الوطنيين لاسترقاقهم وأنهم أنفسهم أو أسلافهم تغلبوا على أهالى البلد الأصليين . وبعد رسوهم بيومين كتب فى يومياته ملاحظة مشئومة : « إن هؤلاء الناس غير حاذقين فى استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلا وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء » . ولكن لم يكن فى سان سلفادور للأسف أى ذهب . وفى الرابع عشر من أكتوبر أقلع الأسطول الصغير بحثاً عن سيبانجو — اليابان — والذهب . وفى الثامن والعشرين من أكتوبر رسوا على كوبا وهناك أحسن الأهالى بدورهم التصرف وحاولوا أن ينضموا لضيوفهم فى إنشاد (ايف ماريا) وبذلوا جهدهم فى رسم علامة

الصليب . وعندما عرض عليهم كولومبس الذهب أبدوا له ما يدل على أنه سيجد بعضه فى نقطة بالداخل أطلقوا عليها اسم كوبانا كان — أى وسط كوبا — واعتقد أنهم يقصدون بهذا الخان العظيم أو خان الصين العظيم فأرسل أسبانيين معهما أوراق اعتماد دبلوماسية ليجدا هذا الحاكم المراوغ وعادا دون أن يلتقيا بالخان وإن كانا قد جاءا بقصة ممتعة عن الحفاوة التى استقبلا بها فى كل مكان كما أنهما قدما أول تقرير للأوربيين عن التبغ الأمريكى فقد شاهدوا رجلا وامرأة من الأهالى يدخنان أعشاب التبغ وهى ملفوفة فى سيجار أدخلاه فى الأنف وغادر كولمبس كوبا وهو يشعر بخيبة الأمل (٤ ديسمبر) وأخذ معه عنوة خمسة من شباب الوطنين ليقوما بمهمة الترجمة وسبع نساء للترفيه عنهم وقد مات الجميع وهم الطريق إلى أسبانيا .

وفى غضون ذلك كان مارتين ألونزوبينزون الربان الأول فى أسطول كولمبس قد هجره وانطلق بسفينته لينقب عن الذهب لحسابه الخاص . وفى الخامس من ديسمبر وصل كولمبس إلى هايتى وهناك ظل أربعة أسابيع وهو يلاقى من الأهالى كل ترحيب وحفاوة . وعثر على بعض الذهب وشعر أنه غدا قاب قوسين أو أدنى من الخان ولكن سفينته المعقود لها لواء القيادة اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد الذى كان قد فكر بالاحتفال به كأسعد يوم فى حياته . ومن حسن الحظ أن السفينة نينيا كانت على مقربة منه فأنقذت البحار واقتحم الأهالى الطيبون أمواج البحر فى قواربهم للمعاونة فى إنقاذ معظم الشحنة قبل أن تغرق السفينة وواسى زعيمهم كولمبس فعرض عليه ضيافته وقدم له الذهب وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل فى هايتى . فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب فى يومياته أن فرديناند وايزابيلا سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفى لغزو الأرض المقدسة . وتأثر بسلوك الأهالى الحسن فترك قسما من بحارته يتوطنون لارتياد الجزيرة

بينما عاد إلى إسبانيا ليقدم تقريراً عن اكتشافاته . وفى السادس من يناير سنة ١٤٩٣ عاد بنزون وانضم إليه بسفينته بنتا وقبل كولمبس اعتذاره فقد كان عقت العودة وليس معه إلا سفينة واحدة . وفى السادس عشر من يناير بدأ رحلة العودة للوطن .

كانت رحلة طويلة تعسة فطوال شهر يناير كانت الرياح معاكسة وفى الثانى والعشرين من فبراير هبت ريح عاصفة صفعت السفينتين الصغيرتين ولم يكن طول كل منهما يتجاوز سبعين قدما وبينما كان كولومبس ورفيقه يقتربان من شاطىء الأزور تخلى عنه بنزون مرة أخرى مؤملا أن يكون أول من يصل إلى أسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا وألقت السفينة نينيا مراسيها بعيداً عن سانتا ماريا فى شاطئ الأزور (١٧ فبراير) وانطلق نصف البحارة إلى الشاطئ للقيام بالحج إلى مزار للعذراء فاعتقلتهم السلطات البرتغالية وألقت بهم فى السجن لمدة أربعة أيام بينما كان كولمبس يتميز غيظا على الشاطئ ثم أطلق سراحهم وأقلعت السفينة نينيا مرة أخرى ولكن عاصفة أخرى دفعتها بعيداً عن طريقها المرسوم ومزقت قلوعها فاغتم البحارة ونذروا أن يقضوا أول يوم يطأون فيه الأرض صائمين على الخبز والماء وأن يعملوا بالوصايا العشر . وفى الثالث من مارس رأوا شاطئ البرتغال وعلى الرغم من أن كولمبس علم أنه كان يخاطر بالوقوع فى ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو فى لشبونه وفضل هذا على محاولة قطع الأميال المائتين وخمسة وعشرين الباقية للوصول إلى باولوس مستعينا بقلع واحد . واستقبله جون الثانى بحفاوة ورممت السفينة نينيا وفى الخامس عشر من مارس وصلت إلى باولوس بعد « عناء وهول لا حد لهما » (كما قال كولمبس) بعد مرور ١٩٣ يوما من مغادرة ذلك الميناء . وكان مارتن بنزون قد رسا شمالى أسبانيا قبل ذلك ببضعة أيام وبعث برسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ولكنهما

رفضا أن يقابلاه هو أو رسوله ودخلت السفينة بنتا باولوس بعد يوم من وصول السفينة نينيا وفر بنزون يغمره الفزع ويجلله العار الذى جلبه على وطنه ولازم فراشه حتى مات .

٣ — مياه المرارة

ورحب الملك والملكة بكولومبس فى برشلونه وعاش فى البلاط ستة شهور وأنعم عليه بلقب «أمير البحر الاوقيانوس ويقصد به الأطلنطى غرب شواطئ الأزور » . ونصب حاكما على العالم الجديد أو كما وصف نفسه « نائب الملك وحاكم عام الجزر وأراضى آسيا والهند » . وعندما شاع أن جون الثانى يجهز أسطولا لعبور الأطلنطى استغاث فرديناند بالبابا الكسندر السادس . وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا فى « البحر الأوقيانوس » فعين البابا الأسبانى ، فى سلسلة من المنشورات (١٤٩٣) لأسبانيا ملكية كل الأراضى التى لا تدين بالمسيحية فى الغرب ، وللبرتغال كل الأراضى فى الشرق ويفصل بينهما خط وهمى مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد ٢٧٠ ميلا غرب الأزور وجزر الرأس الخضراء ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين لولا أنهما وافقتا فى معاهدة توردسيلاس (٧ يونيه سنة ١٤٩٦) على أن يمر ذلك الخط موازيا لخط الزوال الطولى على بعد ٢٥٠ فرسخا غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة للاكتشافات التى تمت قبل ذلك التاريخ ، ولكن على بعد ٣٧٠ فرسخا غربا بالنسبة للاكتشافات التى تتم بعد ذلك . (يقع الطرف الشرقى للبرازيل شرق هذا الخط الثانى) وقد أطلقت منشورات البابا على الأرض الجديدة « جزر الهند » وقبل العلماء أمثال بييترو مارتيرى وانجييرا رأى كولومبس بأنه قد وصل إلى آسيا واستمر هذا الوهم حتى طاف ماجلان حول الكرة الأرضية .

وقام فرديناند وإيزابيلا يحدوهما الأمل فى الحصول على الذهب بتزويد كولومبس بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتى بحار وحيوانات للشروع فى تربية قطعان من الماشية والأغنام فى جزر الهند وخمس من رجال الدين لتلقى اعترافات الإسبانيين ولهداية « الهنود » . وقد بدأت الرحلة الثانية من اشبيليه يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وبعد تسعة وثلاثين يوما (مقابل سبعين يوماً فى الرحلة الأولى) شاهد الحارس جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم « دومينيكا » لأنهم كانوا فى يوم الأحد . ولم ينزلوا إلى الأرض هناك لأن أمير البحر اشتم رائحة فريسة أكبر . ومر خلال مجموعة جزر الأنتيل الصغرى فى أقصى الغرب وتأثر كثيرا بعددها فأطلق عليها اسم « إحدى عشر ألفاً من العذارى» . وهى لاتزال جزراً عذراء وتابع رحلته واكتشف بويرتوريكو ، وتمهل هناك قليلا ثم أسرع ليرى ما حدث للمستوطنين الإسبان الذين تركهم فى هايتى منذ عشرة شهور فلم يجد منهم رجلا على قيد الحياة ، إذ أن الأوربيين طافوا بالجزيرة وسطوا على ذهب الأهالى وسبوا نساءهم وأقاموا فردوسا استوائيا عاش فيه كل رجل مع خمس نساء وتنازعوا فيما بينهم وقتل بعضهم بعضا أما الباقون فقد قضى عليهم الهنود الذين انتهكت حرماتهم .

وسارت سفن الأسطول شرقاً بحذاء شاطىء هايتى ، وفى الثانى من يناير عام ١٤٩٤ أنزل أمير البحر رجالا وشحنة لتأسيس مستعمرة جديدة أطلق عليها اسم « إيزابيلا » . وبعد أن أشرف على بناء مدينة وبعد ترميم سفنه سافر ليرتاد كوبا . وعندما عجز عن الطواف حولها استنتج أنها قارة آسيا ولعلها شبه جزيرة الملايو . وفكر فى الالتفاف نحولها والدوران بالكرة الأرضية ولكن سفنه لم تكن مجهزة لهذه الرحلة : فعاد إلى هايتى (٢٩ أكتوبر سنة ١٤٩٤) وهو يتساءل ماذا حدث لمستعمرته الجديدة . وصدم عندما وجد أنها تصرفت كالمستعمرة السابقة وأن الإسبانيين اغتصبوا

النساء الوطنيات ونهبوا مخازن طعام الأهالى وخطفوا أولاد الوطنيين ليخدموهم كالعبيد وأن الوطنيين قتلوا كثيراً من الإسبان على سبيل الانتقام . وقامت البعثات التبشيرية بمحاولة صغيرة لتنصير الهنود وانضم راهب إلى جماعة الساخطين الذين عادوا إلى إسبانيا ليقدموا للملك والملكة تقريرا لا يشجع عن موارد هايتى الذائعة الصيت . وقد أصبح كولومبس نفسه الآن تاجرا للعبيد إذ أرسل حملات لأسر ١٫٥٠٠ وطنى وأعطى للمستوطنين أربعمائة من هؤلاء وبعث إلى إسبانيا بخمسمائة مات منهم مائتان أثناء الرحلة وبيع الباقون فى إشبيليه ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد ، ولعلهم لم يحتملوا همجية المدنية وترك كولومبس لأخيه تعليمات بنقل المستعمرة من إيزابلا إلى موقع أحسن فى سانتو دومينجو (ثيودادتريخليو الآن) وسافر إلى إسبانيا (١٠ مارس سنة ١٤٩٦) ووصل إلى قادس بعد رحلة تعسة استمرت ثلاثة وتسعين يوما . وأهدى للملك والملكة الهنود وسبائك الذهب ولم تكن بالكثير ، إلا أنها خففت من الشكوك التى ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال فى الأطلنطى ولم يشعر أسير البحر بالارتياح وهو فوق الأرض ، فقد كان ملح البحر يجرى فى عروقه فالتمس تزويده بثمانى سفن على الأقل للقيام بمحاولة أخرى بحثا عن الثروة ، ووافق الملك والملكة وفى مايو عام ١٤٩٨ سافر كولمبس مرة أخرى.

وقد اتجهت الرحلة الثالثة نحو الجنوب الغربى إلى خط عرض عشرة ثم سارت غربا فى هذا الخط المستقيم . وفى الحادى والثلاثين من يوليو شاهد البحارة جزيرة كبيرة أطلق عليها القائد التقى اسم « ترينيداد » . وفى الحادى والثلاثين من أغسطس رأى قارة أمريكا الجنوبية وربما كان ذلك قبل أو بعد فسبوتشى . وبعد استكشاف خليج باريا أبحر — نحو الشمال الغربى ووصل إلى سانتودومينجو يوم ٣١ أغسطس فوجد أن المستعمرة الثالثة قد بقيت ولكن كان ربع الخمسمائة من الإسبان الذين تركهم عام ١٤٩٦

يشكون من مرض الزهرى ، وانقسم المستوطنون إلى فريقين متعادين وكانا عندئذ على حافة الحرب . ولتهدئة التذمر أقطع كولمبس كل رجل مساحة كبيرة من الأرض وسمح له باسترقاق الوطنيين والإقامة فيها ، وأصبحت هذه قاعدة تتبع فى المستعمرات الأسبانية ، وأنهكت الصعاب وخيبات الأمل وداء النقرس ومرض فى العينين قوى كولومبس فى ذلك الوقت فانهار تحت وطأة هذه المشكلات وكان ذهنه يتكدر بين الفينة والفينة وأصبح يستثار بسهولة ؛ متذمرا مستبدا ، شحيحا ، جائرا فى عقابه أو هذا على الأقل ما زعمه كثير من الأسبان فقد تميزوا من الغيظ تحت حكم رجل إيطالى . وأدرك أن مشكلات إدارة المستعمرة كانت دخيلة عليه بالنسبة لتدريبه ومزاجه . وأرسل فى أكتوبر عام ١٤٩٩ بعثتين إلى أسبانيا مع التماس لفرديناند وإيزابيلا لتعيين نائب للملك يساعده فى حكم الجزيرة .

وأخذه الملكان بكلمته وعينا فرانشسكو دى بوباديلا ولكنهما ذهبا إلى أبعد مما طلب أمير البحر فخولا نائبهما سلطة كاملة بل سلطة تفوق سلطة كولمبس . ووصل بوباديلا إلى سانتو دومينجو بينما كان كولمبس غائبا وسمع كثيرا من الشكايات من الأسلوب الذى كان يحكم به كريستوفورو وأخواه بارتولومى ودييجو ما تسمى الآن باسم هسبانيولا وعندما عاد كولولمبس ألقى به بوباديلا فى غياهب السجن والأغلال فى ذراعيه والسلاسل فى قدميه وبعد إجراء تحقيق أرسل النائب الإخوة الثلاثة إلى أسبانيا (أول أكتوبر عام ١٥٠٠) وعندما وصل كولومبس إلى قادس كتب خطابا مؤثرا إلى أصدقائه فى البلاط « لقد انقضت سبعة عشر عاما منذ حضرت لأخدم هذين الأميرين بمشروع جزر الهند ، ولقد أضاعا من عمرى ثمانية أعوام فى النقاش وفى النهاية رفضاه كأن الأمر دعابة . ومع ذلك لم أيأس . . . وها أنذا قد وضعت هناك تحت إمرتهم أرضا تزيد عما

لديهم فى أفريقيا وأوروبا وأكثر من ١٫٧٠٠ جزيرة . . . وفى سبع سنوات قمت أنا بمشيئة الله ، بهذا الغزو ، وفى الوقت الذى كنت أنتظر فيه المكافأة وأتطلع إلى التقاعد قبض على بلا جريرة وأرسلت للوطن مصفدا بالأغلال . . . ووجهت إلى تهمة الحقد على أساس الاتهامات التى وجهها إلى مدنيون ثاروا وأرادوا الاستيلاء على الأرض . . . إنى أرجو من مراحمكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين المخلصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهما وأن تفكروا مليا كيف ألوث شرفى وخلقى فى أواخر أيامى دون سبب ، أنا الذى جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة » .

وكان فرديناند مشغولا بتقسيم مملكة نابلى مع لويس الثانى عشر ، ومرت ستة أسابيع قبل أن يأمر بإطلاق سراح كولومبس وأخويه ودعوتهم إلى البلاط واستقبلهم الملك والملكة فى قصر الحمراء وواسياهم وأعادا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم فى العالم الجديد . وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الاتفاقية التى وقعاها عام ١٤٩٢ بتخويل كولومبس سلطانا كاملا على الأراضى التى اكتشفها ، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرا بممارسة هذه السلطة فعينا دون نيكولاس دى أوفاندو حاكما جديدا على جزر الهند . ومهما يكن من أمر فإنهما سمحا لأسير البحر أن يحصل على كل حقوقه من أملاكه فى سانتو دومينجو وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة . وعاش كولومبس ما بقى من عمره فى رغد من العيش . ولكنه لم يكن راضيا . وألح على الملك والملكة أن يمداه بأسطول آخر ومع أنهما لم يتبينا بعد ما إذا كان « مشروع جزر الهند » سيعود عليهما بربح صاف فإنهما شعرا بأنهما يدينان له بمحاولة أخرى . وبدأ كولومبس رحلته الرابعة من قادس بأربع سفن على ظهرها مائة وأربعون رجلا منهم أخوه

بارتولومى وابنه فرناندو ، وذلك فى اليوم التاسع عام ١٥٠٢ . وفى التاسع والعشرين من يونيه أحس بزوبعة فى الجو وفى مفاصله ، فرسا فى بقعة آمنة من شاطئ هايتى قرب سانتو دومينجو ، وكان فى الميناء الرئيسى ثلاثون سفينة على وشك الإبحار إلى إسبانيا . وبعث كولومبس برسالة إلى الحاكم يبلغه فيها بأن إعصاراً سوف يهب وأشار عليه بأن يؤخر سفر السفن قليلا . ولكن أوفاندو أعرض عن هذا التحذير وأرسل الأسطول وهبت الزوبعة الهوجاء ونجت منها سفن أمير البحر ولم يصبها إلا أقل الضرر ، أما سفن أسطول الحاكم فقد تحطمت جميعاً إلا واحدة وغرق خمسمائة رجل ومنهم بوباديلا وغاصت فى أعماق البحر شحنة من الذهب .

وليس من شك فى أن كولمبس بدأ عندئذ أصعب الشهور الحافلة بالأسى فى حياته المضطربة — فقد استأنف سيره غربا ووصل إلى هندوراس وارتاد شاطئ نيكاراجوا وكوستاريكا مؤملا أن يجد مضيقاً يتيح له أن يطوف بالأرض : وفى الخامس من ديسمبر عام ١٥٠٢ هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر وصف كولومبس فى يومياته قوتها العاتية : « ظللت تائها لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل لى فى الحياة . لم تر عيناى قط بحراً كهذا هائجاً عالى الأمواج ، يغطيه الزبد . إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل إنها لم تتح لنا أية فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير فى هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلى على النار ، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت فى هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظا من نار يلسعنا كألسنة اللهب . وتفجر البرق بشدة حتى أننى كنت فى كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صوارى وانتزعت قلوعى . وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر .

ولم تتوقف الأمطار عن الهطل طوال ذلك الوقت . وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل إلى أنه طوفان آخر . وكان الرجال منهوكي القوى وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة » .

وإلى جانب ما كانت تحدثه الريح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع فقد هب إعصار عاقص ينشر الرذاذ البحر وكان قريبا جداً إلى درجة الخطورة من السفن وبدأ يقذف المـــاء إلى أعلى بحيث يطاول السحب فتناول كولمبس كتابه المقدس وقرأ فيه كيف هدأ المسيح العاصفة فى كابيرناوم ثم تعوذ من الإعصار ورسم صليبا فى السماء بسيفه وإذ ذاك يقال لنا إن قمة الماء انهارت وانتهى هياج البحر بعد مرور اثنى عشر يوماً مروعة ، ورسا الأسطول فى ميناء قرب الطرف الشرقى الحالى لقناة بناما، وهناك احتفل كولومبس ورجاله بعيد الميلاد عام ١٥٠٢ وبرأس السنة الجديدة عام ١٥٠٣ وقلوبهم مثقلة بالحزن دون أن يدور بخلدهم أن المحيط الهادى لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلا .

وتوالت المصائب . فبينما كان ثلاثة عشر بحاراً يجدفون فى قارب من قوارب سفينة القيادة نحو النهر للحصول على ماء عذب هاجمهم الهنود ولقى جميع الأسبان مصرعهم ما عدا رجل واحد وضاع القارب . واضطرو إلى التخلى عن سفينتين أتى السوس عليهما ولم تعودا صالحتين للملاحة أما الســـفينتان الباقيتان فقد كان بهما كثير من الخروق وكان لا بد من تشغيل المضخات ليل نهار وأخيراً أثبت السوس أنه أقوى من الرجال ولم يكن هناك بد من إرساء السفينتين الباقيتين على شاطئ جامايكا (٢٥ يونيه سنة ١٥٠٣) ، وهناك أقام البحارة البائسون سنة وخمسة شهور وكانون يعتمدون فى طعامهم على صداقة الأهالى المتقلبة والذين لم يكن لديهم أنفسهم ما يستغنون عنه إلا النذر القليل . وتطوع ديجو منديز ، الذى كان لرباطة جأشه فى مواجهة كل هذا الضيق الفضل فى عدم تردى كولمبس فى هوة اليأس ، أن يرأس

جماعة من ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود ويستقلوا قاربا منحوتاً من من جذع شجرة لقطع ٤٥٥ ميلا — منها ثمانون ميلا لا ترى بالبصر من فوق الأرض — إلى سانتو دومينجو لطلب النجدة . ونفد زادهم من الماء فى تلك المغامرة ومات بضعة هنود . ووصل منديز إلى هدفه ولكن أوفاندو لم يقدم أو يستغنى عن سفينته حتى مايو عام ١٥٠٤ لنجدة أمير البحر . وما أن حل شهر فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين الذين جنحت سفنهم إلى الحد الذى بدأ فيه الأسبان يتضورون جوعاً ، وكان مع كولمبس تقويم رجيومونتانوس الفلكى الذى جاء بحسباناته خسوف للقمر يوم ٢٩ فبراير ، فاستدعى زعماء الوطنين وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب سماحهم بتجويع رجاله وأنه سيحجب عنهم ضوء القمر فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن . وعندئذ طمأنهم كولمبس وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطعمون المسيحيين جيداً بعد هذا . وعاد القمر للظهور .

ومرت أربعة شهور أخرى قبل أن يصلهم العون وحتى ذلك الوقت كانت السفينة التى أرسلها أوفاندو قد اتسعت خروقها فلم يكن أمامها إلا أن تعود إلى سانتو دومينجو وسافر كولولمبس مع أخيه وابنه فى سفينة أشد متانة إلى إسبانيا فوصلوا فى اليوم السابع من نوفمبر بعد رحلة طويلة واجهوا فيها العواصف ، واغتم الملك لأنه لم يعثر على مزيد من الذهب ولم يكتشف مضيقا يوصل إلى المحيط الهندى ، ولم يجد فرديناند وايزابلا التى كانت تحتضر ، وقتا لمقابلة البحار الذى اشتعل رأسه شيبا بعد عودته أخيراً من البحر . وكانت عشوره « من هايتى لا تزال تدفع له . . . وكان يشكو من داء النقرس لا من الفاقة . وعندما وافق فرديناند أخيراً على مقابلة كولمبس لم يستطع أمير البحر وقد بدا أكبر عمراً من سنواته الثمانية والخمسين . أن يتحمل مشاق الرحلة إلى بلاط الملك فى سيجوفيا إلا بصعوبة بالغة وطالب بالألقاب والحقوق

والدخول التى وعد بها عام ١٤٩٢ ، فاعترض الملك وعرض عليه ضيعة كبيرة فى قشتالة فرفض كولمبس . ولاحق البلاط إلى سلمنقة وبلد الوليد ، وهناك مات يوم ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ محطم الجسد كسير الفؤاد ولم يتيسر قط لأحد أن يعيد رسم خريطة الأرض على هذا النحو .

٤ — المنظور الجديد

والآن بعد أن أضاء كولمبس الطريق اندفع مائة ملاح آخر إلى العالم الجديد ، ويبدو أن هذا الاسم قد استخدمه لأول مرة تاجر فلورنسى يطلق اسمه الآن على الأمريكيتين فقد أرسلى آل مديتشى إلى اسبانيا أمريجو فسبوتشى ليقوم على شئون مصرف فلورنسى وفاز عام ١٤٩٥ بعقد ينص على إعداد اثنتى عشرة سفينة لفرديناند وأصيب بحمى الكشف وزعم فى خطابات أرسلها فيما بعد (١٥٠٣ — ١٥٠٤) لأصدقاء فى فلورنسا أنه قام بأربع رحلات إلى ما أسماه بالعالم الجديد وأنه فى إحدى هذه الرحلات فى اليوم السادس عشر من يونيه عام ١٤٩٧ ، وصل إلى قارة أمريكا الجنوبية . ولما كان جون كابوت قد وصل إلى جزيرة كيب بريتون فى خليج سانت لورانس فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه عام ١٤٩٧ وشاهد كولمبس فنزويلا عام ١٤٩٨ فإن قصة فسبوتشى تنسب له أنه كان أول أوروبى وصل إلى قارة فى نصف الكرة الغربى منذ عهد لايف اريكسون (سنة ١٠٠٠) ولكن ما اتسمت به روايات فسبوتشى من عدم الدقة وما خالطها من اضطراب ألقى ظلالا من الشك على مزاعمه ومما يجدر ذكره أن كولمبس ، والذى كان فى وسعه عندئذ أن يحكم على مدى وثوق أخبار فسبوتشى عهد إليه عام ١٥٠٥ بخطاب لتسليمه إلى دييجو ابن أمير البحر . وفى سنة ١٥٠٨ نصب فسبوتشى كبيراً لجميع الربابنة فى أسبانيا واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته .

وقد نشرت نسخة لاتينية من إحدى رسائله فى سان دييه (اللورين)

فى أبريل عام ١٥٠٧ . واستشهد مارتن فالدسيمولر ، أستاذ (الكوزموجرافيا) علم الكون بجامعة سان دييه ، بهذا الخطاب فى « مقدمة لعلم الكون » الذى نشره هناك فى تلك السنة وقبل رواية فسبوتشى واعتبرها جديرة بالثقة واقترح أن يطلق اسم أمريجى على ما نسميها الآن أمريكا الجنوبية .

وفى سنة ١٥٣٨ استخدم جير هاردوس ميركاتور اسم « أمريكا » فى إحدى خرائطه الشهيرة وأطلقه على كل نصف الكرة الغربى . ومن المتفق عليه أن فسبوتشى قام عام ١٤٩٩ إن لم يكن عام ١٤٩٧ ، مع ألونزو دى أوخيد بارتياد شاطئ فنزويلا وفى سنة ١٥٠٠ عقب اكتشاف كابرال مصادفة للبرازيل ارتاد فيسنت Vicente بنزون ، وكان ربانا للسفينة نينيا فى رحلة كولمبس الأولى ، الشاطئ البرازيلى واكتشف الأمازون . وفى سنة ١٥١٣ شاهد فاسكونونيزدى بالبوا المحيط الهادى واكتشف بونس دى ليون ، فولريدا ، وهو يحلم بالعثور على ينبوع الشباب . وكان للاكتشافات التى بدأها هنرى الملاح وتبعه فيها فاسكودا جاما وبلغت أوجها فى عهد كولمبس وانتهت بماجلان ، أثر فى قيام أعظم ثورة تجارية فى التاريخ قبل اختراع الطائرة . فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة وأنهت عهد البحر الأبيض المتوسط فى الحضارة وبدأت عهد الأطلنطى . وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى أسبانيا ازداد التدهور الاقتصادى فى ولايات البحر الأبيض المتوسط بل وفى تلك المدن الواقعة فى جنوب ألمسانيا مثل أوجسبرج ولومبرج ، التى كانت ترتبط تجارياً بإيطاليا . ووجدت دول الأطلنطى فى العالم الجديد مخرجا لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولمجرميها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية . وازدهرت الصناعة فى أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية . واستوردت نباتات جديدة من أمريكا لإثراء الزراعة الأوروبية — البطاطس والطماطم والخرشوف والقرع العسلى

والذرة . وأدى تدفق الذهب والفضة إلى رفع الأسعار وتشجيع أصحاب المصانع وإنهاك قوى العمال وزيادة الدائنين والإقطاعيين وأثارت فى أسبانيا حلم السيطرة على العالم وقضت عليه .

ولم تكن الآثار الأدبية والذهنية لهذه الاكتشافات بأقل من النتائج الاقتصادية والسياسية فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار فى العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الدينى فى العالم القديم . وتلقفت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدبا قويا مستقلا . ولم تتمسك أخلاق الأوروبيين بهذه الاكتشافات إذ تدفقت وحشية الأوربيين ، التى لا تخضع لقانون ، إلى أوربا مع البحارة والمستوطنين العائدين وجاءت بالإفراط فى العنف والشذوذ الجنسى . وتأثر الفكر الأوروبى كثيراً بالكشف عن هذه الشعوب والعادات والمعتقدات الدينية الكثيرة وعانت المذاهب الدينية من الاحتكاك المتبادل بل إنه فى الوقت الذى كان البروتستانت والكاثوليك يشتبكون فى حروب مدمرة من أجل مذاهبهم المتخاصمة فإن هذه المذاهب كانت تذوب فى الشكوك التى يثيرها التثقيف وما يستتبع ذلك من تسامح .

يضاف إلى كل هذا أن الاعتزاز بالعمل الفذ ألهم العقل البشرى فى اللحظة التى كان فيها كوبرنيكوس على وشك أن يقلل من الأهمية الكونية للأرض وسكانها إذ شعر الناس أن شجاعة العقل البشرى قد تغلبت على دنيا المادة . وأنكر الاختصار والشعار السائد فى القرون الوسطى لجبل طارق — لاشىء خلفه — وأصبح هذا الشعار الآن — خلفه الكثير — وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحا وبدا كل شىء ممكنا . والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تتسم بالإقدام والتفاؤل .

الفصل الخامس عشر

أرازموس الرائد

١٤٦٩ - ١٥١٧

– تربية عالم بالإنسانيات

ولد أعظم عالم بالإنسانيات عام ١٤٦٦ أو عام ١٤٦٩ فى روتردام أو بالقرب منها وهو الابن الثانى غير الشرعى لجيرارد وهو كاتب فى أدنى الدرجات. وأمه مرجريت ابنة طبيب وأرملة. ويبدو أن الأب رسم قسيسا عقب هذه الكارثة ولا ندرى كيف سمى الصبى بالاسم السخيف ديزيديريوس ارازموس ومعناه الحبيب المرغوب فيه. ولقد علمه مدرسوه الأوائل القراءة والكتابة باللغة الهولندية ولكنه عند ما ذهب ليدرس مع إخوة الحياة المشتركة فى ديفنترغرم لأنه كان يتحدث بلغته الوطنية فقد كانت اللغة اللاتينية هناك «الزاد الرئيسى للتعليم» وكانت التقوى تراعى بحزم كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب – ومع ذلك فإن الإخوة كانوا يشجعون على دراسة كلاسيات وثنية مختارة وبدأ أرازموس فى ديفنتر يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة.

ومات والده حوالى عام ١٤٨٤ وخلف الوالد ضيعة متواضعة لولديه ولكن الأوصياء عليهما بددوا معظمها ووجهوا الشابين اليافعين للانخراط فى سلك الرهبنة لأنها لا تحتاج إلى امتلاك شىء على الإطلاق فاحتجا إذ كانا يرغبان فى الالتحاق بالجامعة، وأخيراً أمكن اغراؤهما – بوعد أرازموس بالحصول على كثير من الكتب كما قيل لنا. أما الابن الأكبر فقد رضى بمصيره وارتفع شأنه فأصبح «سكيراً مدمنا وأن لم يكن فاجراً سافلا». وأخذ ديزيديريوس على نفسه العهود كأى راهب أوغسطينى فى ديراماوس فى

ستين . وحاول أن يحب حياة الدير جهد استطاعته بل إنه كتب مقالا بعنوان : De contemptu mundi « تأملات فى الوجود » ، ليقنع نفسه بأن الدير هو المكان المناسب لصبى له روح متعطشة ومعدة منهوكة ولكن معدته أرهقها الصيام وأصابها الغثيان حينما كانت تُشَم رائحة السمك . ومع ذلك فإن العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع أثبت أنه أشد قساوة من نذره العفة ، ومن يدرى ؟ لعل مكتبة الدير كانت تعوزها الكلاسيات . وأشفق عليه رئيس الدير وأعاره ليعمل كاتب سر لهنرى البرجينى أسقف كمبراى . وقبل أرازموس عندئذ (١٤٩٢) أن يرسم قسا ولكنه أينما اتجه نازعته نفسه إلى أن يضع قدمه على مكان آخر . كان يحسد الشبان الذين التحقوا بالجامعة بعد إنهاء تعليمهم المحلى . وكانت باريس تفوح بشذى العلم والهوى الذى قد يسمم الحواس المرهفة عبر مسافات بعيدة . وأغرى ديزيديريوس الأسقف على إرساله إلى جامعة باريس بعد أن خدمه بكفاءة بضع سنوات وانطلق وليس معه إلا ما يقوم بأوده . وكان ينصت فى صبر نافذ إلى المحاضرات ولكنه كان يلتهم الكتب . وكان يشهد المسرحيات والحفلات وينقب بين الفينة والفينة عن المفاتن الأنثوية ، ويقول فى إحدى محاوراته أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية هى أن تتلقاها عن بنات الليل ومع ذلك فقد أغرم بالأدب . . أغرم بتلك الكلمات الموسيقية السحرية التى تفتح بابا يلج منـــه المرء إلى عالم الخيال والبهجة . وعلم نفسه اليونانية وأصبحت أثينا أفلاطون ويوروبيدس وزينون وأبيقوروس مألوفة لديه مثل روما سيشرون وهوراس وسينيكا فكلا المدينتين كانتا حقيقتين بالنسبة له مثلهما فى ذلك مثل شاطئ السين الأيسر . وكان سينيكا فى نظره مسيحيا صالحا مثل سانت بول ونمطيا أحسن منه (وهى وجهة نظر لعله لم يكن فيها سليم الذوق تماما) ورحل باختياره فى غمرات الماضى واكتشف لورنزوفالا ، فولتير نابولى واستطاب طعم اللاتينية الأنيقة والجرأة المتهوسة اللتين تسم تكفله بهما بكشف زيف قصة « هبة قسطنطين » وقد لاحظ

أخطاء جد خطيرة فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش . وقد أفزع أرازموس علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه فى التوفيق بين أبيقور والمسيح . وكانت أصداء أصوات دونس سكوتس وأوكهام لا تزال تتردد فى باريس والمذهب الأسمى يعلو نجمه ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالوث . وقوضت هذه السقطات الفكرية أرثوذكسية القس الشاب ولم يترك له إلا الإعجاب العميق بأخلاقيات المسيح .

وأكب على قراءة الكتب وغالى فى ذلك إلى درجة غير محموده . وقام بإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتيان من الطلبة لزيادة موارده وذهب ليعيش مع أحدهم ومع ذلك لم يكن لديه ما يوفر له حياة هانئة . وألح على أسقف كامبراى قائلا : « إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يملأ : الأول باللحم والثانى بالعملات . اعمل وفق ما يمليه عليك كرمك » . واستجاب له الأسقف بلطفه المعهود ودعاه طالب يدعى لورد أف فير Vere إلى قصره فى تورنيهم فى الفلاندرز وسرارازموس عند ما وجد فى ليدى آن أف فير نصيرة للعبقرية وتعرفت فيه على هـــذه المزية وعاونته بمنحة سرعان ما استنفدها : وأخذه طالب غنى آخر هو ماونتجوى إلى إنجلترا (١٤٩٩) وهناك فى البيوت الارستقراطية الواسعة فى الريف وجد العالم المكدود دنيا رحبة تحفل باللذة الرفيعة وانقلب ماضيه فى الدير إلى ذكرى يقشعر لها بدنه . وأبلغ صديقا له فى باريس عن تقدمه فى خطاب من خطاباته التى لا تحصى ولا تقلد وهى الأثر الباقى له الآن : « إننا نتقدم . ولو كنت عاقلا لسارعت بالمجىء إلى هنا . . . آه لو عرفت ما ننعم به فى بريطانيا . . . ولأذكر لك إحدى المباهج الكثيرة : هنا حوريات لهن تقاطيع ملائكية فى غاية الرقة والرأفة . . . وعلاوة على ذلك فثمة أسلوب للحياة لا يمكن الثناء عليه تماماً فحيثما تذهب يستقبلونك بالقبلات على يديك وعند ما ترحل

يشيعونك بالقبلات وإذا عدت فإن تحياتك ترد إليك . . . وأينما يتم اجتماع فهناك تحيات وافرة وحيثما تلتفت تجدها تلاحقك . أواه يافاوستوس ! لو ذقت مرة عذوبة هذه الشفاه وشذاها لتمنيت أن تكون سائحا لا لمدة عشر سنوات مثل سولون بل طوال حياتك فى إنجلترا » .

والتقى أرازموس فى بيت ماونتجوى فى جرينوتش بتوماس مور ، وكان حينئذاك لا تتجاوز سنه الثانية بعد العشرين ولكنه مع ذلك كان له من المكانة ما استطاع به أن يقدم العالم إلى من قدر له بعد ذلك أن يكون هنرى الثامن . وسره فى أكسفورد على الأغلب عدم الكلفة فى صحبة الطلبة وفى الكلية كما سرته أحضان ربات البيوت الريفية . وهناك تعلم كيف يحب جون كوليت الذى أذهل عصره باعتناقه المسيحية على الرغم من أنه كان محققا وعلامة فى علم الأديان القديمة وتأثر أرازموس بتقدم علم الإنسانيات فى إنجلترا : « عندما أسمع عزيزى كوليت يخيل إلى أنى أستمع لأفلاطون نفسه : من لا يعجب فى جروسين عندما يرى عالما كاملا للمعرفة مثل هذا ؟ ماذا يمكن أن يكون أذكى وأعمق وأدق من حكم ليناكر ؟ وماذا أبدعت الطبيعة أكثر رقة وحلاوة وسعادة من عبقرية توماس مور ؟ » .

لقد أثر هؤلاء الرجال تأثيراً عميقاً فى إصلاح حال أرازموس فتحول من شاب مغرور طائش : أسكرته خمر الكلاسيات وفتنة النساء ، إلى عالم جاد مدقق تواق لا إلى المال والشهرة فحسب ولكن إلى تحقيق عمل مفيد دائم . وعندما غادر إنجلترا (يناير عام ١٥٠٠) كان قد استقر عزمه على أن يدرس وينشر النص اليونانى للعهد الجديد لأن الجوهر الخالص لتلك المسيحية الحقة فى نظر المصلحين وعلماء الإنسانيات على السواء ، قد أخفتا وموهت عليه العقائد وتكاثرها على مر القرون .

وأظلمت ذكرياته الجميلة عن هذه الزيارة الأولى لإنجلترا بما حدث فى الساعة الأخيرة : فبينما كان يجتاز الجمارك فى دوفر صادرت السلطات

المبلغ الذى منحه له أصدقاؤه وكان يقدر بنحو عشرين جنيها (٢٠٠٠ر٢ دولار) لأن القانون الإنجليزى يحرم تصدير الذهب أو الفضة . وزاد الطين بلة أن أحدهم ، وإن لم يكن محاميا كبيراً ، أشار عليه خطأ بأن التحريم لا يسرى إلا بالنسبة للعملة الإنجليزية ، فغيرها أرازموس ولم تجد إنجليزيته المتعثرة ولا لاتينيته المختلة فى الانحراف بصرامة القانون التى لا ترحم واستقل أرازموس سفينة إلى فرنسا وهو خالى الوفاض بالفعل . قال : « لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر » .

٢ ــ المشائى

وبعد إقامة بضع شهور فى باريس نشر أول عمل هام له وهو مجموعة أقوال مأثورة وتضم ٨١٨ مثلا أو شاهداً ، معظمها لمؤلفين من القدامى . وكان إحياء المعرفة . أى الأدب القديم ــ قد وضع تقليداً دارجاً بأن يزين المرء آراءه باقتباس من مؤلف يونانى أو لاتينى ، ونرى هذا التقليد بصورة متطرفة فى مقالات مونتينى وفى كتاب « تشريح السوداء » لبرتون . وتريث هذا التقليد فى القرن الثامن عشر فى عهد الخطابة الجدلية بانجلترا . وأرفق أرازموس كل قول مأثور بتعليق ، يشير عادة إلى الاهتمام السائد ويمليه ذكاء يمتزج بالسخرية والهجاء . وقد علق قائلا : « ورد فى الكتاب المقدس أن القسس يلتهمون خطايا الناس فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ولا بد من أن يرتشفوا أحسن الأنبذة للخلاص منها » . وكان الكتاب نعمة للكتاب والمتحدثين وبيع منه الكثير لمدة عام استطاع فيه أرازموس أن يعول نفسه دون الاعتماد على أحد . وعلاوة على هذا فإن كبير الأساقفة وارهام استحسن الكتاب على الرغم من لدعاته وأرسل للمؤلف مبلغاً من المال على سبيل المنحة وعرض عليه الإقامة فى انجلترا . ومهما يكن من أمر فإن أرازموس لم يكن على استعداد لترك القارة والإقامة فى جزيرة وفى الأعوام الثمانية التالية

نشر بضع نسخ منقحة من الأقوال المأثورة وزاده إلى ٣٢٦٠ نصا مدونا وظهرت له فى حياته ستون طبعة وصدرت له ترجمات عن اللاتينية الأصلية إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية وكلها من أكثر الكتب رواجا فى عصرها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت الظروف غير مواتية والطعام لا يكفى واشتد بأرازموس الضيق فكتب (١٢ ديسمبر عام ١٥٠٠) إلى صديقه چيمس بات وكان مربيا لابن ليدى آن أف فير يسأله : « أرجو أن تشير لها إلى ما سوف أحققه لها بتعليمى من جاه يزيد عما يحققه لها القسس الآخرون الذين تحتفظ بهم.إنهم يتلون عظات عادية أما أنا فأكتب ما يعيش إلى الأبد . وهم بلغوهم السخيف لا يسمعون إلا فى كنيسة أو اثنتين أما أعمالى فسوف يقرؤها كل من يعرف اللاتينية واليونانية فى كل بلد من بلاد العالم . وما أكثر رجال الدين غير المتعلمين فى كل مكان أما أمثالى فقلما يجود بهم الزمان . أرجو أن تكرر كل هذا لها ما لم تكن كثير الوساوس فلا تستطيع أن تقول بعض الكذبات من أجل صديق » .

وعندما فشلت هذه المفاوضة كتب مرة أخرى يقترح أن يقول بات للسيدة أن أرازموس يوشك أن يكف بصره ثم أردف قائلا : « أرسل لى أربع قطع ذهبية أو خمسا من مالك الخاص على أن تستردها من مال الليدى » . ولما لم يقع بات فى هذا الشرك كتب أرازموس مباشرة إلى السيدة وشبهها بأنبل البطلات فى التاريخ وأجمل محظيات سليمان وتنبأ لها بشهرة خالدة . واستسلمت لهذا الزهو الأخير وتلقى أرازموس هدية مادية واستعاد بصره . وكان يغتفر للكاتب طبقا لتقاليد هذا العهد أن يطلب معونة من يرعونه لأن الناشرين لم يكونوا على استعداد وقتذاك لمؤازرة المؤلفين ولو كان لهم قراء عديدون . وكان فى استطاعة أرازموس أن يحصل على مرتبات وأسقفيات بل ومنصب كاردينال ولكنه رفض هذه العروض المرة

تلو المرة لكى يظل « رمحا طليقا » متحرر الفكر وفضل أن يستجدى ويكون حراً ولا يفسد وهو يرسف فى الأغلال ، وانتقل إلى لوفان عام ١٥٠٢ فراراً من الطاعون فعرض عليه أوربان الاوترختى مدير الجامعة منصب أستاذ ورفض أرازموس وعند ما عاد إلى باريس استقر فيها ليكسب عيشه بقلمه — وهى واحدة من أحدث المحاولات الأولى فى هذا المشروع المتهوس . وترجم خطب سيشرون وهيكوبا ليوروبيدس ومحاورات لوشيان ، وليس من شك فى أن هذا الفيلسوف الشاك الظريف أسهم فى تشكيل عقلية أرازموس وأسلوبه . وقد كتب أرازموس عام ١٥٠٤ إلى صديق له : « عجبا ! بأى ظرف وبأى سرعة يعالج لوشيان ضرباته فيحول كل شىء إلى سخرية ولا يترك شيئاً يمر دون أن يسخر منه . وأقسى ضرباته موجهة إلى الفلاسفة . . . نظر إلى دعاواهم غير الطبيعية وإلى الرواقيين بسبب عجرفتهم التى لا تحتمل . . . وهو لا يجد حرجا فى السخرية من الآلهة ومن هنا خلع عليه لقب ملحد — وهو شرف رفيع أضفاه عليه الزنادقة أصحاب الوساوس » ..

وفى زيارة ثانية لإنجلترا (١٥٠٥ — ١٥٠٦) انضم إلى كوليت وقاما بالحج إلى ضريح سانت توماس فى بيكيت بكانتربرى وسجل وصفا لهذه الرحلة بأسماء مستعارة وذلك فى إحدى محاوراته ، ولقد روى لنا كيف أساء جراتيان (كوليت) إلى دليلهم الراهب عند ما أبدى رأيه وقال : « إن قدراً ضئيلا من الثروة التى تستخدم فى تزيين الكاتدرائية يمكن توجيهها لتخفيف وطأة الفقر فى كانتربرى » ، وروى أيضاً كيف عرض عليهم الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء و« قدرا مذهلا من العظام » لا بد من تقبيله باحترام وكيف عصى جراتيان فرفض أن يقبل حذاء قيل إن بيكيت لبسه وكيف عرض الدليل على جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها فى تجفيف

جبينه وفى مخط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكارا مقدساً ، وظل يسوق الحجج والبراهين على هذا فقطب جراتيان جبينه وتمرد . وعاد العالمان بالإنسانيات إلى لندن وهما يأسفان على الإنسانية .

وهناك أسعد الحظ أرازموس إذ كان طبيب هنرى السابع يعتزم إرسال. ولدين له إلى إيطاليا فعهد إلى أرازموس بمرافقتهما « كدليل عام ومشرف » وأقام مع الوالدين عاما فى بولونيا وأخذ يلتهم المكتبات ويضيف كل يوم جديدا إلى اشتهاره بحبه للعلم والمعرفة واللسان اللاتينى . وكان إلى ذلك الوقت : يرتدى مسوح زاهب أوغسطينى — وهو عبارة عن ثوب أسود ومعطف وقلنسوة وقبعة بيضاء يحملها عادة على ذراعه ولكنه فى عام (١٥٠٦) نبذ هذا الزى واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحا وادعى أنه حصل على إذن بهذا الاستبدال من البابا يوليوس الثانى ثم أقام فى بولونيا كأنه فاتح عسكرى غير أنه عاد إلى إنجلترا عام ١٥٠٦ لأسباب لا نعرفها وألقى محاضرات فى اليونانية بجامعة كمبردج بيد أننا نجده يعود إلى إيطاليا عام ١٥٠٨ ويعد طبعة موسعة لمجموعته فى الأمثال السائرة لمطبعة الدوس مانوتيوس فى البندقية . وعندما مر بروما (١٥٠٩) فتنته عيشة الكرادلة الرغدة وأخلاقهم السامية وثقافتهم الرفيعة وسرمن — كما أن لوثر كان قد فجعته بروما فى السنة الماضية — الغزوات التى قامت بها الموضوعات والوسائل الوثنية فى عاصمة العالم المسيحى . ومما استاء له أرازموس كثيرا سياسة يوليوس الثانى العسكرية وحدته ومطارداته وهو يتفق فى هذا مع لوثر ولكنه يتفق أيضاً مع الكرادلة الذين كانوا يرحبون بحرارة بكثرة تغيب البابا العنيد ورحبوا بحضور ارازموس لاجتماعاتهم وعرضوا عليه منصبا دينيا إذا أقام فى روما .

وما كادت تطيب له الإقامة فى المدينة الخالدة حتى أرسل له ماونتجوى

رسالة يبلغه فيها أن هنرى السابع مات وأن صديق علماء الإنسانيات أصبح هنرى الثامن وأن الأبواب والمناصب الرفيعة جميعا ترحب الآن باراز موس إذا ما عاد إلى إنجلترا . ووصلت مع خطاب ماونتجوى رساله من هنرى الثامن نفسه : « بدأ تعارفنا عند ما كنت صبيا . وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك بفضل تنويهك المشرف بى فى كتاباتك وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى ابراز الحقيقة المسيحية وبما أنك قد حملت هذا العبء وحدك فأسعدنى بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد له سلطانى . . . إن سلامتك ثمينة بالنسبة لنا جميعاً . . . ومن ثم فإنى أرى أن تتخلى عن كل فكرة بالإقامة فى مكان آخر وتعال إلى إنجلترا وثق أنك ستلقى ترحيباً حاراً . وعليك أن تذكر شروطك وثق أنها ستكون سخية ومشرفة كما تشاء . واذكر انك قلت يوماً أنك ستتخذ من هذا البلد موطنا لك فى شيخوختك بعد أن تكون قد تعبت من التجوال . وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تفى بوعدك هذا ولسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك . . . وإذا كنت فى حاجة إلى الاستمتاع بوقت فراغك فلن نسألك شيئاً سوى أن تجعل من مملكتنا موطنا لك . . . تعال إلى إذن يا عزيزى أرازموس وليكن حضورك بمثابة إجابة لدعوتى »

فكيف يمكن أن ترفض دعوة رقيقة كريمة كهذه ؟ إن لسان أرازموس ينعقد حتى لو نصبته روما كردينالا ، فنى إنجلترا حيث يحيط به أصدقاء من ذوى النفوذ ويحميه ملك قوى يستطيع أن يكتب بحرية ويعيش فى أمان . وودع علماء الإنسانيات فى روما فى شىء من التبرم ، إلى القصور الرحبة والمكتبات . . . إلى الكرادلة الذين ناصروه . . . واتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فانجلترا .

٣ ـ الهجاء

ومكث هناك خمس سنوات ولم يتلق طوال هذا الوقت من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة . ترى هل كان هنرى مشغولا جداً بالعلاقات الخارجية أم بالأهل والأقارب ؟ وظل أرازموس ينتظر وهو يشميز غيظا . وخف مونتجوى لنجدته بمنحة . ونفحه وارهام بدخل أبرشية فى كنت ، وعينه جون فيشر أسقف روشستر ومدير جامعة كامبردج أستاذاً لليونانية بمرتب سنوى قدره ١٣ جنيها (٣٠٠ر١ دولار) ولرفع هذا الدخل بالقدر الذى يسمح بالاحتفاظ بخادم وجواد أهدى أرازموس مطبوعاته إلى أصدقائه الذين استجابوا له فى تردد .

وفى السنة الأولى من هذه فى إنجلترا كتب أرازموس فى بيت توماس مور وفى خلال سبعة أيام أشهر كتاب له « الثناء على الطيش » وكان عنوانه اليونانى Encomium moriae تورية لاسم مور وإن كانت كلمة Moras باليونانية تعنى طائش وكلمة Moria تعنى الطيش واحتفظ أرازموس بعمله مخطوطا لمدة عامين ثم انطلق بعدها بفترة وجيزة إلى باريس لنشره (١٥١١) وطبعت منه فى حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة والتهمه رابليه وفى عهد متأخر عام ١٦٣٢ وجده ملتون فى يد « كل إنسان » فى كامبردج .

ولم يستخدم أرازموس كلمة Moria بمعنى طيش وسخف وجهل وغباء فحسب بل بمعنى سررة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أمية مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر . ويقول لنا إن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش إذ أى شىء أسخف من مطاردة الذكر المتعددة الأشكال للأنثى وإكباره المحرم للحمها وعاطفته المشبوبة للتساند ؟ وأى إنسان يدفع مقابل هذا التناقض

فى الانتفاخ ارتباطا مدى الحياة بالزواج من واحدة ؟ وأى امرأة فى كامل قواها العقلية تدفع فى مقابل هذا آلام الأمومة وشدائدها ؟ أليس من السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل ؟ لو أن الرجال والنساء توقفوا وتأملوا ملياً لضاع كل شىء .

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماقة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل ؟ وهل يمكن أن تتحقق السعادة ؟ إن سفر الجامعة كان على حق فى الاعتقاد بأن « من زادت معرفته زادت أحزانه وفى الحكمة الكثيرة أسى كثير ؟ » من يكون سعيداً إذا تكشفت له حجب المستقبل ؟ إنه لمن حسن الحظ أن العلم والفلسفة عاجزان وأن الناس يجهلونهما وأنهما لا يحدثان ضرراً عظيما لجهل الجنس الذى لا غنى عنه . وإن الفلكيين « يقدمون لك أبعاد الشمس والقمر والنجوم مقدرة بسمك الشعرة وذلك بسهولة كما يفعلون بأبعاد إبريق أو جرة ولكن الطبيعة تهزأ بظنونهم الواهية . والفلاسفة يزيدون المرتبك ارتباكا والمظلم ظلاما وهم يبددون الوقت والعقل على أمور تافهة منطقية أو ميتافيزيقية تذهب أدراج الرياح ، وخير لنا أن نرسلهم بدلا من جنودنا لمحاربة الأتراك الذين سوف يتراجعون فى ذعر أمام هذا اللغو المربك ! والأطباء ليسوا أفضل منهم فكل فنهم كما يمارس الآن هو فن مركب يمزج الخداع بالتضليل » . أما علماء اللاهوت فإنهم : « يقولون لك إلى الهنة عن كل الإجراءات المتوالية للقدرة على كل شىء فى خلق العالم ويفسرون لك الطريقة الدقيقة للخطيئة الأولى مستمدة من أول آبائنا ويرضونك ويقولون لك كيف أن . . المسيح حملت به العذراء ويوضحون لك فى الرقاقة المقدسة كيف يمكن أن توجد الحوادث دون محمول عليه . . . وكيف يمكن أن يوجد جسم واحد فى أماكن متعددة فى وقت واحد وكيف أن جسد المسيح فى السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو فى القربان المقدس .

وفكر أيضاً فى اللغو الذى يتمثل فى معجزات وأعاجيب — رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان و « أمثال الشبح المخيف الوهمى » .

إن هذه السخافات . . . تجارة رابحة وتأتى بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع . . . ماذا عساى أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخداع الغفران والسماحة وأن أحافظ عليهما ؟ وأنى بهذه أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح فى المطهر ، وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشترون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع ؟ أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التى اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح) ؟ :

ويستمر الهجو على حساب النساك والرهبان وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . فالنساك يضجرون الناس بالسؤال ويعتقدون أنه يمكن الاستيلاء على السماء بالمثابرة على ترتيل المزامير المنومة ورجال الاكليروس العلماء يتحرقون شوقاً إلى المال . « إنهم ماهرون فى فن الاقتناء . . . ضريبة العشور والقرابين وأجور العائد . . . الخ » . وكل رجال الاكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون فى الرأى على إعدام الساحرات أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه فى « ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم وتراخيصهم وامتيازاتهم . . . والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسية وأوامر التحريم » ورغبتهم العارمة فى المواريث ودبلوماسيتهم العالمية وحروبهم الدموية فكيف يمكن أن يكتب البقاء لكنيسة إذا خلت من الطيش وبساطة الإنسانية الساذجة ؟

وقد أثار كتاب « الثناء على الطيش » غضب علماء اللاهوت وكتب مارتن دريسيوس إلى أرازموس « لا بد أن تعرف أن كتابك » « طيش Maria » قد أثار إزعاجا كبيراً حتى بين من كانوا قبلا من أشد المعجبين بك المخلصين لك . ولكن الهجو فى هذا الدمار المرح كان خفيفا إذا قيس بما اتسمت به سورته التالية . وكان ثالث وآخر عام قضاه فى التدريس بجامعة كامبردج (١٥١٣) هو العام الذى توفى فيه البابا يوليوس الثانى وظهر فى باريس عام ١٥١٤ تعريض ساخر أوحوار يسمى Julius exclusus وقد بذل أرازموس جهداً صادقا ، لا يصل إلى حد الإنكار الصريح ، ليخفى أنه المؤلف له ، ولكن المخطوط تداولته أيدى أصدقائه وأدرجه مور دون تحفظ بين أعمال أرازموس . ولعله يمثل لنا نموذجا متطرفا لأرازموس الهجاء ، أن البابا المحارب بعد وفاته يجد أبواب السماء مغلقة فى وجهه ويمنعه من دخولها القديس بطرس العنيد :

يوليوس : كفى . أنا يوليوس الليجورى . و . أ

بطرس : و . أ ماذا تعنى ؟ وباء أعظم ؟

يوليوس : بل ولى أعظم أيها الخبيث .

بطرس : حتى لو كنت أعظم من ذلك ثلاثة أضعاف . . . فلن تدخل هنا إلا إذا كنت أيضا أفضل من ذلك أضعافا مضاعفة .

يوليوس : ياللوقاحة ! إنك لم تزد عن قديس طوال هذه العصور أما أنا فقديس و سيد وقداسة ، بل إنى القداسة ذاتها ، ومعى مستندات تثبت هذا .

بطرس : أليس هناك فرق بين أن تكون مقدسا وبين أن تدعى مقدسا ؟ دعنى أنظر إليك عن قرب . آه ! أرى سمات زندقة شديدة . . . مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دما

وعينان وحشيتان وفم متعجرف وجبين وقح وجسد وصمته كله الآثام : وأنفاس تفوح منها رائحة الخمر وبدن أسقمه التبذل والفسوق . نعم . هدد كما تشاء .. سأقول لك من أنت . . . أنت يوليوس الإمبراطور الذى عاد من الجحيم : : :

يوليوس : اسكت وإلا أصدرت قرارا بحرمانك . . . .

بطرس : تحرمني أنا ؟ بأى حق ؟ أود أن أعرف .

يوليوس : خير الحقوق فأنت لست إلا قسا ولعلك لست كذلك :: فأنت لا تستطيع أن ترسم كاهنا . افتح . آمرك أن تفتح .

بطرس : يجب أن تثبت أولا جدارتك . . .

يوليوس : ماذا تعنى بالجدارة ؟ .

بطرس : هل علمت العقيدة الحقة ؟

يوليوس : لا لم أعلمها أنا . فقد كنت مشغولا بالقتال . وثمة رهبان يعنون بالعقيدة إذا كان لهذا الأمر أية أهمية .

بطرس : هل كسبت أرواحا للمسيح بالقدوة الحسنة ؟

يوليوس : لقد أرسلت كثيراً منها إلى الجحيم .

بطرس : هل قمت بأى معجزات ؟

يوليوس : أف ! إن المعجزات أكل عليها الدهر وشرب..

بطرس : هل كنت مواظبا على صلواتك ؟

يوليوس : إن يوليوس الذى لا يقهر ليس ملزما بالإجابة على صياد مسكين . ومهما يكن من أمر فإنك ستعرف من أنا وماذا أعمل . أنا ليجورى أولا ولست يهوديا مثلك ، وكانت أمى شقيقة البابا العظيم سيكستوس الرابع وقد جعل منى البابا رجلا ثريا بفضل ممتلكات الكنيسة — وأصبحت كاردينالا . وقد

ألمت بي بعض المحن إذ أصبت بالجدرى الفرنسى وأقصيت عن بلدى وطردت منها ومع ذلك كنت أعرف طوال ذلك الوقت أنى سأكون البابا يوما . . . وتحقق هـذا بمساعدة الفرنسيين من ناحية ، وبالأموال التى اقترضتها بفائدة من ناحية أخرى ، وبالوعود التى بذلتها من ناحية ثالثة . وما كان فى استطاعة كرويزوس أن يسك كل النقود التى احتاج إليها هذا الأمر . وسوف يقول لك عن هذا المصرفيون . ولكنى نجحت وفعلت من أجل الكنيسة والمسيح أكثر مما فعل أى بابا قبلى .

بطرس : ماذا فعلت ؟

بوليوس : رفعت الدخل . . ابتدعت وظائف جديدة وبعتها . . . وقمت بإعادة سك النقود وربحت مبلغا كبيراً من هذا الطريق . لا شئ يمكن أن يتم بغير المال . ثم ألحقت بولونيا بالسلطة البابوية . . . وشددت آذان كل أمراء أوروبا . وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة فى الميدان . وعمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين فى الخزانة بعد وفاتى . . .

بطرس : ولماذا أخذت بولونيا ؟

يوليوس : لأستولى على دخلها . . .

بطرس : وماذا جرى لفرارا ؟

يوليوس : كان الدوق تعسا منكراً للجميل ؛ فقد اتهمنى بالاتجار بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ووصفنى بأنى أتجر بالرتب الكهنوتية ... لقد أردت دوقية فرارا لأحد أبنائى الذين تستطيع الكنيسة أن تعتمد على إخلاصهم وكان قد طعن بالخنجر كاردينال بافيا .

بطرس : ماذا ؟ بابوات لهم زوجات وأولاد ؟

يوليوس : زوجات ؟ لا ليس من الزوجات ، ولكن لماذا لا يكون لهم أولاد ؟

بطرس : وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم ؟

يوليوس : هذا أمر لا علاقة له بالدعوى . . .

بطرس : أليست ثمة وسيلة لإزاحة بابا شرير ؟

يوليوس : سخف ! من يستطيع أن يزيح أعلى سلطة بين الناس ؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أي مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التي يرتكبها .

بطرس : حتى لو ارتكب جريمة قتل ؟

يوليوس : نعم . . . بل حتى لو قتل أحد والديه .

بطرس : ألا يعزل لو زنى ؟

يوليوس : نعم حتى لو زنى بالمحارم .

بطرس : ألا يعزل لو مارس الاتجار بالرتب الكهنونية ؟

يوليوس : نعم ولو اقترف ستمائة حادثة من حوادث الاتجار بالرتب الكهنونية .

بطرس : ألا يعزل لو قتل أحدا بالسم ؟

يوليوس : نعم حتى لو انتهك المقدسات .

بطرس : ألا يعزل لو ارتكب كل هذه الجرائم مجتمعة ؟

يوليوس : حتى لو زدت عليها ٦٠٠ جريمة ، فليست ثمة قوة تستطيع أن تعزل البابا .

بطرس : يا له من امتياز عجيب يتمتع به خلفائى — أن يكونوا من أخبث الناس ومع ذلك ينجون من العقاب . ويا لها من كنيسة تعسة تلك التى لا تستطيع زحزحة مثل هذا الوحش عن كاهلها .. إن على الناس أن يثوروا ويرجموا بحجارة الرصف رأس مثل هذا الشقى ... لو أن الشيطان فكر فى أن يصطفى قسا لما وجد خيرا منك . أى دليل قدمته على أنك رسول ؟

يوليوس : أليست زيادة موارد كنيسة المسيح عملا من أعمال الرسل ؟

بطرس : ولكن كيف زدت موارد الكنيسة ؟

يوليوس : ملأت روما بالقصور ... وبفرق من الخدم والجنود وآلاف الوظائف ...

بطرس : إن الكنيسة لم تعرف شيئاً من هذا عندما أنشأها المسيح ...

يوليوس : إنك تفكر فى القصة القديمة عندما أشرفت على الموت جوعا وأنت بابا وحولك حفنة من الأساقفة الفقراء المطاردين : لقد عفّى الزمن على كل هذا ... انظر الآن إلى كنائسنا الفخمة ... أساقفة مثل الملوك ... وكرادلة تحيط بهم مظاهر العظمة .. خيول وبغال أعنتها من الذهب والجواهر وحدواتها من الذهب والفضة . أنا الحبر الأعظم فوق الجميع يحملنى الجنود على كرسى ذهبى فوق أعناقهم وألوح بيدى فى جلال للجماهير التى تعبدنى ، وأنصت إلى دوى المدافع وأنغام البوق ودقات الطبول وأرقب العربات الحربية والجماهير الصاخبة والمشاعل التى تضىء الطريق والميدان وأشهد ملوك الأرض وهم يحاولون تقبيل قدمى قداستى ... أنظر إلى كل هذا وقل لى أليس

هذا رائعا ؟ لعلك تدرك أى أسقف تعس فقير كنت بالقياس الى . . .

بطرس : يا لك من شقي وقح ! لقد توسلت بالغش والربا والمكر للوصول إلى منصب البابوية . . . لقد حملت روما الكافرة على أن تؤمن بالمسيح أما أنت فقد عدت بها إلى الكفر . إن بولص لم يتحدث عن المدن التى اجتاحها ولا الفرق التى قتلها ... بل تحدث عن حطام السفن والقيود والاهانات والسياط . . . كانت هذه انتصاراته الرسولية وهذه كانت أمجاد قائد مسيحى . وعند ما كان يفخر بعمل فإنما يفخر بالأرواح التى استنقذها من براثن الشيطان وليس بما اكتنز من أكوام الدوكات . . .

يوليوس : هذه كلها أخبار أسمعها لأول مرة .

بطرس : ربما فقد كنت مشغولا بمعاهداتك وبروتوكولاتك ، وجيوشك وانتصاراتك ، فلم يتسع لك الوقت لقراءة الأناجيل . . . أنت تدعى أنك مسيحى مع أنك لست أفضل من أى تركى فأنت تفكر كالتركى ولا تقل عنه فجورا(١) . وإذا كان ثمة فرق بينكما فهو انك أسوأ .

يوليوس : إذن فلن تفتح الأبواب ؟

بطرس : سأفتحها لأى شخص آخر سواك أما أنت فلا . . .

يوليوس : إذا لم تخضع فسوف أستولى عنوة على مكانك . . . إنهم يقومون الآن بتدمير شامل تحتنا وقريبا سيكون لدى ٦٠٠٠٠ شبح يقفون ورائى .

---

(١) لعل المؤلف يقصد الترك العثمانيين . (المترجم)

بطرس : أيها الرجل الشقى ! أيتها الكنيسة التعسة ... لا عجب أن يقل عدد المتقدمين للدخول هنا ما دامت الكنيسة يحكمها أمثالك . ومع ذلك فلا بد أن فى العالم خيراً أيضا ما دام هذا الحضيض من الظلم يمكن أن يقبل من رجل لا لشىء إلا لأنه يحمل اسم البابا .

وهذا بالطبع رأى خاطئ من جانب واحد فما كان فى وسع محتال داعر مثل هذا أن يحرر إيطاليا من غزاتها وأن يستبدل بالقديس بطرس ، مايكل انجلو ورافائيل الجديدين ، المكتشفين ، الموجهين والمطورين ، وأن يوجد الحضارتين المسيحية والكلاسيكية فى مكان الفاتيكان وأن يقدم لمهارة رافائيل ذلك المظهر للفكر العميق والعناية الفائقة اللتين صورا فى صورة يوليوس الشخصية التى لا مثيل لها والموجودة فى قاعة أوفيزى . وفى الوقت الذى يدعو فيه أرزاموس المسكين كل القس إلى تقشف الرسل نراه هو نفسه يلح فى طلب المال من أصدقائه ، ويكشف عن طبع العهد الثائر ، أن قسيسا يجد لزاما عليه أن يكتب اتهاما قاسيا لبابا . وفى سنة ١٥١٨ — السنة الثانية من عهد لوثر — كتب بيتر جليس إلى أرازموس من أنتورب : « ان كتاب Julius exclusus » « يوليوس المنفى » يباع هنا فى كل مكان . وكل إنسان يشتريه وكل واحد يتحدث عنه ، فلا عجب إذا ما لام المصلحون فيما بعد أرازموس لأنه قرع جرس الإنذار للتمرد ثم هرب بنفسه .

وفى سنة ١٥١٤ ظهر مؤلف آخر بقلم أرازموس أزعج العالم المستنير فى أوروبا الغربية وكان قد ألف ابتداء من عام ١٤٩٧ محاورات شكلية احترافا لتعليم الأسلوب اللاتينى والحديث ، وإن كان قد ناقش عرضاً ضروباً شتى من الموضوعات الشائقة الكفيلة بإيقاظ الطلبة من نعاسهم

اليومى . ونشر صديقه بياتوس رينانوس ، بإذن منه ، سلسلة من هذه المحاورات باسم « العبارات الخاصة بالحديث العادى » Familiarium colloquiorum formulae وهى أشكال من الأحاديث المألوفة بقلم أرازموس الروتردامى ، لا تفيد فى صقل كلام صبى فحسب ، بل تكون أيضاً شخصيته . وأضيفت إلى الطبعات التالية محاورات أخرى فأصبحت أغنى مؤلف لأرازموس من حيث المادة « هى مزيج غريب — مناقشات حادة حول الزواج والأخلاق وحض على التقوى وعرض للأمور المنافية العقل والمساوئ فى سلوك الإنسان ومعتقده وتتخللها فكاهات لاذعة أو خطرة وكلها بلغة لاتينية اصطلاحية شائقة ولا بد أنها أصعب فى الكتابة من لغة الحديث الرسميـــة بين المتعلمين » ، وكتب مترجم انجليزى عام ١٧٢٤ يقول : « ليس ثمة أصلح للقراءة من كتاب « يكاد يهدم تماماً كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب شائق تعليمى » ، وفى هذا مبالغة ولكن ليس من شك فى أن أرازموس استخدم بطريقته المرحة « كتابه فى الأسلوب اللاتينى » فى مهاجمة نقائص رجال الأكليروس . وأدان الاتجار بمخلفات القديسين ، وإساءة استخدام أوامر الحرمان من الكنيسة ، واقتناء البطاركة والقسس للأموال ، والمعجزات الزائفة التى يخدع بها البسطاء ، وعبادة القديسين لأغراض دنيوية ، والمبالغة فى الصيام والتناقضات المروعة بين مسيحية الكنيسة ومسيحية المسيح وحمل بَغِيّاً على أن تثنى على الرهبان باعتبارهم من عملائها المخلصين . وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببكارتها فطلب منها أن تتحاشى « هؤلاء الرهبان المفتولى العضلات ذوى الكروش البارزة . . . فالعفة عرضة للخطر فى الدير أكثر من تعرضها له خارجه » ورثى لتعظيم شأن البكارة وهلل للنكاح باعتباره أسمى من العزوبة ، وأسف لأن الناس تحرص على معاشرة الجياد الصافنات للأفراس الأصيلة بينما يزفون فى الزيجات القائمة على المصلحة المالية عذارى سليمات إلى رجال هدهم المرض ، واقترح منع الزواج من المرضى بالزهرى أو من

الأشخاص المصابين بعجز شديد أو مرض خطير . . . وتمتزج بهذه التأملات الرصينة فقرات من الفكاهة الفظة . وكان الأولاد يطالبون بتشميت الناس عندما يعطسون ولا يطالبون بهذا عندما يضرطون . وكانت أية امرأة حامل يدعو لها الناس بدعاء وحيد: « ألا فلتهب السماء هذا الحمل الذى فى بطنك... سهولة الخروج كما وهبته سهولة الدخول » . وكان الختان أمرا ممتدحا « لأنه يخفف من حكة الجماع » . وثار حوار طويل بين « الشاب والبغى » انتهى بالتأكيد بإصلاح السيدة .

وشكا النقاد من أن هذه المحاورات كانت طريقة تنطوى على التهور لتعليم الأسلوب اللاتينى ، وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايبورج أفسدتهم هذه المحاورات واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واتفق هنا لوثر فى الرأى مع الامبراطور : « سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات أرازموس حتى لو كنت على فراش الموت » . وأكد نجاح الكتاب ما أثاره من حنق وبيع منه ٢٤٫٠٠٠ نسخة بعد نشره وحتى عام ١٥٥٠ لم يفقه فى التوزيع إلا الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه كاد أرازموس أن يجعل الكتاب المقدس ملكا خاصا له .

٤ — الغسلامة

وغادر إنجلترا فى يوليو سنة ١٥١٤ وشق طريقه خلال الضباب والعادات إلى كاليه وهناك تلقى من رئيس ديره الذى نسيه فى ستين ، خطابا يشير فيه إلى أن أجازته انتهت منذ مدة طويلة وأنه يحسن به أن يعود ليقضى ما بقى من عمره تائبا مستغفرا فانزعج لأن رئيس الدير يستطيع ، طبقاً للقانون الكنسى ، أن يدعو السلطة الزمنية إلى الزج به مرة أخرى فى السجن . والتمس ارازموس لنفسه عذراً ولم يتعجل رئيس الدير الأمر ولكن ، لكى

يتحاشى العلامة تكرار الحيرة ، طلب من أصدقائه الإنجليز ذوى النفوذ أن يكفلوا له من ليو العاشر إعفاءه من التزاماته كراهب .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات اتخذ ارازموس طريقه أعلا الراين إلى بازيل وعرض على الناشر فروبن مخطوط أهم مؤلف له ، وهو مراجعة نقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير .

كان عملا أملاه الحب والاعتزاز بالنفس يتعرض مؤلفه وناشره للخطر على السواء : فقد استغرق الإعداد سنوات وسوف يكون الطبع والنشر من الأعمال الشاقة الكثيرة النفقات . والزعم بتفوق الترجمة ، على نسخة جيروم اللاتينية ، التى ظلت مقدسة مدة طويلة باعتبارها نسخة لاتينية للكتاب المقدس ، قد تدينه الكنيسة ، ومن المحتمل ألا تغطى المبيعات النفقات . وخفف ارازموس المخاطرة بإهداء العمل إلى ليو العاشر . وأخيراً نشر فروبن فى فبراير سنة ١٥١٦ « الأداة الجديدة الكاملة التى حققها ونقحها بمنتهى الدقة ارازموس الروتردامى Instrumentum omme, diligenenter ab Erasmo Rat, recognitum et emendatum. وصدرت بعدها طبعة تغيرت فيها كلمة الأداة بالوصية Instrumentum to Testamentum وقدم ارازموس فى أعمدة متقابلة النص اليونانى كما راجعه بنفسه مع ترجمته اللاتينية ويبدو أن معرفته باللغة اليونانية كانت غير كاملة ومن ثم فهو يشترك مع جامعى الحروف فى المسئولية عن أخطاء كثيرة . ومن وجهة النظر العلمية كانت الطبعة الأولى من العهد الجديد باليونانية المعدة للنشر بعد الطبع أقل من مثيلتها التى أتمها وطبعها جماعة من العلماء لحساب الكاردينال اكسيمينيس عام ١٥١٤ وإن كانت لم تقدم للجمهور إلا عام ١٥٢٢ . وقد دل هذان العملان على تطبيق التعليم الإنسانى لأدب — المسيحية الأولى وعلى بداية هذا النقد الإنجيلى الذى استعاد الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر إلى مجال التأليف الإنسانى وما يتعرض له من زلل .

ونشرت مذكرات ارازموس فى مجلد منفصل وقد كتبت بلغة لاتينية اصطلاحية واضحة مفهومة لكل خريجى الكليات فى هذا العهد وكانت لها قاعدة عريضة من القراء وعلى الرغم من أنها كانت متفقة مع الإجماع فإنها سبقت كثيرا من التفسيرات التى ابتدعت فى البحث التالى . وقد حذف فى طبعته الأولى Comma Johanneum « الوصل اليوحنى » (إصحاح يوحنا ٥ : ٧) الذى أكد الثالوث ولكن الذى تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس فى القرن الرابع .

ونشرت قصة المرأة التى اتهمت بالزنى وإن كان قد أشار إلى أن من المحتمل أن تكون كاذبة (إصحاح يوحنا ٧ : ٥٣ و ٨ : ١١) كما نشر الاثنتى عشرة آية الأخيرة من إنجيل مرقس وأشار فى أكثر من موضع إلى الفرق بين المسيحية الأولى والحالية . وعلق على إصحاح متى ٢٣ : ٢٢٧ : « ترى ماذا يقول جيروم لو رأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ، ويضفى عليه من التكريم ما يضفى على جسد المسيح المقدس ، والزيوت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقى التى تكفى إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة ؟ هنا قلنسوة سانت فرانسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن . . . لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبث ببساطة الناس من خلال شح القسس وهرطقة الرهبان »

ولوحظ أن إصحاح متى ١٩ : ١٢ ينص على « لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء » وقيل هذا للنصح بالعزوبة فى الدير وكتب آرازموس « اننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعدون قسسا مسيحيين إذا احتفظوا علنا بخليلة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة . وفى رأيى أن الآباء الذين يعتزمون نذر أولادهم للكهنوت الذى يقتضى العزوبة

يكونون أرق قلباً لو خصوهم فى طفولتهم بدلا من تعرضهم كلية لهذ الإغراء والخضوع للشهوة » .

وفى رسالة تيموثاوس ٣ : ٢ : هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس علمانيين ونظاميين . ومن الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر منهم يسقطون فى حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور. وليس من شك فى أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لايستطيعون التمسك بالعفة بزوجات شرعيات وبهذا ينجون من هذا الدنس البذىء التعس .

وأخيراً عزف ارازموس اللحن الأساسى للمصلحين فى تعليق عام على إصحاح متى ١١ : ٣٠ — ألا وهو العودة من الكنيسة إلى المسيح : « حقا إن قيد المسيح يكون لطيفاً وحمله خفيفا إذا لم تضف الشرائع الإنسانية التافهة شيئاً لما عرضه هو نفسه . إنه لم يأمرنا إلا بأن يحب بعضنا بعضا وليس ثمة ما يصعب على المودة أن تلطف من حدته وتخفف من مرارته . فكل شىء من السهل تحمله طبقا للطبيعة ، ولا شىء يتفق مع طبيعة الإنسان أحسن من فلسفة المسيح التى لا هدف لها إلا إعادة البراءة والتكامل للطبيعة الهاوية . . . وقد أضافت الكنيسة لها أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عن بعضها دون الإضرار بالإيمان . . . مثل كل تلك العقائد الفلسفية عن طبيعة الإنسان وتمييز الأشخاص . وما أكثر القواعد والأوهام التى تعرفها عن الثياب . . . وما أكثر أيام الصيام التى استنت . . . وماذا نقول عن العهود . . وعن سلطة البابا وإساءة استخدام صُكوك الغفران والتحلل ؟ .. هل يرضى الناس أن يدعوا المسيح يحكم بمقتضى شرائع الإنجيل وألا يبحثوا بعد ذلك عن دعم طغيانهم الجامح بقوانين من صنع البشر ؟ » .

ولعل التفسيرات هى التى أتاحت للكتاب نجاحاً لا بد أنه أذهل المؤلف والناشر على السواء . وقد وزعت الطبعة الأولى فى ثلاث سنوات ثم صدرت

للكتاب طبعات جديدة ومنقحة بلغت تسعة وستين قبل وفاة ارازموس . ووجه للعمل نقد عنيف وأشير إلى ما تضمنه من أخطاء كثيرة . ولقد دمغ الدكتور جوهان ايك ، الأستاذ بجامعة انجولشتادت وأول خصيم للوثر ، بالعار بيان ارازموس المتضمن أن اللغة اليونانية التى كتب بها العهد الجديد أقل شأنا من اللغة اليونانية التى كان يتكلم بها ديموستين . ومهما يكن من أمر فإن ليو العاشر وافق على العمل . وطلب البابا أدريان السادس من ارازموس أن يعمل للعهد القديم ما قام به نحو العهد الجديد ولكن مجلس ترنت أدان ترجمة ارازموس وأعلن أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس لجيروم هى النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس . وسرعان ما عد العهد الجديد لارازموس عملا متخلفا من الناحية الدراسية العلمية وإن كان أثره عظيما باعتباره حدثا فى تاريخ الفكر ، فقد يسر ورحب بالترجمات الوطنية التى ظهرت فى أعقابه . وتقول فقرة متحمسة فى المقدمة : « بودى لو قرأت أضعف امرأة الأناجيل ورسائل القديس بولص . . بودى لو ترجمت هذه الكلمات إلى جميع اللغات لا ليقرأها الاسكتلنديون والايرلنديون فحسب بل ليقرأها أيضاً الأتراك والمشارقة .

وإنى لأود أن ينشدها الحارث لنفسه وهو يسير وراء المحراث ويترنم بها النساج على أنغام الماكوك ويهون بها المسافر من مشقة رحلته . . . . قد نأسف على دراسات أخرى أخذناها على عاتقنا ولكن ما أسعد المرء الذى يفاجئه الموت وهو مشغول بها .

إن هذه الكلمات المقدسة تعطيك نفس صورة المسيح وهو يتكلم ويبرئ المرضى ، وهو يموت ثم يرفع مرة أخرى ، وتجعله حاضراً بحيث لو مثل أمام عينيك لما رأيته حقاً أوضح من هذا » .

واغتبط ارازموس لكفاية مطبعة فروبن والعاملين بها فأصدر (فى نوفمبر سنة ١٥١٦) طبعة نقد فيها ترجمة جيروم وأعقبها بنصوص مماثلة

منقحة وكلاسية لآباء الكنيسة وصحح ٤٠٠٠ خطأ فى النص الذى تلقاه من سينيكا وكانت هذه خدمات جوهرية للدارسين .

وروى ثانية قصة العهد الجديد بتفسيرات (١٥١٧) وتطلبت هذه المهام الإقامة أكثر من مرة فى بازيل وان حدد ارتباط جديد إقامته قرب البلاط الملكى فى بروكسل . وكان شارل آنذاك ملكا على قشتالة وحاكماً للأراضى المنخفضة ولم يكن عندئذ قد أصبح الإمبراطور شارل الخامس ، وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإن عقله المرهف كان يهيم حول اهتمامات مختلفة ، واقتنع فعلا بأن بلاطه يمكن أن يزداد تألقاً إذا كان بين مستشاريه العالمين ببواطن الأمور الكاتب البارز فى عصره . وأصدر أمراً بهذا وقبل ارازموس — لدى عودته من بازيل (١٥١٦) — المنصب الفخرى بمرتب متواضع . وعرض عليه منصب دينى فى كورتراى مع وعد بأسقفية فرفضه وكتب لأحد أصدقائه يقول : « هاك حلم يسليك » . وتلقى وأعرض عن دعوات بالتدريس فى جامعات ليبزج وأنجولشتادت .

وحاول فرانسس الأول أن يفرق بينه وبين شارل بطلب ينطوى على التملق وهو أن ينضم إلى بلاط فرنسا فرفض أرازموس العرض بلطف ورقة .

وفى الوقت نفسه كان ليو العاشر قد أرسل إلى لندن التحللات المطلوبة . وفى مارس من عام ١٥١٧ سافر أرازموس إلى لندن وتسلم رسائل البابا التى تحله من التزاماته نحو الدير ومن وصمة اللقاطة . وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية : « ابنى الحبيب : تمنياتنا لك بالصحة مع بركاتنا الرسولية . ان ما من الله به عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعيتك النادرة وأفضالك الرفيعة لا تشهد عليها آثار دراساتك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب بل يشهد عليها أيضا اجماع آراء معظم المتعلمين . وقد أثنت عليك رسائل أميرين ذائعى الصيت هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكى وهذه هيأت لنا سبباً لكى نخصك بمنة فريدة وفضل خاص .

ومن ثم أجبنا التماسك ونحن راضون ومستعدون لكى نعلن محبتنا الشديدة لك عندما تهيئ الفرصة إما بنفسك أو عندما تسنح بطريق الصدفة . ونظن بحق أن جهدك المقدس الذى يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلقى تشجيعاً وقدراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة » .

ولعلها كانت رشوة حكيمة لسلوك حسن ، ولعلها كانت لفتة صادقة من بلاط متسامح إنسانى ، وفى أية حالة فإن ارازموس لم ينس قط هذه المجاملة البابوية وسوف يجد دائماً من الصعب أن يتحلل من كنيسة تحملت فى صبر لذع نقده .

٥ — الفيلســوف

وعند عودته إلى بروكسل وجد نفسه فريسة الإغراء بالتمسك بالحرص نظراً لما استقبل به من ترحاب ودى فى البلاط الملكى . وأخذ منصبه كمستشار خاص بجد ، ونسى أن المؤلفين اللامعين قلما تتوفر فيهم صفة الحنكة السياسية . وألف فى عجلة عام ١٥١٦ الحافل بالأعمال كتابه : « تربية أمير مسيحى » الذى يفيض بالتفاهات التى كانت سائدة قبل ظهور كتاب ماكيافلى عن السلوك الذى يجب أن يتبعه ملك . وكتب فى إهدائه لشارل بصراحة تتسم بالجرأة : « إنك تدين للعناية الإلهية فى الفوز بمملكتك دون الإضرار بأحد ولسوف تظهر حكمتك على الوجه الأكمل إذا استطعت أن تحافظ فيها على السلام والهدوء » . وكان ارازموس ، مثل معظم الفلاسفة : يعد الملكية أهون الأشكال الحكومية شراً ، وكان يخشى الشعب ويعده « وحشاً متقلباً متعدد الرؤوس » . وكان يستنكر مناقشة الشعب للقوانين والسياسة ويرى أن فوضى الثورة أسوأ من أى استبداد للملوك ، بيد أنه أشار على أميره المسيحى أن يتقى شر تركيز الثروة ، فالضرائب لا تفرض إلا على الكماليات ، ويجب تقليل الأديرة وزيادة المدارس ، وعلاوة على كل هذا يجب ألا ينشب قتال

بين الحكومات المسيحية — ولا حتى ضد الأتراك . « خير لنا أن نتغلب على الأتراك بالتقوى فى حياتنا لا بالأسلحة . وهكذا يتم الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية بنفس الوسائل التى أسست بها أصلا » . « ماذا تولد الحرب إلا الحرب ؟ — ولكن الدماثة تدعو إلى الدماثة والعدالة تدعو إلى العدالة » .

ولما كان شارل وفرانسس قد ثارت بينهما العداوة فإن إرازموس وجه الدعوة تلو الدعوة للسلام وامتدح الملك الفرنسى فى حا... ة من المصالحة وتساءل كيف يمكن أن يفكر أحد فى شهر الحرب على فرنسا « أطهر جزء فى العالم المسيحى وأعظمه ازدهاراً » . ووصل إلى ذروة الفصاحة المتحمسة فى كتابه (الشكوى من السلام ١٥١٧) :

« أمر فى صمت على مآسى الحروب القديمة ولن أركز الحديث إلا على الحروب التى نشبت فى خلال هذه السنوات الأخيرة . أين الأرض أو البحر الذى لم يحارب فيه الناس بطريقة من أقسى ما يمكن ؟ وأين النهر الذى لم تصطبغ مياهه بدم الإنسان . . . بالدم المسيحى ؟ يا للعار العظيم ! إنهم يتصرفون بقسوة فى المعركة تزيد على قسوة غير المسيحيين ، وبوحشية تفوق وحشية حيوانات الغاب . . وكل (هذه الحروب) نشبت بسبب نزوات الأمراء على حساب الإضرار بالناس الذين لا ناقة لهم ولا جمل فى هذه المعارك . . . وليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وهم كهنة المسيح ، من يخجل من بدء الحرب التى لعنها المسيح . ما هو الشىء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ ويا أيها الأساقفة ، يا من يحملون لواء الرسل ، كيف تجرؤون على أن تعلموا الناس أموراً كثيرة عن الحرب فى نفس الوقت الذى تعلمونهم فيه تعاليم الرسل ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت تمليها العدالة » .

قد يفيد الأمراء والقواد من الحرب ولكن الجماهير تتحمل المآسى والنفقات . وقد يكون من الضرورى أحياناً شن حرب دفاعاً عن النفس

ولكن حتى فى هذه الحالات قد تكون رشوة العدو أشد حكمة من شرور الحرب . فليرفع الملوك منازعاتهم إلى البابا . وقد يكون هذا إجراء غير علمى فى عهد يوليوس الثانى إذ كان هو نفسه رجلا محارباً ، أما ليو العاشر وهو « حبر متعلم تقى أمين » فإنه سيحكم بالعدل ويرأس فعلا محكمة دولية : ووصم ارازموس القومية بأنها لعنة للبشرية وتحدى الساسة أن يتدعوا حكومة عالمية . وقال : « إنى أتمنى أن أكون مواطناً عالمياً » واغتفر لبودى حبه لفرنسا ولكنه قال : « فى رأيى أنه أقرب للحكمة أن تكون علاقاتنا مع الأشياء والناس أساساً مثل اعتبار العالم البلد المشترك بالنسبة لنا جميعاً » .

كان ارازموس أضعف الناس حماساً للقومية فى عهد الإصلاح الذى رفع من شأن القومية . وكتب يقول : « إن أسمى شىء هو أن يستحق المرء أن ينسب إلى الجنس البشرى » .

ويجب ألا نتوقع من إرازموس أن يقدم لنا أى مفهوم واقعى للطبيعة البشرية أو عن أسباب الحروب أو عن سلوك الحكومات فهو لم يواجه قط المشكلة التى كان يعالجها فى مكيافيلى فى تلك السنوات نفسها . وهل كان فى وسع حكومة أن تبقى إذا مارست الأخلاق التى تحث المواطنين على اتباعها . كانت وظيفة ارازموس أن يبتر الأغصان من شجرة الحياة لا أن يبنى فلسفة إيجابية متينة . بل إنه لم يكن واثقاً من أنه مسيحى ، فكثيراً ما أكد أنه يقبل عقيدة الرسل ، ومع ذلك فلابد أنه شك فى الجحيم لأنه كتب : « إن الذين ينكرون وجود الله ليسوا ملحدين كهؤلاء الذين يصورونه تعالى متزمتاً » . وكان لا يكاد يؤمن بأن العهد القديم من كلام الله لأنه أقر برغبته فى « أن يرى العهد القديم كله يبطل » إذا كان يهدئ من الحنق على روبخلين . وسخر من الروايات المأثورة عن مينوس ونوما بأنهما كانا يغريان شعبيهما بالخضوع لتشريع غير لطيف بنسبته إلى الآلهة . ولعله راوده الشك فى أن موسى كان يتبع نفس السياسة . وعبر عن دهشته لأن

« مور » رضى بالحجج التى تساق لإثبات خلود النفس ورأى أن العشاء الربانى رمز وليس معجزة ، ومن الواضح أنه راوده الشك فى الثالوث وفى تجسد الأقنوم الثانى وفى ولادة العذراء ، وكان على مور أن يحميه من مراسل أعلن أن ارازموس قد اعترف فى خلوة بعدم إيمانه . وطرح للنقاش واحداً بعد الآخر العادات التى درج عليها المسيحيون فى عهده — صكوك الغفران والصيام والحج والاعتراف السرى والرهبانية والعزوبة الاكليريكية وعبادة مخلفات القديسين والصلوات للقديسين وحرق الهراطقة . وقدم تفسيرات مجازية أو منطقية لكثير من فقرات الكتاب ، المقدس ، وقارن قصة آدم وحواء بقصة بروميثيوس ، وأشار بتفسير الكتب المقدسة تفسيراً يلتزم أقل ما يمكن المعنى الحرفى ، وحول عذاب الجحيم إلى الألم الدائم للعقل الذى يصحب الإثم المعتاد . ولم يذع شكوكه بين الناس لأنه لم يكن لديه أساطير مواسية أو رادعة يقدمها بدلا من الأساطير القديمة . وكتب يقول : « إن التقوى تستلزم منا أن نخفى الحقيقة أحيانا وأن نحرص على ألا نظهرها دائماً كما لو كان لا يهم متى وأين أو لمن نظهرها ، ولعلنا نجد ازاماً علينا أن نتفق مع أفلاطون فى أن الأكاذيب مفيدة للناس » .

وعلى الرغم من هذا الميل الشديد للمذهب العقلى فقد ظل ارازموس ظاهريا متفقاً مع المحافظين ولم يعدم قط محبته للمسيح وللأناجيل وللطقوس الدينية الرمزية التى رفعت بها الكنيسة من شأن التقوى . وابتدع شخصية فى محاوراته تقول « إذا كان ثمة شىء شائع الاستعمال عند المسيحين لا يتنافر مع الكتب المقدسة فإنى أراعيه لهذا السبب بحيث لا أسىء إلى الناس الآخرين » .

وكان يحلم بآن يستبدل باللاهوت : فلسفة المسيح ، وسعى إلى التنسيق بين هذه الفكرة وبين رأى كبار الوثنيين . ووصف أفلاطون وسيشرون وسينكا بعبارة « ملهم من الله » ولم يقبل آن يحرم هؤلاء الرجال من الخلاص

وكان لا يكاد يستطيع أن يمتنع عن الصلاة على روح القديس سقراط . وطلب من الكنيسة أن تختصر المذاهب الجوهرية للمسيحية « إلى أقل عدد ممكن وأن تترك للباقى حرية الرأى » . ولم يدافع عن التسامح الكامل مع كل الآراء (ومن يفعل ؟) ولكنه اتخذ موقفاً رفيقاً منحازاً نحو الهرطقة الدينية . وكان مثله الأعلى فى الدين هو محاكاة المسيح ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نسلم بأن ممارسته للشعائر كانت أقل من أن توصف بأنها مطابقة لتعاليم الكنيسة الإنجيلية .

٦ — الإنسان

كيف عاش فعلا ؟ لقد أقام إبان هذا العهد (١٥١٧) معظم وقته فى الفلاندرز فى بروكسل وأنتورب ولوفان — وسكن فى خلوة أعزب مع خادم وإن كان كثيراً ما قبل ضيافة ذوى الثراء الذين كانوا يتسابقون على صحبته باعتبارها امتيازا اجتماعيا واحتفالا فكريا .

وكان أنيقا فى أذواقه وكانت أعصابه ومشاعره رقيقة إلى الحد الذى كان كثيراً ما يتألم فيه من خشونات الحياة الشديدة . وكان يشرب النبيذ بكثرة ويتفاخر بقدرته على حمل الكأس بثبات ، ولعل هذا كان بسبب داء النقرس والحصوات التى كانت تضايقه ، ولكنه كان يعتقد أن النبيذ يخفف من ألمه بتوسيع شرايينه .

وفى عام ١٥١٤ وهو فى الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من عمره وصف نفسه قائلا إنه : « عليل أشيب الرأس . . . يجب ألا يشرب سوى النبيذ » ويجب أن « يكون متأنقا فى طعامه » . وكان الصيام لا يناسبه ، وكان يتميز غيظا من السمك ، ولعل الصفراء عنده لونت لاهوته . وكان قليل النوم مثل معظم الناس الذين لا تعرف عقولهم المشغولة متى يأوون إلى الفراش ، وكان يواسى نفسه بأصدقائه وكتبه « يخيل إلى أنى أنتزع من نفسى

عند ما أحجز عن عاداتى اليومية فى الدراسة . إن بيتى هو المكان الذى توجد فيه مكتبتى » .

وكان يلح فى طلب النقود بكل ما عرف من مثابرة عن قسيس أبرشية ، وذلك لشراء الكتب إلى حد ما . وكان يتلقى معاشات منتظمة من مونتجوى ووارهام وهدايا عينية مثل مبلغ الثلاثمائة فلورين (٧٥٠٠ دولار ؟) من جان ليه سوفاج رئيس وزراء بورجنديا ، وحقوق تأليف تزيد عن تلك التى كسبها أى مؤلف آخر فى عصره .

وكان يتنصل من أى حب للمال ويقول إنه يبحث عنه لأنه ، كأى رجل بلا موارد ، يخشى ألا يجد ما يؤمنه فى وحدته عند ما يبلغ أرذل العمر . وفى الوقت نفسه استمر يرفض الوظائف المربحة التى كان يمكن أن توسع دخله على حساب حريته .

كان مظهره أولا لا يؤثر فى الناس ، فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه ضعيف البنية ، خافت الصوت ، وكان يؤثر فى الناس بيديه الحساستين وأنفه الأقنى وعينيه الزرقاوين الرماديتين اللتين تلمعان ببريق الذكاء، وكلامه حديث يدل على عقلية خصبة لماحة من أحسن العقليات فى هـذا العصر اللامع ، وكان أعظم الفنانين من معاصريه أبناء الشمال يتوقون إلى رسم صورة له ، فوافق على أن يجلس أمامهم لأن هذه الصور كانت تلقى ترحيبا من أصدقائه باعتبارها هدايا ، وصوره كينتان ماسيس عام ١٥١٧ وهو مستغرق فى الكتابة وملتف بمعطف ثقيل يقيه برد الحجرات فى تلك القرون، وأهديت هذه الصورة إلى مور . ورسم ديرر صورة بالفحم لارازموس عام١٥٢٠ ، ونقش له حفرا ملفتا للنظر عام ١٥٢٦، وهنا أضفت لمسة الريشة الألمانية تماما على « الأوروبى الطيب » سحنة هولندية . وقال الجالس « إذا كنت أبدو كهذه الصورة فأنا محتال كبير » . وتفوق هولبين على

كل هذه الجهود فى صور كثيرة رسمها لارازموس إحداها فى تورين وثانية فى انجلترا وثالثة فى بازيل وأحسنها فى اللوفر — وكلها روائع رسمها أعظم مصور للوجوه فى الشمال ، وهنا كان العلامة قد أصبح فيلسوفا هادئا متأملا وإن كان سوداويا إلى حد ما ، وسلم فى نفور لحياد الطبيعة المتواكل وفناء العبقرية . وكتب عام ١٥١٧ يقول : « يجب أن نتحمل ما يأتى به حظنا وقد هيأت عقلى لتقبل كل حدث » . وهى فلسفة رواقية لم يحققها قط . . . وقال عن شاب طموح : « إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكلفه المجد من عناء » . ومع ذلك فإن ارازموس مثل كثير من ذوى النفوس النبيلة ، كان يواصل العمل ليلا ونهارا ليتغلب على هذا العبء .

وبدت أخطاؤه واضحة للعيان ، أما فضائله فكان لا يعلمها إلا الخلصاء من أصدقائه ، وكان فى وسعه أن يتسول بلا خجل ، ولكن كان فى وسعه أيضا أن يعطى ، وكثيراً ما كانت تشيع فى حرارة مدحه روح متمردة . وعند ما وجه بفيفركورن Pfefferkorn هجومه إلى رويخلين كتب ارازموس إلى أصدقائه من الكرادلة فى روما ، وساعد على الحصول على الحماية للعالم بآداب اللغة العبرية المتعب ، وكان يفتقر إلى التواضع والاعتراف بالجميل ، فقد كان هذا من الصعب على رجل يخطب وده البابوات والملوك .

وكان يضيق ذرعا بالنقد ويستاء منه ، وكان أحيانا يجيب عليه بطريقة تعسفية فى هذا العصر الشهير بالجدل ، وشاطر فى مناهضة السامية حتى مع علماء عصر النهضة ، وكانت اهتماماته فى أضيق الحدود كما كانت قوية ، فقد أولع بالأدب عند ما كان يلبس ثوب الفلسفة ، وبالفلسفة عند ما كانت تترك المنطق للحياة ؛ ولكنه تجاهل تقريبا العلم والمسرح والموسيقى والفن . وسخر من معظم نظم الفلك التى كانت تختال على المسرح وسخرت معه النجوم . وليس فى كل مراسلاته العديدة تقدير للألب أو لعمارة أكسفورد

وكامبردج أو لتصوير رافائيل أو لنحت ما يكلانجلو الذين كانوا يعملون ليوليوس الثانى عند ما كان ارازموس بروما (١٥٠٩) ، ثم إن الترتيل القوى فى الأبرشيات المقومة آذى فيما بعد أسماعه المهذبة . وكانت حاسة الفكاهة عنده عادة تتسم بالدقة والرقة ، وكانت رابيلية ولكنها فى الغالب ساخرة ، وانقلبت مرة إلى سخرية لا تتسم بالإنسانية كما حدث عند ما كتب إلى صديق عند ما سمع بإجرام بعض الهراطقة : « سأرثى لهم أقل إذا رفعوا ثمن الوقود لا سيما وأن الشتاء على الأبواب » .

ولم تكن من صفاته الأثرة الطبيعية أو الأنانية التى يتسم بها كل الرجال ، بل كان يتصف بذلك الغرور الخفى المحبب أو الإعجاب بالذات الذى لولاه لانسحق الكاتب أو الفنان فى الاندفاع القاسى لعالم يتسم بعدم الاكتراث .

وكان يحب الإطراء ويوافق عليه على الرغم ممن كانوا ينكرون عليه ذلك من آن لآخر . وقال لأحد أصدقائه : « إن خير النقاد يقولون إنى أكتب أحسن من أى إنسان آخر على ظهر الأرض » . وكان هذا حقا وإن كان باللاتينية فحسب ، فقد كان يكتب بفرنسية رديئة ويتحدث قليلا بالهولندية والإنجليزية ، وكان « يتذوق العبرية بطرف اللسان فقط » وكان يعرف اليونانية معرفة ناقصة ولكنه كان يجيد تماما اللغة اللاتينية ، وكان يستخدمها باعتبارها لغة حية يمكن تطبيقها على معظم التفاهات والأشياء الحقيرة غير اللاتينية فى عهده . وقد اغتفرت أجيال قرن مشغوفة بالكلاسيات معظم أخطائه نظرا لما يمتاز به أسلوبه من إشراقة زاهية . وما تتسم به تقديراته للأشياء ، بأقل من قيمتها ، من سحر عجيب ، وما تتصف به سخريته من تهكم لاذع . وتضارع رسائله خطابات سيشرون فى البلاغة والدماثة وتفوقها حيوية وفطنة . وفضلا عن هذا فقد تفرد بلغة لاتينية خاصة به ، ولم تكن تقليدا للغة شيشرون بل كانت كلاما حيا قويا طيعا ،

ولم تكن صدى لألفاظ مضى عليها ١٥٠٠ عام . وكانت رسائله مثل رسائل بترارك مطمح أنظار الأدباء والأمراء بعد حديثه المثير وهو يقول لنا ، ولعل هذا بشىء من الرخصة الأدبية ، أنه كان يتسلم كل يوم عشرين رسالة ويكتب أربعين خطابا . ونشرت منها بضع مجلدات فى حياته بعد أن فتحها مؤلفها بعناية حتى يقرأها من يأتون بعده . وكان بين من يراسلونه ليو العاشر وأدريان السادس والملكة مارجريت ملكة نافار والملك سيجموند الأول ملك بولنده وهنرى الثامن ومورروكوليه وبيركايمار . وكتب مور المتواضع : « لا أستطيع أن أتخلص من شعور نزوى بالغرور . . عندما يخطر ببالى أنى سأكون موضع ثناء من خلف بعيد لصداقتى لارازموس » .

ولم يضارعه فى شهرته كاتب آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن لوثر كاتب . وأبلغ بائع كتب فى اكسفورد عام ١٥٢٠ أن ثلث مبيعاته كانت من أعمال ارازموس . وكان له أعداء كثيرون وبخاصة بين علماء اللاهوت فى لوفان ، غير أنه كان له مريدون فى اثنتى عشرة جامعة ، وكان هناك علماء للإنسانيات فى أوروبا ينادون به قدوة وزعيما . وفى ميدان الأدب كان يمثل عصر النهضة ومذهب الإيمان بالإنسان مجتمعين — عبادتهما للكلاسيات ولأسلوب لاتينى مصقول واتفاق الجنتلمان (السادة المهذبين) على ألا يختلفا مع الكنيسة وألا يزعجا أساطير الجماهير التى لا غنى عنها ، على شريطة أن للكنيسة أن تغض النظر عن الحرية الفكرية لطوائف المتعلمين وتسمح بتقويم مفاسد وسخافات رجال الدين تقويما داخليا قانونيا ؛ وقد هلل ارازموس مثل كل علماء الإنسانيات لتبوؤ ليو العاشر منصب البابوية ، فقد تحقق حلمهم — وها هو عالم بالإنسانيات وعلامة وسيد مهذب ، يمثل اتحاد النهضة والمسيحية معا ، قد ارتقى أعظم العروش . وليس من شك فى أنه سوف يتم تطهير سلمى للكنيسة ، وينتشر التعليم ، وسيحافظ الناس

على شعيرتهم المحببة وإيمانهم الذى يجدون فيه العزاء وإن كان العقل البشرى سوف يكون حرا .

وظل هذا الأمل يراود ارازموس حتى بداية عهد لوثر تقريبا ، ولكنه فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥١٧ كتب من انتورب إلى توماس ، كردينال يورك ، عبارة تنذر بالويل : « فى هذا الجزء من العالم أخشى أن هناك ثورة عظيمة توشك على الوقوع » . وفى أقل من شهرين وقعت الثورة .

الفصل السادس عشر

ألمانيا قبيل عهد لوثر

١٤٥٣ – ١٥١٧

١ – عصر آل فوجر

كان التوفيق حلفا لكل الطوائف فى ألمانيا ما عدا الفرسان فى السنوات الخمسين الأخيرة قبل عهد الإصلاح الدينى ، ولعل ارتفاع منزلة الفلاحين هى التى زادت من استيائهم على ما بقى من إحساسهم بالعجز . إذ كانت قلة منهم لا تزال من طائفة عبيد الأرض وأقلية منهم ملاكا ، وكانت غالبيتهم مزارعين مستأجرين يدفعون الإيجار إلى السادة الإقطاعيين إنتاجا عينيا أو يقدمون لهم خدمات أو نقوداً . وكان المستأجرون يشكون من ظلم السادة ، من أيام العمل الإثنى عشر والتى تصل إلى ستين يوما فى بعض الأحوال والتى حتمت التقاليد أن يبذلوها لهم فى كل عام ، ومن استرداد الأرض من عامة الناس ، تلك الأرض التى جرى العرف على السماح لهم فيها بصيد الأسماك وقطع الأخشاب ورعى الماشية ، ومن الأضرار التى لحقت بالمحاصيل من صيادى السيد وكلابهم ومن سياسة القضاء المتحيزة فى المحاكم المحلية ، وكان الملاك يسيطرون عليها ، ومن الضريبة على الموتى التى كانت تفرض على أسرة المستأجر عند ما يحل موت عميدها بالعناية بالأرض . وثار الملاك الفلاحون غضبا بسبب الضرائب المضاعفة التى كان لزاما عليهم أن يدفعوها على القروض المطلوبة لنقل محصولاتهم وعلى حبس الرهن السريع للمزارع بوساطة المرابين ، وكانوا يقدمون القروض للملاك الذين يتضح لهم عجزهم عن السداد : ولقد

أضمرت كل عواطف الفلاحين العداء لضريبة العشور السنوية التى تفرضها الكنيسة على محاصيلهم وماشيتهم .

وأضرم هذا التذمر نيران ثورات الفلاحين فانتشرت خلال القرن الخامس عشر ، وقام الفلاحون حول ورمز بثورة لا طائل تحتها عام ١٤٣٢ ، واختاروا حذاء أحد الفلاحين علماً لهم ، وكان حذاء طويلا يكسو الساق من الرسغ إلى الركبة ، وعلقوه على الشواخص ، كما رسموا صورته على الأعلام . وأصبح رباط الحذاء العنوان المحبب لعصابات المتمردين من الفلاحين فى عهد لوثر .

ولقد أعلن عام ١٤٧٦ راعى أبقار يدعى هانز بوهم أن أم الإله قد كشفت له أن مملكة السماء على الأرض غدت قريبة دانية ولن يكون هناك أباطرة ولا بابوات ولا أمراء أو سادة إقطاعيون . وأن جميع الرجال سيكونون إخوة وجميع النساء أخوات ، الكل يشاطر على قدم المساواة ثمار الأرض ، وأن الأراضى والغابات والمراعى ستكون مشاعا وملكا للجميع . وأقبل آلاف الفلاحين ليستمعوا إلى هانز وانضم له أحد القسس وابتسم أسقف فيرتسبورج فى تسامح ولكن عندما طلب هانز من أتباعه أن يحضروا معهم فى الاجتماع القادم كل الأسلحة التى يستطيعون جمعها أمر الأسقف بالقبض عليه وأطلق جنوده النار على الجمهور الذى حاول إنقاذه وفشلت الحركة .

وفى عام ١٤٩١ هاجم الفلاحون فى ضيعة رئيس دير الرهبان فى كيمبتين فى الألزاس ديره ، وزعموا أنهم أكرهوا على أن يكونوا رقيقاً للأرض بوثائق مزيفة . وعقد الإمبراطور فريدريك الثالث معهم مصالحة . وبعد مرور سنتين أعلن أتباع أسقف ستراسبورج ثورة رباط الحذاء ، وطالبوا بإنهاء الضرائب الإقطاعية وضرائب العشور الكنسية وإلغاء كل الديون وقتل كل اليهود . وفكروا فى الاستيلاء على مدينة شلتستادت ، فقد كانوا يأملون أن

يمدوا سلطانهم على الألزاس . وعلمت السلطات بالمؤامرة وقبضت على الزعماء وعذبتهم ثم شنقتهم وأفزعت الباقين فأعلنوا الخضوع إلى حين . وفى عام ١٥٠٢ كون فلاحو أسقف سبيير عصابة « رباط الحذاء » من ٧٠٠٠ رجل وتعاهدوا على إنهاء الإقطاع ومطاردة كل القسس والرهبان وقتلهم . واسترداد ما كانوا يعتقدون أنه كان مشاعا لأجدادهم . وأفشى أحد الفلاحين سر الخطة على كرسى الاعتراف فاتحد رجال الدين والنبلاء على إحباطها وعذب زعماء المتآمرين وشنقوا .

وفى عام ١٥١٢ نظم جوس فريتز حركة مماثلة قرب فرايبورج — ام — برايزجاو ، وكان من شأنها أن تبقى على الله والبابا والإمبراطور وأن تقضى على كل ملكية إقطاعية وضرائب يفرضها الإقطاعيون . غير أن واحداً من الفلاحين أكره على الانضمام لهذه الرابطة وأفشى سرها للقس الذى اعترف أمامه فاعتقلت السلطات الزعماء وعذبتهم وفشلت الثورة ، إلا أن جوس فريتز عاش إلى أن انضم إلى ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥ ، وفى عام ١٥١٧ تكونت جماعة من ٩٠٫٠٠٠ فلاح فى ستيريا وكارينثيا وتعاهدوا على القضاء على الإقطاع هناك وظلت عصاباتهم لمدة ثلاثة شهور تهاجم القلاع وتقتل بالسادة ، وأخيراً أرسل الإمبراطور ماكسمليان ، وكان يعطف على قضيتهم وإن لم يرض عن توسلهم بالعنف ، قوة صغيرة من الجنود وأرغمتهم على السلم على مضض . ولكن المسرح كان معداً لحرب الفلاحين وللشيوعية اللامعمدانية فى الإصلاح الدينى بألمانيا .

وفى غضون ذلك كانت تقوم فى عالمى الصناعة والتجارة بألمانيا ثورة أملاها الأمر الواقع . كانت معظم الصناعات لا تزال يدوية وإن تزايدت عليها سيطرة رجال الأعمال الذين يقدمون المواد الخام ويموّلونها ويشترون الإنتاج النهائى ويبيعونه ، وكانت صناعة التعدين تتقدم بسرعة وجنيت أرباح عظيمة من استخراج الفضة والنحاس والذهب ، وأصبحت سبيكة الذهب

أو الفضة عندئذ وسيلة محببة لاختزان الثروة ، ومكنت حقوق التعدين لأمراء الإقليم — وبخاصة أمير ساكسونيا وكان يحمى لوثر — مكنت بعضهم من مقاومة البابا والإمبراطور معا . وسكت نقود فضية يعتمد عليها وتضاعف عدد النقد وتم أو كاد التوصل إلى اقتصاد يرتكز على النقد ، وأصبحت حيازة سبيكة فضية أمراً شائعا فى الطبقتين الوسطى والعليا ، وعرضت بعض الأسر مناضد أو مقاعد من الفضة الخالصة وتراكمت فى الكنائس الألمانية ، أوعية وكئوس قداس وجفان بل وتماثيل من الفضة أو الذهب ، وجعلت الأمراء يميلون إلى إصلاح دينى يسمح لهم بتصفية الثروة الكنسية . وقد تعجب أنياس سيلفيوس عام ١٤٥٨ عندما رأى أصحاب حانات فى ألمانيا يقدمون بانتظام الشراب فى كئوس فضية وتساءل : « أية امرأة ، لا بين طبقة النبلاء فحسب بل بين طبقات الدهماء ، لا تتألق بالتحلى بالذهب ؟ — وهل أذكر شكائم الخيول المزينة بنقوش بارزة من خالص الذهب و . . . أسلحة وخوذات تلمع بالذهب ؟ » وأصبح الممولون الآن قوة سياسية عظيمة ، واستبدل بمقرضى النقود من اليهود مؤسسات تديرها عائلات مسيحية من الولزين والهوخستيتر والفوجر ، وكلهم من أوجسبورج وكانت عاصمة المال فى العالم المسيحى فى نهاية القرن الخامس عشر . ولقد أصبح جوهان فوجر ، وهو ابن نساج ، تاجرا للمنسوجات وترك عند وفاته (عام ١٤٠٩) ثروة صغيرة من ٣٠٠٠ر٣ فلورين (٧٥٠٠٠ر دولار ؟) وتوسع ابنه جاكوب فى العمل وعندما مات (١٤٦٩ ترك ثروة تعد السابعة بين الثروات فى أوجسبورج ، واستطاع أولريخ وجورج وجاكوب الثانى أبناء جاكوب أن يرقوا بالمؤسسة إلى مكان الصدارة بتقديم المال إلى الأمراء فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا ، وذلك فى مقابل الحصول على دخول المناجم أو الأراضى أو المدن . ومن هذه الاستثمارات التى تعتمد على المضاربة جمع آل فوجر أرباحا فاحشة وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا أغنى أسرة فى أوروبا .

وكان جاكوب الثانى عبقرى الأسرة الذى لا يبارى ، فقد كان مقداما قاسيا مجدا . ودرب نفسه ، على طريقة الرواقيين ، بدراسة كل مرحلة من مراحل العمل وكل تقدم فى مسك الدفاتر والصناعة والمتاجرة والتمويل . وطالب بالتضحية بكل شىء فى سبيل العمل ما عدا الأسرة نفسها وبإخضاعه كل فرد من آل فوجر فى سبيل مصلحة الأسرة وأسس المبدأ القائل بألا سلطة لأحد فى المؤسسة سوى فرد من آل فوجر ولم يسمح قط لعلاقاته السياسية بالتأثير فى قروضه . وكون اتحادات مع المؤسسات الأخرى للتحكم فى سعر المنتجات المختلفة ومبيعاتها ، ولذلك عقد عام ١٤٩٨ هو وإخوته اتفاقاً مع تجار أوجسبورج يقضى « بتضييق الخناق » على سوق البندقية فى النحاس ورفع السعر . وفى عام ١٤٨٨ أقرضت الأسرة ١٥٫٠٠٠ فلورين للأرشيدوق سجيسموند النمساوى . وتسلمت ضمانا للقرض كامل إنتاج مناجم الفضة فى شفارتز إلى أن يتم سداد القرض . وفى عام ١٤٩٢ اتفق آل فوجر مع آل تورزو من كراكا وعلى قيام اتحاد (كارتل) لاستغلال مناجم الفضة والنحاس فى هنغاريا وللحفاظ على « أعلى سعر ممكن » للمنتجات ، وما أن حل عام ١٥٠١ حتى كان آل فوجر يقومون بمشروعات واسعة التعدين فى ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبوهيميا وإسبانيا . وعلاوة على هذا فإنهم استوردوا المنسوجات وصنعوها وتاجروا فى الأقمشة الحريرية والقطيفة والفراء والتوابل وثمار الليمون والذخائر والمجوهرات ونظموا نقلا سريعا وخدمة بريدية خاصة ، وما أن حل عام ١٥١١ وأصبح جاكوب الثانى المدير الوحيد للمؤسسة حتى كانت أصولها قد وصلت إلى ١٩٦٫٧٩١ جيلدر . وفى عام ١٥٢٧ (بعد عامين من وفاته) قدر رأسمالها بمبلغ ٢٫٠٢١٫٢٠٢ جيلدر (٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار) — بواقع ربح سنوى قدره خمسون فى المائة خلال ستة عشر عاما .

ولقد حصل جانب من هذا الربح من علاقات آل فوجر بالأباطرة

والبابوات إذ قدم أولريخ فوجر قروضا لفردريك الثالث وأصبح جاكوب الثانى الوسيط الأول لماكسمليان الأول وشارل الخامس وقد تحقق امتداد سلطان آل هابسبورج فى القرن السادس عشر بفضل قروض آل فوجر وعلى الرغم من أن جاكوب لم يعبأ بتحديد الكنيسة للفوائد ومحاولات رجال الكنيسة أن يحددوا « ثمنا عادلا » لسلع المستهلكين فإنه ظل كاثوليكيا . وقدم القروض لرجال الدين للوفاء بنفقات ترقيتهم ، وحصل مع أولريخ (عام ١٤٩٤) على حق إدارة أموال البابا فى ألمانيا واسكنديناوة وبوهيميا وهنغاريا ، وكان جاكوب فوجر فى السنوات الأخيرة من عمره مواطنا مبجلا ومكروها فى ألمانيا ، وهاجمه بعض الكاثوليكين باعتباره مرابيا كما هاجمه بعض النبلاء بسبب رشوته لهم للظفر بمنصب أو نفوذ ، وبعض التجار لاحتكاراته التى أثارت حسدهم ، وسخط عليه كثير من العمال لإلغائه لوائح التجارة والمال فى العصور الوسطى ، ومعظم البروتستانت لتصديره الأموال الألمانية إلى البابوات . ولكن الأباطرة والملوك والأمراء والبطاركة بعثوا له بالرسل وخاطبوه كأنه أحد الحكام ورسم ديرر وبورجكمير وهولبين الكبير صورة شخصية له بدا فيها رجلا واقعيا بسيطا صارما ، وأنعم عليه ماكسمليان بلقب كونت الإمبراطورية ، وحاول جاكوب أن يكفر عما ارتكبه من خطايا لجمع ثروته ببناء ١٠٦ منزلا للفقراء من الكاثوليك بأوجسبرج[1] ، وأنشأ معبداً صغيرا فى كنيسة سانت أنا لتدفن فيه رفاته ومات بوسط جو مضمخ بالقداسة وخلف ملايين الجيلدرات ، ولم يعقب ذرية فقد حرمته الحياة أعظم عطاياها .

ويمكننا أن نقول إنه هو الوحيد الذى افتتح عصر الرأسمالية ونمو الاحتكارات الخاصة وسيطرة رجال الأعمال بأموالهم على السادة الإقطاعيين

(١) لا تزال هذه المستعمرة « فوجيراى » موجودة وهى تتقاضى اثنين وأربعين بفننيج (ستة وثمانين سلتا) من الأسرة كل عام .

الذين يملكون الأرض ، وكان التعدين وصناعة المنسوجات يرتكزان على أنظمة رأسمالية أى، يشرف عليهما من يقدمون رأس المال — فى نهاية القرن الخامس عشر ، على نسق زعامة الفلاندرز وإيطاليا فى صناعة المنسوجات قبل ذلك بمائة عام .

وكان الرأى السائد فى العصور الوسطى هو أن الملكية الفردية وديعة عامة إلى حد ما : فحقوق المالك تحددها احتياجات الجماعة التى أتاح نظامها له الفرص والتسهيلات والحماية . وربما فى ظل القانون الرومانى — وكان قد حجب وقتذاك الفقه الألمانى — بدأ المالك يرى أن ملكيته مطلقة وشعر بأن له الحق فى أن يفعل بملكه ما يشاء . ولذلك لم يبد من الخطأ لآل فوجر وآل هونخستيتر وغيرهم من « أمراء التجار » أن (يضيقوا الخناق » على إنتاج ثم يرفعوا سعره أو يكونوا اتحادات (كارتلات) لتحديد الناتج والتحكم فى التجارة أو أن يمارسوا الاستثمارات بحيث يغشون صغار حاملى الأسهم . وفى عديد من الأمثلة نجد تاجرا يضع وكلاءه على أبواب المدينة ومعهم أوامر بأن يشتروا كل البضائع الواردة من صنف معين حتى يبيعها بالسعر الذى يفرضه فى المدينة . وقد اشترى امبروز هونخستيتر كل ما أمكن الحصول عليه من الزئبق ثم رفع سعر بيع التجزئة بمقدار ٧٥ فى المائة . واشترت شركة ألمانية فلفلا من ملك البرتغال بمبلغ ٦٠٠ر٠٠٠ جيلدر بسعر يزيد على السعر العادى على شريطة أن يتقاضى الملك سعراً أعلى من كل مستوردى الفلفل من البرتغال إلى ألمانيا . وعن طريق هذه الاتفاقات والاحتكارات من ناحية ، وعن طريق تزايد الثروة وزيادة الطلب على البضائع من ناحية أخرى ، وعن طريق ارتفاع الوارد من المعادن النفيسة من أوروبا الوسطى وأمريكا ارتفعت الأسعار بين عامى ١٤٨٠ و ١٥٢٠ بسرعة لانظير لها إلا فى قرننا هذا : وقال لوثر شاكيا : « فى خلال زمن قصير وبسبب الربا والشح أصبح من كان فى وسعه سابقا

أن يعيش بمبلغ مائة جيلدر لايستطيع الآن أن يعيش بمبلغ مائتين » . وهى حكاية رويت أكثر من مرتين .

وقد شهدت العصور الوسطى تفاوتا شاسعاً فى السلطة السياسية ، وأضاف عصر آل فوجر الحديد تباينا اقتصاديا لم تعرفه أوروبا منذ عهد أصحاب الملايين والعبيد فى إمبراطورية روما ، فبعض التجار الرأسماليين فى أوجسبرج أو نورمبرج كان عنـد كل منهم ثروة تعادل ٥ ر٠٠٠ ر٠٠٠ فرنك (٠٠٠ ر٠٠٠ ر ٢٥ دولار ؟) واشترى الكثيرون مكانة بين الأرستقراطية صاحبة الأرض وارتدوا دروعا عليها شعارهم وعوضوا احتقار الأشراف « بإسراف مبالغ فيه » ، فقد كان جواكيم هوخستيتر وفرانزباو مجارتنر ينفقان ٥ر٠٠٠ فلورين (١٢٥ر٠٠٠ دولار ؟) على مأدبة واحدة أو يقامران فى لعبة واحدة بمبلغ ١٠ر٠٠٠ فلورين ، وقد أثارت بيوت رجال الأعمال الأغنياء الفاخرة الأثاث والزخارف الفنية استياء طبقة النبلاء ورجال الدين والدهماء على حد سواء ، وانضم الوعاظ والكتاب والثوريون فى ثورة عارمة ضد المحتكرين ، وطالب جايلر فون كايزرسبرج بأن « يطاردوا كالذئاب ما داموا لا يخشون الله ولا الناس وينشرون المجاعة والعطش والفقر » . وميز أولريخ فون هوتن أربعة طوائف من اللصوص : التجار وفقهاء القانون والقسس والفرسان ، ورأى أن التجار إنما هم أخطر هؤلاء اللصوص جميعا . « وطالب مجلس الريخستاج فى كولون كل السلطات المدنية بأن تتخذ الإجراءات » بحزم وشدة (ضد كل الشركات الرأسمالية التى تتوسل بالاحتكار والربا) . وتكرر صدور مثل هذه القوانين من مجالس نيابية أخرى ولكن بلا جدوى ، فقد كان بعض المشرعين أنفسهم يستثمرون أموالهم فى المحلات التجارية الكبرى ، وهدأت سورة غضب حماة القانون بمنحهم أسهما ، كما أن كثيراً من المدن ازدهرت بنمو التجارة الحرة .

كانت ستراسبورج وكولمار وميتز وأوجسبورج ونورمبرج وأولم وفيينا

وراتيسبون (رجنزبورج) وماينز وسبييار وفورمز وكولون وترير وبريمن ودورتموند وهامبورج وماجديبرج ولوبيك وبرسلاو مراكز نشاط اقتصادى مزدهرة بالصناعة والتجارة والآداب والفنون . وكانت هى وسبعة وسبعون مدينة أخرى « مدنا حرة » أى مدنا تسن قوانينها الخاصة وترسل ممثلين لها للمجالس النيابية الإقليمية والإمبراطورية ولا تخضع سياسياً إلا للإمبراطور ، وكان بدوره مدينا لها بالعون المالى أو العسكرى إلى حد لا يستطيع معه أن يقيد حرياتها ؛ وعلى الرغم من أن هذه المدن كانت تحكمها طوائف حرفية يسيطر عليها رجال الأعمال فإن كل واحدة منها تقريبا كانت بمثابة حكومة تستهدف الصالح العام . وطبقا للطريقة التى تراعى مصلحة الجماعة وذلك إلى الحد الذى كانت فيه تنظم الإنتاج والتوزيع والأجور والأسعار وصفة السلعة بقصد حماية الضعيف من القوى وتوفير احتياجات المعيشة للجميع . ونحن نطلق عليها الآن بلادا[1] لا مدنا طالما أن عدد السكان لم يتجاوز فى أى منها ٥٢٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت آهلة بالسكان كما كان الحال عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر وأكثر ازدهاراً من أى عهد قبل جرته ، وإينياس سيلفيوس وهو إيطالى مزهو بنفسه كتب عنها عام ١٤٥٨ يقول :

لم تكن ألمانيا أغنى ولا أشد تألقا منها قبل اليوم ... ويمكن أن يقال دون مبالغة أنه ليس فى أوروبا بلد تبزها أو تفوقها فى جمال مدنها فهى تبدو طالية جديدة كأنها شيدت بالأمس ولن تجد حرية زائدة مثل هذه فى أية مدن أخرى . .

ولا يمكن أن تجد مدينة فى أوربا أكثر فخامة من كولون بكنائسها العجيبة ومبنى البلدية فيها وأبراجها وقصورها ومواطنيها المبجلين من أوساط

---

(١) جمع بلدة لتمييزها عن المدينة .

الناس وجداولها العظيمة . . . كما أنه ليس ثمة مدينة فى العالم تبز أوجسبورج فى الثروة . وفى فينا قصور وكنائس تحسدها عليها حتى إيطاليا » .

ولم تكن أوجسبورج مركزا للمال فى ألمانيا فحسب بل كانت أيضاً الحلقة التجارية الرئيسية التى تربط بينها وبين إيطاليا المزدهرة آنذاك . وتجار أوجسبورج هم الذين كان لهم الفضل فى بناء وإدارة الفونداكوتيديسكو فى البندقية التى زين جدرانها جيورجيونى وتيتيان بصورهما الجصية ، وكانت أوجسبورج وثيقة الاتصال بإيطاليا حتى أنها رددت صدى النهضة الإيطالية ، وآزر تجارها الأدباء والفنانين وأصبح بعض الرأسماليين بها مثالا يحتذى فى السلوك والثقافة إن لم يكن فى الأخلاق . ومن ثم نجد أن كونراد بوليتنجر ، وهو مأمور أو عمدة فى سنة ١٤٩٣ ، كان دبلوماسياً وتاجرا وأديباً وفقيهاً وعالماً باللغتين اللاتينية واليونانية وأثريا ورجل أعمال .

وكانت نورمبرج مركزا للفنون والحرف اليدوية أكثر منها للصناعة أو المال على نطاق واسع ، وكانت طرقاتها لا تزال ملتوية حسب ما كان متبعا فى القرون الوسطى تظللها طبقات بارزة أو شرفات ، وأسقفها المغطاة بالقرميد الأحمر وجملوناتها العالية القمة ومشربياتها تكون صورة غير متناسقة فى مهادها الريفى وجدول بجنيتز الضخم . ولم يكن الناس بها فى بحبوحة من العيش كما هم فى أوجسبورج ولكنهم مبتهجون دمثو الخلق ويحبون اللهو والتبذل فى مهرجانات مثل الكرنفال الذى يشتركون فيه كل عام ويرتدون فيه الأقنعة وأزياء التنكر ويرقصون . وهناك أخذ هانز ساكس وكبار المغنين ينشدون ألحانهم المرحة ، وارتقى البرخت ديرر بالتصوير والحفر الألمانيين إلى ذروتهما ، وهناك قام صاغة الذهب والفضة شمال الألب بصنع زهريات غالية الثمن وأوعية للكنيسة وتماثيل صغيرة ، وهناك قام العاملون بالأشغال المدنية بتشكيل الف تكوين للنبات والحيوان

والإنسان من البرنز أو شكلوا الحديد فى سياجات أوستائر جميلة ، وهناك كان قاطعو الخشب من الكثرة إلى حد يجعلنا نعجب كيف تيسرت لهم سبل العيش . وأصبحت كنائس المدن مخازن ومتاحف للفن لأن كل طائفة حرفية أو نقابة أو أسرة ثرية كانت ترسل عملا فنيا جميلا إلى مزار قديس يحمى الزمار . واختار رجيومونتانوس مدينة نورمبرج موطنا له وقال : « لأنى أجد هناك دون صعوبة كل الأدوات الخاصة بعلم الفلك وإنه لأيسر لى هناك أن أظل على صلة بالمتعلمين فى كل البلاد لأن نورمبرج ، بفضل رحلات تجارها المستمرة يمكن أن تعد مركزا لأوروبا . ومن مميزات نورمبرج أن أشهر تجارها فيليبالد بيركهايمر كان أيضا عالما بالإنسانيات متحمسا وراعيا للفنون وصديقا حميما لديرر ، وقد أطلق ارازموس على بيركهايمر : « فخر ألمانيا العظيم » .

وعكرت صفو التجارة بين ألمانيا وإيطاليا رحلات داجاما وكولمبس وسيطرة الترك على بحر ايجة وحروب ماكسمليان مع البندقية ، فانتقلت الصادرات والواردات الألمانية شيئاً فشيئاً على طول الأنهار الكبيرة إلى بحر الشمال وبحر البلطيق والمحيط الأطلسى وانتقلت الثروة والسلطان من أوجسبورج ونورمبرج إلى كولون وهامبورج وبريمن وإلى أنتورب بصفة خاصة . وشجع آل فوجر وآل ويلز هـذا الاتجاه بأن جعلوا من أنتورب مركزا رئيسيا لعملياتهم . وأدت حركة المال والتجارة الألمانيين نحو الشمال إلى فصل شمال ألمانيا عن الاقتصاد الإيطالى ودعمت مركزها بحيث استطاعت حماية لوثر من الإمبراطور والبابا . ولعل جنوب ألمانيا ظل مخلصا للكاثولوكية لأسباب مغايرة .

٢ ـ الدولة

كيف كانت ألمانيا تحكم فى هذا العصر التشكيلى الحرج ؟

لقد كان الفرسان ، أو أبناء الطبقة النبيلة الدنيا ، الذين حكموا الريف بصفتهم أتباعا للسادة الإقطاعيين ، يفقدون مركزهم العسكرى والاقتصادى والسياسى . وكانت فرق الجنود المرتزقة الذين يستأجرهم الأمراء أو المدن ، والمجهزين بالأسلحة النارية والمدافع ، تبيد فرق الفرسان الذين كانوا يلوحون بالسيوف فى عجز وقصور ، وكانت الثروة التجارية ترفع الأسعار والنفقات وتتفوق على ملكية الأرض باعتبارها مصدرا للسلطان ، وكانت المدن توطد استقلالها والأمراء يركزون فى أيديهم السلطة والقانون . وثار الفرسان قليلا بالترصد للتجارة التى كانت تمر فى طريقهم ، وعندما احتج التجار والبلديات أكد الفرسان حقهم فى شن حروب خاصة . وقد وصف كومين ، ألمانيا فى هذا العهد بأنها تزخر بالقلاع التى يمكن فى أى وقت أن يتدفق منها « لصوص من البارونات » وأتباعهم المسلحون ، ويسلبون التاجر المسافر والفلاح على السواء . وجرت عادة بعض الفرسان أن يقطعوا الأيدى اليمنى لمن يسلبون من التجار . وعلى الرغم من أن جيتز فون برليخينجن فقد هو نفسه يده فى خدمة أميره ، فقد استبدل بها يدا حديدية ، وتزعم عصابات من الفرسان ، لا لمهاجمة التجار فحسب ، بل لمهاجمة المدن أيضاً ، « نومبرج ـ دارمستادت وميتز ومايتز (١٥١٢) . ووجه صديقه فرانز فون سيكنجن تهما ضد مدينة ورمس ونهب ضواحيها وقبض على أعضاء مجلس الشورى فيها وعذب عمدتها وقاوم كل المحاولات التى قامت بها الفرق الإمبراطورية للقبض عليه ولم يكن من المستطاع إخضاعه إلى حين إلا عندما تلقى منحة سنوية ليخدم الإمبراطور . وانضمت اثنتان وعشرون مدينة فى سوابيا ـ وبصفة خاصة أوجسبرج وأولم وفرايبورج وكونستانس إلى

الطبقة الرفيعة من النبلاء لإعادة تكوين عصبة سوابيا (١٤٨٨) وهذه المدن وغيرها من الاتحادات كبحت جماح الفرسان اللصوص ونجحت فى أن تعلن عدم شرعية الحرب الأهلية ، ومع ذلك فإن ألمانيا كانت قبيل عهد لوثر مسرحا للفوضى الاجتماعية والساسية ، فقد كان يسودها حكم شامل للقوة » .

وأسهم الأمراء الزمنيون ورجال الدين اللذين تصـــدروا القلاقل فيها بجشعهم وعملاتهم ورسوم جماركهم المختلفة وتنافسهم المضطرب على الثروة والنصب وتشويههم للقانون الرومانى ، وذلك لكى يمنحو أنفسهم سلطة مطلقة أو تكاد على حساب الشعب والفرسان والإمبرطور . وتصرفت بعض الأسر تصرف الملوك غير المسئولين من أمثال بيوت هوهنزولرن فى براندنبرج وفيتين فى ســاكسونيا وفيتلسباخر فى البلاتينات ودوقات فيرتتيمبرج ، فما بالك بآل هابسبرج فى النمسا . ولو كان سلطان الإمبراطور الكاثوليكى على الأمراء الألمان أعظم من هذا لفشلت حركة الإصلاح الدينى أو تأجلت. ثم إن إعراض كثير من الأمراء عن روما كان اتجاها آخر نحو الاستقلال المالى والسياسى .

وأكدت شخصية الأباطرة فى هذا العهد ضعف الحكومة المركزية . وكان فردريك الثالث (حكم من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٣) فلكيا وكيمائيا يغرم بهـــدوء حدائقه فى جراتز الذى يتطلع إليه البحاثة لدرجة أنه سمح لشلسوج هولشتين وبوهيميا والنمسا وهنغاريا بأن تنفصل عن الإمبراطورية ، ولكنه قام فى حوالى نهاية العام الثالث والخمسين من حكمه بخطوة لإنقاذها وذلك بخطبة مارى ، وريثة شارل الجسور دوق بورغنديا ، لابنه ماكسمليان . وعندما حفر شارل لنفسه قبرا ثلجيا عام ١٤٧٧ ورث آل هابسبورج الأراضى الواطئة :

وبدأ ماكسمليان الأول (حكم من١٤٩٣ إلى١٥١٩) الإمبراطور المنتخب

والذى لم يتوج قط ، حكمه بكل ما يبشر بالنجاح . وابتهجت الإمبراطورية كلها لملامحه الجميلة وأخلاقه الطيبة ورقة مشاعره الوديعة وبشاشته الجياشة، وكرمه وشهامته وشجاعته ومهارته فى المبارزة والصيد ، وكأنه إيطالى من عصر النهضة ارتقى عرشاً ألمانيا . بل إن ماكيافيلى تأثر به ووصفه بأنه « أمير عاقل زكى يخشى الله ، وحاكم عادل ، وقائد عظيم ، يقتحم الأخطار ويتحمل المشقة كأصلب الجنود عودا . . . نموذج يحتذى لكثير من الفضائل الخلقية بأمير » .. ولكن « ماكس » لم يكن قائدا عظيما ،وكان يفتقر إلى الذكاء الخبيث المطلوب من أمير فى نظر ماكيافيلى كان يحلم باستعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسترداد ممتلكاتها . السابقة ونفوذها فى إيطاليا فغزا شبه الجزيرة مرارا وتكرارا فى حروب لا طائل تحتها ، رفض مجلس الدايت ، وكان فى هذا عمليا ، أن يمولها . وسمح لنفسه بالتفكير فى خلع يوليوس الثانى القوى وتنصيب نفسه بابا وإمبراطورا فى الوقت نفسه . وقد برر (مثل زميله المعاصر شارل الثامن ملك فرنسا) مطامعه الإقليمية بأنها تمهيد ضرورى لهجوم ساحق على الأتراك ، ولكنه عجز عن وضع خطة مدعمة من الناحيتين الدستورية والمالية . وكان لا يستطيع أن يحقق بالوسائل كما يتمنى الغايات ، وكان فى بعض الأوقات فقيرا إلى الحد الذى كان يعوزه المال لسداد ثمن عشائه . وسعى لإصلاح الإدارة فى الإمبراطورية ولكنه انتهك إصلاحاته ذاتها فماتت معه . وكان يفكر كثيرا فى مدى سلطة آل هابسبورج وبعد أن لاقى أكثر من فشل فى الحرب عاد إلى سياسة والده القائمة على الزيجات الدبلوماسية . وعلى هذا فإنه قبل عرض فرديناند بخطبة جوانا إلى ابنه فيليب وكانت ضعيفة العقل إلى حد ما ولكنها قدمت إسبانيا دولة صداقا لها . وفى عام ١٥١٥ خطب لحفيدته مارى وحفيده فرديناند ، للويس وأن ابن وابنة لاديسلاس ملك بوهيميا وهنغاريا ، وقتل لويس فى موهاكس (١٥٢٦) وأصبح فرديناند ملكا على بوهيميا وهنغاريا (بقدر ما سمح الأتراك) وبلغ سلطان آل هابسبرج أوسع مداه .

وكانت أحب سمات ماكسمليان عشقه وتشجيعه للموسيقى والتعليم والأدب والفن . وأكب فى حماس على دراسة التاريخ والرياضيات واللغات . ولقد ثبت لنا أنه كان فى وسعه أن يتحدث بالألمانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والوالونية والفلندية والإنجليزية ، ويقال إنه تحدث فى حملة حربية واحدة مع سبع قواد أجانب بلغاتهم السبعة المختلفة . ومزج لهجات جنوب وشمال ألمانيا فى لغة ألمانية يفهمها الجميع وهى التى أصبحت لغة الحكومة الألمانية وكتاب لوثر المقدس والأدب الألمانى ، وذلك بفضل جهوده والاقتداء به إلى حد ما . وحاول ، وهو بنجوة من الحروب ،أن يكون مؤلفاً، وترك مصنفات عن فن الدروع والمدفعية والعمارة والصيد وسيرته الخاصة ، وفكر فى اقتناء مجموعة تستوعب مخلفات ونقوشاً من ماضى ألمانيا ولكن أعوزته الأموال من جديد . واقترح على البابوات إصلاح التقويم ، وقد حققوا فكرته بعد ثمانين عاما . وأعاد تنظيم جامعة فينا وأسس كراسى أستاذية جديدة للقانون والرياضيات والشعر والبلاغة ، وجعل من فيينا أزهر مركز للتعليم فى أوروبا لفترة ما . ودعا علماء الإنسانيات الإيطاليين إلى فينا ، وعهد إلى كونرادوس سلتس أن يفتح هناك أكاديمية للشعر والرياضيات . وناصر علماء للإنسانيات مثل بويتنجر وبيركهايمر وجعل من روتخلين Reuchlin المضطهد كونت بالاتاين الإمبراطورى . ومنح مكافآت لبيتر فيشر وفايت ستوس وبورجكمير وديرر والفنانين الآخرين الذين تألقوا فى عهده . وأمر بإقامة قبر مزخرف فى انزبروك ليضم رفاته ، وقد ترك دون أن يتم بناؤه عند وفاته ولكنه أتاح فرصة لتماثيل بيتر فيشر الجميلة لتيودوريك وأرثر . ولو كان ماكسمليان عظيما بقدر عظمة أفكاره لكان ندا للإسكندر وشارلمان .

وفى آخر سنة من حكم الإمبراطور رسم ديرر صورة أمينة له — تمثله منهوك القوى وقد انزاحت عنه الأوهام ، وكسر شوكته بؤس الزمن المثير للجنون . وقال هذا الرجل الذى كان يوماً روحاً مرحة « ليس فى الأرض

مسرة لى . وا أسفاه على أرض ألمانيا السكينة » ولكنه بالغ فى الحديث عن فشله ، فقد ترك ألمانيا والإمبراطورية (ولو لم يكن هذا إلا عن طريق التنمية الاقتصادية) أقوى مما وجدهما عليه إذ ارتفع عدد السكان وانتشر التعليم وبدأت فيينا تصبح فلورنسا أخرى . وسرعان ما صار حفيده ، الذى ورث نصف أوروبا الغربية ، أقوى حاكم فى العالم المسيحى .

٣ – الألمــان (١٣٠٠ – ١٥١٧)

ربما كانوا إبان ذلك العهد أصح الشعوب أبداناً وأقواهم جسداً وأشدهم حيوية فى أوروبا، فإنهم ، كما نراهم فى لوحات فولجيموت وديرر وفى صور كراناخ وهولبين ، أناس أقوياء البنية غلاظ الأعناق كبيرو الرؤوس ، لهم قلوب الأسود ، على تمام الأهبة لالتهام العالم ، واستساغته بشراب الجعة . كانوا أجلافا ولكنهم ظراف تخفف من ورعهم نزواتهم الشهوانية . وكان فى وسعهم أن يكونوا غلاظ الأكباد كما تدل على ذلك أدوات التعذيب المروعة التى اعتادوا استخدامها مع المجرمين ؛ ولكنهم مع ذلك كانوا رحماء كرماء قلما عرضوا تزمتهم الدينى بوسائل بدنية ، إذ لقيت محاكم التفتيش فى ألمانيا مقاومة باسلة وكان نصيبها القمع عادة . لقد جبل الألمان بنفوسهم القوية على المرح الذى يتسم بإدمان الشراب أكثر مما يتسم بالفطنة الجافية ، ولقد أدى هذا كله إلى تبلد حسهم بالمنطق والجمال وحرمهم من ظرف العقلية الفرنسية أو الإيطالية ودهائها وتعثرت نهضتهم الهزيلة فى غمرة حماستهم الزائدة لتفسير الكتاب المقدس ومع ذلك فقد كان عندهم إصرار ثابت وصناعة منظمة وشجاعة فائقة فى الفكر الألمانى مكنتهم من كسر شوكة سلطان روما وأتاحت لهم فرصة أن يصبحوا أعظم علماء فى التاريخ . وهم شعب نظيف بالقياس إلى غيرهم من الأمم فالاستحمام عادة وطنية . وكل بيت حسن التنسيق فيه حمام حتى فى المناطق الريفية . والحمامات العامة العديدة توفر أكثر من حمام

إذ يستطيع الرجال هناك أن يحلقوا ذقونهم وتستطيع النساء أن يصففن شعورهن كما كانت، توفر فيها ضروب مختلفة من التدليك وكان يسمح فيها بالشرب والمقامرة ويمكن أن يجد فيها كل من يضيق ذرعا بالزوجة الواحدة خلاصاً . وكان الناس من الجنسين يستحمون عادة معاً وهم يرتدون ملابس محتشمة وإن لم تكن هناك قوانين تحرم المغازلة ، ولقد قال أحد الدارسين الإيطاليين بعد أن زار بادن — بادن عام ١٤١٧ : « ليست هناك فى العالم حمامات أكثر ملاءمة من هذه لإنجاب النساء » .

ولا يمكن أن يتهم الألمان إبان ذلك العهد بأنهم من أنصار مذهب التطهر إذ كان حديثهم ورسائلهم وأدبهم ومرحهم تتسم أحيانا بالجفاء إذا قيست بمعايير عصرنا، ولكن هذا يتفق مع قوة أبدانهم وأرواحهم، فهم من جميع الأعمار يشربون ويفرطون فى ممارسة الجنس إبان شبابهم . وكانت مدينة ارفورت عام ١٥٠١ فى نظرلوثر الورع لا تفضل ماخوراً أومشربا للجعة . ولقد وافق الحكام الألمان — من رجال الدين ومن العلمانيين على السواء على رأى سانت أوجستين والقديس توما الأكوينى بأنه يجب أن يسمح بالبغاء إذا كانت النساء بمنأى عن الإغراء أو الاغتصاب . وكانت بيوت البغاء تحصل على ترخيص وتفرض عليها ضريبة . وإنا لنقرأ عن أساقفة ستراسبورج ومايتز الذين كانوا يحصلون على دخول من المواخير بل إن أسقف فيرتسبورج أعطى ماخوراً تابعاً للبلدية إلى جراف فون هيننبرج باعتباره إقطاعية تدر دخلا . وكانت الضيافة لكبار الزوار تشمل وضع بيوت للسيدات تحت تصرفهم ، وقد كرم الملك سيجموند بهذا الامتياز فى برن (١٤١٤) وفى أولم (١٤٣٤) بإخلاص أرضاه كل الرضا حتى أنه شكر مضيفه علنا من أجله ، والنسوة غير المرخصات كن ينشئن أحياناً بيوتاً غير قانونية، وفى عام ١٤٩٢ شكت البغايا المرخصات للعمدة من هذه المنافسة غير العادلة فحصلن عام ١٥٠٨ على إذن بمهاجمة البيوت غير القانونية وقمن

بذلك فعلا ، وكان التردد على بغى يقابل بالصفح باعتباره خطيئة مغتفرة ، وإن كانت طبيعية ، وذلك فى نظر القانون الأخلاقى السارى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، ولعل انتشار الزهرى بعد عام ١٤٩٢ جعل منه وباء فتاكا .

وكان الزواج اتحادا بين الملكيات كما هو الشأن فى كل مكان آخر والحب يعد نتيجة طبيعية للزواج لا سبباً معقولا له . وكانت الخطبة ملزمة كالزواج والزفاف يتم فى حفـلات مترفة بين جميع الطبقات . وربما استمرت الاحتفالات أسبوعاً أو اثنين وكان شراء الزوج يكلف غاليا كالاحتفاظ بالزوجة . وكان للذكر نظرياً سلطة مطلقة ولكنها كانت أكثر واقعية فى الأفعال منها فى الكلام . ونلاحظ أن السيدة ديرر كان لديها كلام كثير تقوله لزوجها . وقد كانت نساء نورمبرج من الجرأة بحيث اجتذبن الإمبراطور ماكسمليان وهو نصف عار من الفراش وألقين غطاء حول جسمه ثم استقنه فى رقصة ليلية مرحة إلى الشارع .

وتذهب أسطورة قديمة إلى أن بعض الرجال من الطبقات العليا فى القرن الرابع عشر بألمانيا كانوا يضعون حزاماً للعفة « من الحديد حول وسط زوجاتهم وأفخاذهن ويغلقونه بقفل ويأخذون معهم المفتاح وذلك عند ما يسافرون فى رحلات يغيبون فيها طويلا عن الوطن . وثمة آثار لهذه العادة فى البندقية بالعصور الوسطى فى فرنسا وفى القرن السادس عشر وإن كانت الزوجة أو العشيقة تلبس الحزام طواعية وتعطى المفتاح للزوج أو العشيق ضمانا لإخلاصها للزوج أو العشيق .

وازدهرت حياة الأسرة . ويحصى سجل تاريخى بارفوت ثمانية أو عشرة أولاد لكل زوجين فى المعدل ولم تكن الأسرة التى تضم خمسة عشر ولدا بالنادرة ، وهذه الأعداد تشمل أبناء السفاح لأن الأطفال غير الشرعيين ، الذين كثروا كانوا يؤخذون عادة إلى بيت الوالد بعد زواجه . وشاع استخدام الألقاب فى القرن الخامس عشر وكثيراً ما أشارت

إلى مهنة السلف أو إلى موطنه الأصلى وإن كانت بين آن وآخر تجمد دعابة لحظة فى صراحة الزمن . وكان يراعى الضبط والحزم فى البيت وفى المدرسه ، بل ان ماكس الذى صار امبراطورا فيما بعد كثيراً ما تلقى الصفعات ، ويبدو أن هذا لم يسبب ضررا إلا للأب أو المدرس . وكانت البيوت الألمانية وقتذاك (١٥٠٠ م) أكثر البيوت راحة فى أوربا إذ كانت درجاتها متسعة ولها درابزين متين وفيها أثاث ضخم ومقاعد وثيرة وخزائن منحوتة ونوافذها من الزجاج الملون وأسرة لها كلة وجدرانها مطنفسة وأرضيتها مكسوة بالسجاد وفيها مواقد منبعجة ورفوف تزخر بكتب أو أزهار أو آلات موسيقية أو عليها طبق فضى ومطابخ تتألق بكل الأوعية الصالحة لإقامة مأدبة ألمانية .

وشيدت البيوت من الخارج فى معظمها من الخشب ، وكثيراً ما شبت فيها الحرائق ، وكانت الطنف المتدلية والشرفات تظلل الطرقات ، ولم يكن فى المدن الكبيرة إلا قليل من الطرقات المرصوفة ، ولم تعرف إنارة الشوارع إلا فى ليالى الأعياد وكانت الحياة خارج البيوت غير مأمونة بالليل . وكان صغار المجرمين ينافسون فى الكثرة الخنازير والبقر التى كانت تهيم فى الطريق على غير هدى . ولم تكن هناك شرطة نظاميون، وكانت توقع عقوبات صارمة لردع الجريمة فقد كانت عقوبة السرقة الموت أو قطع الأذنين فى حالة السرقة الخفيفة . وكانت تقطع ألسنة الكفار والمجدفين أما المنفيون الذين يعودون إلى نومبرج دون مبرر شرعى فكانت تسمل عيونهم . وكانت النساء اللاتى يقتلن أزواجهن يدفن أحياء أو يعذبن بملاقط تسخن إلى درجة الاحمرار ثم يشنقن . ومن بين آلات التعذيب التى عرضت فيما مضى فى شلوس أو قلعة نورمبرج صناديق ممتلئة بأحجار مدببة يسحق بها جسد الضحية وتروس تمد بها أطرافها ومواقد لحرق كعوب أقدامها وإطارات مدببة من الحديد لتثنيها من الجلوس أو الاستلقاء أو النوم ثم العذراء

الحديدية الملعونة التى كانت تستقبل المحكوم عليه بذراعين من الصلب وتحيطه بهما فى حضن شائك ثم ترخى ذراعيها وتدعه يسقط دامى الجسد من أثر اختراق المسامير محطم العظام ليموت موتا بطيئا فى جب تدار فيه مدى وقضبان مدببة .

وساوت الأخلاق السياسية الأخلاق العامة فى انحلالها ·فتفشت الرشوة وبلغت أقصاها فى قمة الكيان الاجتماعى ، وشاع الغش فى السلع وذلك على الرغم من دفن رجلين وهما على قيد الحياة فى نورمبرج لغشهما النبيـذ (١٤٥٦) ، وكانت التجارة — التضحية بالأخلاق فى سبيل المال — قوية فى جميع الأعمار ، فالمال لا الإنسان هو مقياس كل شىء ، ومع ذلك فإن هؤلاء الأوساط المتزاحمين المتدافعين من المواطنين تبرعوا بمبالغ كبيرة على سبيل الإحسان . وكتب لوثر : « فى العهود البابوية كان الناس يتبرعون بكلتا اليدين فى جذل وبولاء عظيم . كانت السماء تمطر صدقات وإنشاءات وهبات . كان أجدادنا من السادة والملوك ومن الأمراء وغيرهم من الشعب ، يتبرعون بسخاء ، أجل ، إلى درجة تغمر كل شىء ، للكنائس والأبرشيات والمنح الدراسية والمستشفيات ، ومن دلالات هذا العهد الدنيوى أن كثيراً من تركات المحسنين أوقفت » لا على الهيئات الدينية فحسب » ولكن على مجالس المدن لتوزيعها على الفقراء .

وأصبحت الاخلاق أشد جفاء فى فرنسا وإنجلترا وفى ألمانيا أيضا عند ما خلفت حكومة السراة بالمال حكومة الأرستقراطية بالميلاد فى السيطرة على الاقتصاد . وكان السكر رذيلة وطنية وقد ندد به كل من لوثر وهوتن على الرغم من أن هوتن فضله على « مخاتلة الإيطاليين وسرقة الأسبان وزهو الفرنسيين » ولعل بعض الانغماس فى الشراب يرجع إلى التوابل الحريفة التى استخدمت فى إعداد وجبات الطعام . ولقـــد أعوز

التهذيب آداب المائدة ووصلت « الشوك » إلى ألمانيا فى القرن الرابع عشر ومع ذلك فقد آثر الرجال والنساء أن يستخدموا أصابعهم فى تناول الطعام . بل ان واعظا فى القرن السادس عشر أدان « الشوك » باعتبارها مخالفة لإرادة الله « الذى لو كان يريد منا أن نستخدم الشوك لما منحنا أصابع » .

وكان اللباس فخما ، أما العمال فكانوا يكتفون بارتداء قلنسوة أوقبعة من اللباد وقمصان قصيرة وسراويل متداخلة — أو تحشر فى أحذية طويلة الرقبة ، وكانت الطبقات الوسطى تضيف إلى هذه الملابس صديرية وسترة مفتوحة مبطنة أو تزين حوافها بالفراء . وكان ذوو الأنساب يدخلون فى منافسة محمومة مع جامعى الجلدرات فى روعة ثيابهم . وكانت قبعات الرجال عند هاتين الطبقتين عبارة عن لفائف معقدة متسعة من القماش الثمين تزين حافاتها أحيانا بالريش أو الشرائط أو اللآلئ أو الذهب ، أما القمصان فكانت من الحرير غالبا ، كما كانت الأثواب الخارجية الزاهية تبطن بالفراء وربما تخللتها خيوط من الفضة . وكانت الثريات من النساء يضعن على رؤوسهن تيجانا من الذهب أو قلانس مطرزة بالذهب ويضفرن شعورهن بخيط ذهبى ، وأما العذارى الخفيرات فكن يغطين رؤوسهن بمناديل من الموسلين يربطنها تحت الذقن .

وقد زعم جايلر فون كايزرسبرج أن النساء الأنيقات كن يمتلكن خزائن للملابس تقدر بنحو ٤٠٠٠ فلورين (١٠٠ر٠٠٠ دولار ؟) وكان الرجال يحلقون ذقونهم ويعنون بشعر رؤوسهم ويعنون بتعهد ضفائرهم . لاحظ خصلات شعر ديرر التى كانت موضع اعتزازه وخصائل شعر ماكسمليان الجميلة . واتخذت الخواتم شعارا على الطبقة الاجتماعية أو للتخييل بالانتماء إليها كما هو الحال الآن ، وقد قال كونرادوس سيلتس ان الأزياء تغيرت فى ألمانيا بسرعة أكبر منها فى أى مكان آخر ، وحدث هذا كثيراً

فى أزياء الرجاء وفى أزياء النساء . وربما فاق الرجال النساء فى فخامة الزى فى مناسبات الأعياد .

وكانت المهرجانات متعددة وهى استمرار لروح القرون الوسطى المولعة بالتظاهر وعرض المرح مع تأجيل العمل والتحلل من الوصايا العشر . وكان عيد الميلاد لا يزال يتسم بالمسيحية على الرغم ممـــا صاحبه من الآثار الوثنية . وأما شجرة عيد الميلاد فإنها ابتدعت فى القرن السابع عشر .

وكانت كل مدينة تحتفل بمهرجان أو عيد لقديسها الحامى لها وكان الرجال والنساء يرقصون معا فى الشوارع ويسود المرح الجميع وكأنه أمر محتوم ، ولا يمكن لأى قديس أو واعظ أن يقلل من بهجة العربدة العنيفة . وكان الرقص يتحول أحيانا إلى جنون وبائى كما حدث فى متيز وكولونيا واكس عام ١٣٧٤ أو فى ستراسبورج عام ١٤١٢ . كان بعض من يعانون من رقصة سانت فيتوس فى بعض هذه الحالات يلتمسون الشفاء من كانوا يعتقدون أنه مس شيطانى وذلك بالرقص حتى يسقطوا من الإعياء كما يفعل بعض الشبان المتهوسين اليوم . ووجد الرجال متنفسا لغرائزهم فى الصيد والقنص أو فى ممارسة رياضة المبارزة القاتلة . وكان آلاف الرجال والنساء يسافرون متذرعين غالبا بحجة التردد على مزار وينتقلون فى ابتهاج أليم على صهوة الجياد أو على ظهور البغال أو فى عربات أو على مقاعد تحمل على الأكتاف ويتحملون مشاق الطرق غير الممهدة والخانات القذرة . وكان بعض الأشخاص المرهفى الحس يسافرون كلما أمكنهم ذلك ، بالقارب على صفحة نهر الراين ونهر الدانوب أو على غيرهما من مجارى الماء فى وسط أرروبا . وما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت هناك خدمة بريدية متاحة للجميع تربط المدن الكبرى .

والكل معا فى الصورة رحل واحد من شعب قوى ناشط سعيد

لا يرضى بعد ذلك أن يرسف فى أغلال الإقطاع أو ظلم روما . وقد غلب بالاعتزاز بالقومية الألمانية كل انقسام سياسى ، وكبح جماح الأباطرة الذين رأوا أنفسهم فوق الوطن ، والبابوات الذين اعتقدوا أنهم فوق الطبيعة ، وهكذا قدر للإصلاح الدينى أن ينتصر على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعلى البابوية أيضا . وفى عام ١٥٠٠ نشبت الحرب بين التيوتون والرومان وكان النصر مرة أخرى حليف ألمانيا كما حدث فى القرن الخامس من قبل .

٤ — نضج الفن الألمانى

وقدوم هذا العهد الجديد إنما يتجلى مظاهره فى الفن . وربما كان من العسير علينا أن نصدق هذه الحقيقة . ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن الطلب كان يتزايد على الفنانين الألمان فى أوربا بسبب تفوقهم فى كل فن حرفى ، فى أشغال الخشب والحديد والنحاس والبرونز والفضة والذهب والحفر والتصوير والنحت والعمارة ، وذلك فى أوج عصر النهضة الإيطالية من مولد ليوناردو (١٤٥٢) إلى وفاة رافاييل (١٥٢٠) . ولعل فيليبج فابرى الأولمى قد كتب عام ١٤٨٤ بدافع الوطنية أكثر منه بدافع عــدم التحيز وها هو يقول : « عندما يريد أى امرئ أن يحصل على قطعة مصنعة من الدرجة الأولى من البرونز أو الحجر أو الخشب فإنه إنما يستخدم حرفياً ألمانيا . لقــد رأيت صانعى مجوهرات وصاغة وقاطعى أحجار وصانعى عربات من الألمان وهم ينتجون آثارا رائعة بين الغزاة المسلمين بل إنهم فاقوا اليونان وبزوا الإيطاليين فى الفن . وبعد نحو خمسين عاما اكتشف إيطالى آخر أن هذا لا يزال صحيحاً فقد كتب باولو جيوفو : « إن الألمان يكتسحون أمامهم كل شىء فى الفن ولا يسعنا نحن الإيطاليين الخاملين إلا أن نبعث لألمانيا فى طلب عمال مهرة » . واشتغل المهندسون المعماريون الألمان لحساب

فلورنسا وأسيسي وأورفييقو وسيينا وبرشلونة وبورجوس واستدعاهم ذوو الشأن لإتمام « القبة » فى كاتدرائية ميلان . وقد خلب فايت ستوس ألباب الأهلين فى مدينة كراكاو ، وحظى ديرر بتكريم البندقية ، واكتسح هولبين الصغير انجلترا .

وبلغت العمارة الكنسية أوجها فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر . ومع ذلك فإن أبناء جيل واحد من المواطنين فى ميونخ شيدوا على الطراز القوطى الأخير ، كنيسة سيدتنا وقاعة المدينة القديمة « أولدتاون » . وفى العقدين الأولين من القرن السادس عشر أتمت فرايبورج فى ساكسونيا (منصة جوقة الترتيل) وشيدت أوجسبرج بيعة آل فوجر ، وانتهت كاتدرائية ستراسبورج من بناء بيعة لورانس ، وأضيفت مشربية جميلة إلى مقر كاهن الأبرشية فى كنيسة سيبالدوسكيرس فى نورمبرج . وفى مجال عمارة البيوت فى هذا العهد شيدت أكواخ جذابة بأسقفها من القرميد الأحمر ، وطبقاتها العليا مصنوعة من الخشب ، وشرفاتها تجملها الأزهار وطنف رحبة تحمى النوافذ من الشمس أو الجليد . وهكذا واجه الألمان ، بما عرف عنهم من إقدام ، ارتفاع جبال الألب البافارية فى مناخ ميتنفالد الصعب بجمال بيوتهم البسيط الحبيب .

وكان النحت من أمجاد هذا العصر . فازداد عدد صغار النحاتين ، وكان من الممكن أن يلمعوا ويصبحوا نجوماً كبيرة لو قدر لهم أن يكونوا فى مجرة أقل إشراقاً : نيكولاوس جيرهارت وسيمون لاينبرجر وتيلمان ريمنشنيدر وهانز باكوفن ، وها هى نورمبرج وحدها تنجب فى جيل واحد ثالوثا من الأساتذة لا يكاد يبزهم أحد فى عهد مماثل بأية مدينة فى إيطاليا . ولا شك أن حياة فايت ستوس تصلح أن تكون قصة مدينتين ؛ فقد تربى فى نورمبرج ، وحاز قصب الشهرة كمهندس وبان للجسور ومعمارى وحفار ونحات ومصور ، وعند ما بلغ الثلاثين من عمره ذهب إلى كراكاو وقام هناك بأحسن أعمال على الطراز القوطى الأخير المشع الذى عبر به عن ورع البولنديين وقابليتهم

للإثارة فى الوقت نفسه . وعاد إلى نورمبرج (١٤٩٦) ومعه ما يكفى من الأموال لشراء بيت جديد ولعقد قرانه على زوجة ثانية ، وقد أنجبت منه خمسة أطفال أضافتهم إلى أولاده الثمانية من زوجته السابقة . . . واعتقل فيت وهو فى أوج مجده لأنه شارك ، وربما كان هذا عن غير قصد ، فى عملية تزييف ، ودمغ بإحراق خديه معا وحرم عليـــه أن يغادر نورمبرج مرة أخرى ، غير أن الإمبراطور ماكسمليان عفا عنه وأعاد له حقوقه المدنية (١٥٠٦) ومع ذلك فإن ستوس ظل منبوذاً من المجتمع إلى أن انتهت حياته الطويلة المؤلمة . وفى عام ١٥١٧ حفر مجموعة كبيرة من الأعمال تمثل بشارة التحية الملائكية ، وأحاط تمثالين — يعدان من أعظم أعمال النحت الخشبى وأقربها إلى الكمال — بإكليل من الورود وأحاط هذا بسبحة ألحق بها سبع رصيعات كبيرة تصور أفراح العذراء وتويج الجميع ، وهى كلها من خشب شجر الزيزفون ، برسم غير جذاب للرب لورنز . وهو لا يزال يتدلى منها كأثر نفيس من مخلفات الأيام السعيدة فى المدينة الكبيرة . وحفر ستوس لكنيسة سيبالدسكريش صليباً من الخشب لا يضارعه أبداً صليب آخر من نوعه (١٥٢٠) . وفى هذا العام حصل له ابنه أندرياس ، بصفته رئيس دير رهبان الكارميليت بنورمبرج ، على أتعاب مقابل تصميم مذبح لكنيسة فى بامبرج . وبينما كان الفنان منهمكاً فى هذا العمل استولى أنصار الإصلاح الدينى على نورمبرج واستبدل بأندرياس راهب آخر لأنه ظل كاثوليكيا . وتشبث فيت نفسه بالعقيدة النيرة التى استلهمها فى فنه . وتوقف دفع أتعابه عن عملية المذبح وظل العمل ناقصاً . وأمضى ستوس السنوات العشرة الأخيرة من حياته كفيفاً يعتزل الناس وهو كظيم . فقد ماتت قبله زوجتاه وهجره أولاده ، ونبذه الناس فى عصر استغرقتهم فيه دراسة اللاهوت ، ولم يدركوا أنهم إنما كانوا يفقدون عام ١٥٣٣ أعظم حفار على الخشب فى التاريخ وهو فى الثالثة والتسعين .

وعاش فى نفس المدينة وفى هذا العهد فنان فى اشغال البرونز مبرز أيضاً فى أسلوبه وإن كان قد عاش حياة هادئة هانئة . وقد صور بيتر فيشر الأكبر نفسه فى كوة بجدار ، وتعد هذه الصورة من أشهر إنتاجه ، ونراه بها عاملا بسيطاً جادا قصير القامة مكتنز الجسم ، ذا لحية كاملة يرتدى مئزراً جلدياً حول وسطه ويمسك بيديه مطرقة وأزميلا . وقد كرس هو وخمسة من أبنائه أحد عشر عاماً (١٥٠٨ — ١٥١٩) لإتمام رائعتهم مقبرة زيبالد ، القديس الحامى لنورمبرج . وتكلف المشروع كثيراً ونفذت الأموال المخصصة له ، ومع ذلك لم يتم إنجاز العمل . وعندئذ حث أنتون توخر المواطنين على الاكتتاب فى مبلغ ٨٠٠ جيلدر (٢٠٠٠٠ر٢٠دولار ٢) كان يحتاجه للمشروع . وهذه الرائعة لا تثير الإعجاب لأول نظرة . ويبدو أنها لا تضارع هيكل أوركانيا فى فلورنسا (١٣٤٨) ، ثم إن الحلزونات والدلفينات ، التى يرتكز على ظهورها البناء . ليست على الأرجح حاملات لمثل هذا الثقل الهائل ، إلا أن فحصها عن قرب يكشف عن كمال مذهل فى أجزاء البناء . والتابوت الرئيسى المصنوع من الفضة مزين بأربع رسوم بارزة تمثل معجزات القديس . . وترتفع حوله الأعمدة البرونزية لظلة من الطراز القوطى ، عليها نقش دقيق من زخارف عصر النهضة ، وتتصل من أعلى بعقد معدنى جميل على الأعمدة ، حول القاعدة ، وفى الطنف ، وفى كوات الظلات العليا صور الفنانون سكانا حقيقيين من الوثنيين ، وتماثيل لعبريين أو مسيحيين — تريتونات (آلهة البحر) وقنطروسات ونيريدات (حوريات البحر) ، وسيرانات وموزيات والفاونات وهرقل وتيزيوس وشمشون والأنبياء وعيسى والرسل وملائكة يعزفون ألحاناً أو يلهون مع أسود أو كلاب ، وبعض هذه التماثيل لا يزال فى صورة بدائية ، وكثير منها تم نحته بدقة دوناتيلو أو غيبرتى ، وهى كلها تسهم بوضوح فى إدراك متنوع للحياة . وتضارع

تماثيل بطرس وبولس ومتى ويوحنا لوحة (الرسل الأربعة) التى صورها ديرر بعد سبع سنوات فى نورمبرج نفسها .

ويقال إنه لم يأت إلى نورمبرج فى هذه العقود الأولى من القرن السادس عشر أمير أو حاكم إلا وزار مسبك بيتر فيشر . وقد ألح الكثيرون فى طلب أعماله الفنية . وعرض عدد كبير من الكنائس أعماله من الشمعدان النحاسى الكبير فى كنيسة لونز وقبر ماكسمليان الأول فى أنزبروك . وحذا أولاده الخمسة حذوه فى النحت وإن كان اثنان منهم قد وافتهما المنية قبله . ومعروف أن هرمان فيشر الأصغر الذى مات فى الحادية والثلاثين من عمره (١٥١٧) قد سبك زخرفاً بارزاً جميلا من البرونز لمقـبرة الكردينال كازيمير فى كاتدرائية كراكاو .

وكما تفوق آل فيشر فى أشغال البرونز وفيت ستوس فى أعمال الخشب فإن آدم كرافت بز كل معاصريه فى النحت على الحجر . وقد صـوره المؤرخون الألمان هو وبيتر فيشر الأكبر وسباستيان ليندنباست (الذى صمم تماثيل الأمراء المتملقين على ساعة كنيسة العذراء) فى صورة فنانين وأصدقاء أوفياء ، « كانوا مثل الإخوة . كانوا يلتقون كل يوم جمعة ، حتى عندما بلغوا من الكبر عتياً ، ويدرسون معاً كأنهم صبية يتمرنون حسبما تدل عليه التصميمات التى نفذوها فى اجتماعاتهم . ثم كانوا يفترقون وقد ألهاهم العمل عن تناول الطعام أو الشراب » . ولعل آدم ولد فى نفس العام الذى ولد فيه بيتر (١٤٦٠ ؟) وكان مثله فى البساطة والأمانة والورع والشغف برسم صورته الشخصية . ونحت عام ١٤٩٢ لكنيسة زيبالدوس مقبرة لزيبالدوس شرييار عليها نقوش بارزة تمثل آلام المسيح عند الصلب والبعث وأعجب هانز رامهوف ، وهو تاجر ثرى بهذه البراعة فعهد إلى كرافت أن يصمم كأساً يحمل خبز ونبيذ القربان المقدس فى كنيسة لورنتس

وقام آدم بصنع بيت القربان المقدس على هيئة هيكل رشيق عال من الطراز القوطى الأخير ويعد معجزة فى الصياغة الدقيقة للحجر يرتفع طبقة بعد طبقة حتى يبلغ ارتفاعه أربعة وستين قدماً ، ويستدق ليصبح قوساً يشبه رأس صولجان الأسقف ، وتنبض الأعمدة بالحياة إذ تزخر برسوم القديسين ، أما أبواب « البيت » فتحرسها الملائكة ، وأما الأوجه المربعة فقد نقش عليها رسوم بارزة تمثل مناظر من حياة المسيح ، ويرتكز البناء الطلق الهواء كله بطريقة غريبة على ثلاثة تماثيل جاثية — آدم كرافت واثنان من مساعديه . وليس فى الصورة الشخصية أى أثر للتملق ، فالملابس بالية ومهلهلة من أثر الكد والنصب ، والأيدى خشنة واللحية كثة والوجه العريض المرفوع إلى أعلا منكب على تصور العمل وتنفيذه . وعندما انتهت هذه الرائعة التى تأخذ بالألباب عاد كرافت إلى موضوعه الأثير فنحت سبع أعمدة من الحجر الرملى عليها مناظر تمثل آلام المسيح عند الصلب منها ستة موجودة الآن بالمتحف الألمانى وأحدها واسمها « الدفن » تمثل الفن التيوتونى الأنموذجى وتمتاز بواقعية جريئة لا تحتاج إلى استكمال وتنطوى على الورع والإيمان .

واستمرت الفنون الصغرى فى انتهاج نفس الصنع وطرق نفس الموضوعات وكان رسامو المنمنمات لا يزالون تنهال عليهم الطلبات للحفاظ على الطوائف الحرفية الناجحة . ورسم كبار الفنانين أمثال ديرر وهولبين تصميمات للزجاج الملون وليس من شك فى أن هذا الفن الذى تدهور فى فرنسا وانجلترا وصل آنذاك إلى ذروة الإتقان فى ألمانيا . وفى هذه الفترة حصلت كنيسة لونز وكاتدرائيات أولم وكولونيا على نوافذ لها شهرة عالمية ، ولم تكن هذه النوافذ مقصورة على الكنائس ، فقد كان فى دور النقابات الحرفية والقلاع بل وفى البيوت الخاصة بعض نوافذ من الزجاج الملون . وكانت المدن من أمثال نورمبرج وأوجسبورج وريجينزبورج وكولونيا وماينز تفخر بصناعها المهرة الفنانين : وهم صانعو الأدوات المعدنية الذين

رفعوا من شأن المشاعل والثريات والصحاف والجرار والأقفال والصوانى والصاغة الذين لقيت منتجاتهم ، من الملاعق إلى الهياكل ، تقديراً عظيماً فى أرجاء أوربا ، وعمال النسيج الذين نسجوا الطنافس والسجاجيد والثياب الكهنوتية والرداء المنمق لطبقة الأشراف ، والنساء المتعبدات ، وكن يبلين أناملهن ويرهقن عيونهن لكسوة الهياكل والقسس بالمطرزات والحرير . ولم يكن الحفارون قط فى أى عهد مضى أحسن حالا منهم فى هذا العهد ، فإن ميكائيل فوبجيموت قد حفر من الخشب اثنى عشر محراباً من أروع الأعمال ، إلى جانب الرسم على نافذتين بديعتين لكنيسة لورنتس ، ثم علم ديرر كيف يفوقه فى هذا الفن .

وتطور فن الحفر بنقش رسم على الخشب أو النحاس فى القرن الخامس عشر حتى أصبح فناً ناضجاً يجله الناس تماماً كالتصوير . وهذبه كبار المصورين ووصل به مارتن شونجاور إلى درجة الكمال . وبعض أعماله فى الحفر — تعذيب المسيح وحمل الصليب والقــديس جون فى ياتموس واغواء القديس أنتونى ، تعد من أعظم الأعمال الفنية فى كافة العهود .

وأصبح الفن الإيضاحى فى الكتب بوساطة النقوش مناسبا وشائعا وسرعان ما حل محل الزخرف وتضاعف عدد أشهر اللوحات فى هذا العهد بأعمال الحفر التى كانت تباع فى أكشاك فى المكتبات والأسواق والمهرجانات ، وأظهر لوكاس فان ليدن نبوغا مبكرا مذهلا فى هذا المجال . فقد حفر لوحته « محمد » وهو فى الرابعة عشرة من عمره ولوحته « المسيح وعلى رأسه إكليل الشوك » وهو فى السادسة عشرة من عمره (١٥١٠) وقارب الكمال فى صورة ماكسمليان التى نقشها على النحاس واستخدم الحفر الإبرى وذلك بآلة مدببة تقذف شظية أو حافة من المعدن المقتطع بطول خطوط الرسم ، فى صورة « سيد كتاب البيت » التى نقشها فنان مجهول حوالى عام

١٤٨٠ . أما الحفر بتغطية سطح معدنى بالشمع ونقش رسم بالحفر فى الشمع وصب حامض لينخر فى الخطوط البارزة فإنه تطور من النقش على السلاح إلى الحفر على ألواح معدنية يمكن أن تطبع بها النقوش ، ويبدو أن دانييل هوبفر وهو صانع سلاح قام بصنع أول « كايشيه » سجله التاريخ عام ١٥٠٤ ومارس بورجكماير وديرر الفن الجديد فى غير إتقان . ولعل لوكاس فان ليدن قد تعلم هذا الفن من ديرر غير أنه سرعان ما فاقه وملك ناصيته .

وكان هذا العصر أعظم عصور ألمانيا فى التصوير . وقد تأثر المصورون الألمان فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بالمدرستين الهولندية والإيطالية كما تأثروا بمصورهم ممانج المبعد عن وطنه فتدرجوا من صرامة الفن القوطى وفظاظته إلى خط يتسم بمزيد من الرشاقة ، ورسم صور تتحرك فى يسر فى مناظر طبيعية تعكس الحياة المنزلية للبورجوازية الظافرة ؛ وظلت الموضوعات الدينية هى الغالبة ، وإن كانت الموضوعات الدنيوية قد أخذت تزحف قدما وأخات النقوش الهيكلية الطريق للصور المرسومة على الخشب ولم يعد المحسنون الأثرياء يقنعون بالسير فى ركاب جماعة دينية ، فطلبوا أن ترسم لهم صور شخصية هم فيها كل شىء . وبرز المصورون أنفسهم من حالة إغفال الأسماء فى العصور الوسطى إلى الفرديات المتميزة ، وأخذوا يوقعون بإمضاءاتهم على أعمالهم تشبثا بالخلود .

ومع ذلك فإن صاحب لوحة « حياة العذراء » التى رسمت فى كولونيا حوالى عام ١٤٧٠ لايزال مجهولا ، وقد ترك هذا الفنان لوحة « العذراء والقديس برنار » ورسم فيها عذراء ألمانية حقيقية تعتصر من ثديها اللبن الطفل ، أمام راهب ورع لايكاد يومئ إلى كلب السماء الذى طارد ابيلارد .

ويعد ميكائيل باشير واحدا من أوائل الفنانين الذين نقلوا أسماءهم كما نقلوا أعمالهم . ولا تزال كنيسة سانت ولفجانج الأبرشية فى سالتسكا مرجوت

تعرض النقش الهيكلى الضخم الذى يبلغ طوله ستة وثلاثين قدما والذى حفره وصوره لها فى السنوات من ١٤٧٩ إلى ١٤٨١ وقد أسهمت دراسة المنظور فى هذه الصور المرسومة على الخشب وفى تعليم الفن الألمانى .

وأظهر مارتن شونجاور فى تصويره حذق حفار مثقف وحس روجير فان دير فيدن المرهف . وقد ولد شونجاور عام ١٤٤٥ فى أوجسبورج واستقر فى كولمار وطور هناك مدرسة للحفر والتصوير لعبت دوراً عظيما فى بلوغ الفنون إلى الأوج فى عهد ديرر وهولبين .

وفى كل عام كانت المدن النامية فى الجنوب تسلب زعامة الفن الألمانى من كولونيا والشمال . وفى أوجسبورج ، مركز التجارة مع إيطاليا ، أدخل هانز بورجكماير فى لوحاته لمسات زخرفية إيطالية ومزج هانز هولبين الأكبر الزخرف الإيطالى برصانة الطراز القوطى . وخلف هانز فنه لولديه أمبروز وهانز اللذين صورهما باعتزاز فى لوحاته . ولم يلمع اسم امبروز فى التاريخ ولكن هانز الصغير أصبح أحد أمجاد ألمانيا وسويسرة وإنجلترا ، وكان أعظم سلف لديرر هو ماتياس جوتهارت نايهارت الذى أصبح معروفا للخلف باسم ماتياس جرونيفالد بسبب خطأ ارتكبه أحد الباحثين . وقد تعلم سحر المصور من شونجاور فى كولمار وذلك فى مجال الوراثة الاجتماعية القديمة جدا للفن . ثم أضاف إليها تعطشه للشهرة والوصول إلى الكمال وتدرب فى أناة فى غنت وشبييار وفرانكفورت واختار ستراسبورج موطنا له (١٤٧٩) . ولعله رسم هناك أول رائعة له وهى صورة شخصية ثنائية لفيليب الثانى صاحب هانو — ايختنبرج وزوجته . والحق أن ديرر نفسه لايستطيع أن يبزها لما يتجلى فى هذه اللوحة من إدراك عميق وجمال فى التنفيذ . وعاد جرونيفالد للتجوال من جديد وعمل بعض الوقت مع ديرر فى بازل حيث رسم « صورة رجل » المعروضة الآن فى نيويورك ثم قام

مرة أخرى بأعمال حفر فى الخشب مع ديرر فى نورمبرج . واستقر عام ١٥٠٣ فى زليجنشتادت وهناك طور فى نهاية الأمر أسلوبه المتميز الناضج — رسم مناظر من الإنجيل بإحساس مرهف ومقدرة هائلة . وعينه كبير الأساقفة ألبرخت مصورا للبلاط فى ماينز (١٥١٩) ولكنه عزل جرونيفالد عند ما أصر على الثناء على لوثر (١٥٢٦) . وتزوج وصادفه سوء الطالع ثم انسحب وعاش فى عزلة تقبض الصدر لعلها ألقت بعض الظلال السوداء على التظليل فى فنه .

ومن أروع أعماله — وربما كان أعظم أعمال التصوير الألمانى — الهيكل المتعدد الثنيات الذى أعده لدير فى ايزن عام ١٥١٣ ويعرض اللوح الأوسط العذراء وابنها بلون ذهبي يشع بالضـــياء على طريقة الفنان تورنر ، على مهاد من البحار النائية ، ولكن اللوح البارز الذى لا ينسى رسمت عليـــه صورة بشعة لصلب المسيح : تمثله وهو فى النزع الأخير وقد غطت جسده الجروح والعرق الممتزج بالدم ، وأطرافه تتلوى من الألم ، ومريم مغشى عليها بين ذراعى القديس يوحنا ، وماجدالين تتميز غضباً ويرتسم على أساريرها حزن مريب ، ولاتزال هناك ألواح أخرى يمكن أن تكون فى ذاتها لوحات عظيمة : جوقة من الملائكة بأسلوب قوطى فى البناء المعمارى تتداخل فيه الألوان الحمراء والبنية الزاهية ، ولوحة مرعبة اسمها « إغواء القديس أنتونى » وصورة للقديس نفسه ، وناسك فى غابة تزخر بالأرواح الشريرة والأشجار التالفة ، وكابوس بوشى يبدو أنه يرمز إلى أحلام أنتونى . وفى غلبة اللون والضوء والإحساس بالخط والشكل والتصور فإن هذه السورة المسرحية فى المقدرة التصويرية هى ذروة التصوير الألمانى القوطى قبيل انتصار الخط والمنطق فى فن ديرر الذى مد يديه فى اشتياق إلى إنسانية وفن عصر النهضة الإيطالى على الرغم من تشبثه بصوفية ألمانيا فى العصور الوسطى .

٥ – ألبرخت ديرر (١٤٧١ – ١٥١٧)

لم يسبق لأمة أخرى غير ألمانيا أن اختارت بالإجماع أحد أبنائها ليكون ممثلا لها فى الفن — فقد وقع اختيار البروتستانت والكاثوليك وأهل الشمال وأهل الجنوب على الفنان ديرر . وفى اليوم السادس من أبريل عام ١٩٢٨ ، وبمناسبة الذكرى السنوية الأربعمائة لوفاته طرح الريخستاج فى برلين ومجلس المدينة فى نورمبرج الأمور السياسية والمذهبية جانباً ، وذلك لتكريم فنان تحبه ألمانيا أكثر من أى فنان آخر . وفى غضون ذلك عرض خبراء الفنون دون طائل مبلغ ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار لشراء لوحة — اسمها « عيد أكاليل الورد » ، وهى لوحة تقاضى عنها ديرر مبلغ ١١٠ جيلدر (٢٫٧٥٠ دولار ؟) .

وكان والده المنغارى صائغا استقر به المقام فى نورمبرج : وكان ألبرخت الابن الثالث من ثمانية عشر ولدا مات معظمهم فى سن الطفولة وتعلم الولد فى مرسم أبيه كيف يرسم بالقلم الرصاص والفحم والريشة وكيف يحفر بالنقاش ، ودرب نفسه على قوة الملاحظة وتمثيل الأشياء والموضوعات بتفصيل لا يعرف الكلل ، حتى إن كل شعرة تقريباً فى بعض لوحاته تبدو وكأنها تلقت ضربة خاصة بها وحدها من الفرشاة . وكان الوالد يأمل أن يخلفه ابنه فى حرفته كصائغ إلا أنه أذعن لرغبة الشاب فى أن يتوسع فى نطاق فنه . فأرسله إلى فولجيموت ليتمرن هناك (١٤٨٦) وتدرج ألبرخت فى عمله ببطء ومكنت له عبقريته فى الطموح والمثابرة والصبر . وقال : « لقد حبانى الله بفضيلة الجد فحسن تعليمى ولكنى اضطررت أن أتجاوز عن قدر كبير من الإزعاج الذى سببه لى أعوانه » ونظراً لأنه لم تسنح له فرصة كبيرة لدراسة الجسم العارى فإنه تردد على الحمامات العامة ورسم أجساماً فى جمال أبولو وذلك بقدر ما سمحت له الظروف هناك . وكان هو نفسه يحا كى

أبولو بعض الشيء فى تلك السنوات . وقد وصفه احد أصدقائه فى اعتزا بقوله : له جسم رائع متين البناء معتدل القوام جدير بما يحمله من عقل نبيل . . . وجه ذكى الملامح وعينان تلمعان وجيد طويل وصدر عريض وخصر نحيل ومنكبان قويان وساقان ثابتتان ، أما يداه فى وسعك أن تقول إنك لم تر قط يدين تبزهما فى الرشاقة . أما حديثه فعذب شائق حتى ليتمنى المرء ألا ينتهى أبدا .

واجتذبته أعمال الحفر التى قام بها شونجاور فاتخذ طريقه إلى كولمار (١٤٩٢) وإذا به يجد الأستاذ قد مات فتعلم قدر المستطاع من إخوة شونجاور ثم رحل إلى بازل حيث تعلم من جرونيفالد أسرار الفن الدينى الخالص وكان قد أصبح رساماً بارعاً . وتحمل طبعة من رسائل سان جيروم نشرت فى بازل عام ١٤٩٢ على صفحتها الأولى صورة شخصية للقديس رسمها ديرر ، ونالت هذه الصورة استحسان النقاد حتى تنافس ناشرون عديدون للحصول على أعماله المستقبلة . ومهما يكن من أمر فإن أباه حثه على العودة للوطن ليتزوج من الفتاة التى اختارها له إبان غيابه . وعاد إلى نورمبرج واستقر هناك وعاش مع زوجته أجنس فراى (١٤٩٤) .

وقد رسم نفسه قبل ذلك بعام فى صورة شاب يرتدى زياً يكاد يكون زى امرأة ويصفف شعره مثلها تقريبا ، معتزا بنفسه وخجولا فى الوقت ذاته يرتاب فى العالم ويتحداه ، وفى عام ١٤٩٨ وكان لا يزال معجباً بوسامته ولحيته أيضاً رسم لنفسه صورة شخصية فى زى نبيل شاب يرتدى ملابس فاخرة وعلى رأسه قلنسوة لها شرابة تبرز منها خصل طويلة من الشعر البنى ، وتعد هذه اللوحة من أعظم الصور الشخصية التى رسمها فنان لنفسه فى جميع العصور . ورسم نفسه مرة أخرى عام ١٥٠٠ فى ملابس أكثر بساطة والوجه مستطيل بين خصل غزيرة من الشعر تتهدل فوق الكتفين ، وفى العينين النافذتين بريق غامض ويبدو أن ديرر رسم نفسه هنا فى صورة خيالية تشبه صورة

المسيح لا عن زهو يتسم بالزندقة ولكن لأن له رأياً ردده كثيرا كأمر مسلم به وهو أن أى فنان عظيم هو الناطق بلسان الله وبوحى منه تعالى . وكان الغرور هو الدعامة التى يستند إليها فى عمله ، إذ أنه لم يضاعف من عدد صوره الشخصية فحسب ، ولكنه أفسح لنفسه أيضاً مكاناً فى كثير من لوحاته . وكان فى بعض الأوقات يتمسك بأهداب التواضع ويدرك فى أسى أن قدراته محدودة ، وقال لبيركهايمر « عندما يثنى علينا فإننا نشمخ بأنوفنا ونصدق كل ما قيل عنا ولكن من يدرى ؟ لعل أستاذا ساخرا يضحك علينا من وراء ظهورنا » . أما بالنسبة لغير هذا فقد كان سليم الطوية ورعاً مخلصاً كريماً سعيدا بقدر ما تسمح الظروف .

ولم يستطع أن يعيش مسلوب اللب مع زوجته ، فقد انطلق إلى إيطاليا بعد زواجه بوقت قصير وخلفها وراءه . وكان قد سمع عما يطلق عليه « النمو الجديد » للفنون فى إيطاليا بعد أن ظلت دفينة ألف عام . وعلى الرغم من أنه لم يسهم مطلقاً فى هذا البعث للأدب الكلاسى والفلسفة والفن التى واكبت عصر النهضة فإنه كان تواقاً لأن يرى من المصدر الأصلى مباشرة ما الذى حبا الإيطاليين بهذا التفوق فى الرسم والنحت والنثر والشعر . وأقام بصفة أساسية فى البندقية ولم تكن النهضة قد بلغت فيها أوج الازدهار ولكنه عندما عاد إلى نورمبرج (١٤٩٥) كان قد تلقى بوسيلة ما الحافز الذى أطلق شرارة طاقة الإنتاج السريعة فى خلال السنوات العشر التالية . وفى عام ١٥٠٧ ذهب إلى إيطاليا مرة أخرى بعد أن اقترض مبلغ مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار ؟) من بيركهايمر وأقام فيها هذه المرة عاماً ونصف عام .

ودرس أعمال مانتيا وسكوارسيونى فى بادو ونسخ فى تواضع بعض الرسوم وسرعان ما اعترف به بلينى وفنانون آخرون من البندقية رساما بارعا ونالت لوحة « عين أكاليل الورد » ، التى رسمها لكنيسة ألمانية ، الاستحسان حتى من الإيطاليين ، وكانوا لا يزالون يعدون معظم الألمان

برابرة . وعرض عليه سيد البندقية منصبا دائماً إذا أقام هناك ولكن زوجته وأصدقاءه ألحوا عليه فى العودة إلى نورمبرج . ولاحظ أن الفنانين فى إيطاليا أحرزوا مكانة اجتماعية رفيعة تفوق مكانة زملائهم فى ألمانيا وقرر أن يطالب بمنزلة اجتماعية مماثلة عند عودته وكتب يقول : « إنى هنا سيد مهذب أما فى الوطن فأنا طفيلى » أى غير منتج لسلع مادية . وأبهجه الاهتمام بالفن فى إيطاليا وكثرة الفنانين وما يدور بينهم من صراع والمناقشات الذكية والحادة التى تدور حول نظريات الفن . وعندما شرح له جاكوبو دى بارباری مبادئ بييرو ديلا فرانشسكا وغيره من الإيطاليين عن النسب الرياضية للجسد البشرى الكامل قال ديرر إنه « يؤثر أن يشرح له هذا فهو خير عنده من أن يتلقى مملكة جديدة » . واعتاد فى إيطاليا رسم « الجسم العارى » فنيا ، وقد ثقف ذلك بدراسة التماثيل القديمة وفى الوقت الذى حافظ فى أعماله على الطابع التيوتونى والمسيحى فإنه شغف بالفن الوثنى الذى يعجب به الإيطاليون وسعى فى سلسلة طويلة من المقالات أن يعلم مواطنيه من الفلاحين أسرار المنظور والنسب والتلوين . وانتهى الأسلوب القوطى فى الرسم الألمانى بهاتين الرحلتين اللتين قام بهما ديرر إلى إيطاليا ، وهكذا قبل الجيل الألمانى ، الذى رفض أن يتبع روما فى الدين ، أن يسير على نهج إيطاليا فى الرسم .

وظل ديرر نفسه فى حالة توتر خلاق ، وإن اتسم بالتردد بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، وبين الاتجاه الصوفى الألمانى والإقبال الإيطالى على الدنيا ولم تتغلب فى روحه قط بهجة الحياة التى رآها فى إيطاليا على التأمل فى الموت . وإذا استثنينا صوره الشخصية فإن موضوعاته ظلت برمتها تقريبا دينية ، وكان كثير منها صوفيا . ومع ذلك كان الفن دينه الحقيقى . كان يعبد الخط الكامل ويؤثره بالعبادة على محاكاة المسيح . وقد أظهر حتى فى أعماله الدينية اهتمام الفنان الشديد بكل الأشياء التى تعرض له حتى فى

الحياة اليومية العادية ورسم مثل ليوناردو كل شيء تقريبا . . صخورا وجداول ماء وأشجارا وجيادا وكلابا وخنازير ، وجوها قبيحة وأشكالا قميئة وكائنات خيالية لها شكل عجيب أو مروع . ورسم ساقه اليسرى كما ترى فى أوضاع مختلفة وبعج وسادة لتتخذ سبع أشكال مختلفة لدراستها بريشته التى لا تعرف الكلل . وحشد فى عمله معرضا حقيقيا للحيوان ورسم أحيانا مدينة كاملة لتكون مهادا لإحدى لوحاته . وصور حياة الناس وأعمالهم فى الريف بنشوة وفكاهة . وكان يحب الألمان فرسم رءوسهم الضخمة وسمات وجوههم التى تنزع إلى الحمرة دون احتجاج وعرضهم فى البيئات غير المتوقعة حتى فى روما أو فلسطين وهم يرتدون دائما ملابس فاخرة مثل أبناء الطبقة الوسطى من السراة ويتدثرون ويتلفعون وكأنهم يتقون برد ألمانيا . ورسمه وصف اثنوجرافى لأجيال نورمبرج ، وكان هم عملائه الأثرياء من التجار الذين خلد ذكرهم فى لوحاته — ومع ذلك فقد تلقى مكافآت من الدوقات والأمراء المختارين فى الإمبراطورية ، وأخيرا من ماكسمليان نفسه ، وكما كان تيسيان يحب أن يصور طبقة الأشراف والملوك ، فإن ديرر كان يألف تصوير أبناء الطبقة الوسطى ، ولقد جعلت هذه لصورة ، التى حفرها على الخشب ، الإمبراطور يبدو كما وصفه لويس الثانى عشر « عمدة أوجسبورج » . ورسم ديرر مرة واحدة فى حياته النبالة فى صورة — وهى صورة خيالية لشارلمان .

وله ست وثلاثون صورة شخصية تعد من أحسن أعماله التى تقربها العين ويسر بها الفؤاد ، لأنها بسيطة وحسية دنيوية زاخرة بما يميزها من شخصيات . انظر إلى صورة هيرونيموس هولتسشوهر عضو مجلس الشيوخ فى نورمبرج ، رأس ينم على القوة ووجه صارم الملامح وشعر ناحل على جبهة عريضة ولحية مهذبة فى تناسق تام وعينان حادتان كأنه يرقب بهما السياسيين ، ومع ذلك فإن فيهما شروع فى بريق . نحن أمام رجل طيب القلب

مرح حسن الشهية . أو تأمل صورة ويليبالد بيركهايمر ، وهو أعز أصدقاء ديرر ، رأس ثور يخفى عقل علامة ويشير إلى شهوات معدة جارجانتوا . ومن كان يتوقع أن وجه فردريك الحكيم الضخم ، حكيم ساكسونيا ، بتقاطيعه المتغضنة المهدلة ، يخفى وراءه الأمير المنتخب الذى تحدى البابا ليحمى لوثر ؟ إن كل صور الأشخاص تقريباً تخلب اللب . صورة أوزفولت كريل الذى يبدو تركيزه الحاد حتى فى عروق يديه أو صورة برناردفون رستن بالصدار الأزرق الرقيق والقبعة العريضة الفخمة والعينين المتأملتين لفنان مستغرق أو صورة جاكوب موفيل عمدة نورمبرج . وهى استغراق فى الفكر للتعبد الجاد ، وهى تلقى بعض الضوء على عظمة المدنية وثرائها ، أو صورتا والد ديرر وهو يبدو فى إحداهما منهوك القوى من النصب عام ١٤٩٠ ، وفى الثانية خائر القوى إلى أقصى حد عام ١٤٩٧ ، أو صورة سيد مهذب فى البرادو — رجولة مجسمة تدنسها القسوة والجشع ، أو صورة اليزابث توخر وهى تحمل خاتم زواجها متطلعة إلى إتمام الزواج فى خفر ، أو صورة سيدة من البندقية التى اضطر ديرر من أجلها أن يسافر إلى إيطاليا ليجد الجمال والقوة . وقلما تجد فى صور من رسمهم من الذكور رقة ، وهى تخلو من الرشاقة ، وإن بدت فيها دائماً قوة الشخصية . قال : « إن ما لا يفيد فى الرجل ليس جميلا » ،وكان يهتم بالواقع وحكايته بأمانة أكثر من اهتمامه بجمال القسمات أو الشكل ، وقد أشار إلى أن الفنان يستطيع أن يرسم بالرصاص أو يصور بالزيت صورة جميلة لشىء قبيح أو لموضوع كريه . كان تيوتونيا فطر على الجد وتقديس الواجب والإخلاص ، وقد ترك الجمال والرشاقة للسيدات وركز على القوة فى الرجال .

ولم يكن مبرزاً فى التصوير ، ولم يكن الرسم ينسجم مع ذوقه ، ولكن زيارته لإيطاليا أثارت فيه الرغبة فى أن ينشد اللون والخط معاً . وصور هيكلا متعدد الثنيات عرف فيما بعد باسم مذبح درسدن ، وذلك لفردريك صاحب ساكسونيا

والكنيسة الملحقة بقصره فى فيتنبرج . وهنا نجد أن الأساليب الإيطالية فى النسبة والمنظور قد شكلت إطار الأجسام بأسلوب ألمانى بحت : سيدة ألمانية تمثل العذراء ، وأستاذ يمثل القديس أنتونى ، وشماس معمدانى ألمانى يمثل القديس سباستيان ، والنتيجة صورة فذة . وأبدع منها الصـــور والنقوش الهيكلية لباومجارتنر فى ميونخ : صورة رائعة للقديس يوسف والعذراء مريم فوق مهاد معمارى من الأطلال الرومانية . ولكن صدر الصورة قد شوهته أقزام سخيفة ؛ أما صورة عبادة المجوس فى الأوفيزى فهى انتصار للون يتمثل فى رداء العذراء الأزرق والثياب الفخمة التى يرتديها الملوك الشرقيون ؛ ولوحة المسيح بين الأطباء تبين عيسى الوسيم ، له خصلات شعر فتاة ، ويحيط به ثلاث نحارير من ذوى اللحى والوجوه المتغضنة — أحدهم يشبه صورة هزلية كله أنف وأسنان . وصورة عيد أكاليل الورد تضارع أروع الصور الإيطالية فى هذا العهد ، بتكوينها البارع وجمال الأم والطفل معا وروعة اللون بصفة عامة ، وتعد أعظم لوحة الديرر ، ولكن على المرء أن يجازف بقطع كل الطرق إلى براغ ليشاهدها . وفى فينا وبرلين لوحات جذابة من عمل ديرر لمريم العذراء ؛ وفى نيويورك لوحة للعذراء والطفل مع القديسة آن ، وهى تقدم لنا فتاة ألمانية رقيقة ، تمثل العذراء ، وسيدة سامية سمراء تمثل أمها ، وما أروع اللوحات فى البرادو التى تصور آدم وحواء ، فهنا نتوقف لحظة لنجد فنانا ألمانيا يظهر لنا جمال أنثى صحيحة البدن وهى عارية . ولقد ثبط من همة ديرر المكافأة القاصرة التى حصل عليها من التصوير ، وربما أوهن من عزيمته اضطراره إلى تكرار الموضوعات الدينية القديمة ، فتحول بصورة متزايدة إلى عمل يدر عليه ربحاً أكثر . ويتسم بمزيد من الأصالة ، وهو نحت الخشب والحفر ، لأن لوحا واحداً فى هذه الحالة يكفى لصنع ألف نسخة يمكن نقلها بسهولة إلى كل سوق فى أوروبا . ويمكن أن تزود ألف مجلد مطبوع بالرسم نفسه .

كانت براعة ديرر تتجلى فى رسم الخط وكان الرسم مملكته التى لا يبزه فيها رجل من الأحياء وقتذاك ، بل إنه فى هذا المجال أذهل برقته المتناهية الإيطاليين المزهوين بأنفسهم . ولقد شبهه ارازموس كرسام بأستاذ قديم بارع فى الخط فقال : إن أبيلز كان يستعين باللون . . . أما ديرر فما الذى لا يستطيع أن يعبر عنه بلون واحد ؟ . . . والنسب والإيقاعات المنسجمة ؟ كلا إنه يرسم ما لا يمكن تصويره — النار وأشعة الضوء والرعد . . والبرق . . وكل الأحاسيس والانفعالات فى رقة ، وعقل الإنسان بأسره وهو يعكس نفسه بسلوك الجسد ، بل إنه يكاد يرسم الصوت نفسه ، وهو يضع هذه الأشياء أمام الأعين بأصلح الخطوط خطوط ، سوداء ، ومع ذلك فإنك لو نشرت عليها ألواناً لأضررت بالعمل الفنى . ثم أليس عجيباً أن يحقق فنه دون أن يتوسل باللون ما حققه أبيلز متوسلا بها ؟

ورد ديرر على هذا الإطراء بحفر صورة شخصية لارازموس (١٥٢٦) ولم يجلس من أجلها ارازموس أمامه ولكنه رسمها عن صورة من عمل ماسيس ، وهى إن كانت لا تضارع هذه الصورة الشخصية ، ودون الصورة التى رسمها هولبين ، فإنها من روائع الرسم مع هذا كله ، وذلك للبراعة فى تصوير ثنيات العباءة وظلالها وتجاعيد الوجه واليدين والأوراق المطوية للكتاب المفتوح .

وقد خلف لنا ديرر أكثر من ألف صورة معظمها يعد معجزات من التصميم الواقعى أو المعبر عن الورع أو الخيالى الخارق ، وبعضها صور هزلية صريحة ، وإحداها تصور السن والحكمة فى دقة متناهية ، ومن آن لآخر يكون الموضوع من ذلك النوع الذى لا ينبض بالحياة ، كما فى لوحة الطاحونة ، أو مجرد خضرة خالصة مثل لوحة « المرج » ، أو حيواناً مثل صورة رأس فيل البحر . وتحتشد عادة النباتات والوحوش حول أشخاص أحياء ، كما فى اللوحة المركبة « السيدة العذراء مع حشد من الحيوانات » ، أما الموضوعات الدينية فهى أقل أعماله نجاحاً ، ومع ذلك فإننا يجب أن نستثنى وتقدر اللوحة الرائعة المسماة

« يدا رسول يصلى » . وأخيراً فثمة دراسات رائعة فى الأساطير القديمة مثل لوحة أبولو وصورة أورفيوس .

وقد حول ديرر نحو ٢٥٠ من رسوماته إلى أعمال من الخشب المحفور المنحوت ومائة إلى حفر ، وهاتان المجموعتان تمثلان أروع جانب يستحق التقدير من تراثه . ولقد حفر بنفسه التصميمات حتى مدار القرن ، ثم عهد فيما بعد بحفر الخشب إلى آخرين . وما كان ، بغير هذا التعاون ، ليستطيع أن يصور مثل هذا القطاع الواسع من الحياة . وقد بدأ بتصوير رسوم لكتب مثل الفارس « فون تورن » و « الطيش » لسباستيان برانت ، ورسم بعد عشرين عاماً صوراً هامشية لكتاب الصلوات الخاص بماكسمليان . وجرب ريشته فى رسم الجسم العارى ، ونجح نجاحاً عظيماً فى لوحة «حمام الرجال» ولم يبلغ الشأو نفسه فى صورة «حمام النساء» ، وقد أفاد فى كليهما كدافع ثورى للفن الألمانى الذى كان قد أعرض عن رسم الجسم العارى باعتباره عملا فاضحاً أو تبديداً للأوهام . واشتهرت أعمال الحفر فى الخشب ، التى صورت حياة العذراء وآلام المسيح عند الصلب ، فقد غدا فى وسع النساء المتعبدات وقتذاك أن يتأملن ، وهن يصطلين بجوار مدافئهن ، صورة مطبوعة تبين خطبة يوسف ومريم ، وكان الألمان العمليون يسرهم أن يجدوا فى صورة إقامة العائلة المقدسة فى مصر كل التفاصيل المريحة للألفة والجد اللذين عرف بهما الشعب التيوتونى — مريم تحيك الثياب ، ويوسف يعمل وهو جالس على دكته ، وأطفال عليهم مسحة ملائكية يحضرون الحطب دون أن يطلب أحد ذلك منهم . وثمة سبع وثلاثون صورة من أعمال حفر الخشب الصغير — « آلام المسيح الصغرى » — وإحدى عشرة صورة أكبر — « آلام المسيح الكبرى » — عرضت قصة تعذيب المسيح ووفاته فى آلاف البيوت ، ونبه شوق الرأى العام لترجمة لوثر للعهد الجديد . وثمة سلسلة أخرى من الصور زينت سفر الرؤيا وبعضها حفر على الخشب مثل « الفرسان الأربعة فى سفر الرؤيا » والقديس مايكل يقاتل التنين وكانت من النضارة والوضوح

بحيث ظل الذهن الألمانى قرونا طويلة يفكر فى سفر الرؤيا كما عبر عنها ديرر برسومه .

وتجاوز مرحلة حفر الخشب إلى فن يحتاج إلى مزيد من الجهد هو فن النقش ، وحاول بين الفينة والفينة النقش بالحفر الإبرى ، كما فى الصورة المظللة « العائلة المقدسة » وكان عادة يعمل بإزميل . و « سقوط الإنسان » نقش على النحاس فى أشكال تليق باليونان وفى نسبة وتناسق جديرين بالإيطاليين مع ما عهد فى ديرر من إسراف فى رسم الحيوان والنبات ، حيث نجد أن لكل وحدة تقريباً دلالة رمزية بالنسبة له ولجيله . وبرزت إناث عاريات فى روعة لم يسبق لها مثيل فى الفن الألمانى من المعدن ، وذلك فى صورة « وحش البحر » و « الصراع بين الفضيلة واللذة » ، بخلفية من المناظر الخلوية رسمت ببراعة .

أما الستة عشرة صورة من الحفر والتى تكون « آلام المسيح منقوشة » فإنها أقل تأثيراً من صورة « تعذيب المسيح » المحفورة على الخشب ، ولكن صورة القديس ايوستاس فهى مجموعة من الرسوم الحية : خمس كلاب وجواد وغابة ، وحشد من الطيور وسلسلة من القلاع فوق تل ، وغزال يحمل صليباً بين قرنيه ، ويتوسل إلى الصياد أن يعفيه من القتل ويغريه بأن يصبح قديساً .

وبلغ ديرر فى عامى ١٥١٣ و ١٥١٤ الذروة كرسام فى ثلاث رائعات من الحفر ، فالفارس والموت والشيطان نسخة قوية من موضوع كئيب من القرون الوسطى . فارس صارم الملامح مسربل بالدروع والسلاح ، يمتطى صهوة جواد فيروكشى ، تكتنفه صورة قبيحة للموت والشيطان ، ومع ذلك فإنه يتقدم إلى الأمام فى إصرار منتصراً للفضيلة على كل شيء ، ويبدو أن أحداً لا يصدق أنه يمكن نقش صور فى المعدن بمثل هذه المبالغة والدقة فى التفاصيل . فصورة القديس جيروم فى قاعة درسه ، توضح مرحلة أهدأ من انتصار

المسيحي . القديس العجوز الأصلع منحن فوق مخطوطته يكتب على ما يبدو في ضوء هالته وعلى الأرض ، ومعه في هدوء أسد وكلب ، وعلى أسكفة النافذة تجثم جمجمة في سكون مبين ، وما يبدو في نظر كل الناس قبعة زوجته معلقة على الحائط ، وكل الحجرة مرسومة بمنظور روعيت فيه القواعد ، ورسمت فيها كل الظلال وأشعة الشمس بدقة فائقة . وأخيراً فإن النقش ، الذى أطلق عليه ديرر اسم « السوداء » ، يكشف عن ملاك يجلس وسط أنقاض مبنى لم يتم ،وتحت قدميه خليط من الأدوات الميكانيكية والآلات العلمية ،ويتدلى من منطقته كيس ومفاتيح رمزاً للثروة والسلطان،ويستند برأسه مفكراً على إحدى راحتيه ، وعيناه تحملقان حولها فى شيء من الدهشة وشيء من الفزع . أتراه يتساءل لأى غرض يبذل كل هذا الجهد ، ومافائدة هذا البناء ، والهدم والبناء ، وهذا السعي الحثيث وراء الثروة والسلطان والجرى وراء السراب الذى يسمى الحقيقة ومجد العلم هذا وبلبلة ذوى الفكر وهم يكافحون عبثاً الموت المحتوم ؟ وهل يمكن أن يكون ديرر فى بداية العصر الحديث نفسه قد أدرك المشكلة التى واجهها العلم الظافر وهى مشكلة الوسائل التقدمية التى أساءت استخدامها الغايات التى لا تتغير ؟

وهكذا دخل ديرر عصر لوثر بالرسم تلو الرسم والتصوير وراء التصوير ، بدأب جهيد وصبر يختلفان عن تسويف ليوناردو وترف رافائيل،واشترى حوالى عام ١٥٠٨ البيت الذى أضفى الشهرة على نورمبرج ؛ وقد دمر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم أعادت هيئة السياحة بناءه صورة طبق الأصل منه . وكان الطابقان السفليان فيه من الحجر ،أما الطابقان الثالث والرابع فمن الخشب المكسو بالملاط ، وفوق طنف بارز يجثم طابقان آخران تحت السقف الهرمى . وهناك عاش ديرر تسعة عشر عاماً فى بؤس غير مفرط مع زوجته العقيم . وكانت أجنس ربة بيت بسيطة وتعجب لماذا يمضى ألبرخت هذا الوقت الطويل فى دراسات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أو مع أصدقاء يدمنون

الشراب . كان يتحرك فى دوائر لا تستطيع أن تدركها بعقلها القاصر وكان يهملها من الناحية الاجتماعية ، وكثيراً ما كان يسافر دون أن يصحبها معه ، ولكنه عندما اصطحبها معه إلى الأراضى الواطئة ، كان يتناول غذاءه مع الشخصيات المشهورة أو مع أحد ضيوفه ويترك زوجته تتناول طعامها فى (المطبخ الأعلى) مع خادمتهما . وفى عام ١٥٠٤ انضمت إلى ديرر والدته الأرملة لتعيش معهما فى البيت واستمرت معهما عشر سنوات . والصورة التى رسمها لها تثير عطفنا على الزوجة — ولم تكن جد فاتنة — ولقد رأى أصدقاؤه فى أجنس امرأة سليطة اللسان ، لا تستطيع أن تشارك ديرر حياته الفكرية المستغرقة .

وفى سنواته الأخيرة تمتع أستاذ نورمبرج بشهرة تعم قارة أوربا ، باعتباره رائداً للفن الألمانى ومفخرة له . وفى عام ١٥١٥ منحه الإمبراطور معاشاً متواضعاً قدره مائة فلورين فى العام (٢٫٥٠٠ دولار؟) ، وكان يدفع له بصورة غير منتظمة ، لأن دخل ماكسمليان كان لا يتفق أبداً مع خططه .

وعندما مات ماكسمليان توقف المعاش ، فقرر ديرر أن يزور الأراضى الواطئة ويطلب تجديد معاشه من شارل الخامس . وأخذ معه مجموعة منوعة من الرسوم والصور الزيتية ليبيعها أو يقايض عليها فى هولندا أو فى الفلاندرز . واستطاع بذلك أن يدفع كافة نفقات الرحلة تقريباً . وتكاد تبدو فى اليوميات التى احتفظ بها عن جولته (يوليو ١٥٢٠ — يوليو ١٥٢١) وإن لم تكن تماماً — شخصية مثل التى كتبها بوزويل بعد قرنين آخرين ، فهى تسجل نفقاته ومبيعاته ومشترياته وزياراته وحفلات تكريمه ، وتكشف عن عناية ابن الطبقة الوسطى بالتفاصيل المالية ، وابتهاج الفنان بالاعتراف بعبقريته ، وهو أمر يغتفر له . ولقد حصل ديرر على الحق فى تجديد معاشه بعد مطاردة شارل فى اثنتى عشرة مدينة ، وهكذا استطاع أن يخصص باقى رحلته لمشاهدة مناظر الأراضى الواطئة وأبطالها . وأذهلته ثروة غنت وبروكسل وبروجز وروعتها ،

ومذبح آل فان أيك المتعدد الطيات فى كنيسة سانت بافون . وكاتدرائية أنتورب « التى لم أر لها مثيلا فى الأراضى الألمانية » . والتقى بارازموس ولوكاس فان ليدن وبرنايرت فان أورلى وآخرين من وجهاء الأراضى الواطئة ، ورحبت به طوائف الفنانين فى تلك المدن ، وأصيب بالملاريا فى مستنقعات تسيلاند المليئة بالبعوض فأتلفت صحته فيما بقى له من عمر .

ويقول فى صفحة من يومياته : « لقد اشتريت كراسة لوثر الدينية بخمس بنسات فضية وأعطيت واحدة لإدانة هـــذا الرجل القوى » . وفى أنتورب (مايو ١٥٢١) سمع شائعة تقول إن لوثر « قبض عليه غدرا » وهو يرحل عن مجلس نواب (دايت) ورمز ، ولم يعــرف ديرر أن هذا الإبعاد إنما قصد به حماية هذا المصلح العظيم وخشى أن يكون لوثر قد قتل فكتب فى يومياته دفاعاً حاراً عن الثائر متوسلا بارازموس أن يخف لنجدة أنصاره : « إذن فقد اختفى هذا الرجل الذى أنار عقله الروح القدس ليتابع العقيدة الحقة . . . وإذا كان قد تعذب فإن هـــذا فى سبيل الحقيقة المسيحية ضـــد البابوية غير المسيحية التى تعمـــل ضـــد حرية المسيح وتستنزف دماءنا وعرقنا لتقتات به وتعيش فى ترهل فى الوقت الذى تحيا فيه الشعوب فى مسغبة . رباه ! إن الناس لم تسحق قط بمثل هذه القسوة تحت وطأة القوانين التى من صنع البشر ، كما حدث لهم تحت كرسى الأسقفية الرومانية . . . إن كل إنسان يرى مدى الوضوح الذى أعلنت به العقيدة فى كتب لوثر وكيف أنها تطابق ما ورد فى الإنجيل المقدس . إننا يجب أن نصون هذه الكتب من أن تحرق بل دعونا نقذف فى النار الكتب التى تعارضه . . . وأنتم أيها المسيحيون الأتقياء جميعاً ابكوا معى حزنا على فقد هذا الرجل، وصلوا للرب أن يرسل لنا هادياً آخر . وأنت يا أرازموس الروتردامى أين تقيم ؟ ألا ترى الظلم والاستبداد الأعمى للسلطات الحاكمة الآن ؟ استمع إلى يا فارس المسيح واركب بجانب سيدنا كما هو حالك . . . أنت أيضا تستطيع أن تفوز

بتاج الشهيد . اجعل صوتك مسموعاً يا ارازموس ، نعسى الله الذى يحكم على أعمالك أن يظهر تمجيده فيك » :

وعندما عاد ديرر إلى نورمبرج وقف حياته كلها تقريبا على الفن الذى يتسم بالطابع الدينى ، مع الاهتمام الفائق بالأناجيل من جديد . وأتم عام ١٥٢٦ أعظم مجموعة من لوحاته — الرسل الأربعة — وهى تسمية غير صحيحة لأن مرقس المبشر الإنجيلى لم يكن واحدا من الحواريين الاثنى عشر ، ولكن لعل هذا الخطأ يشير إلى البروتستانت فى العودة من الكنيسة إلى الأناجيل . واللوحتان من بين الممتلكات التى يعتز بها « بيت الفن » والذى جمعت فيه ميونخ ، التى أضرت بها الحرب ، مجموعتها الفنية الشهيرة . وإحدى اللوحتين تصور يوحنا وبطرس ، والأخرى تصور مرقس وبولس ، والأربعة كلهم يرتدون ثياباً زاهية اللون ، لا تكاد تتفق مع قديسين من عامة الصيادين ، وفى هذه الملابس عكف ديرر على تصوير المثال الإيطالى بينما أكد تأثير بيئته الألمانية فى الرءوس العريضة الضخمة . ولعل هذه الصور المهيبة قصد بها أن تكون أجنحة لمذبح ثلاثى الطيات فى كنيسة كاثوليكية . ولكن مجلس نورمبرج أعلن عام ١٥٢٥ تأييده للإصلاح الدينى . فتخلى ديرر عن فكرة عمل صورة مذبح ، وقدم اللوحات إلى المدينة ، وألحق بكل لوحة نقوشا تؤكد بإصرار أهمية الأناجيل ؛ وعلى الرغم من وجود المفاتيح فى يد بطرس — وهى تعد عادة أداة تمثل الكنيسة الرسمية المقدسة وسلطات الكنيسة — فإن من الممكن تفسير هذه اللوحات بأنها عهد ديرر البروتستانتى .

ولم يبق من عمره آنذاك إلا عامان وكان يعانى من نوبات متعاقبة من حمى الملاريا حطمت صحته وروحه معا . ولقد رسم فى عام ١٥٢٢ آخر صورة له باسم رجل الأحزان ، وتصوره عاريا أشعث الشعر شاحب الوجه ، عليلا يقاسى من الألم ، ويمسك فى يديه سوط تعذيب المسيح ، وظل مع ذلك

يعمل إلى النهاية وعندما مات (٦ ابريل سنة ١٥٢٨) بالغاً من العمر سبعة وخمسين عاما ترك من الرسوم والصور المحفورة فى الخشب والنقوش إلى جانب ٦٠٠٠ فلورين — ما يكفى لإعالة أرملته فى يسر كثيب ، وذلك فيما تبقى لها من العمر . وها هو بيركهايمر يقول فى رثائه : « خير صديق لى فى حياتى » وكتب نقشا تذكاريا متواضعا على القبر : « ما كان فانيا من ألبرخت ديرر يرقد تحت هذه الربوة » .

ولقد افتقد ديرر الغاية السامية باعتباره فناناً ، ذلك لأنه ضحى بمهمة الفن العظمى فى سبيل مهمة أقل وزنا . . كان يفتتن برؤية الأشكال العابرة للأشخاص والأماكن والأشياء ، وهى تدب فيها الحياة تحت يديه إلى حد جعله يستغرق بصفة أساسية فى تصوير الواقع — سواء أكان جميلا أم قبيحاً ، له معنى أو لا معنى له — ولم يكن يمزج إلا عرضا العناصر المتناثرة للإدراك الحسى لتكتمل فى خيال خلاق ، ثم تعود مجسمة فى خط أو لون وجمال مثالى ، يكشف لنا عن أهداف يسعى إلى تحقيقها أو يكشف لنا عن رؤى تيسر الفهم أو تحقق الهدوء ، ولكنه ارتفع إلى مستوى نداء عصره فحفر فى الخشب أو نقش على النحاس سيرة ذاتية بجيله المترصد المنتج وأن ريشته أو قلمه الرصاص ومنقاشه أو فرشاته استدعت الأرواح الخفية للرجال المقتدرين الذين وطأوا بأقدامهم مسرح ذلك العصر .

ولقد جعل ديرر تلك الحقبة من الزمن تعيش لنا أربعة قرون بكل ما فيها من حماسة وولاء وخوف ووهم ، واحتجاج وحلم وورع . . . كان ألمانيا .

٦ — علماء الإنسانيات الألمان

كانت ألمانيا بلدا فتيا فى الآداب مثلما كانت فى الحياة والفن . . . وانتشر تعلم القراءة والكتابة ، وصدرت الكتب متدفقة من ستة عشر ناشرا

فى بازيل ، وعشرين فى أوجسبورج ، وواحد وعشرين فى كولونيا ، وأربعة وعشرين فى نورمبرج . ولقد كان هناك أنطون كوبيرجر الذى استخدم وحده أربعا وعشرين مطبعة ومائة رجل ، وكان الاتجار فى الكتب يحتل جانبا كبيرا من التجارة الرائجة بالأسواق فى فرانكفورت وسالزبورج ونوردلينجن وأولم ، حتى قال أحد المعاصرين الألمان « إن كل إنسان اليوم يريد أن يقرأ ويكتب » . وكتب آخر يقول : « لا نهاية للكتب الجديدة التى تؤلف » . وتضاعف عدد المدارس فى المدن ، وكانت كل مدينة تقدم مكافآت أو منحا دراسية للطلبة الفقراء من الممتازين ، وأنشئت تسع جامعات جديدة فى هذه السنوات للتعليم الجديد . ونهضت أكاديميات أدبية فى ستراسبورج وأوجسبورج وبازيل وفيينا ونورمبرج ومايتز ، وفتح أبناء الطبقة الوسطى الأغنياء أمثال بويتنجر وبيركهايمر بل والإمبراطور ماكسمليان نفسه مكتباتهم وعرضوا مجموعاتهم الفنية للناس ، وتبرعوا بأموالهم للدارسين المتلهفين للدرس ، وكان كبار رجال الدين أمثال جوهان فون دالبرج أسقف ورمس وألبرخت البراندنبرجى ، كبير أساقفة مايتز ، أنصارا مستنيرين للدراسة والشعر والفن ، ورحبت الكنيسة فى ألمانيا بعصر النهضة ، وهى فى هذا كانت تحذو حذو البابوات ، ولكنها تشددت فى الدراسات اللغوية لنصوص الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . وطبعت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس ستا وعشرين طبعة فى ألمانيا بين عامى ١٤٥٣ و١٥٠٠ ، وكانت هناك عشرون ترجمة للكتاب المقدس قبل ترجمة لوثر . وليس من شك فى أن انتشار العهد الجديد بين الناس قد أعدهم لتقبل ما أعلنه لوثر متحديا لتناقض الأناجيل مع الكنيسة ، وأن قراءة العهد القديم أسهمت فى تهويد البروتستانت للمسيحية من جديد .

وكانت الحركة الإنسانية فى ألمانيا بادئ الأمر — وبعد شغفها بلوثر — أكثر مطابقة للعقيدة كما عرفها علم اللاهوت منها فى إيطاليا ، ولم يكن لألمانيا ماض قديم مثل إيطاليا ولم يتح لها أن أفادت من غزو روما الإمبراطورية

لها وتعليمها ، ولم يكن هناك رباط مباشر بينها وبين العهد القديم غير المسيحى . وكانت ذاكرتها لا تكاد تتجاوز القرون التى دانت فيها بالمسيحية ، وكان تضلعها فى العلم لا يكاد يقتحم ما قبل عهد آبائها المسيحيين . وكانت نهضتها إحياء للمسيحية الأولى أكثر منها إحياء للآداب والفلسفة الكلاسية .. وطوى الإصلاح الدينى النهضة فى ألمانيا .

ومع ذلك فإن مذهب الإيمان بالإنسان فى ألمانيا اقتدى بزعامة إيطاليا ، إذ أن بوجيو براتشيوليني وإنياس سيلفيوس وآخرين من علماء الإنسانيات جاءوا معهم بالبذرة عند زيارتهم لألمانيا ، كما أن الألمان من الطلبة والحجاج ورجال الدين والتجار والدبلوماسيين الذين زاروا إيطاليا عادوا وهم يحملون معهم — ولو عن غير قصد — لقاح عصر النهضة . ولقد تلقى رودولفوس اجريكولا ، وهو ابن قسيس هولندى يرعى أبرشية ، الكثير من التعليم فى ارفورت وكولونيا ولوفان ، ووقف سبع سنوات من عمره على التعمق فى دراسات اللاتينية واليونانية فى إيطاليا ، ثم عاد ليدرس فى جروتنجن وهيدلبرج وورمس . وتعجب أهل العصر من فضائله غير المألوفة من الجماهير . التواضع والبساطة والأمانة والورع والعفة . وكتب باللغة اللاتينية ما يكاد يكون جديراً بشيشرون ، وتنبأ بأن ألمانيا سوف « تبدو يوما وهى لا تقل لاتينية عن اللاتيوم » . والحق أن هولندة أجريكولا قد أنجبت فى الجيل التالى ارازموس وهو عالم باللغة اللاتينية إلى حد يتيح له أن يحس بأنه فى وطنه لو قدر له أن يعيش فى روما تاسيتوس وكوينتيليان .

وأصيب أجريكولا فى رحلة قام بها إلى روما بالحمى التى قضت عليه فى هيدلبرج وهو فى الثانية والأربعين من عمره (١٤٨٥) .

وكان يضارعه فى النفوذ — لا فى دماثة الطبع — جاكوب ويمفيلنج ، وكان مزاجه حادا بقدر ما كانت لاتينيته رقيقة . وقرر ناظر المدرسة الألمانى

هذا أن يرفع ألمانيا إلى مستوى إيطاليا فى التعليم والآداب ، فوضع خططا لإنشاء نظام المدارس العامة ، وأسس جمعيات من المتعلمين ، وأدرك مع ذلك مدى الخطورة إذا تحقق التقدم الفكرى دون أن يصحبه تطور أخلاقى . يتساءل قائلا : « ما فائدة تعليمنا إذا كانت أخلاقنا غير شريفة بفعل التناظر أو صناعتنا كلها لا تقترن بالورع ، أو معرفتنا كلها لا تحث على حب جارنا ، أو كانت كل حكمتنا تفتقر إلى التواضع ؟ .

ويعد جوهانس تريثميوس راهب سبونهايم آخر علماء الإنسانيات المحافظين وهو الذى كتب عام ١٤٩٦ : « لقد ولت إلى غير عودة أيام تشييد الأديرة ، أما أيام هدمها فآتية لاريب فيها » . ووصف سيلتس ، وهو عالم إنسانيات أقل إخلاصاً زميله تريثميوس بأنه « زاهد فى الشراب ، يزدرى لحم الحيوان ويعيش على الخضر والبيض واللبن ، كما كان يفعل أسلافنا فى الوقت الذى . . . . لم يكن هناك أطباء يشرعون فى تركيب أدوية لداء النقرس والحمى » . وأصبح فى خلال حياته القصيرة متفننا فى علوم جمة ، بارعا فى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية وآدابها ، وقد قام بمراسلة ارازموس وماكسمليان والأمراء الإمبراطوريين المختارين ، وشخصيات مشهورة أخرى وفسر عامة الناس فى هذا العهد معارفه المكتسبة على أساس نظرية تذهب إلى أنه كان يملك قوى خفية خارقة . ومهما يكن من أمر فإنه مات وهو فى الرابعة والخمسين من عمره (١٥١٦) .

وكان كونرادوس سيلتس أقوى علماء الإنسانيات الألمان غيرة وأعظمهم أثراً . ولقد كان ينتقل من مدينة إلى مدينة وكأنه أديب جوال عجول يدرس فى إيطاليا وبولنده وهنغاريا ، ويعلم فى كولونيا وهيدلبرج وكراكاو وبراغ ومايتز وفيينا وانجولستادت وبادوا ونورمبرج ، وكشف عن مخطوطات ثمينة كانت مهملة مثل مسرحيات هورتسويذا ، وخرائط قديمة مثل تلك الخريطة

التى أعطاها لبويتنجر وحملت اسمه . وكان يجمع حوله الدارسين أينما ذهب ويبث فيهم شغفه بالشعر والأدب الكلاسى والآثار الألمانية القديمة . وفى عام ١٤٤٧ توّجه الإمبراطور فردريك الثالث فى نورمبرج أميراً للشعراء فى ألمانيا. وأسس سيلتس فى ماينز (١٩٤١) جمعية الراين الأدبية الواسعة النفوذ وكانت تضم علماء وفقهاء فى الدين وفلاسفة وأطباء ومؤرخين وشعراء ومحامين ، أمثال أولريخ تسازيوس الفقيه القانونى الضليع وعلماء أمثال بيركهايمر وتريثموس ورويخلين وويمفيلنج . وأنشــأ فى فيينا ، بأموال زوده بها ماكسمليان ، أكاديمية للشعر أصبحت فيما بعد قسما محترما من الجامعة يعيش فيه الأساتذة والطلبــة معاً فى البيت نفسه وينهضان بالعمل ذاته . ويبدو أن سيلتس خسر عقيدته الدينية فى خلال دراساته : فقد أثار مثل هذه الأسئلة : « هل تحيا الروح بعد الموت ؟ » و « هل هناك إله حقاً ؟ » وفى أسفاره اصطحب نماذج كثيرة من الجنس اللطيف ولكنه لم يصحب واحدة منهن إلى المذبح ، وانتهى أمره إلى أن يقول فى غبطة : « ليس هناك تحت الشمس أحلى من عذراء جميلة بين ذراعى رجل تبدد همومه » .

ولقد انتشر هذا الانحلال المريب وأصبح بدعة بين علماء الإنسانيات الألمان فى العقود الأخيرة قبل لوثر : وكتب ايوبان هيسى Heroides Christiane « الاستشهاد المسيحى » (١٥١٤) بلغة لاتينية سليمة ، وقلد فيه أوفيد فى المجون أكثر مما قلده فى الشكل ، وتضمن خطابات حب من المجدلية إلى عيسى ، ومن مريم العذراء إلى الأب المقدس ، ولكى يقرن الفعل بالقول عاش فى انحلال مثل تشليتى وفاق فى الشراب جميع من نافسوه ولم ير بأساً فى أن يفرغ فى بطنه دلوا من الجعة فى جرعة واحدة .

ومهما يكن من أمر فإن كونرادوس موتيانوس روفوس استطاع أن يوفق فى رفق بين مذهب الشك والدين ، ولقد اكتفى بعد أن فرغ من الدراسة فى ديفنتر وارفورت وفى إيطاليا ، بمنصب دينى متواضع فى جوتا ووضع

على بابه هذا الشعار : « أيها السكون المقدس السعيد » Beata tranquilte ، وجمع حوله الطلبة المعجبين وعلمهم « أن يقدروا أحكام الفلاسفة وأن يضعوها فوق أحكام القساوسة » ولكنه حذرهم ، بأنهم يجب أن يخفوا شكوكهم فى العقيدة المسيحية عن الجمهور بالإقبال بأسلوب مهذب على إقامة الشعائر والمراسيم الدينية وقال : « إننا لا نقصد بالإيمان مطابقة ما نقوله للواقع بل نعنى رأياً بأن الأمور المقدسة تقوم على الفطرة والإقناع الذى ينشد المنفعة » . واعترض على إقامة القداس للموتى باعتباره أمراً لا فائدة منه وعلى الصيام باعتباره شيئاً غير مرغوب فيه وعلى الاعتراف السرى باعتباره عملا يثير الارتباك . ورأى أن الكتاب المقدس يحتوى على حكايات خرافية كثيرة مثل حكاية يونان وأيوب ، ومن يدرى ؟ لعل المسيح لم يمت حقاً على الصليب ! فقد كان اليونان والرومان مسيحيين دون أن يحسوا ما داموا قد عاشوا فى استقامة ، وليس من شك فى أنهم ذهبوا إلى الجنة . ويجب أن يكون الحكم على العقائد والشعائر مبنياً لا على أساس دعاواها الحرفية ولكن على أساس آثارها الأخلاقية . فإذا كانت ترقى بالنظام الاجتماعى والفضيلة عند الفرد فيجب أن يتقبلها الجمهور دون مناقشة ، وطلب موتيانوس من مريديه أن يعيشوا حياة طاهرة ، وأقسم فى سنواته الأخيرة قائلا : لسوف أحول دراساتى إلى ورع ولن أتعلم من الشعراء أو الفلاسفة أو المؤرخين إلا ما يرقى بالحياة المسيحية . وبعد أن عاش بكل ما تقدمه الفلسفة من عزاء مات تحفه بركات الكنيسة (١٥٢٦) .

وليس من شك فى أن استياء المحافظين من مذهب الشك الذى شاع بين علماء الإنسانيات المتأخرين قد بلغ عنفوانه عند أرق علماء هذا العصر وأرحبهم صدراً فقد لاحظ جوهانس رويخلين التقليد الذى درج عليه الناس فى العصور الوسطى من جمع المعارف من اثنى عشر مركزا بفضل انتشار اللغة اللاتينية باعتبارها لغة التعليم فى أوربا الغربية . وفى مدرسة النحو ببلدته

فورتسهايم وفى جامعات فرايبورج وباريس وبازيل وأورليانز وبواتييه ، وفى لينز وميلان وفلورنسا وروما تابع دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والقانون بحماسة تصل تقريباً إلى حد التعصب ، ولقد غير اسمه على عادة علماء الإنسانيات الألمان — وهو مشتق من كلمة rauchen الألمانية بمعنى يدخن — إلى كابنيو المأخوذة من كلمة kapnos اليونانية بمعنى التدخين . وألف وهو فى العشرين من عمره معجماً للغة اللاتينية طبع مرات . وفى روما أعطاه جوهانس أرجيروبولس قطعة صعبة من كتاب المؤرخ ثوسيديدس ليترجمها ، فما كان من رويخلين إلا أن استجاب فوراً حتى صاح اليونانى العجوز : « الآن يفر اليونان وراء الألب » . ولم يكن الطالب الشهم يترك حاخاما يمر دون أن يتعلم منه شيئاً من العبرية ، ويزعم موتيانوس أنه سمع أن رويخلين أعطى دارساً يهوديا عشر قطع ذهبية ليشرح له معنى عبارة عبرية ، و ربما كان هذا حلم عالم بالإنسانيات .

وأقنع بيكو ديلا ميراندولا ، رويخلين أن ينشد الحكمة فى كابالا . وبمقارنة ترجمة جيروم للعهد القديم بالنص العبرى الأصلى أشار « كابنيو » إلى كثير من الأخطاء فيما اعتاد علماء اللاهوت الاستشهاد به كنص لا يرقى الشك إليه . وعندما بلغ الثانية والثلاثين من عمره عين أستاذاً للعبرية فى جامعة هيدلبرج . وليس من شك فى أن معجم اللغة العبرية وكتاب قواعد هذه اللغة اللذين ألفهما قد أتاحا دراسة اللغة العبرية والعهد القديم على أساس علمى وأسهما فى أن يكون للكتب المقدسة المدونة بالعبرية تأثير قوى على الفكر البروتستانتى .

وحجب إعجابه بالعبرية شيئاً فشيئاً شغفه بالكلاسيات ، فقد كتب يقول « إن اللغة العبرية لم يمسها الزيف وهى جامعة توثر الإيجاز إنها اللغة التى تحدث بها الله الإنسان وهى التى تحدث بها الإنسان للملائكة وجها لوجه»

واحتفظ بعقيدته السلفية أثناء دراساته جميعاً وإذا كان قد شابها قليل من التصوف فإنه قدم كل كتاباته وتعاليمه بإخلاص إلى سلطان الكنيسة .

وتحالفت طائفة من الظروف الغريبة فجعلت منه بطلا لعصر النهضة الألمانية ، إذ حدث فى عام ١٥٠٨ أن أصدر جوهانس بفيفر كورن ، وهو حاخام تحول إلى قسيس ، كتاب « مرآة اليهود »أ دان فيه اضطهادهم وبرأهم من الجرائم الاسطورية التى شاع اتهامهم بها ولكنه حثهم فى الوقت نفسه على أن يتخلوا عن إقراض النقود وعن التلمود وأن يدخلوا فى المسيحية وقدم إلى الإمبراطور — وكان يؤازره فى ذلك رهبان الدومينيكان فى كولونيا — توصية بمصادرة جميع الكتب العبرية ما عدا العهد القديم ، فأمر ماكسمليان بتسليم جميع كتب الأدب اليهودى ، التى تنتقد المسيحية إلى بفيفر كورن لكى تفحصها جامعات كولونيا وارفورت وماينز وهيدلبرج وجاكوب فان هوجسترايتن رئيس محكمة التفتيش فى كولونيا ورويخلين بفضل تضلعه فى اللغة العبرية ، وأشار الجميع ما عدا رويخلين بمصادرة الكتب وإحراقها ، وهكذا أثبت رأى الأقلية الذى يمثله رويخلين أنه معلم من معالم تاريخ التسامح الدينى ، فقد قسم الكتب اليهودية إلى سبع طوائف ، إحداها يتكون من أعمال تسخر صراحة من المسيحية وهذه يجب أن تحرق أما الباقى وتشمل التلمود فيجب الحفاظ عليها حتى ولو كان هذا لمجرد أن لها قيمة كبيرة بالنسبة للمعرفة المسيحية ، وقال بفيفر كورن إن لليهود حقا فى أن تكون لهم الحرية فى الرأى كمواطنين بالإمبراطورية ولأنهم لم يرتبطوا بأى التزام نحو المسيحية .

وتحدث رويخلين فى رسائله الخاصة عن بفيفر كورن فقال إنه « حمار » لم يتيسر له أن يحسن فهم الكتب التى اقترح إتلافها . وكان رد بفيفر كورن على هذه المجاملات أن أصدر كتاب « مرآة اليد » ، وقد هاجم فيه رويخلين

وعده أداة رشاها اليهود . فرد عليه رويخلين طعنة بطعنة وأصدر كتاب « مرآة العين » الذى أثار عاصفة بين المحافظين . وشكت كلية اللاهوت فى كولونيا إلى رويخلين أن كتابه قد أسعد اليهود كثيراً وطالبوه أن يسحبه من التداول . وحرم ماكسمليان بيعه فاستغاث رويخلين بالبابا ليو العاشر فأحال الأمر إلى مستشارين مختلفين فقرروا أن الكتاب لا ضرر منه . فما كان من ليو إلا أن أوقف الدعوى وأكد لعلماء الإنسانيات حوله أنه لن يلحق رويخلين أى أذى .

وفى غضون ذلك اتهم بفيفركورن وأنصاره من رهبان الدومينيكان رويخلين أمام محكمة التفتيش فى كولونيا بأنه كافر بالمسيحية وخائن لعهدها ، فتدخل كبير الأساقفة وأمر بإحالة القضية إلى روما التى أحالتها بدورها إلى محكمة سبير الأسقفية فبرأت ساحة رويخلين . ولجأ الدومينيكان بدورهم إلى روما وأمرت الكليات الجامعية فى كولونيا وارفورت ومايتز ولوفان وباريس بإحراق كتب رويخلين .

وإنه لأمر عجيب — ودليل مبين على الحيوية الثقافية فى ألمانيا فى هذا العصر أن يتصدى للدفاع عن رويخلين عدد كبير من المشهورين وقتذاك : ارازموس وبيركهايمر وبويتنجر وأويكولا مبادوس البازيلى وفيشر أسقف روشستر وأولريخ فون هوتن وموتيانوس وايوبان هس ولوثر وميلانكستون ، بل ودافع عنه بعض كبار رجال الدين من أنصار علماء الإنسانيات كما كان الحال فى إيطاليا . وأعلن الأمراء الامبراطوريون المختارون والأمراء وثلاثة وخمسون مدينة تأييدهم لرويخلين . وجمعت رسائل من المدافعين عنه ونشرت . وذلك مثل « رسائل من رجال مشهورين إلى يوحنا رويخلين » Clarorum virorum pistolae ad Johnnem Reuchlin . وفى عام ١٥١٥ أصدر علماء الإنسانيات كتابا أشد خطرا هو صفحة ٣٢٤ (آخر الصفحة)

أى رســائل من رجال مغمورين إلى الأستاذ المبجل أورتونيوس جراتيوس أستاذ الأدب فى كولونيا . وتعد هذه الرسالة من أعظم رسائل فى تاريخ الأدب . وأحرزت نجاحا كبيراً إلى حد أن طبعة موسعة صدرت منها عام ١٥١٦ ثم نشر ملحق لها بعد عام . وادعى المؤلفون أنهم رهبان أتقياء معجبون بجراتيوس وأعداء لرويخلين ، وأخفوا شخصياتهم تحت أسماء مستعارة عجيبة — نيكولاوس كابريمولجيوس (حالب لبن الماعز) ويوهانس بيليفكس (صانع الجــلد) وسيمون فورست (السجق) وكونرادوس أونكبيونك . واشتكى الكتاب من السخرية التى وجهها إليهم الشعراء (كما كان يطلق على علماء الإنسانيات الألمان) وذلك بلغة لاتينية أسيئت صياغتها عمدا ، قلدوا فيها أسلوب رجال الأديرة ، وطالبوا فى إلحاح بمقاضاة رويخلين : وفى الوقت نفسه فضحوا جهلهم المطلق وفظاظة أخلاقهم وغلظة عقولهم ، وناقشوا مسائل تدعو للسخرية فى رصانة على نحو ما يفعل أنصار فلسفة الكلام واستشهدوا بآيات من الكتاب المقدس لتخفيف العبارات البذيئة — وسخروا بلا تيقظ من الاعتراف السمعى وبيع صكوك الغفران وتبجيل مخلفات القديسين ومن سلطة البابا ، وهى الموضوعات نفسها التى تناولها الإصلاح الدينى . وحارت كل الأوساط الأدبية فى ألمانيا فى التعرف على شخصيات مؤلفى هذه المجلدات : ولم يسلم الناس إلا فيما بعد بأن كروتوس روبيانوس الارفورتى وهو أحد مريدى موتيانوس ، قد كتب معظم ما ورد بالطبعة الأولى وأن هوتن كتب معظم ما ورد بالملحق . وتميز ليو العاشر غضبا فحرم قراءة أو حيازة الكتاب وأدان رويخلين ولكنه أحل له نفقات محاكمة سبيير (١٥٢٠) ، وانسحب رويخلين وهو شيخ منهوك القوى فى الخامسة والستين ليعيش فى الغمرات ونسبه الناس بغير صخب فى غمار تألق الإصلاح الدينى .

واختفت حركة علماء الإنسانيات الألمانية بدورها فى وهج هذه النار التى أضرمت كل شيء وتعرضت لحرب شعواء من معظم الجامعات من ناحية ومن رجال الإصلاح الدينى الذين دخلوا معها فى صراع من أجل الحياة من ناحية أخرى ، فدعموا قضيتهم بعقيدة دينية ركزت على خلاص الروح فى العالم الآخر . ولم تترك للناس إلا فسحة ضئيلة من الوقت يتدارسون فيها الحضارة الكلاسية أو يصلحون من أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا ، وحكم علماء الإنسانيات الألمان على أنفسهم بالهزيمة عندما فشلوا فى الارتقاء بالأدب اليونانى إلى مستوى الفلسفة اليونانية .

وبالدخول فى جدل عقيم أو الإغراق فى صوفية أقل نضجا من صوفية اكهارت ، لم يتركوا أعمالا عظيمة إذ أن كتب قواعد اللغة والمعاجم التى كان رويخلين يؤمل أن تكون « أثرا خالدا له يبقى أكثر من النحاس الأصفر » سرعان ما طويت فى غياهب النسيان . ومع ذلك فمن يدرى أن لوثر كان يجرؤ على أن يطلق قذائفه التى تشبه قذائف داود على تيتزل والبابوات إذا لم يكن عقل ألمانيا قد تحرر إلى حد ما من الرعب من أنصار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية على يد علماء الإنسانيات . لقد كان أتباع رويخلين وموتيانوس أقلية قوية فى أرفورت حيث درس لوثر لمدة أربع سنوات وأصبح أعظم شاعر ألمانى فى هذا العهد وتغذى بلبان علم الإنسانيات رسولا متحمسا للإصلاح الدينى .

٧ — أولريخ فون هوتن

لم يكن هناك عمالقة فى عالم الأدب الألمانى فى هذا العهد قبل لوثر ، إذ لم يكن هناك سوى حيوية وخصب عجيبين : وكان الشعر يكتب ليقرأ جهرة ، ومن ثم كان يلقى ترحيباً فى الكوخ وفى القصر . واستمر تمثيل

مسرحيات العشاء الربانى وآلام المسيح ، التى يغشاها ورع شديد مموه باهتمام قوى بالفن الدرامى .

وما أن حل عام ١٤٥٠ حتى كانت الدراما الشعبية الألمانية قد تحولت نحو التعلق بالدنيا إلى حد كبير . وتضمنت حتى فى خلال التمثيليات الدينية ، هزليات ساذجة ، وأحياناً فاضحة ، من « الفارس » ، وشاع المرح فى الأدب وانتشرت نوادر تيل أولنشبيجل وهذره فى ألمانيا وقتذاك ، وهو المخادع الجوال ، (ومعنى اسمه حرفيا مرآة البومة) ، ولم ينج من حيله المرحة عامى أو قسيس ؛ ففى عام ١٥١٢ نشرت نوادره وأظهر العصر والأدب بل والفن ، الرهبان والقسس وهم يسحبون إلى جهنم ، وازدهر الهجاء فى جميع الأشكال الأدبية .

وأشد هجاء فى هذا العهد تضمنته مسرحية سفينة الحمقى بقلم سباستيان برانت ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتوقع عملا يشيع فيه مثل هذا المرح من أستاذ فى القانون والأدب الكلاسى فى بازيل ؛ فقد تخيل برانت أسطولا (نسيه فى رحلة وأطلق عليه فيما بعد اسم سفينة) مزوداً برجال بلهاء ، ويحاولون أن يشقوا عباب بحر الحياة ، ويحاول أبله وراء الآخر أن يسير فى اختيال على المسرح ، وتتحمل طائفة تلو أخرى سوط لذعات كلمات المحامى الغاضبة — الفلاح والميكانيكى والشحاذ والمقامر والبخيل والمرابى والفلكى والمحامى ومدعى العلم والمحتال والفيلسوف والقسيس . ومثّلت المسرحية أيضاً زهو الرجال الجشعين وكسل الطلبة وخسة التجار وخيانة الأجراء — كل هؤلاء ينالون نصيبهم من الضربات ، ويحتفظ برانت باحترامه للكاثوليكى الورع المستمسك بعقيدته والذى يرقب حياته على أساس الظفر بالجنة .

وقد طبع هذا الكتاب طبعة فاخرة ، وزين بالصور التى توضح كل فقرة هجاء لاذعة فى الحكاية ، وحاز الكتاب قصب السبق فى غرب أوروبا ، وترجم

إلى اثنتى عشرة لغة ، وكان أوسع الكتب انتشاراً فى هذا العهد بعد الكتاب المقدس .

وإذا كان برانت قد مس بسوطه رجال الدين برفق فإن توماس مورنر ، وهو راهب فرنشسكانى ، هاجم الرهبان والقسس والأساقفة والراهبات بهجاء مقنع فاق فى حدته وغلظته وذكائه هجاء برانت . ولقد قال مورنر إن القس يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالدين ، وهو يتملق رعايا أبرشيته من أجل الحصول على كل دانق ، ثم يدفع مقداراً مما جمعه إلى الأسقف التابع له ليسمح له باتخاذ خليلة ، أما الراهبات فإنهن يمارسن الحب خفية ، والراهبة التى تنجب أكبر عدد من الأولاد تختار رئيسة للدير . ومهما يكن من أمر فإن مورنر اتفق فى الرأى مع برانت على وجوب الإخلاص للكنيسة واتهم لوثر بأنه أشد بلاهة . ورثى لضعف الإيمان عند المسيحى والفوضى الضاربة أطنابها فى العالم الدينى ، وذلك فى قصيدة مؤثرة بعنوان « ضعف الإيمان عند المسيحيين » .

وإذا كانت الشعبية الهائلة التى حظيت بها هذه القصائد الهجائية قد أماطت اللثام عن الاحتقار الذى يكنه حتى الكاثوليكيين المخلصين لرجال الدين ، فإن أدب الهجاء العنيف الذى تميز به أولريخ فون هوتن قضى على كل أمل فى أن تصلح الكنيسة من نفسها ، ودعا إلى الثورة الصريحة . وقد ولد أولريخ من أسرة تنتمى إلى الفرسان فى فرانكونيا ، وعند ما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير فولدا على أمل أن يصبح راهباً . وبعد وضعه بست سنوات تحت الاختبار هرب (١٥٠٥) وعاش عيشة طالب متجول وأخذ يؤلف الشعر ويلقى القصائد يستجدى بها العيش ، وكثيراً ما يقضى ليلة بلا مأوى ، وإن كان لا يعدم الوسائل لمطارحة فتاة الغرام وهى فتاة تركت بصمتها فى دمه . وأنهكت الحمى جسده أو كادت ، وكثيراً ما كانت تشل ساقه اليسرى من أثر القروح والأورام ، وكان حاد الطبع يستثار بسهولة ، مثله فى ذلك مثل كل عليل ، ومع ذلك وجده أيوبان هسى محبوبا كما هو ، واصطحبه أسقف

كريم إلى فيينا حيث رحب به علماء الإنسانيات ، ولكنه اختلف معهم وانتقل إلى إيطاليا . ودرس فى بافيا وبولونيا ، وصوب قذائف من القصائد الساخرة ضد البابا جوليوس الثانى ، وانضم إلى جيش ألمانى من الغزاة لكى يحصل على الطعام ، ثم قفل أدراجه عائدا إلى ألمانيا وهو فى أقصى حالات الإعياء .

وابتسم له الحظ إلى حين فى ماينز : فقد كتب قصيدة مدح فى كبير الأساقفة الشاب ألبرخت فتلقى منه ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ دولار ؟) اعترافاً بالجميل . وكان بلاط ألبرخت وقتذاك يعج بعلماء الإنسانيات ، وكان الكثيرون منهم من المفكرين الأحرار الذين لا يتمتعون بالاحترام . وبدأ هوتن هناك يكتب مقالته فى كتاب « رسالة من رجال مغمورين » ، والتقى هناك أيضاً بارازموس ، وخلب العالم الكبير لبه بسعة اطلاعه وذكائه وسحره . وبدأ مرة أخرى ينشد شمس إيطاليا مستعيناً بالمال الذى حصل عليه من ألبرخت والمعونة التى تلقاها من والده الذى رق لحاله ، وكان فى كل محطة يتوقف فيها ينسف طائفة علماء اللاهوت والرهبان المنافقين الفاسدين . « وأرسل من عاصمة البابوية إنذارا إلى كروتوس روبيانوس هذا نصه : أرجو أن تتخلى يا صديقى عن رغبتك فى مشاهدة روما ، فإن ما تنشده هناك لم يعد موجودا ... [قد تعيش من السلب والنهب ، وقد ترتكب جريمة قتل أو تنتهك حرمة المعابد ... وقد تعربد وتستسلم للشهوات وتنكر وجود الله فى السماء ، ولكن إذا أتيت إلى روما محملا بالمال فثق بأنك ستلقى من الناس أعظم احترام . إن الفضيلة وبركات السماء تباع هنا ، بل إن فى وسعك أن تشترى الحق فى أن ترتكب ماشئت من الخطايا فى المستقبل ، وليس من شك فى أنك تكون معتوهاً لو تمسكت بالأخلاق الطيبة ؛ فالناس العقلاء سيكونون أشراراً » .

وفى سخرية مرحة أهدى إلى ليو العاشر (١٥١٧) طبعة جديدة من رسالة فالا المدمرة عن « هبة قسطنطين » الخيالية ، وأكد للبابا أن أغلب أسلافه من البابوات كانوا طغاة مستبدين ولصوصاً ومغتصبين ، وأنهم حولوا

الجزاء فى العالم الآخر إلى دخل لأنفسهم ، وقد وقع هذا العمل فى يد لوثر فزاد من سخطه على البابوية .

وعلى الرغم مما تتسم به كثير من قصائد هوتن من عنف وقدح ، فإنها حققت له شهرة موزعة على أنحاء ألمانيـــا . وعندما عاد إلى الوطن عام ١٥١٧ أضافه كونراد بويتنجر فى نورمبرج وتوج ماكسمليان ، بناء على اقتراح هذا العالم الثرى ، هوتن أميراً للشعراء . وألحقه ألبرخت وقتذاك بخدمته الدبلوماسية وأرسله فى بعثات مهمة وصلت إلى باريس . وعندما عاد هوتن إلى ماينز (١٥١٨) وجد ألمانيا فى ثورة بسبب مقالات لوثر عن صكوك الغفران ، ولابد أنه ابتسم عندما رأى صاحبه كبير الأساقفة المستهين بالأمور متورطاً فى موقف لا يحسد عليه . وكان لوثر قد استدعى إلى أوجسبورج لمواجهة الكاردينال كاجيتان ، وليدفع عن نفسه تهمة الهرطقة . وتردد هوتن ، فقد كان مرتبطا ، عاطفيا وماليا ، بكبير الأساقفة ، ولكنه أحس بنداء الحرب فى دمه فامتطى جواده وسافر إلى أوجسبورج .

٨ – الكنيسة الألمانية

ترى كيف كانت الكنيسة الألمانية فى شباب لوثر ؟ لقد ظهرت إشارة فى استعداد كبار رجال الدين أن يتقبلوا النقد الموجه للكنيسة ونقادها . وكان هناك بعض الملحدين المشتتين ضاعت أسماؤهم فى غمرات الزمن ، ويذكر ارازموس «هناك بيننا أناس يعتقدون مثل أبقراط أن الروح تموت مع الجسد» ، ووجد بعض المتشككين بين علماء الإنسانيات ، ومتصوفون أنكروا ضرورة الكنيسة أو القسس كوسطاء بين الله والإنسان ، وأكدوا التجربة الدينيـــة الباطنية كبديل للشعائر والقربان المقدس ، وكانت هنا وهناك جيوب صغيرة من الولدانيين الذين أنكروا التفرقة بين القسس والعامة ، وكان فى شرق ألمانيا

بعض الهسيين الذين وصفوا البابا بأنه خصيم للمسيحية ، وفى ايجر دمغ أخوان هما جون وليفين بن أوجسبورج صكوك الغفران ووصفوها بأنها أمر يدعو إلى السخرية (١٤٦٦) .

وأعلن جوهان فون فييل ، وهو أستاذ من ارفورت ، فى مواعظه أن الجبر والاختيار بفضل الله ، ورفض الاعتراف بصكوك الغفران والقربان المقدس والصلوات للقديسين وأعلن : « إنى لأحتقر البابا والكنيسة والمجالس ولا أعبد إلا المسيح » . وأدانته محكمة التفتيش، فتراجع عما قال ، ومات فى السجن (١٤٨١) ، وقد ناقش فيسيل جانسفورت ، الذى اشتهر خطأ باسم جوهان فيسيل ، الاعتراف والحل ، وصكوك الغفران والمطهر ، واتخذ من الكتاب المقدس الحكم الوحيد على العقيدة وجعل الإيمان المصدر الوحيد للخلاص ، وإذن فهانحن أولاء أمام لوثر فى جملة . وفى عام ١٥٢٢ قال لوثر : « لو كنت قرأت مؤلفات فيسيل من قبل لظن أعدائى أن لوثر قد اقتبس كل شىء منه ، إذ أن آراءنا تتفق إلى حد كبير » .

ومع ذلك فإن الدين فى جملته كان يزدهر فى ألمانيا ، وكانت الغالبية العظمى من الناس محافظين ، وكانوا أتقياء بين خطاياهم وكئوسهم ، وكادت الأسرة الألمانية أن تصبح كنيسة فى ذاتها ، إذ كانت الأم تقوم بمهمة الواعظ والأب يقوم بدور القسيس ، وكان أفرادها يكثرون من الصلاة ، وكانت كتب الأسرة الخاصة بالتعبد لا يخلو منها بيت . أما الذين لا يستطيعون القراءة فكانت توفر لهم كتب مصورة Biblia Pauperum تصور قصص المسيح ومريم والقديسين ، وكانت صور العذراء عديدة كصور عيسى ، والتسابيح تتلى فى كثير من التكرار المشوب بالأمل . وأسس جاكوب شبرنجر عضو محكمة التفتيش جمعية من الرهبان لتكرار تلاوتها ، وثمة صلاة ألمانية كانت تخاطب الثالوث الوحيد المشهور : « المجد للعذراء والأب والابن » .

وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس ، ولابد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة — ولو أن أسماءهم قلما كانت تسمع وسط ضجيج الشر — يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعموه بين الناس . وكان لقسيس الأبرشية ، حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام . ولكن يبدو أن الألمان الذين لا يخشـون الإقدام قد اغتفروا هذا الصنيع باعتباره سلوكا أفضل من التخالط الجنسى ، ثم ألم يتمرد البابوات أنفسهم فى هذا العهد الذى شاعت فيه الشهوات على العزوبة ؟ أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين ، وهم هؤلاء الذين تعرضوا للخضوع لنظام صارم فى الدير ، فإن كثيراً من طوائفهم شغلوا أنفسهم وقتذاك بالإصلاح الذاتى الجاد . وقد استقر رهبان البندكتين فى شىء من رغد العيش بالدير ونعموا بالترف الدنيوى ، واستمر فرسان التيوتون فى انحلالهم الأخلاقى وقساواتهم العسكرية وأطماعهم الإقليمية ، ولكن رهبان الدمينيكان والفرنشسكان والرهبان الأوغسطينيين عادوا إلى التزام قواعدهم وقاموا بأعمال كثيرة فى مجال البر العملى ، وكان الزهاد الأوغسطينيون أشد الرهبان حماسة لهذا الإصلاح الدينى ، وكانوا فى الأصل نساكا أو رهبانا زاهدين ولكنهم تجمعوا فيما بعد طوائف وحافظوا فى إخلاص واضح على عهودهم الرهبانية من تقشف وعفة وخضوع ،وتعلموا إلى درجة تكفى لشغل كثير من كراسى الأستاذية فى الجامعات الألمانية . وكانت تلك هى الطائفة التى اختار لوثر أن ينتمى إليها عندما قرر أن يصبح راهبا .

وكانت الشكاوى ضد رجال الدين الألمان موجهة أساسا إلى البطاركة بسبب ثرائهم وانغماسهم فى النعيم الدنيوى . فقد كان على بعض الأساقفة والرهبان أن يهيمنوا على اقتصاد مساحات كبيرة وصلت إلى حوزة الكنيسة وإدارتها ، وكانوا سادة إقطاعيين متوجين أو مكللين ، غير أنهم لم يكونوا

دائماً متسامحين ، وكان رجال الدين هؤلاء يتصرفون مثل أناس تعلقت قلوبهم بالدنيا لاكرجال نذروا أنفسهم لعبادة الله ، ويزعم الرواة أن كثيرا منهم كانوا يذهبون فى مركباتهم لصحبة حظاياهم إلى مجالس الدايت الإقليمية أو الاتحادية . وقد لخص جوهانس جانس ، وهو بطريرك كاثولبكى متعلم ومؤرخ مساوئ الكنيسة الألمانية قبيل عهد الإصلاح الدينى ، ولعله كان قاسيا جدا فى حكمه فقال :

« إن التناقض بين الهيام بالتقوى والجشع الدنيوى ، بين الزهد الورع والتماس النفع الذى يتنافى مع الدين ، يبدو بوضوح بين صفوف رجال الدين كما يبدو بين طوائف المجتمع الأخرى . وفضلا عن هذا فإن الوعظ ورعاية الأرواح كانا يلقيان إهمالا تاماً من كثيرين من القسس ورجال الدين . واستشرى الشح والخطيئة الفادحة بين رجال الدين من جميع الرتب والطوائف فى غمرة تلهفهم على زيادة الموارد الدينية والدخول والضرائب والأجور العائدة إلى أقصى حد ، وكانت الكنيسة الألمانية أغنى الكنائس فى العالم المسيحى ، ويقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى فى البلاد كان بين أيدى الكنيسة ، وأدى هذا إلى أمر يستحق اللوم بين السلطات الدينية ، إذ أخذت تنشد دائماً ممتلكاتها وكانت مبانى الكنيسة ومؤسساتها تستوعب أكبر جزء من الأرض فى كثير من المدن .

وفى قلب الهيئة الكهنوتية ذاتها كان هناك أيضاً تناقض ملحوظ فى الدخل ، فقد كانت الطوائف الدنيا من رجال الدين فى الأبرشيات ، الذين كانوا يستمدون رواتبهم الاسمية فقط من ضرائب العشور غير الثابتة ، يضطرون فى كثير من الأحايين — بدافع المسغبة ، إن لم يكن بدافع إغراء الحرص — إلى الاشتغال بتجارة لا تتفق بتاتاً مع مناصبهم ، وكانت تعرضهم إلى الاحتقار من رعايا أبرشياتهم ، ومن جهة أخرى فإن الطوائف العليا من رجال الدين كانت

تنعم بثراء فاحش لا حد له ، وكان كثير من رجالها لا يعانون شيئا من وخز الضمير فى التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة . . وجأرت الأصوات بالشكوى فى كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات . . ومن المبالغ الضخمة التى ترسل على دفعات ، ومن الضرائب التى تدفع للبابا من الأرباح السنوية ، ومن مال الرشوة .

وبدأ إحساس مرير بمقت الإيطاليين يتفشى شيئاً فشيئاً ، حتى بين رجال من أمثال كبير الأساقفة برتولد فون هنيبرج ، ممن كانوا أبناء مخلصين للكنيسة المقدسة . وكتب يقول فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٤٩٦ : « يجب على الإيطاليين أن يكافئوا الألمان على خدماتهم وألا يستنزفوا دماء الهيئة الكهنوتية بسلب الذهب على دفعات » .

وكان من الممكن لألمانيا أن تغتفر لأساقفتها تعلقهم بالدنيا ، لو أنها أعفيت من ادعاءات البابوات ومطالبهم ، وقد استاءت روح القومية الناهضة من مزاعم البابوية أنها لا تعتبر أى إمبراطور حاكماً شرعياً إلا إذا أيده البابا ، وأن من حقها خلع الأباطرة والملوك إذا أرادت . واستمر الصراع قائماً بين السلطتين الزمنية والدينية على التعيينات فى المناصب وعلى تداخل الاختصاصات بين القضاء المدنى والمحاكم الأسقفية ، وعلى حصانة رجال الدين من تطبيق جميع التشريعات المدنية تقريباً . وتطلع الأشراف الألمان فى غيظ وحسد لممتلكات الكنيسة الغنية ، وأسف رجال الأعمال لأن الأديرة التى تطالب بالإعفاء من الضرائب تنافسهم فى مجالس الصناعة والتجارة . وكان النزاع فى هذه الرحلة قائماً على أمور مادية أكثر مما هو قائم على اختلافات دينية ؛ وهاهو مؤرخ كاثوليكى آخر يقول :

« كان إجماع الرأى فى ألمانيا أن المحكمة الرومانية ركزت الضغط فى مسألة

الضريبة إلى درجة لا تحتمل . . . . وارتفعت الشكوى مرة بعد أخرى من أن مستحقات المحكمة العليا والضرائب التى تدفع للبابا من أرباح العام . . . ونفقات الرسامة للكهان قد زيدت بلا مبرر أو توسع فيها بطريقة غير قانونية ، وأن صكوك غفران جديدة كثيرة صدرت دون موافقة أساقفة البلد ، وأن ضريبة عشور تلو أخرى قد فرضت من أجل حرب صليبية ثم حولت إلى غرض آخر . بل إن رجالا كرسوا حياتهم للكنيسة والمحكمة البابوية . . . كثيراً ما أعلنوا أن شكاوى الألمان من روما كانت فى معظمها قائمة على أساس سليم من وجهة النظر المالية » .

وفى عام ١٤٥٧ وجه مارتن ميير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التى تعانى منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه :

إن اختيار البطاركة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب للكرادلة وأمناء سر البابا ، وهاهو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحا فى ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل . كانت الوعود بالمناصب والإقطاعيات تبذل بلا حساب ، وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ، ولا يمنح المدينون مهلة للسداد ، ومن المعروف أن الضرائب التى تجبى كانت أكثر من المبالغ المستحقة ، وكانت الأسقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء . وكانت صكوك غفران جديدة تصدر يومياً ، وضرائب عشور للحرب تفرض دون استشارة البطاركة الألمان لا لغرض إلا جمع المال . وكانت القضايا التى ينبغى أن تعرض فى الوطن تحول بسرعة إلى المحكمة الرسولية ، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء وأغنياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة ماكرة . . . . وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ فى التراب تنتحب على فاقتها ومصيرها المحزن ، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة .

وعندما أصبح الكردينال بيكولوميني عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثانى ، واجه هذا التحدى ؛ فطلب من ديترفون ايزنبورج مبلغ ٢٠ر٥٠٠ جيلدر قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة مايتز (١٤٥٩) ، فما كان من ديتر إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل ، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة ، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان وأيده فى هذا بعض أمراء من الألمان ، وعهد ديتر إلى محام من نورمبرج يدعى جريجور هايمبرج بإثارة الرأى العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى من سلطة البابوات ، فذهب هايمبرج إلى فرنسا لرفع دعوى جماعية ضد البابوية ، وخيل للبعض فترة ما أن الأمم الشمالية سوف تتنصل من الولاء لروما ، ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار ديتر وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى . واشتبك جيشا الأسقفين فى حرب دموية هزم فيها ديتر ، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيرا بأنهم ما لم يقفوا معا فإنهم سيسامون الخسف والضيم واحدا بعد الآخر . وكان هذا الإعلان إحدى الوثائق الأولى التى طبعها جوتنبرج .

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات ، وبعد أن تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما فى اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب مجلس الدايت فى أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا . وشكا الإمبراطور ماكسمليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلا يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه منها . وفى عام ١٥١٠ ، وكان وقتذاك فى حالة حرب مع البابا يوليوس الثانى ، طلب من عالم الإنسانيات ويمفيلنج إعداد قائمة بشكاوى ألمانيا ضد البابوية ، وفكر فى فترة من الزمن أن يقترح فصل الكنيسة الألمانية عن روما ، ولكن ويمفيلنج أثناه عن عزمه بحجة أنه لن يجد تأييداً دائماً من الأمراء ، ومع ذلك فإن كل التطورات الاقتصادية فى هذا العهد مهدت لثورة لوثر . وليس من شك فى أن اختلافا فى المصالح

المادية مهد أيضاً للإصلاح الديني في ألمانيا ، فطالب الألمان بوضع حد لتدفق الأموال الألمانية إلى إيطاليا ، أي إلى نهضة إيطاليا تمول الشعر والفن بالذهب الوارد من وراء جبال الألب .

وواكبت حركة المعاداة لرجال الدين الورع بين الناس . وهاهو راع أمين يكتب « ان روحاً ثائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفشت بين الجماهير في مختلف أرجاء ألمانيا . . . إن صيحة الموت للقساوسة « التي طالما ترددت في السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التي تردد كل يوم » . كان هذا العداء المعروف حاداً إلى درجة أن محكمة التفتيش التي ارتفع شأنها وقتذاك في إسبانيا كانت لا تكاد تجرؤ على إدانة أي أحد في ألمانيا . وصدرت كتيبات عنيفة اللهجة حافلة بالهجوم على الكنيسة ، وكان رفيقاً بالكنيسة الألمانية بقدر ما كان عنيفاً على الكرسي الأسقفي الروماني .

وانضم بعض الرهبان والقساوسة إلى حملة الهجوم ، وأثاروا أبرشياتهم ضد الترف الذي يعيش فيه كبار رجال الدين . وجاء الحجاج العائدون من يوبيل عام ١٥٠٠ إلى ألمانيا بقصص فظيعة — ومبالغ فيها في كثير من الأحيان — عن البابوات المنحلين والسموم البابوية وصخب الكرادلة وعن وثنية وخسة عامة ، وأقسم كثير من الألمان أنهم سيسحقون هذا الطغيان مرة أخرى ، كما حطم أسلافهم سلطان روما عام ٤٧٦ . وتذكر آخرون ما لقيه الإمبراطور هنري الرابع على يد البابا جريجوري السابع من إذلال في كانوسا ، واعتقدوا أن الوقت قد حان للانتقام ، وفي عام ١٥٢١ قال اليااندر ، القاصد الرسولي للبابا ، محذرا ليو العاشر من ثورة وشيكة ضد الكنيسة : « إنه منذ خمس سنوات سمع من كثير من الألمان أنهم لا ينتظرون إلا أحد الحمقى ، ليفتح فمه ضد روما » .

وكانت آلاف العوامل والمؤثرات الكهنوتية والفكرية والعاطفية

والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، تتجمع بعــد قرون من التعويق والاضطهاد فى دوامة تقذف بأوربا فى أعظم فورة شهدتها منذ غزو البرابرة لروما . ثم إن إضعاف البابوية بالنفى فى أفنيون والانقسام فى صفوف البابوية وانهيار النظام فى الأديرة وترهب رجال الدين والترف الذى يرفل فيه البطاركة وفساد مجالس القضاء الرومانية ووجوه النشاط المتسم بالإقبال على الدنيا للبابوات وأخلاقيات الكسندر السادس وحروب يوليوس الثانى والمرح المستهتر الذى عرف به ليو العاشر والاتجار فى المخلفات المقدسة وبيع صكوك الغفران وانتصار الإسلام على العالم المسيحى فى الحروب الصليبية إلى جانب الحروب التركية وازدياد الاتصال بالعقائد غير المسيحية وتدفق العلم العربى والفلسفة العربية وتدهور مكانة الفلسفة الكلامية فى ظهور فلسفة سكوتس اللاعقلانية وشك أوكهام وفشل حركة التوفيق فى الإصلاح والكشف عن الحضارة الوثنية القديمة واكتشاف أمريكا واختراع الطباعة وانتشار القراءة والكتابة والتعليم وترجمة الإنجيل وقراءته والإدراك الجديد للتناقض بين فقر الرسل وبساطتهم وبين ثراء الكنيسة الفاحش والثراء المتزايد لألمانيا وإنجلترا واستقلالهما الاقتصادى ونمو طبقة وسطى ترفض التسليم بقيود رجال الدين ومزاعمهم والاحتجاج على تدفق الأموال إلى روما وتحويل القانون والحكم إلى الأغراض الدنيوية وفتوة القومية وتقوية الملكيات والتأثير القومى للغات والآداب الشعبية وتفاعل الميراث الفكرى الذى خلفه الوالدانيون وويكليف وهس والمطالبة الصوفية بالتخفف من الطقوسية فى سبيل ديانة تلتحم بالشخصية والروحية وتتسم بالاتصال المباشر بالإنسان . . . إن هذه كلها كانت تتحد فى سيل عارم سوف يحطم عرف القرون الوسطى الذى كان أدنى إلى القشرة ، وسوف يحل جميع المعايير والروابط ويمزق أوربا إلى أمم ومذاهب ، وسوف يكتسح أمامه أكثر فأكثر دعائم المعتقدات المأثورة وما تقدمه من عزاء ، ولعلها تؤذن ببداية النهاية لسلطان المسيحية على الحياة العملية للرجل الأوربى .

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

الإصلاح الديني

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السادس

(٢٤)

دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع
DAR AL JIL - EDITEUR DISTRIBUTEUR
بيروت

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
تونس

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس

صفحة

الكتاب الثانى

الثورة الدينية

١٥١٧ – ١٥٦٤

الفصل السادس عشر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا (١٥١٧ – ١٥٢٤) . ٣

١ – تيتزل ٣

٢ – تكوين لوثر ٩

٣ – الثورة تتخذ شكلا ١٦

٤ – نشرات بابوية ملتهبة ٢٧

٥ – المجلس النيابى فى ورمس ٣٥

٦ – الراديكاليون ٤٤

٧ – أسس الإيمان ٥٢

٨ – لاهوت لوثر ٥٨

٩ – الثورى ٦٧

الفصل السابع عشر : الثورة الاجتماعية (١٥٢٢ – ١٥٣٦) . . . ٧٢

١ – الثورة الصاعدة ٧٢

٢ – حرب الفلاحين (١٥٢٤ – ١٥٢٦) ٧٥

٣ – اللامعمدانيون يجربون الشيوعية (١٥٣٤ – ١٥٣٦) . . ٩٦

الفصل الثامن عشر : زونجلى – الإصلاح الدينى فى سويسرة
(١٤٧٧ – ١٥٣١) ١١٠

١ – كثير فى القليل ١١٠

٢ – زونجلى ١١٢

٣ – إصلاح زونجلى الدينى ١١٥

صفحة

٤ – إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون ١٢٢
الفصل التاسع عشر : لوثر وأرازموس (١٥١٧ – ١٥٣٦) . . . ١٣٠
١ – لوثر ١٣٠
٢ – الهراطقة المتعصبون ١٤٠
٣ – العلماء الإنسانيون والإصلاح الديني ١٤٧
٤ – أرازموس – حاشية على آرائه (١٥١٧ – ٣٦) ١٥٢
الفصل العشرون : العقائد في حرب (١٥٢٥ – ١٥٦٠) ١٧٠
١ – التقدم البروتستانتي (١٥٢٥ – ٣٠) ١٧٠
٢ – مجالس الدايت لا توافق (١٥٢٦ – ٤١) ١٧٦
٣ – أسد فيتنبرج (١٥٢٦ – ٤٦) ١٨٦
٤ – انتصار البروتستانتية (١٥٤٢ – ٥٥) ١٩٦
الفصل الحادي والعشرون : جون كالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤) . . ٢٠٥
١ – شبابه ٢٠٥
٢ – عالم اللاهوت ٢٠٨
٣ – جنيف وستراسبورج (١٥٣٦ – ٤١) ٢١٨
٤ – مدينة الله ٢٢٧
٥ – معارك كالفن ٢٣٥
٦ – ميكائيل سرفيتوس (١٥١١ – ٥٣) ٢٤٠
٧ – دعوة للتسامح ٢٤٨
٨ – كالفن إلى النهاية (١٥٥٤ – ١٥٦٤) ٢٥٤

الصورة رقم (١) البرخت ديرر : فيليب
ميلانكتون – متحف الفنون الجميلة في بوستن

(صفحة ٢٢)

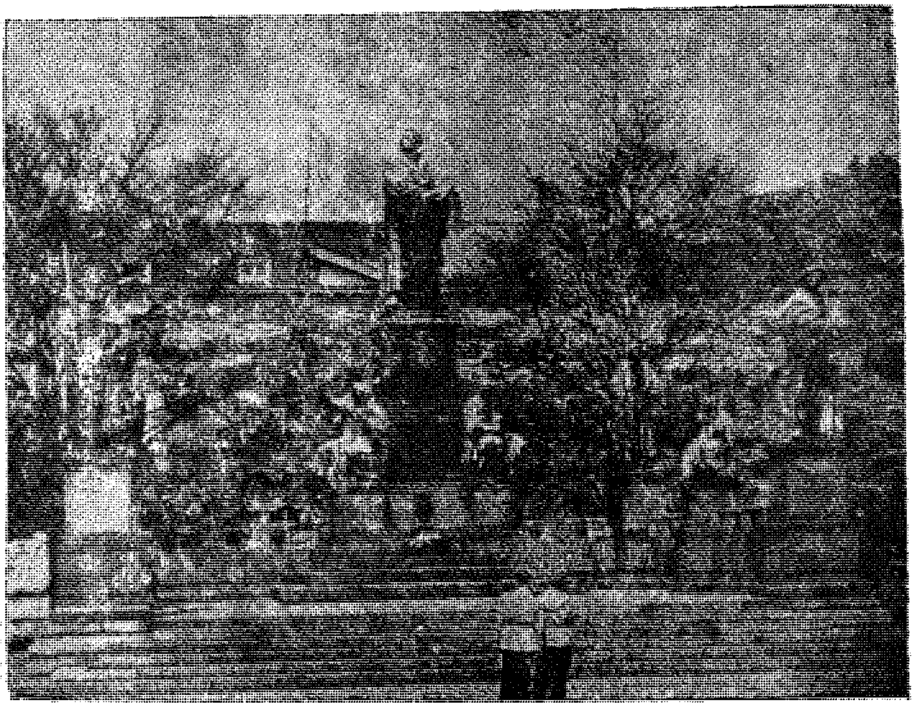

الصورة رقم (٢) تمثال لوثر التذكارى فى مدينة فرمز

(صفحة ٤٢)

الصورة رقم (٣) تيتيان : شارل الخامس فى موبلبرج – برادو ، مدريد

(صفحة ١٩٨)

الصورة رقم (٤) رينيه بويفن : كالفن —
المكتبة العمومية والجامعية بجنيف

(صفحة ٢٣٥)

الصورة رقم (٥) النصب التذكارى للإصلاح الدينى

(صفحة ٢٥٦)

الكتاب الثاني

الثورة الدينيــة

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل السادس عشر

لوثر : الإصلاح الديني في ألمانيا

١٥١٧ - ١٥٢٤

١ - تيتزل

أصدر البابا ليو العاشر في اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران . ومما يؤسف عليه - وإن كان له ما يسوغه - أن الإصلاح الديني فرض عليه أن يحارب في عهد سلطة بابوية جمعت في روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مديتشي ، التي غذت عصر النهضة في فلورنسا ، وكان بحاثة وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامي والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق في وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذي يشيع البهجة في النفوس ، وأضحى مثالا للسعادة في مدينة كانت منذ قرن خراباً بلقعاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق إلا قليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هي موضع نظر . وكان متسامحاً في العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد في كتاب « الثناء على الطيش » لارازموس ، وقد عمل إلا في فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذي منحت بموجبه الكنيسة في عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء - الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية - إلى الأقليـة المتعلمة وإن تركوا عقيدة - الجماهير الراسخة دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفى اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثانى وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضخمة التى فكر يوليوس فى إنشائها وشرع فى ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لا بد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر فى مهده . ولعله عرض فى شيء من التردد أن يمنح فى عام ١٥١٧ صك غفران لكل من يسهم فى نفقات تكملة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام فى انجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء : فوافق على أن يحتفظ هنرى الثامن بربع الأموال التى تجمع من انجلترا وقدم قرضاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) فى مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذى يجمع فى فرنسا ، أما ألمانيا فقد قوبلت بمعاملة أقل كرماً ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسمليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وفوض آل فوجر فى أن يأخذوا من الأموال التى تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجى لكى يدفعها للبابا لتثبيته فى منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كبراء أساقفتها فى عشر سنوات (١٥٠٤ — ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت ليعفيها من الدفع مرة ثالثة — ووافق ليو وقتذاك على أن يتولى رئيس الأساقفة الشاب توزيع صكوك الغفران فى ماجدبرج وهالبرشتادت وفى ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظى

ألبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التى تضم الأموال[1] .

وكان جوهان تيتزل وكيل ألبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكانى اكتسب مهارة وشهرة فى جمع المال . وكان عمله الرئيسى منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلقى عادة فى هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأتقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الاناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية فوق وسادة من المخمل أو وسادة مذهبة فى حين تقرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تيتزل[2] بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون فى بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقى من آلام مقدسة وإنا بتفويض منه ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلى فى هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العماد ، ولهذا فإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس[3] .

وكانت هذه الصفقة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تتفق مع المفهوم الرسمى

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صك الغفران لروح فى المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكى : ليس من شك فى أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشىء سوى تقديم المال للحصول على صك غفران للميت فى غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صك الغفران يمكن أن يمنح لأى روح معينة ويكون له أثر لا يخيب . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود فى الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأياً غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة(٤) .

وسمع مايكونيوس ، وهو راهب فرنسسكانى ربما كان معادياً للدومينيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه ند للمسيح » . وقد يكون فى هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يثيره تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو فى الشائعة التى ذكرها لوثر(٥) فى ارتياب والتى استشهد بها تيتزل عند ما قال فى هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فإن صك الغفران كفيل بأن يمحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكهنوتية فى هال بأنهم لم يسمعوا القصة قط(٦) . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين فى كنيسة قصره بفيتنبرج(٧) ، واتخذ التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيرها كما حصل على صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة فى تورجاو ، وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوى(٨) ، ومهما يكن من أمر فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذى جمع فى إمارة سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية ضد الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عندما تتجسم الحرب الصليبية فى صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا قط احتفظ فردريك الحكيم بالأموال واستخدمها فى بناء جامعة بفيتنبرج(٩) . وحرم فى أرضه وقتذاك التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا بالهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ؛ بيد أن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالى فيتنبرج عبروا الحدود للحصول على صك الغفران ، وجاء عدد من المشترين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت فى الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض ، وترامى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر وهكذا خلد إسمه فى التاريخ .

(*) فى عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأغنى ، ويشمل ليبزج ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الألبرتية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكانا ويشمل فيتنبرج وفيمار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطورى وعرف باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرنستية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر فى حركة الإصلاح الدينى .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum « بحث فى بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة . . . . كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التى تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفقة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية فى غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا فى إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هى أن سلطة البابا فى تحرير الأرواح من المطهر أو فى تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتى لا تصل إلى أبعد من القبر — ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهى قد تسمع وقد لا تسمع (الرسائل : ٢٠ — ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً فى خزينة الفضائل التى كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعفى البابوات من مسئولية مبالغات الوعاظ ، ولكنه أردف فى خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقذوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية اللماحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفتدى . . . عدداً من الأرواح من أجل المال التعس الذى يبنى به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ — ٨٢) .

وفى وقت الظهيرة فى اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧ ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر فى فيتنبرج ، وفى اليوم الأول من نوفمبر فى يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك المخلفات المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولاشك أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل المتحدين ، كانت عادة قديمة فى جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى استخدمه لوثر فى لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحة النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها سوف تناقش الآراء التالية فى فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم فى ذلك المكان . ولهذا يرجو من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفوياً أن يفعلوا هذا بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكى يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل إلى ألبرخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح الدينى فى جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ — تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ، فى مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان أبوه هانز رجلا صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت أمه امرأة خجولا متواضعة تكرس كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما مقتصداً . وعمل هانز فلاحاً فى موهرا ثم اشتغل بالتعدين فى مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد فى أيسليبين فى اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة سحرية لتقويم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظلا زمناً طويلا يناصب كل منهما الآخر العداء ، وفى مناسبة أخرى جلدته أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مفكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التى عشتها معهما هى التى دفعتنى إلى أن ألجأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً »(١٠) . وليس من شك فى أن صورة الرب التى نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطلب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا فى النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سحرة وعفاريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أسهم دين قام على الفزع فى بيت يحتفل بالتأديب الصارم فى تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة فى مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجلد فيها مارتن خمس عشرة مرة فى يوم واحد لأنه أخطأ فى إعراب اسم . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية فى ماجديبرج ، وفى سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج فى أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريح . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أثمن للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفى هذا الجو الصحى استكمل السحر الطبيعى للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشرحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة فى أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمى لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ : وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة »(١١) .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتبط عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفزع والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحيوية إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لقن فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شىء شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عند ما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لقن له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الخاطئين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد التمسك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥٠٥) واجهته عاصفة رهيبة ، ولمع البرق حوله ، وأصابت الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ وخيل للوثر أن هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطع أن يحيا حياة ينصرف فيها إلى التعبد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف يصبح راهباً .

وكان هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختار واحداً عرف بالإخلاص فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه جميعاً وشرب وغنى معهم فى حفل قال لهم إنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم التالى استقبل فى خلوة بدير كمبتدئ فى الرهبنة ، وقام بأحقر الأعمال فى تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن نوم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضجع بارد وصام وعذب نفسه ، أملا فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فإنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال »(١٢) . وفى إحدى المناسبات عند ما اختفى عن الأعين بضعة أيام اقتحم أصدقاؤه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض غائب الوعى ، وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥٠٦ أقسم قسماً مغلظاً بأن يلتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفى مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملا فى أن يجتاز الثغرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شىء . ثم وقعت فى يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحى . وتساءل قائلا : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهى وقلبى جريح »[١٣] . وأولى-جوهان فون شتاوبتز ، وهو قسيس إقليمى من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبوياً ، وأمره أن يستبدل بالتقشف قراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية — وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة — بالنسبة لأى فرد .

وفى أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت فى رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات فى بطء إلى العقيدة التى تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى — أى يرجع إلى الصواب وينجو من النار — لا بالأعمال الطيبة التى لا يمكن أن تكفى أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته ، بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر فى تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه — تلك هى القدر — أن الله قدر حتى قبل الخليقة أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزج بالباقى فى جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتضحية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أمله الأساسى فى الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين فى فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيتز ، وعين فى وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت فى الجامعة . وكانت فيتنبرج عاصمة الشمال — وقلما كانت محل إقامة — لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتقرون إلى التهذيب منغمسون فى العربدة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب فى ساكسونيا التى كانت تعد أعظم مقاطعة فى ألمانيا يغرم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت الهمجية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثالياً وقتذاك لأنه أرسل فى أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما فى مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينيين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أى حاج ، وانحنى فى إجلال أمام مخلفات القديسين وصعد على السلم المقدس **Scala Santa** وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الرومانى ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلانجلو ومئات غيرهما قد بدأوا فى تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح جلى على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الانحلال الخلقى الذى كان شائعاً وقتذاك فى المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد فى ذكرياته التى تتسم بالخيال المتوقد ، والتى تخطر له أحياناً فى أحاديثه حول مائدة الطعام فى سن الشيخوخة :

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتى عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت العشاء »(١٤) . ومن المحتمل أنه لم يتيسر له الدخول فى أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة مباشرة بأخلاقهم المنحلة التى لا شك فيها .

وارتقى بسرعة فى المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأسقف فى طائفته . وألقى محاضرات فى الكتاب المقدس ، وقام بالوعظ بانتظام فى كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل فى وظيفته بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكى مشهور : « إن خطاباته الرسمية تنم على اهتمام شديد بالذين ساورتهم الشكوك وتفيض بعطف رقيق على الآثم وتفصح عن لمسات عميقة من الشعور الدينى والرأى العملى النادر وإن كانت لم تخل من تشويه ندمائح لها اتجاهات مخالفة للعقيدة ؛ وعندما اجتاح الطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على الرغم مما أبداه أصدقاؤه من قلق »(١٥) . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ — ١٥١٧) تحولت آراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة . وبدأ يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس فى أرفورت . وفى عام ١٥١٥ عزا ما أصاب العالم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قالوا للناس كثيراً جداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزلة ، واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيد ما بها من التقوى الصوفية رأيه فى اعتماد الروح الكلى فى الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه أعدها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألمانى Theologia Germanica » . ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء ، وبدأ فى مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد فى الرسالة الأولى ليوحنا شبيه بالبابا(١٦) . ودعاه الدوق جورج صاحب ألبرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ فى درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشكا الدوق من أن مثل هذا التشدد فى الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب »(١٧) ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته فى الرسائل الخمس والتسعين التى علقها فى كنيسة فيتنبرج .

٣ ــ الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التى حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر فى عام ١٥١٧ كان راهباً حليــق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم لحين ، وله عينان واسعتان ينمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح فى هدوء لا فى لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلى شيئاً من الهرطقة ولكنه نصح لوثر فى لطف ألا يكتب شيئاً آخر فى الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفى مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبتز أن أمله الحقيقى هو أن يقضى حياته فى عزلة هادئة ولكنه كان يخدع نفسه فقد كان تلذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة فى ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقالها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، فى « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأى شىء ولم يقدم أى اعتذار بل « إنه أصدر فى بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات دقة»(١٨) . وعندما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة فى ساحة السوق — وهو إجراء استهجنه لوثر فى جذل . ورد على تيتزل فى « عظة حول صكوك الغفران والرحمة » ، وختمها بقوله فى تحد لا نظير له : « إذا كنت هرطيقاً فى نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التى أذكرها فإنى لا أبالى كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل»(١٩) .

وأمطر جاكوب فان هوجستراتين الكولونى ، لوثر وابلا من عبارات التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إيك ، نائب مدير جامعة انجولشتادت كتيباً باسم **Obeilsci** (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه لوثر بنشر « السم البوهيمى » (هرطقات هس) وتقويض النظام الإكليروسى بأسره .

وفى روما نشر سيلفستر بريرياس ، رقيب الأدب البابوى ، حواراً « يؤيد فيه سيادة البابا المطلقة بألفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة فى صكوك الغفران ليس لها سند ولا عليها دليل »(٢٠) .

ورد لوثر فى كتيب اسمه **Resolutiones** قرارات (ابريل عام ١٥١٨) وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلى وإلى البابا — مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة فى كلتا الحالتين وتحدث النص فى رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن فى عالم الكنيسة رجالا يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة للكنيسة . . . وها نحن أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هو ليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة لكل آذان الناس الطيبين ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً فى مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن يحكم فى أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا فى هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثانى وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها — نعم روما ، أكثر من الكل ، تسخر الآن من الناس الطيبين ، ترى فى أى جزء من العالم المسيحى غير روما ، حصن بابيلون الحقيقى ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد لليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداستك تذللى وخضوعى بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك فى نظرك . إنى سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم فى جسدك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت »(٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات Resolutiones كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكونى أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن المخلفات المقدسة وعن الحج وأنكر فضائل القديسين الزائدة ونبذ كل الإضافات التى قام بها البابوات فى القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدراً له أهميته للدخل البابوى ولما كان ليو فى حيرة لا يدرى كيف يمول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الحبر الأعظم الذى استبد به القلق ، والذى لم يعبأ فى مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضجة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتذاك على عاتقه واستدعى لوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت فى أدب واعتقال نفسه فى دير رومانى وسرعان ما ينساه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإجبارى لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يجل لوثر الذى كان له الفضل فى نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلا عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب »(٢٢) .

وفى هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابى الإمبراطورى إلى الاجتماع فى أوجسبورج للنظر فى طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعاونة فى تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإكليروس (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثنى عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أرباب البيوت يجب أن يجهزوا رجلا ورفض المجلس النيابى بل أنه على النقيض سجل مرة أخرى . . . المظالم التى كانت تهيئ الدعامة التى قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسولى أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق فى أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التى تدفع للبابا عن ريع أول عام ورسوم التثبيت الدينى ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلا لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجرىء للمطالب البابوية لم يعرف قط فى تاريخ ألمانيا(٢٣) . وعندما لاحظ ماكسمليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص فى معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون فى القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروتستانتياً عزا انتصار الإصلاح الدينى إلى اعتدال البابا(٢٤) واستبعد الأمر بمثول لوثر أمامه فى روما ، وبدلا من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان فى أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسولى بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملا ومناصب فى المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما(٢٥) . وفى الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته فى تقديم تكريم لفردريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع — ألا وهو « الوردة الذهبية » التى كان البابوات يمنحونها للحكام الزمنيين الذين يودون أن يخصوهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فردريك كوارث للعرش الإمبراطورى(٢٦) .

وقابل لوثر فى أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ — ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلا متضلعاً فى اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولا وقبل كل شىء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسى وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤساءه — الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أداتها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد بألا يعكر صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطلب كاجيتان من فردريك أن يرسله إلى روما فأبى فردريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر فى أرجاء ألمانيا ، وعندما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلا : « أرسل لك عملى التافه لكى ترى ما إذا كنت مخطئاً فى رأيى ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقى للمسيحية يسيطر على البلاط الرومانى وأنا أعتقد أنه أسوأ من أى تركى »(٢٧) . وفى خطاب أكثر اعتدالا بعث به إلى الدوق جورج طالب بقوله : « يجب القيام بإصلاح دينى عام للطبقات الروحية والزمنية »(٢٨) والمعروف أن هذه هى المرة الأولى التى استخدم فيها الكلمة التى أضفت على ثورته اسمها التاريخى .

واستمر ليو فى محاولاته للتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية فى التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التى نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعفى فحسب من العقوبات الدنيوية التى فرضتها الكنيسة — لا الحكام الزمنيون — أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فإن سلطة البابا محدودة بصلواته التى يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفى الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجلس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفى ذلك الشهر نفسه عهد ليو إلى كارل فون ميلتيتز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى فى روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فردريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمى للعودة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة(٢٩) .

وعند ما وصل ميلتيتز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالى البلد يجاهرون بالعداء للسدة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه فى أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفى ساكسونى كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التى تشير إلى أنه مبعوث بابوى . وعند ما التقى بلوثر فى ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجده صريحاً يؤثر أن يقرع الحجة بالحجة ولا يهاب أحداً . وربما كان لوثر فى هذه المرحلة يتوق فى إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحى الغربى . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران فى الإعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة ، وفى غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألمانى يقبله الطرفان(٣٠) للفصل فيها . فسر ميلتيتز كثيراً وانطلق إلى ليبتسيج واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل فى ديره ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت ، خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن للموضوع الوليد أباً آخر »(٣١) . وفى الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاه للحضور إلى روما ليدلى باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته(٣٢) . ومهما يكن من أمر فإن لوثر ، فى تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان فى الثالث عشر من مارس : « إنى فى حيرة لا أدرى هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله »(٣٣) . ورأى فى هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى فى فيتنبرج.

وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون فى الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلقى التأييد من شاب ألمعى ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو فى الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغــة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب شفارتسرت (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلا صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج فى مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تنمان عن الخجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الدينى هذا محبوباً فى فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمهرون فى قاعة محاضرته ، بل إن لوثر نفسه الذى وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة للإنسان »(٣٤) كان يجلس فى تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير »(٣٥) .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يؤثر المسالمة والتراخى . وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حليم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل جانب للوثر وأشده اعتدالا قد اتضح فى حبه الذى لم ينقطع لرجل يختلف عنه فى المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبى عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور جذوع

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ، فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أقتحم فيها طريقاً وأن أهيئ الأمور ، أما الأستاذ فيليب فإنه يسير فى رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبذر ويسقى وهو مسرور كما حباه الله فى سخاء »(٣٦) .

وثمة أستاذ آخر فى فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو أندرياس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو فى الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤) وفى الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفى اليوم الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخى بنشر ١٥٢ مقالا ضد صكوك الغفران . وكان فى مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً منى للأمر »(٣٧) . وعندما تحدى إيك فى كتابه **Obelisci** رسائل لوثر دافع عنها كارلشتادت فى ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوى على أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الدينى الألمانى وعن سلطة الإنجيل العليا على مراسيم الكنيسة وتقاليدها . فرد إيك وتحداه أن يدخل معه فى مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت فى الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ، ثم نشر إيك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالا عرض أن يقيم عليها الدليل فى المناظرة . وجاء فى إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسى بطرس بأنه خليفة المسيح ونائبـــه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذى أثار فى كتابه « قرارات » **Resolutiones** مسألة أن السلطة الرومانية فى القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم أن مقال إيك قد حرره من عهده الذى قطعه على نفسه بالتزام السكوت وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت فى المباراة اللاهوتية .

وفى يونيه عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتسيج يصحبهما ميلانكتون

وستة أساتذة آخرون ، ويرافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج فى عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفى القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس فى قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسونى بدأ إيك وكارلشتادت المثاقفة بين القديم والجديد (٢٧ يونية) . ولم يكد أحد فى ليبتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً فى فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيك العالية فى المناظرة ناب لوثر عن فيتنبرج . وكان ألمعياً قوى الحجة فى النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما فى أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هس التى أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطىء وأن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة وعند ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيك قد وصل إلى غرضه الحقيقى — وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى .

وانطلق إيك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بحرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليو لم يكن متعجلا إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يراوده الأمل فى حل سلمى ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغته الثورة . كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشوهر ولازاروس شبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلا من الكتيبات تطعن فى البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح . وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده ضد نداء ليو بجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله فى أن يذهب الجباة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغته أنباء المناظرة فى ليبتسيج جي لوثر كمحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيفاً مصلتاً للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط فى سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن — الذين كانوا يتلهفون على الثورة — وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد والحماية اللتين يمكن لعصبته المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن شخصه .

وفى مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت فى عهد الإمبراطور هنرى الرابع (حكم من ١٠٥٦ — ١١٠٦) ، وكانت تؤيد هنرى فى صراعه مع البابا جريجورى السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنرى وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك . « فى الوقت الذى رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان عند ما كان هؤلاء أعظم أمة حربية فى العالم نجد أننا لا نخضع لهؤلاء العبيد المخنثين المنغمسين فى حمأة الشهوة والترف فحسب بل إننا نعرض أنفسنا للاغتصاب ونهىءُ لهم إرضاء شهواتهم الحسية »(٣٨) . وفى إبريل عام ١٥٢٠ أصدر هوتن أول سلسلتين من **Gesprache** وهو محاورات منظومة لعبت دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك فى الإعراب عن الرغبة القومية فى الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص الدماء » . وصرح بأن « البابا زعيم لص وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة . . . وروما بحر من الدنس وحمأة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حدب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ »(٣٩) ، وأقام أرازموس الحجة مع هوتن ليلطف من أسلوبه وحذره ودياً بأنه في خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه في قلاع سيكينجن واحدة إثر أخرى ولكنه استمر في حملته . ونصح الأمير المختار فردريك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التي يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التي ترسل سنوياً إلى روما(٤٠) .

ولكن مركز الحرب ظل في فيتنبرج الصغيرة . وفي ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزاعم التي لا تلين والتي رددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التي أرجو ألا تكون تلك هي الحالة) فإني أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما — بابل هذه المصبوغه بلون الأرجوان — وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقي بالهراطقة في النار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا في دمائهم ؟ »(٤١) .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد في العام نفسه « كتيباً » **De Canonicis Scripturis libelus** جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسالات الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لكانت البروتستانتيه قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره فى الشك فى تأليف موسى للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأناجيل ولكنه كان ضعيفاً فى حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية أستناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التى تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادث وهوتن وسيكنجن فكتب إلى سبالاتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد ألقيت النرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لى بصلة ، وأنا فى مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إنى لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحى وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية »(٤٢) .

٤ — نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ نشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التى ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتى إلى روما فى خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علنا فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحى بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة فى جميع الأماكن التى يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التى كونت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية — كوطنى ألمانى — خطاباً مفتوحاً إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل نداءه « استغاثة بالنبيل الشاب » الذى كان قد اختير منذ عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأنعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا ينعش فى كثير من الأفئدة آمالا كباراً فى الخير »(٤٣). وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التى شيدتها البابوية حول نفسها وهى : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا فى أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق فى دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهدم . فأولا ليس هناك فرق حقيقى بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحى ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما نص عليـــه القانون الكنسى مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية »(٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحى يعد قساً فإن له الحق فى أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه(٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق فى دعوة مجلس . وإذا كان ينشد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه معتمدين فى ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان »(٤٦) ويجب دعوة مجلس فى أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة فى أن زعيم العالم المسيحى يعيش فى ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد فى المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون فى روما مناصب دينية تدر عليهم دخلا دون أن يؤدوا عملا ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التى يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل الى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح فى مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدى البابا ؟ . . . وإذا كنا بحق نشنق اللصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشره الرومانى أن يفلت من العقاب ؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن يجيء إلى العالم بل وشرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن فى وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم السكوت ؟ »(٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليتخلص رجال الدين الألمان من تبعتهم لروما ولينشئوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة الهسيين فى بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفى أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق »(٤٨) « ويجب أن ينبذ كل قانون كنسى وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — « يجب علينا فوق كل شيء أن نطرد من الأراضى الألمانية مبعوثى البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهى التى يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مراء فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضاليل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحقيقى للمسيحية فإن هذا الشيء يكفى لإثبات هذا . أتسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقدس الرجال بل أكبرهم إثماً ؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه فى هاوية الجحيم . . . يا سيدى المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك يشرق ودمر عش الشيطان فى روما !(٤٩)

وأصبح هذا الهجوم العنيف الذى قام به رجل ضـــد سلطة تشمل كل أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالحذرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية فى تاريخ ألمانيا . وسرعان ما نفدت أول طبعة من كتاب « خطاب مفتوح » وشغلت مطابع فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل انجلترا ، مهيأة لتقبل الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنرى الثامن لم ينبذ العقيدة الكاثوليكية بل رفض أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لا فى صحارى اللاهوت بل فى الأرض الخصبة لروح ألمانيا القومية وحينما فازت البروتستانية حملت القومية العلم .

وفى سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إيك وجيروم الياندر منشور الحرمان من غفران الكنيسة فى ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو : « الأسر البابلى للكنيسة » (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير « خطاب مفتوح » على التاريخ الدينى والسياسى . فكما قاسى اليهود طويلاً من الأسر فى بابل فإن الكنيسة كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها فى العهد الجديد قد تعرضت للأسر ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية فى روما . وفى خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح إلى الفساد فى الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن المسيح قد أعطى حوارييه نبيذاً وخبزاً فى العشاء الأخير فإن المسيين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكلا الشكلين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح ؛ فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيجيء روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيجيء بإرادته وبقوته ، فهو حاضر فى القربان المقدس مع الخبز والنبيذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم(٥٠) . ورفض فى هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه فى القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما يفزعه فى الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التى تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يبث فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا »(٥١) . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنام وأمشى . . . وأتعامل مع وثنى أو يهودى أو تركى أو هرطيق فإن فى وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم ، فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحمق لتحريم هذا . . . إن الشخص الوثنى سواء كان رجلا أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس أو القديسة لوسى »(٥٢) . وأى امرأة تتزوج من رجل عنين يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضاجع رجلا آخر لكى تنجب منه طفلا ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه(٥٣) . ثم أضاف لوثر التحدى إلى الهرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدى تتضمن حثاً على سحب أقوالى »(٥٤) ...

وإذا كان هذا حقاً فإنى أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذى أقوم به » .

وكان حرياً بمثل هذه السخرية أن تزيغ ميلتيتز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتنصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميلتيتز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخراً ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمنه اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليفة القديس بطرس وسليل آل مديتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر فى غير هوادة فساد البابوية فى الماضى والمحكمة البابوية فى الحاضر : « إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة فى حياتك الطاهرة الذيل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالا للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التى تسمى المحكمة الرومانية والتى لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتى بقدر ما أستطيع أن أرى ، تتسم بخبث غوى لا أمل فيه قبيح الصيت — فهذه السدة أنا أزدريها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم المواخير التى يندى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . ولطالما ساءنى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا فى هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو « يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التى لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكى تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين فى مركز خطير يرثى له . فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يهرفون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق فى تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم فى الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والخلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك(٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم « عجالة فى الحرية المسيحية » (نوفمبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها فى شكل موجز »(٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسى — أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هى التى تخلق المسيحى الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعـــل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة »(٥٧) . والإنسان القوى الإيمان بالله والذى يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بحرية الإرادة فحسب ولكن ينعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن اللعنة الأبدية بل ومن القانون لأن الإنسان الذى تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه فى غنى عن الأوامر بالاستقامة(٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما فى وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحى مؤمن يعد قساً يقوم بالخدمات الدينيـــة .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إيك والياندر يواجهان الثورة الدينية مباشرة وأحرزا نجاحاً فى إعلان نشرة الحرمان من غفران الكنيسة فى مايسن ومرسيبورج وبراندينبورج ، أما فى نورمبرج فإنهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهايمر وشينجلر وفى ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الدينى وسجن طابعى كتب هوتن وصودرت كتب لوثر فى أنجولستادت وأحرقت فى ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن فى ليبتسيج وتورجاو وديبيلين لطخت النشرة المعلقة بالقذاوة ومزقت وفى أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين فى رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ فى النهر ، وأخيراً فر إيك من المسرح الذى شهد انتصاراته قبل ذلك بعام(٥٩) .

وندد لوثر بالإعلان فى سلسلة من الكتيبات التى تقطر مرارة وفى إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالى ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفى السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثة رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثى البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التقى المثقف فى فيتنبرج لكى يتجمع خارج بوابة « الستر » فى المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها فى النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز فى عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسى وفلسفة الاكوينى وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع فى ابتهاج وألقوا بها فى النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفى الحادى عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية(٦٠) وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ — المجلس النيابى فى ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك فى الصراع بين اللاهوت والحكومات. ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخى فى اثنى عشر فصلا أو يزيد.

واستهل الرجل، الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس، سيرته بميراث ملكى وإن يكن مدنساً، فجده من جهة أبيه الإمبراطور ماكسمليان وجدته مارى البورغندية ابنة شارل الجسور، وجده من جهة أمه فرديناند وجدته إيزابلا، أما أبوه فهو فيلب الجميل ملك قشتالة الذى ارتقى العرش فى السادسة والعشرين ومات وهو فى الثامنة والعشرين من عمره، وأمه هى جوانا لالوكا التى جنت عندما بلغ شارل السادسة، وعاشت حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره. وقد ولد فى غنت (٢٤ فبراير سنة ١٥٠٠) ونشأ فى بروكسل وظل فلمنكى اللسان والطبع إلى أن اعتزل الحكم نهائياً فى إسبانيا. ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية، وكان يستطيع أن يلتزم الصمت فى اللغات الخمس. وحاول أدريان الأوترختى أن يعلمه الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر، وتلقى على يدى هذا الأسقف الصالح تأديباً صارماً، يتفق مع عقيدة المستمسكين بأهداب الدين، وربما تشرب مع ذلك فى منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه الفلمنكيين الذين شاع بينهم قدر يكتنفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على طريقة أرازموس.

ولكم شكا بعض القساوسة من إطلاق حرية الرأى الدينى بين حاشية شارل[٦١]. واعتصم بالتقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب. وقرأ كومينيس وتعلم فى مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسية، وعدم تمسك الدول بالأخلاق.

وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانش وادعاء الحق فى حكم برغنديا ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمسئولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفى السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وسارديتيا ونابلى وأمريكا الإسبانية ، وفى التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه فى ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدماثة أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر فى سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل[٦٢] منذذاك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر فى سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثانى مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطورى لولا مساعدتى وفى وسعى أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد فى هذا منفعتى الخاصة . . . وإنى أطلب بكل احترام أن تتفضلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذى كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير[٦٣] .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك فى ميناء أنتورب[٦٤] ، وعندما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنغاريا هب لنجدتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية[٦٥] ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسى « فتش عن المصرف » .

وهذا الفتى الذى وجد نفسه فى التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا انجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد يميز بالصحة الضعيفة التى ضاعفت من تقلباته . . . كان شاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أقنى ، وذقن ينم على التحدى ، خافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر عبير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « فى رأيى أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى فى رأسه أكثر مما يبدو على وجهه »(٦٦) . ولم يكن متوقد الذكاء إلا فى الحكم على الرجال — مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التى تواجهه بالجهد الجهيد — بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه فى الجسم والعقل . سه يعتر إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجىء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس ؛ ولم يكن أكبر سناً من القرن الذى وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فردريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف فى كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له الياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فما كان من فردريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة فى الكنيسة ، وقال إن الجهود التى تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع ، وعندما سأله فردريك ما هى الأخطاء الرئيسية التى ارتكبها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا فى تاجه ، والرهبان فى بطونهم »(٦٧) . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية(٦٨) وأبلغ فردريك القاصد الرسولى أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت فى هذا الالتماس .

ورد الإمبراطور بالجواب نفسه . . . كان قد وعد الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألمانى دون محاكمة عادلة فى ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت — مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه ،

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسمياً أكثر من اعتراف ألمانيا به إمبراطوراً عليها وهي بلد ينفر من نظام الحكم المركزي ، ولم يعد رجال الدين في اسبانيا يحتملون طويلا ملكاً يترفق بالهراطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب مع فرنسا كانت تلوح في الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها مغنماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوي جيشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيجة ، وليس من شك في أن سقوط إحداها سوف يلحق بالأخريات ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور أن يحكم مملكته المتناثرة المتباينة دون أن يلقى العون من الكنيسة في النظام الأخلاقي والإدارة السياسة ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من رجال الدين كما أنه كان في حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقلب في ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً إمبراطورياً لعقد اجتماع في ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة (٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسي في المناقشة وليس من شك في أن القوى التي كانت تعد الإصلاح الديني خلال قرون بلغت أوجها في مسرح من أعظم المسارح الدرامية في التاريخ الأوروبي . ويقول مؤرخ كاثوليكي : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبلاء الألمان محاولات لوثر وأيدتها »(٦٩) . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التي تنص على الحرمان من غفران الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس للتكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أني عجزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم فى وجهى ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتى . وإنى لأرجو من البابا أن يمنحنى صك غفران كامل وأن يرعى إخوتى وأخواتى إذا أصابنى مكروه »[٧٠] .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر فى أسى أن عربة لا تسع كل هذه المقالات البذيئة . وأصدر هوتن ، من قلعة سيكنجن فى ابرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموماً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبذلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجرؤون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية فى مظاهر الترف وفى التبذل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ »[٧١] وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنسسكانى جان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعى كنيسة فردريك فى محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلى جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . » وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يمطه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتى ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحرروا الكنيسة من مثل هذه المساوئ التى تنطوى على الغرور » . ووعد بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المردعة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله[٧٢] . ولكن لوثر أبى عندما أخطر بذلك فى فيتنبرج . . .

وفى الثالث من مارس قدم الياندر إلى المجلس النيابى (الدايت) اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدى الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بك إلى الخوف من التعرض لأى عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان »(٧٣) . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكروه بجواز الأمان الذى كان الإمبراطور سيجسموند قد أعطاه لهس وأرسل أدريان الأوترختى ، وكان وقتذاك كاردينالا لتورتوزا ، ثم نصب بابا بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفى اليوم التالى من ابريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلا . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن فى ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك »(٧٤) . وانطلقت عصبة من الفرسان الى لقائه ومرافقته إلى المدينة (١٦ ابريل) . وانتشر نبأ وصوله فى الطرقات فتجمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال أليانדر « يخيل إلى أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وحتى شارل حجب فى الظلال » .

وفى يوم ١٧ ابريل مثـــل لوثر فى رداء الرهبان أمام المجلس النيابى (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيروم أليانדر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية ورصت على منضدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك — ولم يكن صاحب مناظرة ليبتسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة ترير — وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التى تضمها ؟ ومرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذى يمثل هيئة الإمبراطورية والساطة النيابية وجلال الكنيسة ، فخانته شجاعته وأجاب بصوت خافت حتى أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثانى فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمهله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات فى موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابى لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائى سوف يكون نقطة تحول فى التاريخ .

وفى يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابى بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة بالغـــة فى الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله ايك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التى كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التى تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى فى القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت فى هذا الوقت فإنى أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية فى كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ماجاء فى الكتاب المقدس ، فأبدى إيك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسماع ما جاء فى الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهراطقة انك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التى ارتكبها ويكليف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكمك فوق حكم كتبه كثيرون من الرجال المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر مما يعرفون

جميعاً ؟ ليس لك الحق فى أن تدخل فى المناقشة العقيدة الأرثوذكسية المقدسة التى لقنها المسيح المشرع الكامل والتى نشرها الرسل فى أرجاء العالم ، والتى ختمت بدماء الشهداء وأكدتها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتى يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها خشية ألا ينتهى النقاش . إنى أسالك يا مارتن . أجب بأمانة وصدق بغير مواربة — هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التى تحتويها ؟ »[٧٥] فرد لوثر بجوابه التاريخى بالألمانية : ما دام جلالتكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فإنى سأجيب بغير مواربة . . . ما لم تدينى آية فى الكتاب المقدس أو الحجة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهم يناقض الآخر) فإن ضميرى أسير لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفـــة ضميرى ليس من الصواب والأمن فى شىء . أسأل الله العون . آمين »[٧٦](*) .

فواجهه إيك بأنه لا يمكن إثبات أى خطأ فى المراسيم العقائدية التى أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلا بلهجة قاطعة : « هذا يكفى . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى »[٧٨] . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة فى التاريخ الحديث للإنسانية »[٧٩] .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى فى عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التى لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد فى تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصى وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس فى وسعنا أن نؤكد صحة الكلمات المشهورة التى حفرت على النصب التذكارى الفخم الذى أقيم تخليدا للوثر فى ورمس — « هنا أقف ولا أستطيع أن أعمل شيئا آخر » . ولم ترد الكلمات فى النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت فى سجلات المجلس النيابى (الدايت) لأول مرة فى أول رواية طبعت لخطابه[٧٧] .

يعجل بتقويض أسس النظام الاجتماعى لأن هـــذا كما بدا له قائم على قانون أخلاقى يستمد بدوره قوته من الأحكام الخارقة للعقيدة الدينية .

وفى اليوم التاسع عشر من إبريل دعا كبار الأمراء إلى مؤتمر عقده فى حجراته الخاصة وقدم لهم بياناً عن الولاء والنية مكتوباً بالفرنسية ويبدو أنه كتبه بنفسه : « إنى أنحدر من صلب سلسلة طويلة من الأباطرة المسيحيين لهذه الأمة الألمانية النبيلة ومن ملوك أسبانيا الكاثوليكيين ومن أرشيدوقات النمسا ودوقات برغنديا . وكانوا جميعاً أوفياء حتى الموت لكنيسة روما ، ولقد دافعوا عن العقيدة الكاثوليكية ومجد الرب وقد عزمت على أن أحذو حذوهم . إن راهباً واحداً يسير ضد المسيحية بأسرها كما عرفت منذ ألف عام لا بد أن يكون على خطأ مبين ، ومن ثم فإنى قررت أن أخاطر ببلادى وأصدقائى وجسمى ودمى وحياتى وروحى . . . وبعد أن استمعت أمس إلى دفاع لوثر المتشبث برأيه فإنى آسف لأنى تأخرت طويلا فى اتخاذ الإجراءات ضده . وضد تعاليمه الزائفة . لن يكون لى معه شأن آخر . وفى وسعه أن يعود فقد منحته جواز الأمان ولكن عليه أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتنة ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيئ السمعة وإنى أطلب منكم أن تدلوا بآرائكم كما وعدتمونى »(٨٠) .

فوافق أربعة من الأمراء المختارين على هذا الإجراء وامتنع فردريك صاحب ساكسونيا ولودفيج صاحب بالاتينيت عن إبداء رأيهما — وفى تلك الليلة — ١٩ إبريل ثبت أشخاص مجهولون على باب قاعة المدينة وفى أماكن أخرى من ورمس إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح رمز الثورة الاجتماعية . وأفزع هذا بعض رجال الدين وألحوا شخصياً على لوثر بإحلال الوئام محل الخصام مع الكنيسة ، ولكنه أيد تصريحه للمجلس النيابى . وفى السادس والعشرين من إبريل بدأ رحلة العودة إلى فيتنبرج وأرسل ليو أوامر تقضى باحترام جواز الأمان(٨١) ، ومع ذلك فإن الأمير المختار فردريك خشى أن يحاول رجال الشرطة الإمبراطورية القبض على لوثر بعد انتهاء مفعول جواز الأمان

يوم ٦ مايو ، فرتب — بعد أن رضى لوثر بهذا على مضض — كميناً له فى طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذه خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفى السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابى ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التى أعدها ألياندر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم إنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . إنه وثنى فى إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذى يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة فى بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه ينكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحى وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يلحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذى يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل . . . وعند ما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان »(٨٢).

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسى من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابى (الدايت) المجرد من السلطة على المنشور ، وفى اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد أليائد الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ — الراديكاليون

كانت فارتبورج فى حد ذاتها قطعة من العذاب الكئيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مختفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) فى غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضى حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألمانى الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطب قتل الأرانب فى الوقت الذى لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأسقمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب الجعة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألمانى شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتعفن هنا . . . بودى أن أخوض غمار المعركة »(٨٣) . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل فى مخبئه لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للعثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر فى خلوته الفكرية وتساءل أيمكن أن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأحبار على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى نذير بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها فى أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت تزعجه . . . أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان فى مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالجوز(٨٤) . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته(٨٥) . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأصدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات فى علم اللاهوت وبترجمة العهد الجديد إلى الألمانية وقام فى إحدى المرات برحلة خاطفة إلى فيتنبرج ليزكى نار ثورة ؛

وكان تحديه لرجال الدين فى ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتيهون إعجاباً .

وفى أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً فى الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومحفوظات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفى خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون فى أرفورت الدير وبشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجمود والخيلاء والشح والترف والجحود والهرطقة »[٨٦] .

وحينما ألف ميلانكتون فى فيتنبرج كتابه **Loci Communes rerum theologicarum** (١٥٢١) — وهو أول عرض منهجى للاهوت البروتستانتى . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة فى كنيسة القلعة ، بأن يتلى القداس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين — من رهبان وقساوسة علمانيين — وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة فى ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو فى الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : « يا للسماء ! أيقبل أهالى فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟ »[٨٧] ومع ذلك فإنه وجد فى الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن « عهود الرهبنة » دافع فيها عن نبذهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان فى نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريزة الجنسية أمر طبيعى لا يمكن قمعه ويعلن أن عهود الرهبنة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام . وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً فى افتتاح عهد الإصلاح الدينى .

ومضت الثورة قدماً فى اليوم الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأواكويستيون فى بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القداس فى دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفمبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما خلت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مماثل . وفى الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية فى فيتنبرج وطردوا القساوسة من المذابح ورجموا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعذراء . وفى الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنشيسكان فى فيتنبرج وفى اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لا يزال متنكراً فى زى نبيل ألمانى شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية»(٨٨) . وفى اليوم التالى عاد إلى فارتبورج وبعد ذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلىّ أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادى كان يتذكر دائماً فى فزع الضرر الذى حاق به فى المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا فى اختباره إلى حد بعيد وحملوه ما لا طاقة له به بلا وازع من ضمير . ولم يكن فى وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحمله بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكى يضرب

فى كل اتجاه بمدقات الحنطة والهراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلهم عادوا إلى رشدهم وخففوا من استبدادهم الجنونى . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لى عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرفيقة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التى تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فإنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء »(٨٩) . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا الالتجاء إلى القوة فالله منتقم جبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شىء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعند ما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب خبط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم »(٩٠) .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلستادت القداس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القــداس .

وفى ذلك الوقت تقريباً دعا جابرييل تسفيلينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت .

وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفيكا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

فى ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشتغلون بالنسيج فى ظل بلدية أعضاؤها من السادة التجار ، وشُجّعت حركة اجتماعية من العمال بأصداء وذكريات تجربة التابورية التى قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح توماس مينتسر راعى كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبر عن آمالهم وأصبح فى الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الدينى ، وعند ما أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل عمن يفسر النص أعان منتسر واثنان من رفاقه — وهما نيكولاس ستورك النساج وماركوس شتيبنر العالم — أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يؤجلوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه كل الفجار — بما فيهم جميع القساوسة الجامدين بصفة خاصة ، ونبدأ بعد ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية(٩١) وفى عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج منها وحصل على أبرشية فى « الشتدت فى ساكسونيا » . وذهب ستورك وشتينر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكار لشتادت أثناء غياب لوثر .

وفى يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين فى فيتنبرج ، وفى يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة فى المجلس البلدى إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذى ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى فى

(٤)

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير فى أمور الدنيا ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن نتأمل فى آلام المسيح التى تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسبيه Byramus Thibes . . . أبعدوا آلات الأرغن والأبواق والناى إلى المسرح »[٩٢] .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم القساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار[٩٣] . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسيفاكاو — أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين فى اللغات والكتب — ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرض الآباء على أن يحافظوا على براءة أطفالهم من التأثر بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التى رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف يفصم عرى النظام الاجتماعى بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التى أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحلق شعر رأسه وسارع بالعودة إلى فيتنبرج ، وفى يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ سلسلة مؤلفة من ثمانى عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يحبذ وقتذاك أى التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحرر الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعونى فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذى كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التى لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم فى القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيرونى أولا (١٤) ... أمهلونى بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء فهل نحرم شرب النبيذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننتزعها من السماء(٩٥) ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية(٩٦) . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشريعة التقليدية فى إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس فى كنيسة أخرى بالخبز وحده فى المذبح العالى وبالخبز والنبيذ فى مذبح جانبى . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلا والمهم هو الروح التى يتناول بها القربان المقدس .

كان فى أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية فى تلك العظات الثمانية التى ألقاها فى ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شيء لكى يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح فى ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحى من الله فقبل التحدى وأجابوا بأنه يضمر لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاءهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبرشية فى أورلاميند يه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد »(٩٧) . ولقد سبق كارلشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالمحراث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضّل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلاميندية ليعظ ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين(٩٨) . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسعى إلى مكان أمين مع لوثر وحصـــل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالى ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً فى بازيل حيث قضى نحبه فى هدوء عام ١٥٤١ فى جو مدرسى .

٧ — أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً فى الجامعة — ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥,٠٠٠ دولار؟) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته .

وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس فى دير أوغسطينى مع طالب يقوم بخـــدمتها وقال : « كان فراشى لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قذراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فإذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أنى أتهاوى فى الفراش دون أن أدرى أن هناك خطأ ما »(٩٩) . وكان العمل الشاق يغفر له شهيته المفتوحة وفى هذا يقول : « إنى آكل كبوهيمى وأشرب كألمانى والحمد لله آمين »(١٠٠) .

وكان يعظ كثيراً ولكن فى إيجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغة بسيطة أخاذة تستولى على ألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هى الشطرنج

والعزف على الناى ، ويبدو أنه كان يجد متعة أكبر فى الساعات التى يقضيها فى مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ فى الجدل لا يصده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً ممتزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعناً . وترك خصومه يتأنقون فى اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عنـد ما يريد مخاطبة العالم المسيحى بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يبزه مؤلف ألمانى آخر فى وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفى مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة وفى تشبيهاته الموفقـة والتى كانت أحياناً تبعث على الابتهاج فى ألفاظ تمتد جذورها فى كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها ببراعة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتـذاك جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تذكيها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التى دبجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، فى ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الدينى أما الكتب التى كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجد من يشتريها ، فى حين كانت مؤلفات لوثر هى أكثر الكتب رواجاً فى هذا العصر ، وكانت لا تباع فى المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة فى سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما بيع منها فى باريس عام ١٥٢٠ فاق ما بيع من أى كتاب آخر . وفى مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضى المنخفضة وانجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر فى كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره فى الناس »(١٠١) .

ورجح الأثر الأدبى القوى للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبى أوروبا إلى شمالها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هى الإصلاح الدينى ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذى جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمانى عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تثير مائة مسألة فى التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام فى التركيب ، واستخدم لوثر فى ترجمة العهد الجديد النص اليونانى الذى كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثنى عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم فى مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة فى هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة فى هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألمانى وأصلت اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى ساكسونيا العليا — باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغى ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات فى بيوتهن والأطفال فى الشوارع وعامة الناس فى السوق . . . يجب أن نسترشد بهم فى الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نخاطبهم بالألمانية»(١٠٢) . ومن هنا كان لترجمته فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى .

وطبعت فى فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد إبان حياته ، وظهرت فى أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من المنشورات التى تحرم تداولها فى براندنبرج وبافاريا والنمسا فإنها أصبحت أكثر الكتب رواجاً فى ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التى واكبت الحركة القومية والتى سايرت هزيمة الكنيسة العالمية فى بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيرتها .

ولما كان لوثر قد أكب طويلا على الكتاب المقدس وورث وجهة نظر القرون الوسطى عن صدوره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر الأوحد لعقيدته الدينية وشريعتها . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التى لا تقوم على ما جاء فى الكتاب المقدس — مثل تعميد الطفل والراحة يوم الأحد — فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة فى أن تضيف إلى المسيحية عناصر لا تعتمد على ما جاء فى الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين وكان كشف فالا عن « هبة قسطنطين » (هبة أوربا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة عتيقة فى التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين فى الوثوق بروايات الكنيسة وشكك فى الشرعية الملزمة لمراسيمها وفى عام ١٥٣٧ ترجم لوثر نفسه رسالة فالا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزلل أما الكتاب المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان فى وحى من لدن الله ، وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى فى غرور إلى فهم الجلال الذى يدق على الفهم لنور عجائب الله التى لا تدرك . . . ونحن نتطلع بعيون مغمضة ، مثل حيوان الخلد ، إلى مجد الله »(١٠٣) . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر » .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التى كشف لنا الله عنها فى كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة . فإذن كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه فى العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدته ثم غدا رجلا يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب(١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفجر صنائع للشيطان كبغى فتك بها الجرب والجذام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هى وحكمتها . . . فاقذفها بالروث فى وجهها . . . وأغرقها فى العماد »(١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة(١٠٧) أرسطو ذلك الوثنى الداهية المغرور اللعين .

ومع ذلك فإن لوثر خطا خطوتين فى اتجاه العقل : جعل الموعظة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن فى الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد فى تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس : إلى أى مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا وبيلاطس أوهيرودس »(١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها وبين رأى بولس

فى التبرير بوساطة الإيمان ، واسترابِ فى أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدا أنها تنكر صحة التوبة بعد العماد (ولذلك فإنها تؤيد الذين ينكرون التعميد النصرانى) وقدر أولا أن سفر الرؤيا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هى رسولية ولا نبوية »(١٠٩) .

« أما سفر عزرا الثالث فإنى أقذف به فى نهر ألبا »(١١٠) . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التى تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شىء بانتظام فى حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكثالكة أكدوا أن الاختبارات التى وضعها للحكم على الصحة والوحى كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحذون حذوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شىء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بحذافيره وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس فى الحوت فى الكتاب المقدس لسخر منها وعدها خرافة وبالمثل حكايتا عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقـــدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقى حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازى(١١١) وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانيات وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فكر بشرى ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر وندرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضائل الضوء لكى يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة المزيلة التعسة التى نحياها على الأرض »(١١٢) .

وعندما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحى الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس .

٨ — لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات المأثورة فى القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكى وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حذا فى ثورته حذو ويكليف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فثورته مثل ثورتهما تكمن فى رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شىء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلهما البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلهما الحماية فى رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكليف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسى للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتصم بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التى شابت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الحيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو رائد فلسفة الجدليين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف — الرسل — المسيح إلى تكفير عن خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان فى وسعه أن يتكلم بفصاحة عن رحمة الله وعفوه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح باعتباره القاضى الأخير أكثر استقراراً فى نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تقريباً فى الطوفان وأنه أحرق سدوم وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها اللعنة إلى الأبد »(١١٣) . ونبذت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة وهى التى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وبقى فيها اليوم الآخر بكل ما فيه من فزع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون هذا كله قد سلط الوحوش المفترسة والديدان والنسوة الخبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطابى الفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك »(١١٤) .

ولقد أخذ الجنة والجحيم قضية مسلمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم(١١٥) . ووصف جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدللة « لها شعر ذهبى يلمع كالأحجار الكريمة »(١١٦) ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير كلابهم المدللة . وتحدث فى ثقة مثل الأكوينى عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لا أجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظمة لا نهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التى تحيط بمصير الإنسان وفى هذا إقحام للزرادشتية فى لاهوته . كما سلم تسليماً كاملا بالمفهوم السائد فى القرون الوسطى عن الشياطين التى تهيم فى الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد للإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم فى الغابات والمياه والبرارى وفى الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهى متأهبة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم فى السحب الكثيفة السوداء »(١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً لمخاوف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إنى أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً(١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناى وأحياناً كان يفزع الشيطان المسكين(١١٩) بأن يرميه بأقذع السباب(١٢٠). وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات المخيفة التى تصدر من الجدران وهى تتقلص من البرودة فى الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هـذه الأصوات ، وكان فى وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحوم حوله وأن يستأنف نومه فى هدوء(١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهى فى نظره من فعل الله(١٢٢) . وكان يجد صعوبة فى إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعى . ويبدو أن كل التراث الشعبى التيتونى عن الطيف الصخاب أو الروح التى تحدث الضجة قد صدقه لوثر بحذافيره والشياطين يؤثر أن تتقمص أجساد الثعابين والقردة(١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التى تذهب إلى أن فى وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالا فكرة صائبة ، بل إنه أشار فى مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذى يولد نتيجة لهذه العلاقة(١٢٤). وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية(١٢٥) واجب

مسيحى بسيط . وكان يشاطره فى معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكثالكة أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد فى قوة الشياطين وقدرتها على الوجود فى كل مكان بلغ فى القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل فى أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشيطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتى .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاقتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحى أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهير بعيدة عن روح المسيحية ولسوف تكون هكذا ... والأشرار يفرقون دائماً الأخيار عدداً »(١٣٦) . بل إن أعمال الشر فى الرجل الخير تفوق فى عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى فى الميزان أمام آثامنا »(١٢٧) . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطقسى الذى أوصت به الكنيسة — الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداسات للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمنها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها »(١٢٨) ولم يشك فى مدى الحاجة إلى الإحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس(**) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هى وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بغرائز تتفق مع مرحلة الصيد ولكنها فى حاجة إلى كبح مستمر فى الحضارة .

(**) انظر الطوبوات — اصحاح متى ٥ : ٣ — ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب »(١٢٩) . ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة — فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته — أن تكفر عن الذنوب التى اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية — آلام ابن الله وموته — ، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهى . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن فى قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو »(١٣٠) . وهذا الإيمان هو الذى « يبرر » — يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعمد سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة »(١٣١) . وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحى هو أن يطرح جانباً كل يقين فى الأعمال وأن يقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً »(١٣٢) واستطرد قائلا فى فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الخاطئين :

« إن يسوع المسيح ينحنى ويدع الخاطىء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقذه من الموت . . . أية تعزية للأرواح التقية أن يعتصم بالمسيح على هذا النحو وأن تلفه فى خطاياى وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعده هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! . . . وعند ما ترى أن خطاياك تلصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم . . . إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمَل الذى يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً فى الخطايا إلى أذنيه فيأتى الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعدا ؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شىء آخر تعمل من أجله »(١٣٣) .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرهفة الحس التى كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً فى جسامة ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تيتزل المزعوم « أسقط قطعة نقدية فى الصندوق تتبدد ذنوبك كلها » وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التى زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهناك فقرة تسترعى الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغوينا الشيطان بإلحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

« اسع إلى مجتمع رفاقك الطروبين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكى يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . بودى لو كان فى استطاعتى أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان ! »(١٣٤) .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرحة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح فى الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصح الوعاظ اللوثريين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده(١٣٥) .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلى بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لاعتقاد عملى ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل فى أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولا وقبل كل شىء صالحاً إلى الحد الذى يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخاطىء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات(١٣٦) غير أن ما أنكره هو فاعليتها فى سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلا صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات »(١٣٧) . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذى ينجيه من عذاب الجحيم ؟ إنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التى يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء »(١٣٨) . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين فى نار جهنم(١٣٩) .

« هذه هى ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذى ينجى من عذابه قلة من عباده والذى يعاقب الكثرة منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق فى تقديره أن قضى علينا باللعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيب الأشقياء . وإذا استطعت بأى جهد عقلى أن أدرك كيف يكون الله رحيماً فى الوقت الذى يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون بى حاجة إلى الإيمان »(١٤٠) .

وهكذا نرى أن لوثر فى غمرة رد فعله القروسطى(*) ضد كنيسة عصر النهضة التى ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق : وها هو عالم اللاهوت الذى كتب ببلاغة لا تضارع عن « حرية الإنسان

(*) نسبه الى القرون الوسطى .

المسيحى » قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) فى إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شىء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليماً بكل شىء فإنه يعرف كل شىء مسبقاً وكل شىء لا بد أن يحدث كما سبق فى علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث فى كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قدراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح »(١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق فى علمه فحكمته هى قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذى لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب » وحطم أحد المناطقة جسد زوجته بعصبية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب »(١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً فى لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين فى تزمت لا يلين وبدا راغباً فى قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان فى وسعه أن يكون أكثر تسامحاً فى قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه فى الخضوع لسلطان بابوات يشتطون فى جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتى للكنيسة بأنها هى الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والأتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والهراطقة . . . إلخ) يسيرون فى ظلام دامس سادرين فى الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا فى آثامهم»(١٤٣) . هنا ولدت من جديد فى فيتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التى تقول : «لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة» .

وأعظم مادة ثورية فى لاهوت لوثر هى تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، ولسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هالة التــداسة التى جعلت نظام القسوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون «أولا بين أنداد» ولكن أى إنسان فى وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل تائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة الدعة التى يعيشونها فى الغالب وأن يتزوجوا ويكدحوا مع الآخرين ، فالرجل الذى يجر المحراث والمرأة التى تشتغل فى المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمتم بصلوات غير مفهومة فى تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هى الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة(١٤٤) .

أما القرابين المقدسة التى كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهى لا تنطوى على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكالها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد يعفو الله فى الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغنى عنها . أما العماد فهناك بينة

عليه فى مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعى باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذى يستند إليه فى الكتاب المقدس(*) . وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الربانى . ويرى لوثر أن الفكرة التى تذهب إلى أن القسيس يمكنـــه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح سخيفة تنطوى على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيذ فى القربان المقدس . وليس القربان المقدس سحراً كهنوتياً ولكنه معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر فى القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت فى شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسى وأصبحت المحاكم المدنية فى أوروبا اللوثرية هى المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هى السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمنيون موظفى الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا فى الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التى كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنفها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذى أصبح الموضوع الأساسى فى الحياة العصرية .

٩ — الثورى

عند ما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مدوية غاضبة كانت بمثابة الناقوس المنذر بالثورة تقريباً ، فى كتيب « ضد

( ) استبدل به فى الشعيرة اللوثرية الاعتراف الجماعى بالإثم على أن يتبعه الإبراء العام .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمغ البطاركة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكدحهم ؟ . . . إنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف نبتسم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجسد أو بالمتاع أو الشرف للقضـــاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون »(١٤٦) .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يطيعوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تجنح الإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله فى ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء فى العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاقين على ظهر الأرض . إنهم السجانون والجلادون الذين يسلطهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التى تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فإنى بكل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز فى المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » وإنى أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطيئتكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركى ولن يجديكم فتيلا تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلا بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادى يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانوا من طغيانهم وغرورهم فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذى كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام »(١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافارى بأن هذه دعوة للثورة تتسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها إفك وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها . ولكنه على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك **Wenzel Link** (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوى الذى طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا »(١٤٨) . أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهى ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع فى هذه الجماعة أو فى هذا العالم المسيحى ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر ولا يوجد شىء ملك لأحد فحسب »(١٤٩) .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الحرفى ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً فى السياسة والدين بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى فى القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحفاظ على المجتمع الزراعى الذى عرفه فى طفولته واستمراره مع إدخال بعض وجوه التحسين التى تتسم بالبر . واتفق فى الرأى مع الكنيسة فى القرون الوسطى فى إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرحة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مرذولة »(١٥٠) واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال . وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعاً لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردتهم من البلاد »(١٥١) ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة فى فم آل فوجر »(١٥٢) ، وانتهى إلى رأى ينذر بالويل فى رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغى أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكنى أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشنق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ الروماني : « الأغرار من اللصوص يزج بهم فى السجن ويطرحون لآلات التعذيب بينما يسير اللصوص المعروفون للناس فى الخارج يرفلون فى الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا فى آخر الأمر ؟ إنه سوف يفعل ما يقوله لحزقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفى هذه المرة أخشى أن يكون هذا على الباب(١٥٣) .

وقد كان .

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ – ١٥٣٦

١ – الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون فى صبر نافد فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والمولين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد فى إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضى الغنية التى تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألمانى إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفى الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان فى لانداو تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيكينجن مدينة تريز وقذفها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام إليه لخلع كبير الأساقفة الحاكم ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته فى لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم فى اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات فى اليوم السابع من مايو . وخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبثوا فى قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التى كانوا يعتمدون عليها فى معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه فى صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد جذورها عميقة فى الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف فى عصمة منها »[١] . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الجديد . وترددت فى كنيستى لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » — وهى العبارة التى أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأخذ الوعاظ الإنجيليون ينتقلون بحرية فى أرجاء شمالى ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم ينددوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، ولكنهم نددوا أيضاً بالسادة الزمنيين باعتبارهم « مستبدين ظالمين »[٢] . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزمنيين كانوا هم أنفسهم ممن اهتدوا بهدى العقيدة الجديدة : فيليب الهسى وكازيمير البراندنبرجى وأولريخ الفيرتيمبرجى وأرنست اللينيبرجى وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إيزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب فى نورمبرج (١٥٢٢) طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التى تردّت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسىء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه فى كل شىء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم فى المناصب . لقد حدنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملا صالحاً ، لا أحد بتاتاً . . . والملاك . . . فإننا سوف نبذل كل ما فى طاقتنا من جهد لإصلاح المحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهى التى ربما كانت سبباً فى كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح »(٣) .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فردريك كبح جماح لوثر ، ولكنه تساءل لماذا يجب أن يدان لوثر لأنه أشار إلى المظالم التى ارتكبها رجال الدين والتى أيدتها السلطات وقتذاك . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفى من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بوساطة مجلس وطنى يعقد فى ألمانيا برئاسة الإمبراطور .

واستمع المجلس النيابى نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، فى عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت إحدى اللجان إلى المدن الكبرى فى ألمانيا تطلب منها إبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فإنها قدمت دفاعاً كلاسياً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأرامل والأيتام :

« إن العالم المسيحى (أم ينبغى أن نقول العالم بأسره ؟) غنى بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل فى بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية فى القيام بأعماله فى ألمانيا فإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتخسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدراً معيناً فماذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر وشأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدرته أو على رأس ماله »

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح فى الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدى إلى ظلم فادح وضرر بالغ بإبعاد معاش الأرامل والأيتام وبقية المعذبين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات فى هذه الشركات »(٤) .

وأصدر المجلس النيابى تشريعاً بألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علنى ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشترى تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة فى أى فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون فى أرباح الاحتكارات فإن مراسيم نورمبرج سرعان ما أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابى (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيو ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولى فى أوجسبورج واضطر إلى دخول نورمبرج سراً حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكلا نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابى من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع فى مهدها فإنها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابى رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهى بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »(٥) وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ — حرب الفلاحين

١٥٢٤ — ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للكادحين فى الحقول أيديولوجية تستهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر فى رخاء ألمانيا المتزايد . يضاف إلى هذا أن الشدائد التى كانت قد حفزت أهل الريف للقيام باثنتى عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما فى ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا الاضطراب المحموم ازداد شدة فى الوقت الذى تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر الأمراء وحطم سدود النظام والرهبة ، وجعل من كل إنسان قساً وأعلن حرية الإنسان المسيحى . وكانت الكنيسة والدولة فى هذا العهد بألمانيا مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً — وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً فى النظام الاجتماعى والإدارة المدنية — إلى حد أن تقويض ما يتمتع به رجال الدين من هيبة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون والبغارديون وإخوة الحياة المشتركة فى تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد مطبوعاً لطمة لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فضح ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش فى الدنيا كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين .

وكان العهد الجديد فى هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعى » حقيقى بالنسبة للمتطرفين فى هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء ضماناً إلهياً لكى يحلموا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الملكية الخاصة ويرث فيها الفقراء الأرض .

وفى عام ١٥٢١ وزع فى ألمانيا كتيب عنوانه **karsthans** أى جون المذراة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر فى العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكثالكة من رجال الدين(٦) وطالب يهانس إبرلين فى كتيب آخر صدر عام ١٥٢١ بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الخبز والنبيذ كما كانت فى القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب[٧] .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » نسب زوراً إلى الإمبراطور فردريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الرومانى والقانون الكنسى وتحديد حجم العمل فى المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء[٨] . وأعلن أوتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجيلية البروتستانتية بالآمال اليوتوبية ، وكشف أحدهم أن الجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة فى وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعيهم بأن « المزارعين والعاملين بالمناجم ودارسى الحنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفى وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقهين فى اللاهوت » ، وأردف كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر »[٩] . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء فى العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكى حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس فى المدن والفلاحين فى الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سممت أفكارهم الكتيبات والخطب التى لا تحصى والحافلة بالسباب والتى نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء »[١٠] . ولكن لوثر والوعاظ ومؤلفى الكتيبات لم يكونوا السبب فى الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق فى المظالم التى حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

اللهب »[١١] وحولوا استياء المضطهدين إلى أوهام يوتوبية وإلى عنف لم يكن فى الحسبان وإلى انتقام شديد .

وتشبث سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُين واعظاً فى آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار – أى الأرثوذكس أو المحافظين – بحد السيف وقال : « إن الكفار لا حق لهم فى العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة »[١٢] . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب فى ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكى يقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذى كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبى »[١٣] وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكيره بها فى حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق »[١٤] . وتسامح الأمير المختار فردريك فى هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضما فى الرأى إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الحانق يضرب فى الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض[١٥] .

ووجد فى مدينة ميلهاوزن الحرة فى تورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدى الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامجه المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين فى المناطق المجاورة ، وفى يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها[١٦] ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت فى هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ جامعة أمم (كومونويلث) شيوعية ، وأثبت بفيفر أنه أقدر فى الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة فى دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصيحة التى أطلقها بين رجاله هى « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء »[١٧] .

وفى نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزلزل جنوب ألمانيا ، ولعل عاصفة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التى قضت على كل الآمال المعقودة لجنى محصول فى شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذى أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكى يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شىء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفى ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إيحاء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين فى أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونستانس وكونتات فردينبورج ومونتفورت واوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالى ٣٠,٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح فى جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التى تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت .

وفى مارس ١٥٢٥ صاغ فى ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثنى عشر التى أشعلت النار فى نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحى ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجديد ؟ وهل لا بد ألا يمتثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم ؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة فى البنود التالية لكى يزيلوا أولا هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولا نعرب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيئتنا جميعاً هى أن يتحقق لنا فى المستقبل قوة وسلطان يهيئان لجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق فى عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت فى العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه فى المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذى تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعى . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقى على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون فى القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكى ينتفع بها الناس دون قيـــد . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسى ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكى المراق الأدنياء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هكذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعينين (الذين عينهم لنا الله) فى جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا تخالجنا أية ريبة فى أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يرينا فى الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التى تتزايد من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضى لا تكفى غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والخراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضى المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراع من الحقول المشاعة والتى كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء إلغاءاً تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأرامل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأ فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضل كلمة الله فإننا نتراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس(١٨) .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التى وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأنكر مسئوليته عنها وأشار إلى أنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكره على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضـــلا عن هذا فإنكم فى حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التنكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكى تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب فى سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحيق بكم لا محالة إذا لم تصلحوا من وسائلكم فى الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدى هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتحطيمها بقتل الناس فى قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويجنبنا هذا المصير »[١٩] .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة ، ووجه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، ولكنه توسل إليهم أن يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين فى وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أى ثورة سوف تصم بالعار حركة الإصلاح الدينى وأنه سوف يلام على كل شىء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق فى فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحى يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبناؤه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ اقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء فى ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، ذلك لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا[٢٠] .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لجنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلا عن طغيانكم واضطهادكم حتى يتنفس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التى تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدراكهم[٢١] .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للتراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلا أو آجلا فى أية مصالحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا فى الثورة . وتشبث بعضهم حرفيا بحلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت خدم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبثوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب[٢٢] . وانهالت المطالب بالبريد من العمال فى المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف فى المدينة ، وباختلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم فى الوقت الذى ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا فى مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هبلر وفردريك فايجانت تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم فى كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل(٢٤) .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الحانات هما جورج ميتزلر وميترن فوير باخر ، وكان هناك جيكلاين روورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصبة سيكنجن المهزومة — فلوريان جيير وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » وشاء القدر أن يقع اختيار هاوبتمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلا منهما بطلين لمسرحيات شائقة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فان الثورة اشتعلت فى ربيع عام ١٥٢٥ فى اثنتى عشرة منطقة متفرقة فى نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية فى البلدية فى هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة فى فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذاك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفى روثنبورج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبيذ التى يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر(٢٥) . وتخلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثارت غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سبير وبامبرج ورهبان دير كيمبتين ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنيبرجى أرقاءه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبرخت

الهوهنلوهى للمثول أمام زعماء الفلاحين للانخراط فى سلك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهم كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين »(٢٦) . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالى الريف بترحيب قلبى ، وأيد الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة فى لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهى واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبايعوا فى سخرية واحداً من جمعهم أجاس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس(٢٧) . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصبة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفزع الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهى وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقون فقد عفت العصبة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفى يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فاينسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير ورورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذى كان يمقته الناس بسبب قسوته وشدته . واقترب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجىء وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفى يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالى المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدججين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهى ابنة الإمبراطور الراحل ماكسمليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر رورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو بجيير ، أمراً للسبعة عشر رجلا بالمرور بين صفين من الفلاحين المسلحين بالحراب لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة فى تذلل شموم أن يبقى على حياة زوجها ولكن روورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشوة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حتفه وسط وابل من الخناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخى فى غياهب السجن لأنه لم يرفع قبعته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران فى نير العبودية . . . لقد قطعت يدى والدى لأنه قتل أرنباً فى حقلك . . . لقد داست خيولك وكلابك وصيادوك محاصيلى . . . لقد استنزفت منا آخر نفس لدينا » . وفى خلال نصف الساعة القادمة لقى الستة عشر فارساً حتفهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير(٢٨) .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشغب فى كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم فى خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « فى كل مكان يجاهر الثائرون . . . بنيتهم فى قتل كل رجال الدين الذين لا ينفصلون من ولائهم للكنيسة ويعلنون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكى تماماً من البلاد »(٢٩) . ولعل فى هذا شيئاً من المبالغة ولكن فى وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكرهوا الأرشيدوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس — وهو مطلب بروتستانتى خالص وذلك فى بافاريا والنمسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفى ماينز فر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العاصفة ، إن قام نائبه بإنقاذ كرسى الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثنى عشر ودفع غرامة قدرها ١٥,٠٠٠ جيلدر ، وفى الحادى عشر من شهر أبريل رفض أهالى مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة فى الألزاس انتشار النار فى الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكى وكل مالك ثرى فى المقاطعة يخشى على حياته . وفى الثامن والعشرين من من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديره وفى يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبى وبأن يكونوا عرضة للعزل(٣٠) .

وفى بريكسين بالتيرول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلى (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين فى هذا العهد ممن كانوا لايتعاطفون مع الثوار إنه فى جميع أودية نهرى اين واتش كانت هناك — جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير فى الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحا شائعين إلى الحد الذى كان فيه الأتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما »(٣١). وفى فرايبورج — أم — برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكرهوا المدينة على الانضمام إلى « الأخوة الإنجيلية » ، (٢٤ مايو) وفى الشهر نفسه أقصت عصابة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه فى مخازنه . وفى شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التى تشرف على المدينة ، وفى نيوشتادت فى البلاتينيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض(٣٢) .

وفى هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكن لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفى وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التى تقوم بالسلب والقتل » . وأفزعت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة فى ألمانيا وآلمته الاتهامات التى تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر فى كتاب سابق على الحكم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولى تناسوا ما عرضوه وعمدوا إلى العنف وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمـــل إبليس (منتسر) الذى يحكم فى ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم فى هذه الظروف . . .

إن أى إنسان يمكن إثبات شغبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتى معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتيتم الأطفال وتقلب كل شىء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أى إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سراً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شىء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذى يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضربه فإنه سوف يقضى عليك ومعك بلد بأسره . . .

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوع إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه فى الإصحاح الرابع . إنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين فى سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم لهيرود — مشاعا لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فما أروع هؤلاء من مسيحيين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان فى الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين » .

أما الحكام الكثالكة فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتشاق الحسام لأن أى أمير أو سيد يجب أن يتذكر فى هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللذين يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ... وإذا كان فى وسعه أن يعاقب ولا يفعل — حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء — فإنه يبوء بإثم كل جرائم القتل والشرور التى يرتكبها هؤلاء الأتباع . . . وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعذبهم الضمير فى النضال كالأبطال ما دامت قلوبهم تخفق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتذكر أن الثورة لا تحتمل وأن دمار العالم أمر متوقع فى كل ساعة »(٣٣) .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قرائها فى الوقت الذى بدأت فيه الطبقات المالكة فى إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الوقت يعللون الفلاحين البسطاء بالوعود والأماني وبهذا أغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفي ذروة الفتنة مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام عام ١٥٢٥) وكان رجلا هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقي الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم في اتخاذ اجراءات الانتقام وترك لخلفه الدوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الجديد شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على اللين وهو أمر يجافي الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنري دوق برونزفيك وفيليب لاندجريف الهسي وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفوقهم إلا عدداً . كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء . بيد أن معظم الرجال في قوات الدوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأمهم في الصلاة وفي ترتيل الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من الثوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكنهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم والتمسوا العفو عنهم رحمة بهن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسي قسيسين كانا قد حرضا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان الدوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد[٣٤] . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بفيفر ومعه ١٢٠٠ جندي عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بفيفر وباقي القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفى غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبلنجن (Böblingen) بطريق المفاوضة وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للثوار خارجها (١٢ مايو) . وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هذا على الثورة فى فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى فى بطء بجسد جيكلاين روورباخ الذى تزعم « مذبحة فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين فى كينجزهوفن وانجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتسبورج وأطاح برءوس واحد وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبرة للآخرين (٥ يونية) . وفر فلوريان جيير من فيرتسبورج ليعيش فى غياهب النسيان وظل أسطورة يرددها الناس فى إعزاز واستسلم جيتزفون برليخنجن فى الوقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضد الأتراك ومات على فراشه وفى قلعته بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روتنبرج فى ٢٠ يونيه وسرعان ما تلتها مدينة ميمنجن وسحقت الثورة فى الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل فى ليبشتاين وتسابيرن (Zabern) (١٧ — ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠,٠٠٠ فلاح فى الألزاس وحدها وفى كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت(٣٥) وأمر ماركجراف كاسيمير Markograf Casimir بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفى الحالات المخففة قطع أيديهم أو سمل عيونهم(٣٦) ، وتدخل الأمراء العقلاء فى آخر الأمر فى تخفيف همجية الانتقام ، وفى نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابى فى أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال فى توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساءل شريف فيلسوف قائلا : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟(٣٧) » .

واستمرت الثورة عاماً فى النمسا وفى يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسمايير فى أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستانت) الذين يضطهدون « كلمة الله » الحقة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من الكنائس وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف دفع الإيجارات والمكوس للسادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى وللفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم فيجب أن تؤمم وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار(٣٨) . وقدر لجاسمايير أن يهزم التى أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق فرديناند ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانيين عند ما اغتالاه فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى ساحة القتال أو على نطع التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠,٠٠٠ رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتلأت أعطاف جلاد تروخسيسس زهوا لأنه قتل بيديه المدربتين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون أنفسهم فقد دمروا مئات القلاع والأديرة وأقفرت مئات القرى والمدن من ساكنيها أو أصبحت خراباً بلقعاً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيتم الآلاف من الأطفال ولكن قلوب المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت خاوية وكان المتمردون قد أحرقوا فى كثير من الحالات المواثيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

للسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحيت من جديد هذه الالتزامات وكانت فى بعض الحالات أكثر رفقاً بهم وفى أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين فى النمسا وبادن وهس أما فى المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر فى عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة فى الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل فى الموت .

واندثر الإصلاح الدينى نفسه أو كاد يندثر فى حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المتنصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألقت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضفى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية »[٣٩] واعتبر المحافظون نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفى الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفزع ولاءهم للكنيســة الرومانية . وفى أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية[٤٠] . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر المجن للإصلاح الدينى وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليجنر » أى « الدكتور الكذاب » و « المنافق صنيعة الأمراء »[٤١] . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكى يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥ يونيه عام ١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقى والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدوننى بالموت »[٤٢] .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفى يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس أمسدورف يقول : « فى رأيى أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسلطان إلهى »(٤٣) . وفى يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثائرون فى قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغى أن يأخذ الحكام بتلابيب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك ألسنتهم »(٤٤) .

« إذا دار بخلدهم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكميم أفواه الناس فإنى أجيب بأن هذا صحيح ، إن أى ثائر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه لن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفم هو لكمة تدمى الأنف ، إن الفلاحين لن يصيخوا السمع . فى آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ فى حاجة إلى تأديب بمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلاد عند ما يأتى ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا لن أسمع أو أعرف شيئاً ولكنى سوف أهتم بإرادة الله التى تتضمنها كلمته . . . إذا شاء جل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تفيدك الرحمة ؟ ألم يأثم شاؤل بإبداء الرحمة لعماليق عند ما فشل فى تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عندما كان الفلاحون ساخطين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يفزعون لمرآهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقضوا عليهم قضاء مبرماً ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين فى شئونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفى الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصى آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا فى حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التى تهددها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهددون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف فى مأمن منهم ولكن على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجالل العار النساء والأطفال ولسوف يتعودون أيضاً على قتل أحدهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان فى أى مكان . هل سمع أحد عن شىء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عند ما تمتلىء بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكمون بالقوة »(٤٥) .

وقد تصدمنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعى توطد بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نتعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهى أن عصابات الفلاحين تحول شكاواها العادلة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بخرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع فى ألمانيا . وبررت الحوادث تحذيره بأن الثورة الدينية التى خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التى كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشلة . وربما شعر بأنه مدين شخصياً بعض الشىء للأمراء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليـــه الحماية فى كيتنبرج وورمس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من ينقذه من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كفت سلطة الأمراء عن حماية الإصلاح الدينى ، والحرية الوحيدة التى رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هى حرية عبادة الله والتماس الخلاص طبقاً لما يمليه ضمير المرء .

وأية أهمية فى أن يكون المرء أميراً أو عبداً فى هذا الموجز للحياة الأبدية ؟ إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تذمر مرتبطين بالجسد والواجب ولكن متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية فحسب بل قال إنها لن تسوءه وإنه سوف يحييها بابتسامة حتى لو غسل الناس أيديهم فى دماء الأساقفة ، ثم إنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام الاجتماعى للخطر بل وسخر من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يقم بأى اعتراض على نزع السلطة الزمنية لملكية رجال الدين فكيف كان فى وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حق التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة . لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ، وأثار فيهم الأمل ودفعهم إلى العمل ثم تخلى عنهم فى الساعة الحاسمة . وفى يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخراً(٤٦) وعاد كثير منهم أو من أطفالهم برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ — اللامعمدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ — ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التى صاحبت الأقليات المتدينة الثائرة ، فى تحزبها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية فى القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الخازوق ، إلا إذا لاحظنا مدى الحماسة المتأججة التى يعتنق به معاصرونا الهرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعمدانيين (المعمدين من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء فى

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يؤجل ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقى الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو فى نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا فى حياته(٤٧) ورفع دنك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقـــدس ذاته . واتبع معظم اللامعمدانيين منهجاً تطهرياً ، يتسم بتزمت فى الأخلاق ، وبساطة فى السلوك والزى . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستنكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحيتهم العادية « سلام الله عليك » وهى ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التى اتخذتها طائفة الكويكر . وفى الوقت الذى اتفق فيه لوثر وزونجلى وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الدينى ، أخذ اللامعمدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيبماير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤(٤٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع الدعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعد ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعمدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابوريين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمتعة(٤٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزوجات(٥٠) . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية فى الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختيارى المتبادل ، وتمسكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة فى ملكوت السماء(٥١) .

ولقد استلهمت كل جماعات اللامعمدانيين سفر الرؤيا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكد كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار — وهم هنا كل الناس ما عدا اللامعمدانيين — بحد سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يخصهم المجد فى فردوس أرضى بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زاخر من أطايب كل شىء(٥٢) . وعلى هذا فإن الناس الذين يحدوهم هذا الأمل ساحوا أنفسهم ضد الكدح ووحدانية الزوجة .

وظهر اللامعمدانيون لأول مرة فى سويسرا . ولعل مسيحية تدعو إلى السلام قد تسربت من ثورة الولدان فى جنوب فرنسا والبيغارد فى الأراضى المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما فى بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعى . ولعل بعض الفقرات الشيوعية فى « المدينة الفاضلة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقـــة زعماء لا معمدانيين وهم : كونراد جريبل وفيلكس مانز الزيوريخى وبالتازار هيباير والد شوتى فى حدود النمسا المواجهة . وفى ١٥٢٤ زار ميزر والد شوت وجاء كارلشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللامعمدانيين فى زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ وبمجىء المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخدمة العسكرية وضرائب العشور وتحريم حلف اليمين .

ولقـــد كان أولريخ زونجلى فى ذلك الوقت يكسب إلى صفه مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التى تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد « الإخوان » أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد فى الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل فى تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعمدوا . وندد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجـــلى لقب التنين العجوز ، وتظاهروا فى الطرقات وهم يصيحون « الويل لزيورخ ! »(٥٣) . واعتقل زعماؤهم ونفوا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت ـــ جول وابنتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيبماير إلى صفه والدشوت بأسرها ، وجلس فى ابنتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : « لا تحمل هما لطعامك » وأخذوا ينتظرون أن يأتى الله ويطعمهم(٥٤) .

وليس من شك فى أن النجاح الظاهر الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، ولكن فشلها شجع طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتـــقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جريبل ، ثم هيبماير ، وأمر بزج كل اللامعمدانيين المتشبثين بآرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن « يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم »(٥٥) . وحدث هذا لجريبل وأغرق مانز ، أما هيبماير فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ، وأنكر ردته وأخذ على عاتقه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر فى كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنى ـــ وأظهرت المقاطعات التى تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً فى قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ،

وفى غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، فى أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلى ، وحولهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز دنك وهيمايرفى أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قارن كثير من عمال المناجم فى التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هوخشتتر ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللامعمدانية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما فى ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضاعف دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيباً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأغنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله »(٥٦) . وفى هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظمى . وصدق مجلس سبيير **Speyer** النيابى (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللامعمدانيين أينما وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعمدانى تحقيقاً عن النتيجة ؛ ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على الخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منثوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار . . . وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رءوسهم بالسيف أو ألقى بهم فى لجة الماء . . . ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا فى غياهب السجون المظلمة . . . واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات فى غياهب السجون . . . وختمت على خدودهم أرقام تركت فيها أخاديد . . . أما الباقون فقد طوردوا

كالبوم والغربان ، التى لا تجرؤ على الطيران بالنهار واضطروا فى أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو فى الغابات أو فى الكهوف والحفر[٥٧] . . .

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمدانى قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفى انزيشايم ، إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفى سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد شـ ـــادهم على نار بطيئة حتى لاقوا حتفهم (١٥٢٨)[٥٨] . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التى استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفى هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمالى ألمانيا . ورحب بعض الأشراف فى بروسـيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادى الفيرا فى ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا فى أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لهداية الناس المشرفين على الهلاك . وفى ليبيك سيطر جيرجن فولنفيفر المتهم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ — ٣٤) ، وفى مورافيا أحرز هيبابر تقدماً لعقيدته المعتدلة التى فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن « على المرء أن يطعم الجائع ويروى ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا فى الحقيقة لسنا مطلقى التصرف فى ممتلكاتنا ولكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب » . وكسب هانزهوت[٥٩] ، الذى ألهبته تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين فى مورافيا من هيبابر بتبشيرهم بشيوعية كاملة فى الأمتعة . واعاد هيبابر إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية وألقى بزوجته وهى مقيدة الأطراف فى نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيوعياً فى أوستراليتز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون ، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون فى أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضى حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدحهم الواعى . وكانوا يقومون بالمشاركة فى الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة وللحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقى طبقاً لحاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوى على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيوعى بمرسوم إمبراطوى صدر عام ١٦٢٢ فى حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى المجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفى الأراضى المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمدانى لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس فى ليدن إلى الرأى القائل بأنه لن يكون فى الوسع الانتظار فى أناة لمجيء أورشليم جديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد فى أرجاء هولنده اثنى عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان بويكلزون المعروف فى التاريخ باسم جون الليدينى وفى أوبرا مبير بير باسم « النبى » . وكان ، دون أن يتلقى تعليماً نظامياً ، حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه ، ونظم الشعر ، وعند ما وقعت فى يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التى تختلف عما كان ميلهاوزن قد حصلها وفقدها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك فى الرابعة والعشرين من عمره وفى تلك السنة قبل دعوة مشئومة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهلة بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذى نمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدث فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعى أن تسيطر على المجلس .

وفى عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا فى غمرة حماستها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وسخر من الباقى وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرته . فجاء جون الليدينى (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . وخشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكى يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهلون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليدينى فى الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنيبر دولنجاك وكيبنبرويك عمدتين وبدأت التجربة المثيرة .

ووجدت منستر نفسها على الفور فى حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفى حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد فى ألمانيا ضدها . ولكى يحمى المجلس الجديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضى بأن يخير جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة فى قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألغى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبى ولجنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاً منهما زعماء من رجال الدين . ولقى ماتيس حتفه وهو يقاتل فى هجوم فاشل لفك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون الليدينى حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التى أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشـاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية فى الداخل بتفاوت الأمن فى الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التى لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية(٦٠) ، وكان يراودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التى وردت فى سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء لجنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل ، وأصبح جون الليدينى ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل فى أذهان البسطاء معنى من معانى الوقار المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، واتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين فى الوقت الذى أشرف فيه الأهالى المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة »(٦١) ثم ماتوا جوعاً فى شىء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية فى منستر محدودة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الخصوم أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع(٦٢) ، ولكن فى الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً فى كل شىء ما عدا المجوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، ولكن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ إصحاح من الكتاب المقدس وتنشد أناشيد قدسية . وعين ثلاثة من الشماسين لإمداد الفقراء بحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة(٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيليات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التى تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصدروا أمراً يستند إلى السوابق فى الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رفيقات للزوجات — وكن فى واقع الأمر حظايا(٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتى ارتبطن حديثاً قد تقبلن الموقف على أساس أنه أفضل من العيش فى عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين فى المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقى جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الخمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعمدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً فى انتصار القدس الجديدة واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عدة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان(٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم فى خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسيرون وراءه فى هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط فى خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن . وعنـــد ما طلب « رسلا » لاقتحام الطريق لطلب العون من جماعات اللامعمدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلا أن يخترقوا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعا وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتيال الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعمدانيين فى ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفتهم الأخوية فى منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استحساناً للثورة . ونمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعمدانية دعت فيها بنجاح اللامعمدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقتها كلها بدداً . وفى الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعمدانيين على دير فى وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التى استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية فى كل مكان . وها هو لوثر الذى كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع المراطقة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم «كفاراً بل بوصفهم من كبار مثيرى الشغب»(٦٦) وأذعن ميلانكتون ، وأرسلت مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف . وأصدر المجلس النيابى فى ورمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بفرض ضريبة على كل ألمانيا لتمويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويحرمها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملك جون المجاعة وخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانتهز الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدى جنود الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة بهن فى أداء خدمات مختلفة . وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتحمت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت المجاعة قد أنشبت أنيابها فى المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمتاريس فى السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفتشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون الليدينى واثنان من أعوانه على الساريات ، ونهش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار حتى «أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً فى السوق من الرائحة المنتنة» ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر(٦٧) .

واستعاد الأسقف المدينة ، وزاد سلسطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشى اللامعمدانيون فى أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو فى طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء الهراطقة المسالمين . وأشار ميلانكتون ولوثر على فيليب الهسى بإعـــدام كل من انضموا إلى الطائفة(٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادى والســـياسى الذى توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الألفى (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة — التى لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكى اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جداً ، إلى حد أن « المينونيين » عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة فى هولندة وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين فى القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والأيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التى اتخذت أشكالا متعددة(٦٩) فى سويسرة وألمانيا وهولندة . وتشترك هذه الجماعات تقريباً فى صفة واحدة ، وهى تصميمها على تقبل العقائد التى تخالف عقائدها فى سلام . وأن علم اللاهوت الذى ساندها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصـــدقها وولائها ومسالمتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فوج من اللامعمدانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بنسلفانيا ، واستقر فى جرمانتاون أو بالقرب منها . وهؤلاء الدونكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٢٠٠،٠٠٠ . وفى عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللامعمدانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافى ، واستقروا فى جنوب داكوتا والبرتا .

وفى شرق بنسلفانيا لايزال المينونيون الاميشيون – وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش فى القرن السابع عشر – يرفضون رسميا استخدام الأمواس والأزرار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لايستخدمون الجرارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تنسيقاً فى أمريكا ، وبلغ تعداد المينونيين ٤٠٠،٠٠٠ عام ١٩٤٩ .

الفصل الثامن عشر

زونجلى — الإصلاح الدينى فى سويسره

(١٤٧٧ — ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير فى القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية فى صد الهجوم الذى قام به شارل الجسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جذوة اعتزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التى قام بها ماكسمليان لإخضاعها اسماً وفعلا للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثارت منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابى وهو نيكولاوس فون دير فلو — الأخ كلاوس فى الذاكرة السويسرية — أقنعها بأن تركن إلى السلام .

وانضمت مقاطعة إثر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبلت فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازيل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عشرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهجات الألمانية — ما عدا فريبورج وبرن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية — جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شئونها الداخلية ، أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابى الاتحادى تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كاملة ، فقد

حرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقليات من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجا يحتذى فى حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ — ١٥١٢ فرصة تفكك وحدة إيطاليا ، واستولت على بلينزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت فى تأجير خدمات الفرق السويسرية — بموافقتها — للسلطات الأجنبية . ولكن الاتحاد تخلى عن التوسع الإقليمى بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية فى موقعة مارينانو **Marignano** (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياد ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكثيرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات فى التاريخ .

وكانت الكنيسة فى سويسرة لينة العريكة وفاسدة ، كما كانت فى إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازموس فى بازل ، ومنحتهم قسطاً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقى ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسةالسويسريون بالخطايا(١) . وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع فى عام واحد ١٥٢٢ جليدر من هذا المصدر(٢) . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويثملون علناً(٣) ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، فى الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيوريخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ، ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ على أن يدير مجالس المدينة فى جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة فى نطاق سلطته(٤) ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الدينى كانت قد تحققت فى زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهى سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التى رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ ــ زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطردة التى تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون فى بيوت متواضعة . ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جانبهم التوفيق حياته (أول يناير عام ١٤٨٤) فى كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التى تربض فى واد جبلى على بعد خمسين ميلا جنوب شرق زيوريخ فى مقاطعة سانت ــ جولد الحالية ، سقف جملونى منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطئة ، وحجرات مظلمة ، ودرجات تحدث صريراً ، وأسرة متينة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ؛ وهذا البيت التاريخى يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعى فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الخارق للطبيعة فقد كان يبدو أملا لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة فى هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معتزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف فى كنيسة قرب فيزين ، فى تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل فى أن يكون زونجلى نزعة إنسانية وإتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعندما بلغ الصبى العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية فى باويل . وفى الرابعة عشرة دخل كلية فى برن يرأسها أحد الأهلين من أنصار الكلاسية المبرزين . ودرس من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة فى جامعة فينا ، فى الفترة التى ازدهرت فيها الدراسات الإنسانية ، فى عهد كونراد سيلتس . وكان يسرى عن نفسه ما يلاقيه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناى والسنطير .

وفى الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ ، الذى هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صكوك الغفران وعزوبة رجال الدين والقداس . وحصل زونجلى على درجة الماجستير ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول قداس له فى فيلدهاوس وسط الأقارب المبتهجين ، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة راعى أبرشية(٥) فى جلاروس على بعد عشرين ميلا .

وهناك تابع دراساته فى الوقت الذى كان يؤدى فيه واجباته بغيرة وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة مؤلفات هوميروس وبندار وديموكريتوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر وليفى وسينيكا وبلينى الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقاً على مؤلف لوسيان الشكاك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ، ويصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقراً إياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر بتطرته من التطرف فى العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأى القائل بأن قدامى الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط أو سينيكا حظه المقدور ولا يتلقى الإنعام من البابا »(٦) . ولم يسمح لعهود الكهنوتية بأن تحرمه من ملذات الجسد ، فكانت له علاقات مع نساء مترخصات ، وظل منغمساً فى ملذاته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعبأ بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين فى جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية فى جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما فى وسعه لكى يحمل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب فى المعارك التى دارت فى نافارو وماريناتو ، جعلته يعارض بشدة أى تدبير ابيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفى عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسى فى جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلى إلى أبرشية فى أنيزيدلن بمقاطعة شفيتز . وهنا اصطبغت عظته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، ونادى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كبير الأساقفة الكاردينال ماتهويس شينر أن فى الكتاب المقدس أجازة ضعيفة للبابوية ، ولقد هاجم فى أغسطس عام ١٥١٨ مساوئ بيع صكوك الغفران . وحرض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذى أقاموه للعذراء ، والذى يعود عليهم بالربح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحجاج بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التى اقترفوها وإعفائهم من العقاب أيضاً »(٧) . وعاد بعض الحجاج من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفى العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » فى جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى فى زيوريخ أعظم المدن السويسرية جرأة ، وكان فى ذلك الوقت يقترب من النضج فى الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليونانى ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذى لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من الصوفية ، التى أسهمت فى تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح النسب ، له صوت شجى ، يستولى على ألباب جموع المصلين فى كنيسته ، ولم يكن يضارع لوثر فى الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت مقنعة ، لما تتسم به من صدق وصفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضد بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز فى أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون الراهب الفرنسسكانى من ميلان (Bernhardin Samson) مضيق سانت جوتار ، وأصبح تيتزل سويسرة . وقدم صك غفران من البابا ليو إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع بنسات ، وبتلويحة من يده أعفى كل الأرواح التى هلكت فى برن من عذاب المطهر . واحتج زونجلى ، وظاهره فى هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ، ولما كان ليو العاشر على علم بشىء من الأحداث الجارية فى ألمانيا ، فقد استدعى رسوله المتلاف . وفى عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون فى زيوريخ ، وقضى على ثلث السكان فى خلال نصف عام . ولازم زونجلى مقره ، وواصل العمل ليلا ونهاراً فى العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى المرض ، وأشرف على الهلاك . وما أن عوفى حتى غدا أعظم شخصية فى زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهانى بعض الشخصيات المرموقة ، التى تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بيركهايمر وديرر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً للقساوسة فى جروسمنستر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن ينادى فى سويسرة بالإصلاح الدينى .

٣ — إصلاح زونجلى الدينى

ولقد تغيرت شخصية راعى الأبرشية فى كنيسته ، دون وعى منه تقريباً ، وإن كان هذا التغيير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادى . . . كانت الموعظة قبله هينة الشأن ، ويكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلى الموعظة المسيطرة فى إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى فى النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس « عن الكنيسة » ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقديسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء فى الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذى يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعينين فى نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه فى الكتاب المقدس . وفى عام ١٥٢١ أقنع زونجلى المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين فى صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعندما استمر الكاردينال شينر فى تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلى لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها « إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقربين يقطر من ثناياها »(٨) . ولما لم يجد فى العهد نصاً يحرم اللحم فى الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلى فى كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أرديتهم ، ويموتوا فى جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان فى إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له فى الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائى من الكنيسة جدلان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايك فى ليبزج ، وكانت لهما أصداء بعيدة فى جدل أنصار الفلسفة الكلامية فى جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يروعها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلقى أذناً صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتباط مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة فى قاعة المدينة ، للاشتراك فى الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ — يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ — يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها فى وضوح وجلاء . . .

١٧ — المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون فى الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ — أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القداس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب . . .

٢٤ — المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا فى جميع الأوقات كل أنواع الطعام . . .

٢٨ — كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ — لا أساس للسلطة الروحية التى يطلق عليها اسم (الكنيسة) فى الكتب المقدسة وفى تعاليم المسيح .

٣٥ — إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (إصحاح لوقا ٢ — ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١) . . .

٤٩ — لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعى على القساوسة ، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧ — إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر . . .

٦٦ — على جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا بالتوبة ، وأن ينصبوا صليب المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلطة موضوعة على الجذر(٩) .

ورفض جوهان فابر — الأسقف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلا ، وطالب بأن تطرح أمام جامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلى أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك فى متناول الناس باللغات الدارجة ، صار فى وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفى . . . ووافق المجلس وأعلن أن زونجلى برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت فى زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً فى الكتاب المقدس . وهنا تولت الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا فى عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة — بعد أن ضمنت لهم الدولة الآن رواتبهم — أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعمدوا باللغة الدارجة وأغفلوا أمر القداس وتخلوا عن تقديس الصور . وبدأت عصبة من المتحمسين فى إتلاف الصور والتماثيل بلا تمييز فى كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلى من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرى (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلى ، إعداد كتيب يتضمن تعليمات ، توضح العقيدة للناس ، وأن يتوقف فى مضمون ذلك العنف بجميع صوره . وألف زونجلى بسرعة « مقدمة قصيرة فى المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين فى المقاطعة .

واحتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكيه ، وأيدها فى الاحتجاج المجلس

النيابى للاتحاد الذى اجتمع فى لوسون (٢٦ ينايرسنة ١٥٢٤) ، فى الوقت نفسه تعهد بالقيام بإصلاح كهنوتى ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلى عقيدته بتوسع فى رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقى والزائف (De vera et false religione) (١٩٢٥) و (Ratio fidei) (١٥٣٠) وقبل لاهوت — الكنيسة الأساسى — إله ثلاثى التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقنوم الثانى ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة إثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن فى طبيعة الإنسان[١٠] . وقد اتفق فى الرأى مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق فى الرأى أيضاً مع لوثر وكالفن فى موضوع القدر : كل حادث وبالتالى المصير الأزلى لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التى بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة . . . مهنة مربحة لمن ابتدعوه »[١١] وليس فى الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرابين المقدسة فإنها ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله . والاعتراف السرى لا ضرورة له ، وليس فى وسع قسيس أن يغفر لأحد — خطيئته — فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتاعبنا إلى قسيس[١٢] . وليس العشاء الربانى ، أكلا فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلى على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التى

يقرها الإصلاح الديني ، وناول القربان بالخبز والنبيذ معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرت في العام . وفي ذلك الاحتفال العرضي أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلونه باللغة الألمانية في سويسرة . أما في باقي السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبي وقدرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضروري أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلا لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والسلوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التي قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية في سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة ليوجود إعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاور عام ١٥٣٤ في زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر — وهي خير منها — بأربع سنوات .

وفي امتثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليدها اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخلفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرغن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلي الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلا كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان سخيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيباً للاستسلام للخرافة والوهم بحيث يستحق الإتلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلا ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر خلف زونجلي إلى أن يحزن لفقدها . وكان لزونجلي نفسه موقف متسامح من التماثيل التي لا تعبد باعتبارها أصناماً خارقة الصنع (١٣)، ولكنه صفح عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام (١٤)، وسمح للكنائس القروية في المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكثالكة ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا في الوظائف

العامة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرم[١٥] مبدأ أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهم ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التي كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الديني ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقي ، في عهد زونجلي وفي زيورخ ، تفوق ما بلغه في عهد لوثر وفي فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، في نوفمبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التي كانت تعاني منها الحكومة ، وتم بين زونجلي وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلا ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشئون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس في كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلي بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن في الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق في زونجلي ، كما تحقق في كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبي الذي يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلي هذا النجاح التام والسريع في زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة في المقاطعات التي تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكل الجديد للعقيدة القديمة ؟

٤ — إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الديني « الاتحاد » ويبدو أنه قدر له أن يقضي عليه . وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والجريزونيون أن تناصر زيورخ ، أما باقي المقاطعات فقد ناصبتها العداء . وكونت خمس مقاطعات — وهي لوسرن وأوري وشفتيز وأونترفالدن وتسوج — حلفاً كاثوليكياً لقمع كل الحركات الهسية واللوثرية والزونجلية (١٥٢٤) ، وحث الأرشيدوق فرديناند النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعدها بتقديم المساعدة . وليس من شك في أنه كان يطمح في أن يستعيد سلطات آل هابسبورج في سويسرة . وفي السادس عشر من يوليو وافقت كل المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية في المستقبل . وردت زيورخ وزونجلي على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة ثورجاو لإعلان الإصلاح الديني . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا في حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم التماثيل في عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثارت روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور في بازيل خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعد سماع وعاظهم ويخرجون من الكنيسة «كرجال تملكتهم جنة ، يرتسم الغضب والهياج على أساريرهم ... كمحاربين يسيرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوي »(١٦) . وهددت ست مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلي ، وقد أعجبه القيام بدوره الجديد كقائد حربي ، على زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

فى التيرول وبعد تورجاو وسان — جال بمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكى السلام بثلاثة شروط : —

أن يسلم لزيورخ دير سان — جال الشهير وأن يتخلى عن الحلف النمساوى وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورنر الهجاء اللوسرنى ، الذى طالما وجه نقداً لاذعاً فى كتاباته للمصلحين الدينيين . وسخر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثليها فى سان — جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) وخفت حدة التوتر فى فبراير إثر أحداث فى بازيل .

كان زعيم البروتستانت فى « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذى أسبغ على اسمه صفة الهلينية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه فى إتقان اللغة العبرية إلا رويخلين ، وذاع صيته كمصلح دينى وأخلاقى رقيق العاطفة فى كل شىء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره فى كنيسة سانت مارتن ، وفى كرسى الأستاذية للاهوت فى الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوئ كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء . وحياة لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلى الذى يشمل اضطهاد اللامعمدانيين ، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن « خلاصنا يأتى من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا »(١٧) . وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القداس .

واجتمع فى ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل فى كنيسة الفرانسسكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكثالكة من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس فى الأمر ،

وفى اليوم الثالى أقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلاح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعــد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينية التى وجدوها(١٨) . ووصف أرازموس الواقعة فى خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أدنى إساءة . أنهم لم يبقوا على تمثال واحد فى الكنائس أو فى الدهاليز أو فى الأروقة أو فى الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقى فى النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقى حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شىء بدافع الحب أو المال(١٩) .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القداس إلغاء كاملا ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس ريبانوس وكل الأساتذة فى الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفى مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروتستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظاته فى مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيبلى الجلاروسى فى كابيل ، التى تقع على بعد عشرة أميال جنوبى زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل المدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك فى أن الأمر ينطوى على خيانة ، وآثر أن يتقدم بجيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هم وجنوده ، الذين تآخوا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين زبين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابيل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجبها على دفع تعويض لزيورخ ، وإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى « الأراضى المشتركة » التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يتلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع ، وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته لمحاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية — أولم وأوجسبورج وفيرتمبيرج ومايتز وفرانكفورت — على — الماين وشتراسبورج — تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخــذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعــوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأويكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شمالى فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سخاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه يتشكك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصافح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجاسد » ، وأقنع الأمراء اللوثريين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر(٢٠) . واتفق ميلانكتون فى الرأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة(٢١) . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حث لوثر الدوق البرخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبدية .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجتاز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانه الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكى متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف يذوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى .

وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضئيل فى الحكومة ، وفقدت عظات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذى طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية فى مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

وخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته **ratio fidei** إلى شارل الخامس ، الذى لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفى عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية » ، وفى هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموسى بأن أى مسيحى سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخلصة منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن نراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة الفؤاد وسموا بالروح من هذا المنظر »(٢٢) . وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثنياً »(٢٣) ، واتفق الأسقف بوسويه فى الرأى فى هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى(٢٤) كافر لا أمل فى إصلاحه .

واجتمع فى ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية فى كابيل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) — جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ — واشتبك الجيشان فى هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث[٢٥]. وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر[٢٦] وانتصار لنا »[٢٧] ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبى لو أمكن إنقاذ حياة زونجلى ولكنى أخشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به »[٢٨] .

وخلف هينريخ بولينجر فى زيورخ سلفه زونجلى ، أما فى بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض فى الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتنقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود فى صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلا كاملا التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩) **Consensus Tigurinus** الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت فى السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة فى سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها فى كابيل ، وليس من شك فى أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها فى التاريخ إنما يتم بالتنافس فى المذبحة أو فى إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات — وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسورج وأوفترفالدن وفريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهى زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقيدتين لا يستقر رأيها على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالنتين تشودى ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية — من الكتاب المقدس لا غير — فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امرؤ أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسيحيون .

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ — لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التى شهدت مهد الإصلاح الدينى ، نرى لزاماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ فى ألمانيا أن يتمكن رجل واحد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات فى ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا فى حاجة إلى المبالغة فى دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسيماً آخر لها ، إذا استمر لوثر فى خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف فى شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضد أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة فى أوروبا ، يجعل الدم يغلى فى العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التى قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

ترى كيف بدا ذلك الرجل ، الذى كان صوت عصره المدوى ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألمانى ؟ لقد كان فى عام ١٥٢٦ ، كما صوره لوكاس كراناخ[1] ، وهو فى الثالثة والأربعين من عمره فى مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسمات وإن لم يخل من لمحة مرح قوية ، وله شعر مجعد لا يزال حالك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان — قال خصومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سحنة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر فى هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن رتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلق إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق فى الرأى مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطرى وضرورى كالطعام[٢] ، واحتفظ بالفكرة السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى فى الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»[٣] ، وندد بالعذرة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التى تقضى بالتناسل والتكاثر . وإذا « لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح »[٤] . وكان يعد طريقة البشر فى التناسل منافية للعقل بعض الشىء ، على الأقل عند تأمل الماضى ، ورأى أنه « لو استشارنى الله فى الأمر لأشرت عليه بأن يستمر فى خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم »[٥] . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانيا ، فالله قد خلقها للحمل والطهى والصلاة لا لأى شىء آخر ، وهو القائل « انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشىء »[٦] . و « إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس فى هذا ضرر ، دعهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا »[٧] . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال ببنانها أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه[٨] . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكي وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع[٩] .

وكان لوثر يكنّ كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينبسن بشفة »[١٠] ، ولكنه ازدرى الكتاب الذين ألفوا مقالات فى هجو النساء ، وقال : « مهما يكن فى النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن فى الخلوة برفق . . . لأن المرأة قارورة هشة »[١١] . وعلى الرغم من صراحته الفظة فى أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجمل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن يرسلن شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يسقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »[١٢] . (وكان هذا حرياً بأن يجعله أكثر ليناً مع البابا اسكندر السادس الذى عشق شعر جوليافارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال فى نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلا لكى يستقر على رأى فى هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق فى آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت فى أن توقعه فى حبائلها ، وعملت مربية لكى تكسب ما يسد رمقها . واقترح عليها

لوثر أن تتزوج من الدكتور جلاتز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر فى الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين فى السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت فى السن يحرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة ، وهكذا تزوج الراهب السابق فى ٢٧ يونية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة .

ومنحهما الأمير المختار الدير الأوغسطينى الكى [illegible] منه مقراً لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلدر (٧,٥٠٠ دولار) فى العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ، وأحبتها وأنجبت له ستة أطفال ، وتعهدتهم بالرعاية فى إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسمك ، وحديقة للخضر ، وربت له الدواجن والخنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن فى وسعها أن تضعه فى موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التى تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسلم من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشريها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصفة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له فى شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للانسان زوجة تقية رقيقة ، تخشى الله وتحب البيت »(١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالفطرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا »(١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ، وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألمانى .

وإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً فى الحرب ، فإن شجاعته قد انهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها »(١٥) . وكان يتلو الصلوات ليلا ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه إنى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شاءت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر »(١٦) . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، إنك تحبين أن تظلى هنا مع أبيك . أتريدين أن تذهبى إلى ذلك الأب الآخر ؟ » .فأجابت لينا : « نعم يا أبتاه كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكاها طويلا بكاء مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلا كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحبين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن »(١٧) .

ولم يقنع بستة أطفال فآوى فى بيتـــه كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم إلى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم إياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والذكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً إلى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المجادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . وندرك ، أولا وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

دواة ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطايب الطعام وشراب الجعة ، أو استمتاعه المثمر بكل المباهج ، التي استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً فى هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون فى عصر النهضة ، ولا الألمان فى عهد الإصلاح الدينى ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصدمنا بحديثه الفسيولوجى الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرط فى الشراب . ولكنه كان يبدى الأسف ، ويعد الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالنبيذ بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً فى تلك الأيام الخوالى ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه فى السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لى أنى صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملنى لأنى أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكى أكرمه »(١٨) .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً فى الحماسة لا يبدى أية مجاملة لخصومه ، ويتشبث بالخرافات ، فى الوقت الذى يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه فى الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلابة أو مثلا أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلا « لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومى بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ »(١٩) وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قذارة وروث(٢٠) ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعتهم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفرة « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دمغ إنسان « بشارة

البهيم فى سفر الرؤيا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر »(٢١) . ولنا أن نتصور إلى أى حد كان المستمعون إليه يجدون متعة فى هذا العبث . وقد قال : « إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذى اضطر البابا إلى إعفائه من رقابته هو العَجُز ! »(٢٢) وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين لا يكاد يتسع لكى يغرق فيه كل عصبة المتعصبين الرومانيين الملاعين . . . من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان »(٢٣) أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى بأن يرسل عليهم صيِّباً من النار والكبريت كالذى قضى على سودوم وعمورة »(٢٤) ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذى صدر من الإمبراطور جوليان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب »(٢٥). ولكن لوثر عجب مثل كلايف لاعتداله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنى شديد الشراسة ضد البابوية ، ولكنى على النقيض من ذلك أشكو من أننى ، للأسف لين العريكة إلى حد كبير . وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ، وأن تكون كل ريح صاعقة(٢٦) : ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثوى فى لحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهذبة . . . لأنى لا أستطيع أن أصلى دون أن أصب اللعنات فى الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك اسمك » فإننى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » . وإذا كان ثمة ما يدفعنى إلى أن أهتف « لتأت مملكتك » فإنى مضطر إلى أن أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنى أتلو صلواتى سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً فى قلبى دون توقف(٢٧) ، وإنى لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنى أستطيع ، عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلى ، وأن أعظ على خير وجه ، لأن مزاجى بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة »(٢٨) ، ومثل هذه العاطفة البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة قائلا : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسالات من طائفة المحافظين كانوا

يضارعون لوثر فى هذه الناحية »(٢٩) . وكان الطعن متوقعاً من المتصارعين فى مجال الفكر ، ويستطيبه المستمعون ، وكان الشك يخامر الناس فى أن الأخلاق المهذبة دليل على الجبن . وعندما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجى العزيز » — رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس »(٣٠) وإن جواباً ليناً يمكن أن يطفىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقلب البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتنكب معركة مميتة مثل هذه . وقد اقتضى الأمر جلداً صفيقاً — أغلظ من جلد أرازموس — لنبذ الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقتضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، ففى أواسط عمره كان مثلا أعلى فى الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم فى حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنق فى ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلا منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التى كانت تتبع زعامته . وعندما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التى يفهمونها . وكان المداعبته مسحة ريفية إذ كانت خشنة مرحة متحللة من كل القيود ، مثل دعابات « رابيليه » ، وقال شاكياً : « إن أعدائى يفحصون عن كثب كل ما أفعل ، فإذا ضرطت فى فيتنبرج فإنهم يشمون ريح الضرطة فى روما »(٣١) . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات »(٣٢) . وليس من شك فى أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعابات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذى تفوه بمثل هذه الدعابات كان يحب الموسيقى وهى هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذى ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة ، وأسلمها — وفى هذا تحامل لاهوتى كان راكداً لحظة من الزمن — إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل فى الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أتخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة مقابل أى شىء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة الفؤاد »[٣٣] .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن باللين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقـترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقى مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعند ما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يذوى من أثر الوساوس الكئيبة حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً فى مرح أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق فى الخطايا إلى أذنيه» ، ولكنه يسخر من المفتى المصاب بفقر الدم[٣٤] ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاح العارض . وثمة أمر واضح فى جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هى أن نأكل ونشرب ونمرح »[٣٥] . ويقول : « إنى أنشد المتعة وأتقبلها حيثما أجدها ونحن نعلم الآن ، ولله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضمائرنا مرتاحة »[٣٦] . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول[٣٧] ، التى لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكى تعلم الدماثة بين

الصحبة ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسى لا مانع عندى من حضورى معهم فى بعض الأحايين ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً فى الرقص لو أننى فعلت »(٣٨) . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : « يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس »(٣٩) .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحياً باعثاً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن « كل النوازع الفطرية ليست بعيدة عن الرب أو ضده »(٤٠) ، « وأن كل تسعة أرواح من عشرة قد علبها الله أن تخلد فى الجحيم »(٤١) . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى حد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عفن شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير فى فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، فى الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع (٤٢) البريةالحية على الشفاء ، والكوابيس الخبيثة ، التى تبحث عن العذارى فى حماماتهن أو فى مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعن بهن إلى الأمومة(٤٣) . وسخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك فى حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها « تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة »(٤٤) ، « وأعجب بما توصل إليه الفلك فى جرأة فى مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه فى هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقى فى الفلك ، باعتباره مناقضاً للكتاب المقدس ، وأصر على أن العقـــل يجب أن يلزم الحدود التى وضعتها له العقيـــدة الدينية .

وليس من شك فى أنه كان محقاً فى حكمه الذى يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلا بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه حبراً على الكل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلى ، بينما كان أرازموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب — وقتذاك فى كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك فى سبيل الرب ، فأصبح له الحق فى أن يسمع وقتذاك كطفل ضل فى فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف فى جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « إنى أحتمل حقد العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانتهم . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! »(٤٥) وكان لديه من الشجاعة مايكفى لأن يتحدى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلده ما يدفعه للشك فى صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغى عليه أن يفعل .

٢ — الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته ويقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التى اتهم بها البابا ليو العاشر فى منشوره Exsurge Domine لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس » وفى خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق فى أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفى ضوء فهمه الشخصى(٤٦) ، وأضاف قائلا : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق »(٤٧) وفى مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : —

إن الله هو المتصرف فى الروح وان يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكى يرى نبلاؤنا وأمراؤنا وأساقفتنا إلى أى حد تبلغ حماقتهم ، عندما ينشدون

إكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والهرطقة لا يشتدان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله(٤٨) .

وفى خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منتسر وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام . يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية لصدام العقول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفى عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للامعمدانيين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتفى بنفيهم(٤٩) .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى فى عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفى . حقاً أنه تحدث فى هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يغرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم . بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطابية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب فى يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفى شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة فى أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض فى « تخويفهم » قليلا لتحسين لاهوتهم(٥٠) . وفى مايو عام ١٥٢٩ أدان خططاً ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفى أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلقن الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أى إنسان على اعتناق العقيدة »(٥١) .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابى مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعه أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائيين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمق ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحى إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهوديا ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمق يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعى أن أتوقع فى هذه الحالة أن يجيئوا إلينا زرافات ووحدانا »(٥٢) . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت فى بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودى ، وذلك فى رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشـــد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يقم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداوه لتقاضى فائدة على أن ينقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفى جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط فى الأمر . وفى كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة »(٥٣) . واشتغرق فى سنواته الأخيرة فى نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار فى مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها ، وقال : —

ودعوا كل من يستطيع أن يلقى عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان فى وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . . وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً . ولتحطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق فى وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة ، ولتوضع فى الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة(٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففى عام ١٥٢٢ كان لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : « إنى لا أقبل أن يحكم على عقيدتى أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل من لا يتلقى عقيدتى بالقبول لن يستطيع الخلاص »(٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين العقيدتين ، وقال : —

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يلحق بها ضرراً . فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى ردودنا ، فإذا ما اهتدوا فبها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكى نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا نعانى من التعاليم المتناقضة فى نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة فى الكنيسة ، والتلاؤم معها فى ظاهر السلوك(٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية فى أن المسيحيين فى حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحقة ، التى

يستطيعون أن يحيوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة فى القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعفت بكثرة الطوائف الجامحة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التى نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبى ، وقال شاكياً : —

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحمق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائى مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً فى اللاهوت » . وآلمه ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقال فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، فى العقائد والأخلاقيات ، وانتهى فى الرأى مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعى فى حاجة إلى شىء من حسم المناقشة ، وشىء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة » فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هى الكنيسة نفسها لأن الكائن الحى وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغايرة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمراً صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام المراطقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تخفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك فى حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتـــله لا محالة ، ويجب أن تكون يدك هى أول يد تنفذفيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة فى إبادة طائفة الإلبيجنس فى القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التى عاملت بها الكنيسة من يخالفونها فى الرأى ، ولكنه سار قدماً فى نطاق وحدود سلطته ، لإقحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفى عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة فى ساكسونيا وبراندنبرج لسحق « العقائد الخبيثة » التى يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلى ، وفى عام ١٥٣٠ نصح ، فى تفسيره للمزمور الثانى والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهراطقة ، الذين ينادون فى عظاتهم بإثارة الشغب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون فى تعاليم مادة واضحة فى العقيدة . . . مثل المواد التى يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التى تقول « إذا نادى أى واحد فى تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان »(٦٠) . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية فى التعبير عن الرأى والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد فى الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلى إلى كارلشتادت فى وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح فى أخريات أيام حياته . ولقد نصح فى آخر عظة له بالتخلى عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكثالكة واللامعمدانيين فى صبر حتى يوم القيامة ، عند ما يتولى أمرهم المسيح »(٦١) .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثراً ، وفاقوه فى مطاردة الهراطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية فى الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتلة ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيتهم(٦٢) ، وقبل ميلانكتون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلمانى الذى قمع حركة اللامعمدانيين فى ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلا : « لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم(٦٣) . وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقى للمسيح فى القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام(٦٤) . وأصر على عقوبة الموت لكل طائفى يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك فى أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذى كفر عن خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار(٦٥). وهلل، كما سوف نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام(٦٦). وطالب بالقضاء على كل الكتب ، التى تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلى وأتباعه وضعت رسمياً فى قائمة الكتب الممنوعة فى فيتنبرج(٦٧)، وبينما كان لوثر ينفى الكثالكة من المناطق التى يحكمها الأمراء اللوثريون ، آثر ميلانكتون توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان فى الرأى بأن السلطة المدنية مرتبطة بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أى رفع شأن مذهب لوثر(٦٨) ، ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان فى ولاية فإن الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : ففى إمارة تغلب عليها الكثالكة يجب على البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفى مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت يجب على الكثالكة أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن يعاقبوا بشدة(٦٩) .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهى فى هذا قد حذت حذو السوابق الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواءمة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة فى أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً يحرم العبادة الكاثوليكية ويقضى بنفى كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ، بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت (٧٠) فرانكفورت — الواقعة على الماين — قانوناً مماثلا ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية فى الولايات التى يسيطر عليها البروتستانت(٧١) ، وانتهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلا فى مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار فى ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمدانى ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : «على كل من يعلم بحدوث شىء من هذا ، أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام فى هذا المكان لكى يُلقى القبض على الآثم ويعاقب فى الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم»(٧٢) .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين فى هذا بالكثالكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية فى حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية(٧٣) من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : «على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة فى البابوية قد أسىء استعماله بطريقة مخجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فإننا يجب ألا نعانى منه حتى نكفر ، ولكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح»(٧٤) .

٣ — العلماء الإنسانيون والإصلاح الدينى

إن العقيدية المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشيعهم الطائفى واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الدينى ، ولاهوتهم القائل بالجبر قضاء وقدراً وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوى وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصى فى حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت فى تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الدينى ، فقد كان المذهب الإنسانى ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسية ، أما البروتستانتية فقـــد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودى فى العهد القديم،وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية فى شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل إنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمنى بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الاتفاق الودى المريح ، أن أوروبا التيتونية كانت أقل مبالاة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذى يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردى . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التى ثارت بين لوثر وإيك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلى ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت فى غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميثولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التى رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوقة . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقى للإنسان من

تلك الكرامة التى كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض — كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم فى أدب السلوك الإنسانى يستحق الذكر — مجرد عمل آلى ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق فى علم الله ، وتنفيذ أوامره التى لا نعرفها ؟

وليس من شك فى أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط — ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورنر وسيباستيان برانت — قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هللوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملا لظلم مخجل ، وذلك كلما تشكل اللاهوت والجدل الدينى للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هلينى وسياسى ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة فى المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفى عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : —

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً فى مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التى تراكمت تدريجياً فى المسيحية . وعلى هذا فإنى كنت أرجوانا وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، ولكنى كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال شأفة الأخطاء الآنفة الذكر ، تسللت أخطاء لا تغتفر أشد جسامة ، إذا قورنت بها الأولى ، فإنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجيليين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخبل أو استلهم الشيطان »(٧٥) .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حيي لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح فى فيتنبرج » وسرعان ما شكا من أن لوثر « تعتريه لوثة مجنون »(٧٦) أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إيك من إحراق كتب لوثر فى أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبنى اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوبينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه فى عام ١٥٢٢ ، وبعث له برسالة أنبه فيها قائلا : —

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ نسأل الله النجاة ! إننا لنفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل »(٧٧) .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاءة أسلافهم الإيطاليين — فيليلفو وبوجيو وكثيرين غيرهما — تلك البذاءة جعلت لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراق لم يكن إلا سطحاً لاتهامهم . ولاحظوا — كما لاحظ لوثر — فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثريين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة النحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع فى العلم والحصافة ، وأعرب أرازموس عن الرأى العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون[٧٨] بهذا الرأى فى حزن — وهو يذهب إلى أنه حيث تنتصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب)[٧٩]، ودفع البروتستانت هذه التهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولا وقبل كل شىء ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات فى المجادلات الدينية الذهن والمطابع فى المانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير الهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروبن للنشر فى بازيل والاطلانسى فى فينا عدداً قليلا من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالياً ، حتى أشرفت على الإفلاس[٨٠] وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر فى ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيكنجن ، إلى سويسرة ، ولجأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق[٨١]، وبحث عن أرازموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والخصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمغ علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين[٨٢] . ورفض أرازموس أن يراه وزعم أن موقده لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يمسك عن نشرها إذا دفع له أرازموس ، ولكن أرازموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام جانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين فى بازيل فى طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة إقصاء الهجاء الحانق ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذى لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلى فى زيورخ (يونية ١٥٢٣) ، وقال المصلح الدينى وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا ... إلى هذا المخرب ؛ انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذى نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ؛ ، إن هذا الفم الذى تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة »(٨٣) . وفى غضون ذلك رد أرازموس على « تحذير » فى رسالة كتبها على عجل وعنوانها Spongia Erasmi adversus aspergimes Hutteni ، (أى إسفنجة أرازموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة فى زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التى تحدث بها عنه وأوصى بنفى الشاعر(٨٤) . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكته حرب الأفكار وأتلف الزهرى صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة فى بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملابسه وقلمه .

٤ — أرازموس — حاشية على آرائه
(١٥١٧ — ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازموس بالنسبة إلى الإصلاح الدينى يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية — هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازموس التى تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الدينى على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتصمون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة فى الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالا . وكان تفكيره فى

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، ولكنه فى فى النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاونت شجاعته وحسمه للأمور القومية أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألمانى ، فأثار أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب بلغة لاتينية رشيقة رقيقة لجمهور دولى ، إلى صفوة عالمية من خريجى الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويجد فيها متعة . كان إماماً فى الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغالاة . . . وهرب من ميدان العمل إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوى على الحذر ، وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ليسا جميعاً فى جانب واحد ، ورأى الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق فى وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل فى مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى كوليه ومور ، وكتب إلى كوليه يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت عن وجهها برقع الحياء . أى شىء يفوق فى القحة صكوك الغفران هذه ؟ »(٨٥) وكتب فى أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه فى الرأى كل الناس الصالحين ، وإن قيل إن كتاباته ليست كلها فى مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه فى رأيه حول المطهر ، الذى يعتمدون عليه فى كسب عيشهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم . . . وأنا أدرك أن الحكومة الملكية للكاهن الأعظم الرومانى (وهذا حال تلك الحكومة البابوية الآن) هى وباء يجتاح العالم المسيحى ، على الرغم من أن وعاظاً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها فى كل الظروف ، ومع ذلك فإنى لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرح المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الحبر الأعظم للحصول على قدر من الغنائم »(٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك فى لوفان ، وأسهم فى تأسيس **Collegium Trilingue** فى الجامعة ، بكراسى أستاذية فى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفى عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ، فاشترط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسداً وعقلا ، ولكنه إذا كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدور ما فى صياغة موقفه نحو الإصلاح الدينى .

وفى الوقت الذى جاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ، فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يجل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تخلله من لغو ، فإنه كان لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ، ذلك أن رجاحة العقل لا تتأتى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من الفئة القليلة المتفقهة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الثناء على الطيش » ، التى كان يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوربا ، تسخر من الرهبان والمشتغلين باللاهوت ، وتشدد من لذع خطابات لوثر المقذعة الجافية ، وعند ما اتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقست تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة»(٨٧) . ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإنسانيات الشهير ، أو ما ألمح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب فى ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس فى تواضع واحترام ينشد صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً فى حياته . وكان فى مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجبن ، وإذا اشترك مع لوثر فى عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يخسر فحسب ثلاثة مرتبات ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجد نفسه مضطراً إلى التخلى عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاقيات فى الرجال ذوى النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً فى هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وارهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوليه وتوماس مور وفرانسس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً إنهم كانوا على استعداد لأن يحجموا عن تقويض نظام كان فى نظرهم مرتبطاً بطريقة مبهمة مع حكومة الأمراء فى المحافظة على الاستقرار الاجتماعى ، ولكن يمكن تجنيدهم فى حملة لتخفيف الخزعبلات والأهوان فى عقيدة راجحة الكفة ، وفى تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفى السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفى حماية حرية الفكر من أجل تقدم العقل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحى انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو فى نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدا لأرازموس ، الطريق إلى

الجنون . وكان يراوده الأمل فى استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار فى فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتهبة(٨٨) ، وكتب فى أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، يحثه على حماية لوثر باعتباره رجلا ارتكب الناس فى حقه من الإثم أكثر مما ارتكب هو من آثام(٨٩) . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لى فى المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتنبض بروح مسيحية قد أسعدتنى أكثر من كل شىء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذى تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأى وسيلة ، ألا يراودهم الشك فى أننى عاونتك فى كتابة مؤلفاتك وأنى ، كما يصفوننى ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أنى لا أعرفك بتاتاً ، وأنى لم أقرأ كتبك ، وأنى لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأيى أيضاً أن الموضوعات التى كتبت عنها ليست من النوع الذى يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذيل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتميزون غضباً . . . وأنا نفسى الهدف الرئيسى للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم فى صفى بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء فى انجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لى فإنى اشغل نفسى بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأتحاشى الخلافات الأخرى ، ولكنى بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين يسيئون استخدام سلطة البابا بدلا من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جذورها فى لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية . تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم للغضب . لا تكره أحداً . لا تفرح بالضجة التى أثرتها . لقد اطلعت على كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم(٩٠) .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط فى المواجهة بين الضدين ، فان المشتغلين باللاهوت فى لوفان استمروا فى مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان اللوثرى . ووصل الياندر فى الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة البابوية التى تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النحارير زعامة الياندر وأقصوا أرازموس من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ، كما رأينا ، دافع عن لوثر فى مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا (٥ نوفمبر) ، وفى الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف باسم **Axiomata Erasmi** جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أى الحقيقة التى تعتمد على الإنجيل فحسب) وأنه لا يمكن قمع(٩١) مثل هذا المزاج الذى انتشر انتشاراً واسعاً . ودبج بمعاونة جوهان فابر الدومينيكانى عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم شارل وهنرى الثامن ولويس الثانى ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل فى قضية لوثر . وحث فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦ ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا يصخبون فى وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما فى جيوبهم . . . ولم يرد عليه أحد بعد أو يعدد أخطاءه . . . فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد

فكيف يحدث هذا فى الوقت الذى يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ... وأخلاقهم كريهة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلا مثل هذا ، لا تشوب أخلاقه شائبة ، وليس فى حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة فى كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء عليه وعلى كتبه ، ليضيع فى غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فان كل امرئ يجب أن يكون حراً فى أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفئ المدافعون عن وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أو بوضعهم فوق الخوازيق فإن الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شيء يبعث على النفور ويبعد عن الحكمة أكثر من نشرة البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب إلى أسوأ . ومهما يكن من شيء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمنيون البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ، وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها فى حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكنى أنا وأمثالى لا يطلب منا اتخاذ إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هى عليه ، وأفضل أن أرى الأشياء على ما هى عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدى إلى نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ، وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين لكرسى البابوية الرومانى ، وإن كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلى ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة فى أيدى رجال لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ، ولم يتأثر بآراء الآخرين »(٩٣) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا فى يوليو عام ١٥٢٠ قراءة إلى أن يغسلوا أيديهم فى دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً لمنشور البابا الذى يقضى بحرمانه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفى الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفى الوقت نفسه أرسل ليو تعليماته إلى الياندر بمعاملة عالم الإنسانيات بكل لطف . وعند ما اقترب موعـد انعقاد المجلس النيابى فى ورمس ، طلب أمير ألمانى من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدى إلى الإسراع بحركة الإصلاح الدينى ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفى فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجرؤ أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد حذرته منذ ست شهور خلت أن يحترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلونى » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة(٩٣) .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل فى مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شىء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف »(٩٤) . وفى الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت فى لوفان فى مهاجمة أرازاموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل فى أن يتناسى الإصلاح الدينى الفتى فى غمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات فى سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس رينانوس الذى نشر تاسيتوس وبلينى الأصغر ، واكتشف فيليوس بايتركولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى أعده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء مثل هانز آمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروبن (يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوصه و (قال عنه أرازموس) « ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة »(٩٥) وهناك عاش دىرر أعواماً طوالا ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية التى تخلب الألباب لفروين وبونيفاسيوس آمرباخ — الذى جمع المقتنيات الفنية الموجودة الآن فى متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفى زيارة سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط فى شىء من المبالغة التى تنطوى على الحب .

« يبدو لى أنى أعيش فى هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ، ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق زملاءه فى دراسة التاريخ ، وذاك متضلع فى اللاهوت ، وأحدهم بارع فى فى الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع فى القانون . وليس من شك فى أن الحظ لم يسعدنى ، حتى ذلك الوقت ، فى أن أعيش فى مثل هذا المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأى بشر وأى توافق »(٩٦)

وعاش أرازموس مع فروبن وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له فى بازيل (١٥٢٣ — ١٥٢٤) ولاتزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير أساقفة وارهام ، وهى الآن من مقتنيات ايرل أف رادنور ، والثالثة فى متحف اللوفر ، وهى من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بمعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطى نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإنسانيات تشى كهولته التى جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ فى السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالى الذى دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجدل والخصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته فى أن يكون عادلا مع الطرفين فى الخلافات المذهبية التى حدثت فى عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالحتان ، وتقاطيع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا فى لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقها الإصلاح الدينى إرباً .

وفى أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بألفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطتى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهدك بى عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى فى روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدنى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لنتبادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فإنك لن تندم أبداً »(٩٧) .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطالب منى النصيحة ، وترغب فى أن ترانى . وكم كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحتى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن لكلماتى سلطاناً ، ولكنى للأسف أرى

أن شعبيتى ، التى اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافحاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، ففريق يقول أنى أتفق فى الرأى مع لوثر ، لأنى لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنى على خطأ لأنى أعارضه . . . وفى روما وفى برابانت يصفوننى بأنى هرطيق ، وزعيم شعبة من الهراطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنى لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليبينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك فى وسعى أن أجد مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التى يستنكرها عند لوثر . وخير من يمحضك النصح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان — يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض — ينفرون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تؤدى إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذى تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التى تعالج بها . . . وأنا من جهتى أرى اكتشاف جذور المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنح عفوا عاماً . وإذا كان الله يغفر لى خطاياى ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفى وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التى يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هى الجذور التى أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحى اللاتينى ، ودعهم يتبادلون الرأى مع أعقل من يجدون من الرجال فى مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك(٩٨) .

يا لأدريان المسكين الذى تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع فى حث أرازموس على الانخراط فى سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الدينى ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهـــذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) — (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التى تقول بحتمية القدر ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسى بين الإصلاح الدينى والنهضة . وبدا واضحاً لأرازموس أن الإله الذى يعاقب على الخطايا ، التى ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم فى الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العبادة أو الثناء ، ونسبة مثل هذا السلوك إلى « الأب الذى فى السماء » كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب فى نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أى مؤمن بحتمية القدر أن يقدم أى مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التى لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصر على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا فى التوفيق بين حرية الإنسان فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده فى كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن فى الوقت نفسه دعونا نتجنب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أى طاغية عرف فى التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع ماتى فلورين (٥,٠٠٠ ؟ دولار) إلى أرازموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكثالكة بخيبة الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التى تنشد المصالحة ، والتى تنطوى عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوا خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانكتون الذى أعرب عن وجهة نظره فى الجبرية بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذى أبداه أرازموس ، وحذف نظريته فى هذا الموضوع ، وذلك فى الطبعات التى ظهرت فيما بعد(٩٩). وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل فى السلام — ولكن لوثر دافع عن الجبرية بلا هوادة فى رد متأخر عنوانه **De Servo arbitro** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطاها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطاها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهى لا تستطيع أن تختار راكبها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شىء ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تتبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتتفتت فى التراب(١٠٠) » .

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد فى القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لا لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمى وعلّية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كثالوث آخر ، الرغبات التى يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون فى القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شىء ، تجعله تعالى السبب الحقيقى لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالى فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذى يحكم علينا بالخلاص أو العذاب الأبدى : ويواجه لوثر مرارة منطقه برجولة فيقول : « لقد أسيء إلى حسن الإدراك والعقل الفطرى ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدى يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتنى فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . . . وإذا كان من الصعب الإيمان برحمة الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان »(١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : « الإرادة المستعبدة » فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشتد الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتى ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرا فى كراستين دينيتين بعنـــوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ — ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب الرأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازموس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة . . . ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تحديد ومفتوحة

لمختلف التفسيرات[١٠٢] . وأشار على الدوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام »[١٠٣] . وحدث هذا فى عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهراطقة ، الذى دعا إليه توماس مور[١٠٤] ، متأثراً بالصداقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحصاً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة[١٠٥] » . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضللين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهراطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيفين للشهادات[١٠٦] . وكان يؤيد كل شىء لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلى عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطورة إلى نصفين ، وقال : « إنى أتحمل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل[١٠٧] » .

وارتاع عند ما سمع بنبأ نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عند ما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحد فقط قد ندد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن ليكن رائدنا الاعتدال فى جميع الأمور »(١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبى للكنائس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج — الواقعة على نهر برايسجاو ، فى أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسمليان الأول الذى لم يتم ، ليقيم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذى خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموه باعتباره من معتنقى مذهب الشك فى الخفاء ، والسبب الحقيقى لما حدث فى ألمانيا من فتنة .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرحبين بعودته ، وخصص له جيروم فروبن ابن جوهان غرفاً فى منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعانى من القروح والإسهال وداء النقرس والحصوة ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ اليدين المتورمتين فى رسم دورر . وحبس نفسه ، فى سنواته الأخيرة ، فى حجراته ، وكثيراً ما كان يلازم الفراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الجميلة المألوفة ، التى كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكثالكة . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو ماليين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب فى السادس من يونية عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشيكاً ، ولكنه لم يطلب قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيه) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التى فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبتهلا اسمى مريم والمسيح . وشيعته بازيل فى جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن فى مقبرة بالكاتدرائية . واشترك علماء الإنسانيات وأسقف المدينة فى إقامة لوح حجرى فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح فى مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من « سعة علم لا تضارع فى كل فرع من فروع المعرفة » . ولم يترك فى وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صداق للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه فى الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذبذب جبان ، وذلك فى حماسة الثورة الدينية ، واتهمه أنصار الإصلاح الدينى بأنه قادهم إلى حافة الهاوية ، وأغراهم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووصم فى مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفى أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه « طفيلى متسول لديه من الشمائل ما يكفى لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكى يعترف بها » (١٠٩). وفى أواخر القرن التاسع عشر ، عند ما انقشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ بروتستانتى صائب الرأى على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الدينى ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خشنة . ومع ذلك يحق لنا أن نتساءل أما كانت ، بعد كل شىء ، الطريقة البطيئة هى فى النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أى عامل من عوامل تقــدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلا للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر فى الأفق أى إصلاح دينى جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس »(١١٠) . ويضيف مؤرخ كاثوليكى تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمى فكرياً إلى عصر لاحق علمى وعقلانى أكثر من عصره . والعمل الذى قد بدأ به والذى أوقفته الاضطرابات التى حدثت فى عهد الإصلاح الدينى استأنفه علماء القرن السابع عشر فى وقت لقى فيه قبولا أكثر »(١١١) ، وكان لا بد أن يكون اوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبثوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، فى صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطىء لتنوير أذهان الناس .

الفصل العشرون

العقـــائد فى حرب

(١٥٢٥ – ١٥٦٠)

١ – التقدم البروتستانتى ١٥٢٥ – ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليـــدة من أن تعيش فى مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية ؟ إن الورع الصوفى والدراسات الإنجيلية والإصلاح الدينى والتطور الفكرى وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هى التى كانت حاسمة : الرغبة فى الحفاظ على الثورة فى ألمانيا ، والرغبة فى تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالى ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والماليـــة للأمراء والمدن والحكومات . أضف إلى هذا بعض الظروف السياسية التى سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت فى مد رقعتها بدرجة خطرة فى بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط فى وجه تجارة العالم المسيحى ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند فى حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا – أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء – لمقاومة هذا التهديد الإسلامى ، الذى يوشك أن يكتسح أمامه كل شىء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهمكاً فى صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية فى ألمانيا . واتفق فى الرأى مع أرازموس ، الذى كان يحصل منه على معاش ، فى أن الكنيسة فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان فى فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسماح لجيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربةالثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « الهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين فى نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون فى أسى « إنهم لا يبالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشراف الأساقفة »[١] . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة[٢] ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة فى دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففى ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ فى فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكى ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس فى المدينة تتناول العشاء الربانى بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالى ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كابيتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذى خلفه هناك فى أولم على اعتناق الدين الجديد أيضا . وفى نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شبينجلر وهيرونيموس باومجيرتنر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التى تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظنا بفنهما الكاثوليكى . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً فى برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بفقرات منها ، وفى نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين بألا يرددوا فى عظاتهم إلا ما وجد فى نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكلا الشكلين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترالزوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية فى سوابيا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام فى أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترالزوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالربح ، فى عقول الناس .

وليس من شك فى أن الأمراء الذين تهنوا باغتباط القانون الرومانى ، الذى يجعل الحاكم الزمنى قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة » ، قد رأوا فى البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تمتثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح فى وسعهم وقتذاك أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذى خلف فردريك الحكيم كأمير مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعله فردريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فردريك أبقى البروتستانتية موطدة فى سكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط فى سلك اللوثرية أمراء آخرون : أرنست اللونيبرجى ، وأوتو وفرانسس أمير برونزفيك لونيبرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان التيوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلى عن عهوده الرهبانية ، وتزوج وخصص الأراضى التى تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقا على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا .

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقى منهم ، فإن الأمراء اللوثريين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة فى أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيـــدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتقاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض فى تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدينية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالتهور على مبانى الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتفريج عن الفقراء . أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانكتون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب »(٣) . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر ، لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكملها — إيست فريزلاند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين — البروتستانتية بالإجماع تقريباً . ولا شىء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خير من هذا . وحيثما بقى القساوسة استمروا فى تأييدهم لاتخاذ حظايا (٤) . ورفعوا عقائرهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر(٥) . وأبلغ الأرشيدوق فرديناند البابا بأن الرغبة فى الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكثالكة من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية(٦) . وشكا كاثوليكي مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا في إقامة الولائم الفخمة(٧) ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكي ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقق الفاخرة الأثاث التي استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »(٨) . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسس العداء ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا » (٩) ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس في كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »(١٠) . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا صحيحاً في شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجي على أن يظلا كاثوليكيين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا في معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرحة الملونة التي تنحو نحو التساهل في المسائل الجنسية ، والتي تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فاسفة الرواقية التي تقول بالجبر ، وتسود في الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء في ماينز وترير وفي كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية في بلادهم ، وأنقذ البابا أرديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة في ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند في النمسا .

ودخلت هنغاريا إلى المسرح بصورة جوهرية . وكان ارتقاء لويس الثاني للعرش قبل الأوان ، وهو في العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً في سن مبكرة ، من العوامل التي أسهمت في تكوين المأساة الهنغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء في ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافئة للحيوانات التى كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة . وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيما رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارده الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات . وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجدعوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده(١١) . فما كان من السلطان الحانق إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجبنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف فى بطولة متهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركى فى ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر الملكى ، وأشعل النيران فى الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر فى النصف الشرقى من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحى إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، ورأت جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له سليمان أن يحكم فى بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقى من هنغاريا فقد ظل فى الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء فى بوهيميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأمل ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلا من

بودا على طول نهــر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن فى خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها فى أيدى الإسلام ، وليس من شك فى أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسى كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان فى اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكثالكة والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد فى صراع من أجل روح ألمانيا .

٢ ـ مجالس الدايت لا توافق

(١٥٢٦ — ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجى ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، فى انقسام طائفى ، يبدو أنه كان كامناً فى مبادئ الحكم الفردى وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الرؤوس تقريباً »(١٢) . وشغل ميلانكتون نفسه فى حزن بالتخفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتباط إلى الأحزاب البروتستانتية ، التى تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقى ، وشكية بغيضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء(١٣) . وفى عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً فى القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التى مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع فى سبير (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابى من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأى فى المطالب التى تقدم بها الكاثوليك ، ومؤداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر فى الاقتراح المضاد الذى

تقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى في النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابي في الختام — وهو معلق على مجلس مثل هذا — بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التي يعتقد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك في موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها في شئون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير في إقليمه ، وحرم إقامة القداس في المناطق التي تدين بمذهب لوثر . ورفض الكثالكة التسليم بهذه الدعاوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشئون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أي جهد فعال للمقاومة .

وبعد أن حقق شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التي فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابي في سبير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذي تولى رئاسته ، والإمبراطور الذي تغيب عن الحضور بإلغاء « المرسوم » الذي وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضي بالتسامح في أداء الصلوات الكاثوليكية ، في الولايات التي تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الوعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه في الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية في كل مكان خارجة على القانون . وفي يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً Protest » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتمسوا من الإمبراطور عقد مجلس عام . وفي الوقت

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتمسك بمرسوم سبيير الأصلى بأى ثمن . وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيه عام ١٥٣٠) برئاسته . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان وقتذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة أدخل المصرفى السرور على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر فيها الإمبراطور بمد يونيته(١٤) ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ، فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقترب بها من البابوية . ولم يحضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ، ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، ولكنه ذهب إلى كوبورج الواقعة على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانتى عن طريق الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنحتها ، وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكا من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا »(١٥) . وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيه التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان باير الإمبراطور ولجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان ميلانكتون قد أعده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكى) « لهجة مشرفة معتدلة مسالمة »(١٦) . وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثريين ، وأفاض فى الهرطقات التى أدانها الإنجيليون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأناجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء ، وفرق بين الإصلاح اللوثرى والإصلاح الزونجلى ، وترك الأخير يتحايل لنفسه . وخفف من العقائد التى تقول بالجبر و« التجسيد » والتزكية بالإيمان ، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين ، التى كانت البروتستانتية قد قللت منها ، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس فى كل من الشكلين ، وعن التحلل من عهود الرهبانية ، وعن زواج رجال الدين ، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن ، كما دبجه به . وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل ، ولكنه أعرب عن رضاه ، الذى لم يكن منه مفر ، عن هذه الوثيقة ، وأرسل زونجلى تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح بجسده فى القربان المقدس ، وقدمت ستراسبورج وكونستانس وليندناو وممنجن إقراراً منفصلا هو : Tetra Politana ، وفيه جاهد كابيتو وبوسر. لسد الثغرات ، التى بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية .

ورد الحزب المتطرف من الكاثوليك الذى يتزعمه إيك رداً مدعماً بالبراهين ، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم ، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور ، حتى خففت لهجته مرتين . وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقديسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية ، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين ، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب .

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون ،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والنبيذ . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعى والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا فى الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدى إلى إخضاع القسس الجدد للدرجات الكهنوتية فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الدينى فى أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم .

وفى التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابى ، الذى كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائى أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية ؛ ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطورى أن يبدأ فى اتخاذ الإجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهى فى ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطورى ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكى يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابى ، ذروة التعقل ، وفى خلال تلك الفترة عرض عليهم الإعفاء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يتقدم - إذا سمحت واجبات أخرى ، القواعد المتناظرة فى عالم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليـــا .

وبينما كان المجلس النيابى فى ذورة انعقاده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التقليدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشمالكالدى ، الذى اتخذ اسمه من موطنه الأصلى بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفو ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ، ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لهجوم آخر على فينا ، كما أن باربا روسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا — وهو حليف سليمان أيضاً — كان يتأهب للانقضاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلا من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ، فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نورمبرج (٢٣ يوليه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دينى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ، ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية . فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بخمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت ، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم »(١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعند ما عرض إياندر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثريين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتثال لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الهسى العون الفرنسى ، لكى يستعيد الدوق أولريخ البروتستانتى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها(١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولا فى الشرق ، وشارل منهمكاً فى الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمدانيين يدعمون ثورة شيوعية فى منستر . واستولى المتطرفون فى يورجن فولنفيفر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه فى حربهم ضد العثمانيين ، وفضلا عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما فى هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشد التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالكالدى بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعندما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط ، التى يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجاب بأنه لن يعترف إلا بمجلس ينعقد مستقلا عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزمنيين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشتركوا فيه على قدم المساواة(١٩) ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطورى ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك فى الاحتفاظ بأملاك الكنيسة ، أو بحقهم فى القيام بالعبادة وفق شعائرهم فى أراضى الأمراء البروتستانت(٢٠) . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حلفها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطورى ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خوفه من أن يطعنه فرانسيس الأول فى ظهره جعله فى حرج .

واستمر المد البروتستانتى يتعاظم ، ويقول مؤرخ كاثوليكى : « فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب ألياندر إلى البابا من مدينة ليبز يقول إن الحالة الدينية فى ألمانيا منهارة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومناولة القربان . وكان الأمراء الزمنيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يمقتون نظام القساوسة مقتاً بالغاً ، ويطمعون فى أملاك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعيشون فى بذخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل ، إلى حد أن بعض الكثالكة أعرضوا عنهم »(٢١) .

وعندما توفى الدوق الكاثوليكى جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بدوره هنرى وكان المنقذ العسكرى للبروتستانتية فى ألمانيا . وفى عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثانى الأمير المختار فى براندنبورج كنيسة بروتستانتية فى عاصمته برلين معتزاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفى عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفس وأسقفية نارمبورج بل وكرسى أسقفية ألبرخت فى هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل فى حينه . وفى عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد ، كبير أساقفة كولون وأميرها المختار ، روما بتحوله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا فى يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلى الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . ولن يتم ذلك إلا باعتناقهم العقيدة الطاهرة ، التى وردت فى إقرار أوجسبورج . واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتنقه من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معاملته باعتباره ظالماً متعسفاً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه فى ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان »(٢٢) .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا فى أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا إلى الاجتماع فى « ندوة مسيحية » ، ليبحثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم ، وكتب قاصد رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حاسمة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسقط فى براثن البروتستانت » . وفى مؤتمر تمهيدى بورمس دار

جدال طويل بين إيك وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل التفاهم ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التي تدل على رحابة الصدر ، والتي صيغت في إقرار أوجسبورج(٢٣). وتشجع شارل فاستدعى جماعتين إلى راتيسبون (رجنزبورج) ، وهناك عقدا اجتماعا تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) . وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبيه الكاردينال جاسبارو كونتاريني رجلا حسن النية وعلى خلق رفيع . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه . ولهذا كان تواقاً جداً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا في أن له ميولا بروتستانتية . وتلاقت آراء المشتركين في المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبين المعروفين ، ولكن ما كان لأى شعوذة أن تجد في الحال صيغة تؤكد وتنفى في الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد في القربان المقدس ، ولم يجد كونتاريني تفكهة في سؤال وجهه إليه بروتستانتي عما إذا كان الفأر الذي يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب(٢٤) ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقوتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أي إجراء ضدهم لتمسكهم بالعقائد المنصوص عليها في إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأملاك الكنيسة المصادرة » .

وفي خلال هذه السنوات التي اشتد فيها الجدال وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلا قد ناضل في سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التي عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفى عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً لجميع الكنائس الواقعة فى دائرة دوقيته بأداء الصلاة وفق المذهب الإنجيلى ، كما صاغه ميلانكتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الامتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، وينفى العلمانيون المتشبثون بآرائهم بعد فترة يمهلون فيها(٢٥) . وحذا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلا . وكتب لوثر فى خمس صفحات **Kleiner Katechismus** ، ويتألف من الوصايا العشر ، التى وردت فى عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة لكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان القساوسة الجدد بوجه عام رجالا يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين فى الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع فى علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم فى أبرشياتهم . وروعيت إقامة الصلوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد فى الكتاب المقدس . واحتفظت « عبادة الرب » بكثير من شعائر الكاثوليك — المذبح والصليب والشموع والثياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، ولكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتلعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صلوات تقام للعذراء والقديسين ، ونبذت الصور والتماثيل الدينية ، وتحولت عمارة الكنيسة ، بحيث تتيح للعابدين سماع الواعظ بسهولة ، وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً فى الكنائس البروتستانتية . ومن أجمل ما استحدث المشاركة الفعلية لجماعة المصلين فى عزف الموسيقى ، التى تصحب أداء الشعيرة . فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك فى التراتيل ، وفى وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه فى شغف ، دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد فى هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين عشية وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، يتخللها الحوار ، وتثير الإلهام . وتتسم

بالقوة والجزالة ، وتنبض بالرجولة ، التي تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بترتيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها في غضون الأسبوع ، ورتلتها عائلات كثيرة في البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجتها من دينها) أكثر مما فعلت عظاته »(٢٦) ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكي في عصر النهضة .

٣ — أسد فيتنبرج ١٥٣٦ — ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة في المؤتمرات السلمية في سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ، لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العقيدة والشعيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم في السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوي عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلي هو هل سمعت الخبر ، الذي يتردد في إيطاليا ، وهو أني سكير ألماني)(٢٧) ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض — سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات في الكليتين ودمامل في الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النسا وخفقان في القلب . واعتاد أن يجرع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، وخيل إليه في عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرني أكثر من هذا فإني سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك »(٢٨) . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشيء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصدقاؤه عنه ، يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريديه فى حزن : «كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقتصاصه منه عاناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألماً ، لكثرة ما يلقى من إذلال على يد صنمه ، الذى صنعه دون أن يصقله ، ومما يؤثر عن لوثر أنه قال أما أوكيولامباديوس وكالفن . . . والهراطقة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان احتواهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم ألسنة لا تنطق إلا كذباً »(٢٩) .

ولكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال فى رسالته «عن المجالس والكنائس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجالس عام أكثر من مرة بإثارة حفيظة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحة ، وذلك بصورة تنم على علم غزير ، وسجل أن عدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة — وفى هذا تلميح لشارل ، وأعرب عن شكه فى أن يقوم أى مجلس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح المحكمة الرومانية ، وقبل إقرار حضور البروتستانت فى مجلس للكنيسة « يجب أولا أن ندين أسقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه »(٣٠) .

وتوحى آراؤه السياسية فى السنوات الأخيرة من عمره بأن السكوت من ذهب حتماً بعد سن الستين . وقد كان طوال حياته من المحافظين فى فى السياسة ، حتى عندما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية ، فقد اعترض على الثمن الفادح الذى يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبداد البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد فى مسيحية المحافظين — الثالوث وولادة العذراء والتكفير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس

والجحيم — وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة فى نظر الناس أكثر من ذى قبل . وكان يزدرى العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير فى عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد « الجمهور » فى حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الهمجية من عقالها ، ويتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتقد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة »(٣١) ، ولكن عندما تفقد حكومة المسبحات سلطانها ، فمن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لزاماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سلطة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهى للملوك ، وفى هذا يقول : « إن اليد التى تدير السيف الدنيوى ليست يداً بشرية وإنما هى يد الرب . والرب(٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذى يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرءوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذى يشهر الحرب » . وفى هذا التمجيد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بذور فلسفات هوبز وهيجل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنرى الرابع فى لوثر ما يؤيد إحضار هيلدبراند إلى مدينة كانوسا .

وعندما تقدم لوثر فى السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم ، وأقر الإكراه البدنى على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعندما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة ، إذا لم تفرض على العامة ، فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم ، إلى حد لا يطاق(٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق « الأغنام والماشية والعبيد والجوارى كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخير لو ظل هذا معمولا به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبقة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه »(٣٤) . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه فى جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه » ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضيعة وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة لمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب الهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلا حى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (الساقوية) ، امرأة تفتقر إلى الوسامة ، ولكنها مخلصة ولود . وتردد فيليب فى أن يطلق زوجة كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقيها ، وهو فى طور النقاهة من مرض الزهرى(٣٥) ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جد مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد . الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلا عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لباقة مما أقدم عليه فرانسس الأول ، من أن يرث المشيئات ، وأكثر شناعة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعلن أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فيتنبرج أن يتبينوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استعداد . والحق أنه كان قد فضل فى رسالته « الأسر البابلى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن(٣٦) . وكان الكثيرون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر(٣٧) . أما ميلانكتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعربا عن موافقتهما ، ولكن يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذى قبل »[٣٨] . وفى يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سراً ، من مرجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللاندجراف المعترف بالجميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربة من النبيذ على سبيل الهبة[٣٩] . وعندما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سراً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح »[٤٠] .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعانى من وخز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران[٤١] وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإنى ساكسونى صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدى غلاظة إلى درجة تجعلنى أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور »[٤٢] . ومهما يكن من أمر فإن معظم الإنجيليين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر فى السماح لهنرى الثامن بالزواج مرة أخرى[٤٣] . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة الجديدة ، فإنه أصبح الآن يمقتها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فيليب تعهداً بتأييده فى جميع الانقسامات السياسية فى المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر نارى الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم فى عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلى بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

فى الجنوب والبروتستانت فى الشمال . وعندما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشتراك فى مجلس يديره البابا مباشرة ، دبج لوثر خطاباً مقذعاً بعنوان : « ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التى جاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كراناش ، الذى زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوى على هجاء مقذع ، فأحدها يصور البابا ممتطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه داو « بلجامع قمامة » وألهبت كلمة « شيطان » نص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمى » و « هذا الخنثى الرومانى » و « البابا السدومى » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحمير الجهلة . . . لكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبيدهم ، وأن يحرقوا فى نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاسقربوط والجذام والحمرة وسائر الأمراض(٤٤) . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكى تبتلع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدى العاطلة . خذوا من بابا روما ، أولا وقبل كل شىء ، رومانيا وأوربينو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، فى غير ما خجل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تحصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادلته وكل طغمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أقفيتهم ، وشد وثاقهم فى صفوف على المشانق(٤٥) .

ولعل الضعف قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجى للأعضاء الداخلية ، بمرور الوقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر فى سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، بخدين متهدلين وذقن ملتو . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيبنى الوهن »(٤٦) ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكترث لشىء ، ليس له عين سليمة »(٤٧) . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هى منى »(٤٨) وعند ما تمنت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى : إنى لأتنازل عن فرصتى فى دخول الجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى »(٤٩) . وقال « إنى لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنقى ويدوى الرعد وأرقد فى سلام »(٥٠) . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . وتراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على بالاعتراض بأن لدانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلا من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركنى فى حيرة شديدة »(٥١) . وكان فى بعض الأحايين يتملكه اليأس من مستقبل البروتستانتية : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب(٥٢) تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و« بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها »(٥٣) على العقيدة الجديدة . ولكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان ، ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نفسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى يهصر هصراً ، فإنى لا أبالى بهذا الأمر ، ولسوف يكابد المسيح ما كابدت »(٥٤) .

وبدأ وصيته بحروف كبيرة، بقوله : « إنى معروف تماماً فى السماء وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن «آثماً تعساً يستحق اللعنة ، لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ، أستاذاً للحق ، يزدرى الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة : « ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ، وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتن لوثر موثق الرب وشاهد إنجيله »(٥٥) ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مسقط رأسه أيسليبين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغيبه هناك برسائل شائقة إلى زوجته — منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كاتى لقد كنت عليلا وأنا فى الطريق إلى أيسليبين ، ولكن هذا إنما يرجع إلى خطئى . فقد هبت ريح صرصر عاتية من خلفى ، واخترقت قلنسوتى فوق رأسى ، فشعرت بأن مخى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حرياً بأن يعيننى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، ولله الحمد ، بصحة جيدة ، إلى الحد الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الجميلات من النساء ، فما بالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله(٥٦) .

وتناول عشاءه يوم ١٧ فبراير فى مرح ، وفى الصباح المبكر من اليوم التالى سقط مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن بجسده بسرعة ، وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمعوا إلى جانب فراشه ، أنه يحتضر وسأله أحدهم « أيها الأب الجليل هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعقيدة

التى بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلا « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن فى كنيسة القصر ، التى كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات فى التاريخ . وكان لوثر صوتها المدوى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخى ، الذى لعبته الكنيسة فى نشر المدنية بأوربا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجد فيها العزاء والسلوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل فى معاملته مع خصومه من الكاثوليك والبروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا معصوم من الخطأ ، ولكن فى الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً فى ديانة القرون الوسطى . وهى عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما فى تلك الديانة من جمال تقريباً فى أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهى أقل منها بهجة وسلواناً، وإن كانت أكثر صدقاً وأشد إخلاصاً فى القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح فى تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ فى تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بفطرته محباً للحرب ، لأن الوقت كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التى هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلة . وقضى طوال حياته فى معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلى ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويحولوها إلى احتجاج مهذب ، يسمعه الناس فى سماحة ، ثم يضيع فى غمرات النسيان . وماذا كان فى وسع رجل أرحب منه صدراً أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك فى أنه ليس فى وسع رجل متضلع فى الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشىء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرأفة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة فى عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر فى قلوب الناس بهذه اللاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق فى وجه حركة الفكر الأوروبى . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ — وهذا أقل اختبار موضوعى فى وسعنا أن نلجأ إليه — فإننا نستطيع أن نضع لوثر فى مصاف كوبرنيقوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت فى فى العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر فى العصر الحديث باستثناء شاكسبير ونابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية **fideism** كانت وقومية فيختة ومذهب شوبنهاور فى الإرادة واستسلام الروح الهيجلى للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألمانى واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملا ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب فى انجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألمانى آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكارلشتادت وآخرون فى خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتنصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه فى الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهبانى ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا فى اسكنديناوه ، وعابرا فى فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن فى سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما فى ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق فى العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية فى تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جماً ، لأنه كان أشدهم جميعا تعصباً لألمانيته .

٤ — انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ — ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التى لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية فى ألمانيا .

وفى عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذى لقى العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبى . وعقد سليمان ، وكان فى حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعد البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٠٠,٠٠٠و١ دوكات و ١٢,٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهراطقة . . . وأحس شارل بأن فى وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم فى رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق فى ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت فى الاستهانة بسلطانه وعجز أن يملى عليهم الشروط التى يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلا أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتحالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقذعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان(٥٧) — كان في وسعه أن يتحمل هذا في صمت كئيب — أما الآن فإنه حر في أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضي ، وأن يصوغ مملكته ، التي مزقتها الفوضى ، في دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد في مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعند ما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلا بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفي أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكري في ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالي له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده في هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولاندجراف فيليب الهسي ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصفي أراضيهما وأموالهما . ولكي يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل في شئون البروتستانتية في أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلا لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعد صدر له بأن يحل محل جون كأمير مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، في كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتي فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسي وأمراء أنهالت وحكام مدن أوجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يتهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أموالهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا فى ميدان القتال ٥٧,٠٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل ، سار فرديناند شمالا وغرباً للاستيلاء على دوقية جون . وانضم إليه موريس فى فى غزو ساكسونيا الأرنستية ، لكى يساعد بشىء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته . وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن فى غضون ذلك بدأ جنود فيليب فى الفرار من فرقهم ، بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية تنشد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل فى المعاملة . ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة ، حطمت العمود الفقرى لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها . وكان شارل وقتئذ متفوقاً فى السلاح ، وفى الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التى وقفت فى صف البروتستانت هى قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم . فإذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها فى شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحدق بالولايات البابوية وتبتلعها . وينتهى بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيوش البابوية ، التى كانت تحارب مع شارل ، بالتخلى عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر فى اغتباط . ووجد البابا نفسه يطرب كأى هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون فى ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة . فزحف نحو الشمال . والتقى بقوات الأمير المختار المنهكة فى ميلبرج ، على مدينة مايسين ، وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ ابريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل الذكى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا سقطت عاصمة البروتستانتية الألمانية فى أيدى الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقد فى هدوء تحت صفائح بارزة فى كنيسة القصر .

وأقنع موريس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسى بالتسليم ووعداه بأن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظفر ، إذ كان هنرى الثامن قد مات فى يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان فى مجلس نيابى آخر فى أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاوموا جهود شارل للدعم انتصاره العسكرى ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضى عن مقتل بيرلويجى فارنيزى . الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ؛ وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء . وانتزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملاك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة فى أن يصدر أحكاماً ، فى مثل هذه الأمور . وتهامس الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بمدرقعة إمبراطوريته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد موريس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه فى فيتنبرج يعد بروتستانتياً ومنتصراً ؛ ومكروهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المغلوبين على أمرهم ، وكانت خيانته قد سممت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضم سراً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبورد (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطرد شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتز وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلا بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كازنثيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوربا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فريديناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجلس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محببة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالخيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرخت ألسيبياديس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته فى ألمانيا ، تحول نحو الغرب ليجدد صراعه مع فرنسا . ورأس فرديناند ، متذرعاً بالصبر ، المجلس النيابى التاريخى فى أوجسبورج (٥ فبراير — ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذى منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمى ، الذى ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذى لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التى فاز بها الملوك فى فرنسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية فى المجلس النيابى ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم فى القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت فى إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطوس ، الذى خلف موريس فى ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستانت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو فى خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له فى حمل اللقب الإمبراطورى . وخشى الكثالكة مطمع هذا الإسبانى القاسى فى حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع فى ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده فى أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت فى المؤتمر الانتخابى .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شىء : يجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة عقيدتهم فى كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك فى الأرض التى تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء إجراءات تصفية أملاك الكنيسة فى الحاضر والمستقبل على السواء[٥٨] . وتوصل فرديناند وأوغسطوس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص فى هذه الكلمات الأربع المشهورة : **Cuius regio eius religio** ، وهى تجسم الضعف الروحى الذى انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفى داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد فى دولته ، وكل من لا يحب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى جانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ . الذى أيده الإصلاح الدينى فى فتوة ثورته — الحق فى الحكم الخاص — رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السلطة العقيدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى الرأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العقيدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ؛ وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلا ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحقد والشقاق اللذين كانا يمزقان ألمانيا . وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله(٥٩) ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشقين بدلا من أن يحرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصورة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحقيقى فى حرية العبادة ؛ ولكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ؛ مثل هنرى الثامن ملك انجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يحددون للناس العقيـــدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراستى — وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة — قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجنوا ثمار هذا النصر — سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ، ولكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ، بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى (١٥٢٤ - ٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة الدينية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التى كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت فى عام ١٨٠٦ ، وإنما ماتت فى عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية ، مثل الإمبراطورية ، فى غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور ، يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن — بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً ، فقد صار الأمراء أحراراً فى أن يتدخلوا فى الشئون البلدية ، وتضاءل استقلال المقاطعات . وفى غضون ذلك ابتلعت قوة هولندة النامية معظم التجارة ، التى كانت تصب المنتجات الألمانية فى بحر الشمال ، عن طريق مصبات نهر الراين . وضعف شأن المدن الجنوبية ، بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك فى أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانيـــة ، فى مدى مائتى عام بعد ذلك ، أن تتمتع مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التى سبقت عهد الإصلاح الدينى ودعمته . . .

وعاش ميلانكتون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج ، ولم يكن واثقاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه : لا فى المفاوضات مع الكثالكة فحسب ، ولكن فى تحديد اللاهوت البروتستانتى . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بحتمية القدر كلية ، وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس(٦٠) ، وجاهد فى الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات ، وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدل مرير بين « الفلبيين » — ميلانكتون وأتباعه — وبين اللوثريين المحافظين الذين انفجروا أساساً من ينا ، وأطلق هؤلاء على ميلانكتون لقب « المملوك المارق » و « خادم الشيطان » ، ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان(٦١) . وكان الأساتذة يعينون أو يفصلون ، ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق الطرفان على أن يعلنا حق الدولة في قمع الهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون حذو لوثر في إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهي للملوك(٦٢) ، ولكنه تمنى لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينيها حماية أرستقراطيات أوساط الناس ، كما في زيورخ وشتراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع الأمراء . وفي أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمي الذي كان يتطلع إلى أن يكونه : « فلنتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنساني وعن رحمة الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقي فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »(٦٣). وعندما دنت منيته رحب بالموت ، باعتباره تحرراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن همجية « العصر السوفسطائي »(٦٤) . والحق أن التاريخ قد أخطأ في اختياره للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصداقة والسلام ، وأجبرها على الدخول في حرب ثورية لم تخلق لها .

الفصل الحادي والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ – ١٥٦٤)

١ – شبابه

ولد فى نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسى ، يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك فى البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين – حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال فى إدارة الكاتدرائية ، ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد ماتت أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القاتمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنوت ، وهو على ثقة من أن فى وسعه أن يجد لهم مناصب . وحصل لاثنين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق ، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالى مع إدارة الكاتدرائية ، ولقى بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه فى الأرض المقدسة .

وأرسل جان إلى كلية دى مارش فى جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحذق كتابة اللاتينية ببراعة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دى مونتيجو ، ولا بد أنه سمع هناك أصداء تتردد عن تلميذها المشهور أرازموس . وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذى التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجناتيوس لويولا . ويقول أحد الثقاة من الكاثوليك « أن القصص التي رويت في وقت ما عن شباب كالفن الطائش ، لا تستند إلى أساس »(١) والأمر على نقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً خجولا معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه »(٢) ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه . الآن وفيما بعد . حباً خالصاً لا يتزعزع . وفي غمار السعي الحثيث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفتن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاها في طلب العلم ، بعض الأوصاب الكثيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الذين حصلوه الثراء العريض »(٣) . وعكف كالفن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون . وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكرى حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويحولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مماثلا . وأصبح ، فوق أى شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكورجوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) . عاد إلى باريس وعكف في نهم على دراسة الأدب الكلاسي ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة ليرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً ، فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن **De clementia** لسينيكا . وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحية للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازموس ،

حياه فيها باعتباره « المعلم الثانى فى عالم المجد » (بعد شيشرون) و « أول إشراقة للآداب » . وتخيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانيات عند ما وصلته بعض عظات لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت الدوائر الناشطة فى باريس تناقش الحركة الجديدة ؛ وليس من شك فى أنه دار حديث طويل حول الراهب المتهور ، الذى أحرق منشور البابا ، وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ؛ والحق أنه قد سقط فى سبيل البروتستانتية شهداء فى فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحثون على إصلاح الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ؛ وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً لدى شقيقة الملك مرجريت دى نافار . واختير صديق آخر ، وهو نيكولاس كوب ، ليشغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضلع فى إعداد الخطاب الافتتاحى المشئوم ، الذى ألقاه كوب « أول نوفمبر سنة ١٥٣٣) . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمى لمسيحية مطهرة ، واستطرد ليشرح نظرية لوثر فى الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتماس الإصغاء فى تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغاً ، وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان فى اتخاذ إجراءات ضد كوب بتهمة الهرطقة . ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ؛ ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل . وكانت وقتذاك تعتنق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل فى قائمة المطلوبين للقبض عليهم . ويبدو أن مرجريت قد تشفعت له ؛ فغادر باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له فى أنجوليم ؛ ولعله بدأ هناك ، بمكتبة لوى دى تييه الغنية بما تضم من كتب قيمة ، فى كتابة مؤلفه **Institutes** . وفى مايو جازف بالعودة إلى نويون ، وتنازل عن رواتبه ، التى كانت تدر عليه دخلا يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطلق سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سراً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس . الذى قدر عليه أن يحرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهينة فى أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسس الأول منهم بأن أمعن فى اضطهادهم ، وفر كالفن فى الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كوب فى بازيل وهناك أتم ، وهو شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، عملا يعد من أبلغ الأعمال فى أدب الثورة الدينية ، وأشدها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمشياً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدها جميعاً إرهاباً .

٢ – عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحى » ، وفى خلال عام واحد نفد الكتاب ، واستدعى الأمر إصدار طبعة جديدة ، فاستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً فى النثر الفرنسى . وحرم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كلتيهما ، وأحرقت نسخ منه علناً فى العاصمة . واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ فى شكله النهائى .

واستهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحى لفرنسا » وهى مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسس أولهما : الأمر الملكى الصادر فى يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التى وجهها فرانسس فى الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين الملكية الفرنسية وبين الأمراء اللوثريين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل فى أن يوطد المأرب السياسى على دعامة

من الجدل اللاهوتى ، وأن يعاون فى استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان تواقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة اللامعمدانيين ، التى اقترنت وقتئذاك من الشيوعية فى منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادى أو سياسى . وتكشف بداية ونهاية هذه المقـــدمة روعة أفكار كالفن وجزالة أساوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاى لم يكن هناك شىء أبعد من التفكير فى تدبيج كتاب ، يقدم فيما بعد إلى جلالتكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكننى عنـــد ما أدركت أن غضب بعض الأشرار فى مملكتكم قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة فى البلاد ، رأيت من الواجب أن يستفاد منى ولو فى العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافى عليك ، لكى تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التى يستهدفها هذا الغضب ، الذى لا يعرف حدوداً ، والذى يعتمل فى صدور هؤلاء المجانين ، الذين يزعجون البلاد بالسيف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوى على ملخص لتلك العقيدة ذاتها . والتى يستحق من يعتنقها ، طبقاً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفى وإهدار الدم والتحريق وبإبادته من على ظهر الأرض . وإنى لأعلم جيداً الدسائس الأثيمة ، التى ملأوا بها أذنيك ، لكى تبدو قضيتنا بغيضة جداً فى نظرك ، ولكن حلمك كفيل بأن يهديك إلى التفكير فى أنه إذا كان الاتهام يكفى دليلا على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة فى الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاى تستطيع أن تتبين الوشايات الزائفة ، التى كانت تطرق أذنيك عنها (قضيتنا) ، وهى تفتضح كل يوم ، إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صولجانات الملوك من أيديهم ، هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

الحكومة ، وتعكير صفو السلام والأمن بين الناس ، وإلغاء جميع القوانين ، وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة اضطراب شامل .

ولهذا أتوسل إليك يا مولاي — وهو بالتأكيد طلب معقول — أن تأخذ على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية ، التي أثيرت حتى الآن بصورة مبلبلة ، وبلا اكتراث ، وبلا سند من القانون ، وبدافع من العاطفة الهوجاء أكثر من أي دعامة قانونية . ولا يذهبن بك الظن إلى أنى أفكر الآن فى إعداد دفاعى عن نفسى ، لكى أضمن لنفسى عودة آمنة إلى وطنى الحبيب ، فأنا ، على الرغم مما أكنه له من حب ينبغى على كل انسان أن يحس به نحوه ، لن أندم أبداً ، فى الظروف الحالية ، على انتقالى منه . ولكى أدافع عن القضية أمام كل المتدينين ، وبالتالى أمام المسيح نفسه ، هل يحتمل أن نفكر فى تقويض دعائم الممالك ، نحن الذين لم يسمعنا أحد نفوه بكلمة واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة مستقيمة عندما كنا نعيش تحت حكمك ، نحن الذين لم نكف ، حتى فى منفانا الآن ، عن الصلاة لك بالنجاح ولمملكتك بالرخاء . . . ثم إننا لم نلتفع إلا قليلا بالإنجيل بفضل الله ، ولكن حياتنا يمكن أن تكون مثالا يحتذى لمن نددوا بعفتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا ، فإننا لا نيأس أبداً من استعادة عطفك ، لو قرأت بهدوء واطمئنان إقرارنا هذا ، الذى نعتزم تقديمه إلى جلالتكم ، كدفاع لنا . . . ولكن إذا كانت أذناك مشغولتين على النقيض بسماع همسات الحاقدين ، التى لا تدع فرصة للمتهمين للدفاع عن أنفسهم ، وإذا استمرت تلك العقبات الهوجاء فى اضطهادنا بالسجن والتنكيل والتعذيب ومصادرة الأموال والحرق ،

وتغاضيك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد . ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن نحتفظ فى صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ الفقراء من غمهم ، ولمعاقبة المستخفين بهم . الذين يبتهجون الآن فى أمن واطمئنان تام . وإنى لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل والتقوى ، وأن ينتشر فى مملكتك القسط والإنصاف »(٤) .

وليس من اليسير علينا ، فى عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة . باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم ، أن نتذكر المزاج الذى ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلا هائماً فى حب الله — أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ، الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة . وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل المفكر الذى يحكم هذه النجوم الطيعة التى لا تحصى ؟ وأن الله . رأفة بعقل الإنسان . قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس ، وثبت أن هذا الكتاب المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، واقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم ممن هم فى مستواهم . وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ، ويشرح صدرك . ويحرك شغاف قلبك . ويخلب لبك بطريقة مدهشة ، ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس ، سواء كنت راغباً أو غير راغب . فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة . وينفذ إلى قلبك ، ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك . إلى الحد الذى لو قارناه بما لتلك المصنفات من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كله أو يكاد . ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً إلهياً فى الكتب المقدسة . يفوق بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف »(٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التى نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير ، لا فى الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن فى التاريخ والسياسة وكل شىء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعصيانهما أمر الله ، الشر الذى فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عدل الله ، حتى إنه ليدرك ، ويرغب فى ، ويباشر كل شىء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والدنس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد خبيث ، وإذا قام الناس فى وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً فى الظاهر ، فان العقل يظل دائماً متورطاً فى النفاق والخداع ، والقلب يظل عبداً لانحرافه الباطنى »(٦) .

وأنّى لمخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدى فى الفردوس ؟ ليس فى استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حقاً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذى ضحى بنفسه فى سبيل البشرية هو الذى يستطيع وحده أن يحقق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضى عذاب معظم البشر فى نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظفر بالنجاة . وقد وهب تعالى هؤلاء إيماناً راسخاً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن القديس بولس قال : « لقد اختارنا الرب فى نفسه قبل خلق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أطهاراً . لا تشوبنا شائبة فى الحب ، وقدر علينا أن نتخذ لنا أبناء . كما اتخذ المسيح عيسى ابنا له بمشيئته »(٧). وفسر كالفن هذا ، كما فسره لوثر . فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نتمتع به من فضائل ، أو نتصف به من رذائل . وقبل خلقنا بوقت طويل . من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب فى نار جهنم(٨) . ويجيب كالفن على السؤال الذى يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس . والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى إنى أتغمد برحمتى من أشاء وأعفو عمن أشاء »(٩) . ويختم كالفن حديثه بقــوله :

« وطبقاً لهذا نؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تتبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والهلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التى يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب فى النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم »(١٠) .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشرى فى رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة »(١١) .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التى قرر الرب أن يخفيها عنا فى نفسه ويفلت من العقاب »(١٢) . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكى يزيد من إعجابنا بمجده » بعرض قوته(١٣) . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » « ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائى فى المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سابقاً ، لأنه كان قد قضى به فى حكمه »(١٤) . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه » . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدى حكم مطلق ، وليس هناك مُطهر فى لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل فى منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يمحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شيء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شيء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، ولسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا نبذ القداس ، ونعتبره ادعاء من القساوسة ، ينتهكون به الحرمات بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعوى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحقة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعترفون معنا بنفس الرب والمسيح »(١٥) ، باعتناق عقيدة ، وبحياة مثالية ، وبالاشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (يرفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص(١٦) خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكى يعملا فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحى واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد(١٧) ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنشر علناً بين الناس » ، وأن كلمة الله الطاهرة هى الوحيدة ، التى يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس[١٨] . والحكومة المثالية هى حكومة رجال الدين ، ويجب أن نعترف بالكنيسة التى تؤمن بالإصلاح الدينى ، باعتبارها صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب بها لكنيسته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقى من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم فى لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقيين ، وبخاصة سينيكا ، وبشيء لدراساته فى القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على القديس أوغسطين ، الذى استخلص القول بالجبر من القديس بولس ، الذى لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب بأنه أب محب رحيم ، ومر فى هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب المقدس ، التى افترضت حرية الإنسان فى صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس ٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ، ٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن فى أنه يأتى بأفكار جديدة ، ولكن فى تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميناتها العملية بمنهج ، يقوم على التشريع الكهنوتى . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار بالإيمان ، ومن زونجلى التفسير الروحى للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع عملى قوى ، باعتباره امتحاناً وشاهدا على الاختيار . ووصلت معظم تلك العقائد فى صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكى ، وأضفى عليها كالفن أهمية شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة فى عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتى . ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كئيبة أكثر من قبل ، وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا الشمالية ، يبدو لأول نظرة سراً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى لماذا حارب الكالفينيون والهوجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه الجرأة دفاعاً عن عجزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعجز البشر فى تكوين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟ فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفن نفسه خجولا وقوى العزم فى الوقت نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسلوى ، إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجد « الحكم المروع » للجبر « أمراً يؤدى إلى أبهج فائدة »(١٩) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح الشجاعة لمواجهـــة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة مماثلة الشعب اليهودى من صيانة نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . حقا أن فكرة كالفن عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مديناً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ، كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى الاختيار الإلهى كانت درعاً يبث الشجاعة فى قلوب الهوجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفى قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئ مُقَوَّم أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن بأن تقويمه قد هيأه له الله ، فإن فى وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية . وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل الصفوة ، سواء كانت معدمة أم لا ، أرستقراطية وراثية : فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله[٢٠] من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال الفردوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز صفقة رابحة .

وكان أتباع كالفن فى حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة النظر السائدة فى القرون الوسطى ، والتى تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست إلا وادياً للبؤس والدموع ، ورحب فى اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذى اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ، كما أنه لم يكن هناك شىء يتنافى مع العقل فى سلوك هؤلاء الذين كانوا ينوحون ويبكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون فى وقار عند تشييع جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم فى الغالب الأعم وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود فى نار جهنم[٢١] . وكان ثمة شىء واحد يجعل الحياة محتملة — الأمل فى سعادة مطردة بعد الموت ؛ وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منفى ؟ وأليست الدنيا لحداً ، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ »[٢٢] وعلى النقيض من صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا فى وصف تخيلات الجحيم ، ولكن فى الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعانى الصفوة التقية ، دون أن تجأر بالشكوى ، كل ما فى

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم . ذلك اليوم الذى يستقبل فيه الرب عباده المخلصين فى مملكته الوادعة ، ويجفف كل دمعة تتساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لجلالته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة فى سعادته »(٢٣) . ولعل هـــذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التعســـاء الذين ينتشرون فى بقاع الأرض . . .

٣ ـ جنيف وستراسبورج : ١٥٣٦ ـ ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » فى المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخضوع له(٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من الدوقة البروتستانتية رينيه ، زوجة الدوق أركول الثانى ، وابنة المرحوم لويس الثانى عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين فى فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل فى مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت فى جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت فى عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مآوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت فى عهد يوليوس قيصر ملتقى لطرق التجارة عند الجسر ، الذى يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب فى فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف فى العصور الوسطى لحكم أسقفها الروحى والدنيوى على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التى أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها فى المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التى أعادها كالفن فيما بعد ، فى الشكل الذى يساير المذهب البروتستانتى . وتحرر دوقات سافوى ، التى كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية فى القرن الخامس عشر ، ورقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوى ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التى قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نخوتهم ، ورجحت كفة النخوة(٢٥) .

وفى نطاق هذا الحكم الكهنوتى الدوقى ، كونت العائلات الكبرى بجينيف مجلساً من ستين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة فى مقر الأسقف لكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الدينى والاختصاص المدنى ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التى تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف فى ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعى أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجد الأسقف نفسه فى حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دى بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير السلطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألمانى **Eidgenossen** أى رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت . ولما أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال فى الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فيتنبرج مدينة تجارية ، تتوسط فى التجارة بين سويسرة فى الشمال وإيطاليا فى الجنوب وفرنسا فى الغرب . وألف الأوساط من أهالى مدينة جينيف مجلسا أكبر ، يتكون من مائتى عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذى أصبح الحاكم الحقيقى للبلدية ، وكان يزدرى سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة فى حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته فى قصر شيلون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشتت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسى ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الدينى ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية فى المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين .

وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو وليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً فى شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيفر ديتابل ، الذى أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزمت فاريل ، لأنه لم يجد أى أثر فى نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق يجول من مدينة إلى مدينة فى فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلا ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدتان تبرقان فى وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمات المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التى يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ فى جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذى رأى أن يلقى « الكاب اللوثرى » فى نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سحجات فى رأسه ، وتلوثت سترته بشىء من البصاق . وكسب إلى صفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بيير فيريه وأنطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبى ، مما دفع كل رجال الدين الكثالكة تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداس ، وإزالة كل التماثيل ومخلفات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالمجان . وسيطر نظام أخلاقى صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الدينى فقد نفوا من البلاد(٣٦) . تلك هى جنيف التى أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك فى السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى فى الشاب الصارم الفصيح ، الذى يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذى تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الدينى ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة ، يقضيها فى البحث العلمى والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلعته التى تشبه طلعة نبى راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التى لم يتطرق إليها الوهن .

وأذعن كالفن ، ووافق المجلس ومشيخية الكنيسة ، وبدأ خدمته الدينية ، دون التقيد بأى رسامة أخرى — بأن ألقى فى كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس فى كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الرومانى .

وفى أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير فى الجدل الشهير الذى كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتى ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، فى هداية أهالى جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلا من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب . وفضلا عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكمهن ملكة الماخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكى يستعيدا الأساس الدينى لأخلاقيات مثمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقى ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس فى يوليه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية — مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى المخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يبدر منه للعقاب . وسجنت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه الداعرة . ووصفد المقامرون بالأغلال ، وسيق مقترفو الزنا فى الشوارع إلى المنفى .

ولما كان أهالى جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان يقوم على نظام أخلاقى ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكيــة خففت من شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل الجديد من الواجبات . ونظم الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ، لتحريرها من قساوستها المتزمتين . وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار إلى الوطنيين والكاثوليك الذين يمارسون شعــيرتهم فى الخفاء ، وحصل هذا الائتلاف فى انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية فى المجلس الكبير . وأبلغ المجلس الجديد القساوسة أن عليهم أن يبتعدوا عن السياسة ، فندد كالفن وفاريل بالمجلس ، ورفضا أن يناولا العشاء الربانى حتى تتواءم المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن خلع كاهنى الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرهما بمغادرة المدينة فى خلال ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردهما وسط مظاهر التهليل والابتهاج(٢٧) . ولبى فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم فى حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكارى تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى ستراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع إلا للإمبراطور ، وتدير شئونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . ولكى يدبر أموره بمبلغ الاثنين وخمسين جيلدر (١،٣٠٠ دولار ؟) ، الذى كانت تدفعه له الكنيسة كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة لا تلائمه فى موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التى ينشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المخبولين ، الذين يفتنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذى يغرينى — أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحتى »[٢٨] .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دى بور ، وهى أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات فى سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثيها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً فى بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينما كان يشتى فى شتراسبورج ، تحركت الأحداث فى جينيف . وتشجع الأسقف المنفى عند ما علم بطرد فاريل وكالفن . ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائيته ، وقام بخطوة مبدئية . فأقنع ايا كوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالى جينيف » . « يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعقيدة الكاثوليكية » (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلا مهذباً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس فى كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل فى مدينة كاربنتراس فيما بعد هراطقة والدانيين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعزاء المحبوبين ، حكام جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتتألف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتى ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة بتزعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التى دامت قروناً طويلة ، وتساءل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عقيدة كاثوليكية أثمرتها خبرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . وختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة فى مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعده بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن فى جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف فى وجه عالم الإنسانيات المهذب ، أو يجاريه فى لاتينيته . وفى غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا إقرار العقيدة والنظام ، وخيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدركاً للموقف ، فخف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلمه للدفاع عن الإصلاح الدينى . وواجه الدماثة باللطف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أنملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه فى النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصى ، فقد كان فى وسعه أن ينعم بالمزيد من الطمأنينة ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهى . ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التى كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكثالكة والبروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحدة أبدية فى السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً ولعله أغفل الفضائل العارضة لبابوات عصر النهضة : إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من المجاملة ، وهو أمر نادر فى مناظرات هذا العهد .

وعندما اطلع عليه لوثر فى فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضى تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلا : « لشد ما يطربنى أن يهئ الله أناساً . . . ينهون الحرب ، التى بدأتها ضد المناهض للمسيحية »(٢٩) . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠) ، وبدأ يتساءل ما إذا كان ، بنفيه كالفن ، قد فقد أقدر رجل فى الإصلاح الدينى السويسرى .

وغذت الشك عوامل أخرى . فقد برهن كاهنا الأبرشية ، اللذان حلا محل فاريل وكالفن ، على أنهما لا يصلحان للوعظ ، ويفتقران إلى النظام . وفقد الجمهور احترامه لهما ، وعاد إلى الأخلاق المنحلة ، التى كانت سائدة فى الأيام السابقة للإصلاح الدينى . وتفشيت المقامرة والسكر ، واشتدت الحلبة فى الشوارع . وانتشر الزنا ، وكان الناس يرفعون عقائرهم علناً بالأغانى الداعرة . وانطلق أشخاص فى الشوارع ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم(٣٠). ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة ، الذين تزعموا حركة طرد فاريل وكالفن . وذلك لارتكابه جريمة قتل ، وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير . وعلى ثالث بتهمة الخيانة للوطن . أما الرابع فقد مات ، وهو يحاول الفرار من الاعتقال . ولا بد أن رجال الأعمال ، الذين كانوا يسيطرون على المجلس ، قد ساءهم هذا الإخلال بالنظام ، باعتباره معوقاً للتجارة . ولم يكن المجلس نفسه ميالا إلى أن يحل محله أسقف ، يستعبد سلطانه ، وربما يصدر قراراً بحرمانهم من غفران الكنيسة . وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفن لغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً . وفى يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفى ، وأعلن أن فاريل وكالفن رجلان جديران بالاحترام . وأرسل مندوب إثر مندوب إلى شتراسبورج ، لإقناع كالفن باستئناف عمله فى الأبرشية بجنيف . وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل له دعوة مماثلة . وفى كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفن على العودة . ولكن كالفن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء فى شتراسبورج . وشعر بأن عليه التزامات هناك ، ورأى أنه لن يجد أمامه فى جنيف إلا الخصام ، وقال : « ليس فى العالم مكان أخشاه أكثر منها » . ووافق على القيام بزيارة للمدينة فحسب . وعندما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكريم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذلت له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه فى توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب فى ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيتك . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله آن يمنحنا بركته »(٣١) .

٤ — مدينة الله

كان سلوك كالفن فى السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فكسب إلى صفه الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدى القسس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينيـــة فى كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومدرياً وأستاذاً للاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس ، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية فى الكنيسة . وعكف فى غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتى من حيث القيمة بعد رسائل أرازموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلا ، ويأكل قليلا ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكاتب سيرته ، تيودور دى بيز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التى تناولها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة ، لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن ، لصياغة قانون كنسى جديد . وفى اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التى لا تزال الكنائس التى تناولها الإصلاح والمشيخية فى أوربا وأمريكا تقبل معالمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيوخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ه

وألف كهان الأبرشيات فى جينيف « الجماعة المبجلة » ، التى حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ فى جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية — وتنصيب الأساقفة — كانت محظورة .

وأصبح القساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم فى أى نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك فى الوقت الذى لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا القوى الخارقة للقساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصدروا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقى لدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن القساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين فى المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، فى هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعى أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فإن بعض الدعاوى الكنسية يحسن أن تترك مؤقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالى جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخية مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثنى عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينما كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم فى المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظلون فى مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فان مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين فى أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وأدعى لنفسه الحق فى تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقى على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكى

يزورا سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق فى استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان فى وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس فى أن ينفى عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً فى جينيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته فى عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سوة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسالته ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطع أحد أن ينجح فى مقاومتها ولوأن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا خول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولا العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن يحضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتركون فى البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ فى أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يجىء » « كان كالفن يلقى عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فيلنذر . وإذا لم يقوّم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات »(٣٢) . وليس لأحد أن يعفى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتنق عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى بابا ، فى رفضه الفردية فى العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها فى جينيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جينيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب فى إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار فى رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التى يعاقب عليها القانون . وأصبحت الهرطقة من جديد إهانة للرب ، وخيانة للدولة ، وكل من تثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت الكاثوليكية التى بشرت بهذا الحكم على الهرطقة بدورها هرطقة .

وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين شخصاً . ونفى ستة وسبعون ، بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا كما فى أى مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام ، ولقد أرسل إلى سارية الإحراق فى عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ، أربع عشرة سيدة ، قيل أنهن من الساحرات ، بتهمة إغرائهن للشيطان ، بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون(٢٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلا بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك الأخلاقى ، ومثله فى ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو رجل حازم قوى المراس ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن فضائله على لاهوته ، وتجلل بالعار الكاثوليكية ، التى أثمرت حياة الترف والانحلال فى روما ، أو تسامحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود الفقرى للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها ، من وحدة الفطرة البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذى قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون رجال الدين قدوة لغيرهم ، بسلوكهم وبإدراكهم الحسى . ولهم أن يتزوجوا وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤساؤهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ، يتلخص فى أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين له فى الحى ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والمجلس إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص (الذى كان وقتذاك يعنف بالقبلات والأحضان) ، والأغانى الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط فى اللهو ، والبذخ فى العيش ، والتبذل فى اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به فى الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها فى الوجبة الواحدة . وكانت الحلى والمخرمات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صففت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب(٣٤) . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيليات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين — الواردة فى التقويم الكاثوليكى ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت فى العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام فى السجن ، لأنه أصر على تسمية ابنه كلود بدلا من أبراهام(٣٥) . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تتناول عقيدة دينية خاطئة ، أولها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتانى وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة(٣٦) ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفى . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفى أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفى مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه(٣٧) . وفى عامى ١٥٥٨ — ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخمسين ، وكان التعداد الكلى لسكان مدينة جنيف وقتذاك حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة(٣٨) . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث فى كل مكان فى القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفن مدارس وأكاديمية ، وبحث فى أرجاء أوربا عن مدرسين للغات اللاتينية واليونانية والعبرية وللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى فرنسا وهولندة وسكوتلاندة وانجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون من حمية وإخلاص فى آسيا ، وأرسلت مدينة جنيف فى خلال أحد عشر عاماً (١٥٥٥ — ٦٦) ١٦١ مبعوثاً من أمثال هؤلاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن التقسيم الطبقى أمر طبيعى ، وأسبغ تشريعه الحماية على الرتبة والمنصب ، بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة(٣٩) . كان على كل شخص أن يتقبل وضعه فى المجتمع ، وأن يؤدى واجباته ، دون حسد لمن هم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل ، بالإحسان دون أى تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التى تقدم للتفريج عن الفقراء .

والتزم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال فى النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتصم به ، ولعل ذلك هو الذى أسهم فى تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتى الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ فى تأكيد أهمية(٤٠) هذه العلاقة ، إذ كانت الرأسمالية قد نمت فى فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيتين قبل الإصلاح الدينى إلى درجة أكبر مما حدث فى جنيف مدينة كالفن . ورفض كالفن المذهب الفردى فى الاقتصاديات كما رفضه فى الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، فى رأيه ليست الفرد الحر (الذى بدأ به لوثر ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التى ارتبط أعضاؤها بها بقانون حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجنى فائدة إلا من تلك الأشياء ، التى تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلا لا يتجزأ »(٤١) « ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة بجمع المال أو تكديسه بصورة جائرة(٤٢) » وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة(٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقته ، المحتكرين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وذم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأثواب(٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات(٤٥) .

وإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعمل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلا بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهيأ نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية ، مثل أنتورب وأمستردام ولندن توا للدين الجديد ، الذى تقبل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضانه الطبقات الوسطى ونما بنموهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريحة ، ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه . ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق ، لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جينيف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى ، ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى ، وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم ، بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى بروتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جينيف .

« إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زيا لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوفة . والخير جد وفير إلى حد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعاوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير . ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغانى استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان »(٤٦) .

ولا تتفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مئوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التى تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام[٤٧] . ومن بين من أدينوا بالزنى صهر[٤٨] كالفن وابنة زوجته . ولكننا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فالينتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فيتنبرج يثنى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : « عند ما كنت فى جنيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشوف إليه ما حييت . ففى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل لجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستقصاءات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود . وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والقمار والترف والشتماق والكراهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبائر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحى أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولا ما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جنيف إلى الأبد[٤٩].

٥ – معارك كالفن

اتسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلا صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قاتمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجبهة عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الجسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خلف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخلص مدقق وإرادة حازمة لا تنهر ولعلها إرادة للقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكوينى اللاهوت البروتستانتى . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكوبرنيكوس ويتخلف عنه قليلا (مثل لوثر) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته وخجله يحجب كبرياء في باطنه وذلته أمام الله أصبحت في بعض الأحايين عجرفة آمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن في وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهده المرض وانحنى ظهره من كثرة العمل ولذا كان كثيراً ما كان يتميز غيظاً وينفجر في نوبات من الفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن في غضبه »[٥٠] ولم يكن من فضائله المرح الذي كان حرياً بأن يخفف من يقينياته ولا الإحساس بالجمال الذي كان كفيلا بأن يستبقى الفن الكنسى . ومع ذلك فانه لم يكن مشاغباً لاتلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرحين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ في اعتدال . وكان في وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه[٥١] ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش في بساطة ويأكل قليلا ، ويصوم دون أن يقصد التباهى ، ولا ينام إلا ست ساعات في اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة في مرتبه ولكنه سعى لكى يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك الهرطيق تكمن في هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدىَّ أتباع مثله فإن مملكتى سوف تمتد من البحر إلى البحر »[٥٢] .

ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء . وحاربهم بشدة وبلغة العصر الجدلية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنازير وبهائم منتنة[٥٣] — وهى نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينيته الرشيقة من أسلوب لوثر الذى يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقدحدث يوم أنقاطع جيروم بولسيك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته فى كنيسة القديس بطرس وندد بالعقيدة التى تقول بالجبر باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك واتهمه مجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميالا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت فى زيورخ وبازيل وبرن دلت على أنها مبلبلة : فقد أوصت برن بالحرص فى علاج المشكلات التى تدق على إدراك الإنسان — وهى نغمة جديدة فى أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن « الكثيرين مستاءون مما تقول فى كتابك القوانين حول الجبر ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك »[54] وتراضى المجلس على النفى (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا فى النتيجة مناظرة كالفن مع جواليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلى وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر فى القربان المقدس إلا بروحه وعد هذا « تجديداً من وحى الشيطان » ورأى أن المصلحين الدينيين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعصا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بألفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينيين فى زيورخ وبازيل وبرن إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فدمغهم كالفن بأنهم « قردة لوثر » وأبدى من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل — براندنبرج والبلاتينات وأجزاء من هس وبريمن وآنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التى خضعت الإصلاح الدينى ، ولم ينقذ باقى ألمانيا الشمالية من التحول عن العقيدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذى كان يتفق فى الرأى سراً مع كالفن) وصدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها فى الإصلاح

الديني . وكان كايليوس سيكوندوس كوريو يلقي تعاليمه في لوزان وبازيل. وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين — وفيهم كثير من الوثنيين — سوف يفوقون عدداً المعذبين في نار جهنم بكثير . أما لايليوس سوكينوس ، وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر في زيورخ فقد درس اليونانية والعربية والعبرية لكي يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم كثيراً جداً ، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير .

وأعرب عن شكه لكالفن الذي رد عليه بقدر الإمكان . ووافق سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد معارضاً تنفيذ حكم الإعدام في سرفيتوس ، وكان من بين القلائل الذين وقفوا يدافعون عن التسامح الديني في ذلك العصر المحموم .

وفي دولة يمتزج فيها الدين والحكومة في مزيج مسكر ، كان من الطبيعي أن تكون أشد المعارك التي خاضها كالفن هي معاركه مع الوطنيين والمتحررين والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفوا الآن لعودته . فقد استاء الوطنيون من أصله الفرنسي ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقابيل ، وأطلقوا على كلابهم اسم كالفن . وسبوه في الطرقات . ولعلهم هم الذين أطلقوا في إحدى الليالي خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول بوحدة الوجود ، وتخلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو جنة عدن أو التكفير أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجريت ملكة نافار وأيدتهم في بلاطها بنيراك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفي يوم ٢٧ يونيه عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على منبره وجاء فيه : منافق كبير إنك لن تجني أنت ورفقاؤك بآلامك إلا النذر اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب فلن يحول أحد دون القضاء عليكم . ولسوف تلعن الساعة التي تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد أن عانوا طويلا . . . احذر فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذي كان قد قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثيرون إلى هذا الحد(٥٥) . . .

وقبض على جاك جريه ، وهو أحد كبار المتحررين ، إذا شتبه فى أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك ببضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن ، ووجد فى حجرته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف — ولا ندرى مدى ما فى اعترافه عن صدق — بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفى يوم ٢٦ يوليو ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه(٥٦) .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفى ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يدق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمى فما زالت هنا بضع قطرات فهيا اضربوا » وسحبت السيوف ولكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . وخاطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً اقنع كل الأطراف بعقد هدنة . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته فى نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فيريه يقول : « إن أملى ضعيف فى أن تستطيع الكنيسة أن تجد لها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجالى الذين يقومون بالخدمة الدينية . صدقنى إن سلطانى يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . ولكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ — ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ — ٥٣

ولد ميجيل سرفيتوس فى فيلانوفا (وتقع على بعد حوالى ستين ميلا من ساراقوسه) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ فى عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر فى إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقه فى التأويلات التالمودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث ولمريم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشى » .

وفى تولوز حيث درس القانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملا وأقسم ليقرأنه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالرؤى فى سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دى كوينتانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذه جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتية وأحبها ، وزار أويكو لامباديوس فى بازيل ، كما زار كابيتو وبوسر فى شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً فى رأيهم ، ودعى لكى يرعى فى حقول أخرى .

ونشر فى عامى ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثانى طبعة من مؤلفه De Trinitatis erroribus ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملا مذهلا بالنسبة لفتى فى العشرين من عمره بسبب تراتها فى سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع فى نظر سرفيتوس رجلا نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفوا للأب أو سرمدياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التى أرسل بها واحد من الأنبياء »[٥٧] . وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين فى القول بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلا إنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد(٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور . وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتلاقى مع اللامعمدانيين فى أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفى يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش فى تولوز أمراً بالقبض عليه . وفكر فى السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك تنكر فى شخصية ميشيل دى فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزاليوس العظيم زميله فى دراسة التشريح وأثنى أساتذتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه فى مناظرة ولكنه لم يظهر فى المكان والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن فى الفترة التى اشتد فيها الغضب على خطاب كوب والإعلانات الكبيرة الهرطيقية .

وفى ليون أشرف على نشر طبعة جديرة بعالم من جغرافية بطليموس ، وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلا جنوبى ليون) ، وهناك عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشتغل بالبحث . واختير من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيح للناشرين فى ليون التعامل معهم لكى يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجنينى .

وقضى فى هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفى آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذى كان جيروم قد جعلها « عذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعنى عذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير إشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى فى العهد القديم التى تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندرى متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية — مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوى إلى الرئتين وتدفقه خلالهما وتنقيته هناك بالتعريض للهواء ، وعودته فى الوريد الرئوى إلى الغرفة اليسرى من القلب ، وبقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عند ما أدرجه فى مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية فى رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية فى الإنسان ، ومن ثم يعد — ربما أكثر من القلب أو المخ — المقر الحقيقى للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر فى مشكلة أسبقية سرفيتوس فى هذا الاكتشاف فحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكمل رسالته « اعادة المسيحية » فى سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل فى ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذى كتب شريعة الدين المسيحى ، بيد أن الكتاب إلى جانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قدر على أرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة . وظن كالفن أنه يكفيه لكى يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب « القوانين » ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة(٥٩) ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لى سرفيتوس مجلداً مطولا بأقواله الهارفة . وإذا وافقت فلن يتردد فى الحضور هنا ، ولكنى لن أعطيه كلمة منى لأنه إذا جاء فإنى لن أطيق أن أتركه يخرج حيا إذا كان هذا فى سلطتى »(٦٠) ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آبيل بوبان ، وهو أحد قساوسة جينيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلا من الرب عبدتم(*) سربيروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالوث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حلماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال للإرادة المستعبـــدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء فى وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم علكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى فى معركة ميكائيل هذه أعلم أنى سوف أموت لا محالة . . . بيد أنى لن أتردد . . . أن المسيح آت ولا ريب . ولن يتمهل »(٦١) .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خبلا من المتوسط فى عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالى جنيف على السواء ، وأنه وقد سمى باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت فى تلك الحرب(٦٢) . وكان كتاب « الإعادة **Restitutio** » دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة فى العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشرون فى بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتازار

(*) كائن خرافى .

أرنوبيه وجيوم جيروه فى الخفاء بمدينة فين . ولم تذكر أسماؤهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف. ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلا منقحاً من كتاب « **De Trinitatis erroribus** » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب فى جنيف جانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة فى يدى جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م. س. ف. هى الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى فى يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكى فى ليون يدعى أنطوان أرنى أعرب له فيها عن دهشته من أن الكردينال فرانسوا دى تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا فى دائرة أسقفيته . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش فى ليون أو فيين . وعرض آرنى الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش فى ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجيرون نائب محافظ فيين للبحث والاستقصاء . وفى يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجيرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلف كل الأوراق التى تثبت ذنبه . وأنكر أنه ألف الكتاب ، فأرسل آرنى إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التى أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة فى الكتاب . وقبض على سرفيتوس فى اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقفز فوق سور حديقة . وفى يوم ١٧ يونيه أدانته المحكمة المدنية فى فيين وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس يضرب على غير هدى فى أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولى وأن يذهب عن طريق جينيف ، وظل فى جينيف

شهراً لأسباب غير معروفة متخذ اسماً مستعاراً ، وفى غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكى يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل فى خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن خزعبلاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البرىء ألا يخجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة فى الدفاع عن الحق الذى لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه فى القسوة والفظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل فى قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمل الذى أغار على زنزانته . وسمح له بورق وحبر وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بتلم الآباء الأوائل . وأديرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام فى ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتشهد بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجدب بينما وصفهاالكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل(٦٣) . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هى أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاًبأنه « طعن فى شخص السيد كالفن العقائد التى فرضها إنجيل كنيسة جينيف »(٦٤) ، وفى يومى ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه فى قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدةالوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتى فى جينيف من القضاة الكاثوليك فى فيين إبداء

آرائهم فى فقرات خاصة من الاتهامات التى وجهت هناك ضد سرفيتوس . ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسى ، فرد سرفيتوس بأن الفتق قد حوله منذ زمن بعيد إلى عنين ومنعه من الزواج(٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان قد حضر القداس فى فيين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون لمحكمة مدنية ولاية فى الفصل فى قضايا الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جينيف وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه فى الدفاع عن نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلا عنها إلى مدينة جينيف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذى صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفى اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن — هما آمى بيران وفيلبرت برتليه — بأن ينضما إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ، فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتها ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة الكنائس الأخرى فى سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ، وفى اليوم الثانى من سبتمبر واجهت زعامة كالفن فى المدينة تحدياً فى المجلس على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجه العاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة المعارضة الواضحة فى إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن المدعى الرئيسى فى المحاكمة كان كلود ريجوه Rigot وهو من المتحررين(٦٦) .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على الاتهامات الثمانية والثلاثين التى وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبفقرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال رددها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن فى التدخل فى المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفاك للدماء(٦٧) . فرد عليه كالفن فى ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شقى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب فى السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلى قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة دبجت بأسلوب العصر ، فنراه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب القذر أنفه » و « السافل الغادر »(٦٨) يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى »(٦٩) . والتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يقمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب .

وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها إبداء المشورة ، فرأت كلها إدانة سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها إعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه فى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفى اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء ،واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة — مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عندما سمع النطق بالحكم « أنّ وتأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزمجر قائلا بالإسبانية **Misericordia ! Misericordia!** ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحق إذا سحب هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب ولكن فاريل الطاعن فى السن ، الذى يقترب من حافة القبر زجره لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .

ونفذ الحكم فى صباح اليوم التالى يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل تشامبل الذى يقع مباشرة جنوبى مدينة جنيف . وفى الطريق ألح فاريل على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابه الرجل المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق الموت ، وابتهل إلى الله أن يغفر لمن اتهموه »(٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل حديدية وربط إلى جانبه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وجهه صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ — دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت فى الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس(*) . وأعرب ميلانكتون فى خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن «حمده لابن الرب » لـ « معاقبة الرجل الكافر » ووصفه عملية الإحراق بأنها « مثال يدل على الورع لا ينسى لكل الأجيال القادمة »(٧٣) . وأعلن بوسر من فوق منبره فى شتراسبورج أن سرفيتوس قد استحق أن تنزع أمعاؤه ويمزق إرباً(٧٤) . ووافق بولينجر ، وهو بوجه عام خير رقيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا بالموت من يثبت عليه الكفر(٧٥) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى فى أيام كالفن ، فقد نظم صقلى قصيدة طويلة بعنوان : De iniusto Serveti incendio ، ونشر دافيد جوريس البازيلى ، وهو لا معمدانى ، احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، بيد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) فى سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكارى لسرفيتوس فى تشامبل وكان فى أول قائمة الذين شاركوا فى نفقاته المجمع الدينى لكنيسة جنيف التى أخذت بمبادئ الإصلاح الدينى(٧٢) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت جثته بعد الدفن وأحرقت علناً (١٥٦٦) . وبالطبع أدان خصوم كالفن السياسيون معاملته لسرفيتوس واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً الكاثوليك فى فرنسا على تطبيق عقوبة الإعدام على الهوجنوت . ولا بد أن هذا النقد قد انتشر انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر فى فبراير عام ١٥٥٤ a Defensio orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigiosos errores Michaelis Servetir دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس ضد أخطاء ميكائيل سرفيتوس الفظيعة . وقال : إذا آمنا بأن الكتاب المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن على السلطة المدنية أن تعاقب المراطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك لأن القتل العمد يؤدى إلى هلاك الجسد فحسب بينما الهرطقة المقبولة تعرض الروح للعذاب الأبدى فى نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك) وفضلا عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل الهراطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق العقيدة الخالصة التى كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسنن سفر التثنية القاسية ١٣ : ٥ — ١٥ و ١٧ : ٢ — ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها ببلاغة ملتهبة حقاً : « كل من يتمسك بأن الهراطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقبتهم يورط نفسه بأن يكون شريكاً لهم فى جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان فالرب هو الذى يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها فى الكنيسة إلى يوم القيامة . فلماذا يطلب منا مثل هذه القسوة الشديدة إذا لم يكن هذا ليرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا نضع عبادته تعالى فوق أى اعتبار إنسانى بحيث لا نبقى على آصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن ننسى كل إنسانية عند ما يكون الأمر متعلقاً بالقتال فى سبيل مجده تعالى ؟(٧٦)

ونخفف كالفن من استنتاجاته بأن نصبح بالرحمة بالذين لا تكون هرطقاتهم جوهرية أن الذين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف العقل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالقديس بولس هادياً له ومرشداً فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبةإلى بولس) التى تعلن أن القانون الجديد يحل محل القانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التى كان من الواضح أنه كان يمكن أن تتحطم وتشيع فيها الفوضى إذا سمحت الخلافات فى العقيدة بإبداء الرأى علناً .

وفى غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازمية التى تدعو إلى التسامح ؟ لقد كان أرازموس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون فقد تخليا عن التسامح عند ما تدرجا فى اليقين ، وأما كالفن فكاد يكون على يقين منذ بلغ عامه العشرين بتبكير قاتل فى النضج . وليس من شك فى أن قليلا من علماء الإنسانيات الذين درسوا الفكر الكلاسى والذين لم يهابوا العودة إلى الحظيرة الرومانية بالاشمئزاز من الالتجاء إلى العنف فى النزاع اللاهوتى ظلوا يرون على استحياء أن اليقين فى الدين والفلسفة أمر لا يمكن الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلاسفة ألا يقتلوا أحدا .

وكان عالم الإنسانيات الذى تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح وسط صدام اليقينيات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن . فسباسيان كاستيليو الذى ولد فى جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية فى ليون وعاش مع كالفن فى شتراسبورج فعينه مديراً للمدرسة اللاتينية فى جنيف (عام ١٥٤١) وهناك شرع فى ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب بكالفن رجلا ولكنه كره المذهب القائل بالجبر وأضفى قواه تحت وطأة النظام الجديد الذى نخضع له الجسد والعقـــل . واتهم فى عام ١٥٤٤ القساوسة فى جنيف بالتعصب والدنس والسكر . واشتكى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ، وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يعول أسرة كبيرة ، وكان يعمل أثناء الليل فى إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام ١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى فى سفر التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى فى هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً (١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية فى جامعة بازيل . وأحس بالعطف على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكامليوس كوريو بأسماء مستعارة (مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل يجب أن يضطهد الهراطقة ؟ De haereticis an Sint persequendi.

وكان الهيكل الرئيسى للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من الابتهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتيوس وجيروم إلى أرازموس ولوثر فى بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو فى الجدال بالمقدمة والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا فى مدة مائة عام الإرادة الحرة والجبر والسماء والجحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا إلى أى اتفاق ، ومن يدرى لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو : لا داعى لأى اتفاق ، فمثل هذه القضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح فى حياتنا اليومية وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدا له أن من السخرية أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها فى هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على حق مطلق ، وأن تكره من لها عليهم السيطرة البدنية على اعتناق عقائدها ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة فى مدينة ويصبح هرطيقاً عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقده عند كل حد من حدود البلاد . وهل يمكن أن نتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعميد البالغين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التي تدعو إلى القضاء على الحياة كل طريق شريعة المسيح التي تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف والإرهاب وإذا أنكر إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغي ألا يقتل . وفضلا عن هذا فإن اضطهاد المعتقد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد في سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان في وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . وختم كلامه بقوله أية مأساة في أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدونها سريعاً في طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمرى بعد فجر واعد مثل هذا(٧٧) .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطه في رسالته « الهراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكى تلاميذه تيودور دى بيز أو بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور في فيزيلاى من أسرة أرستقراطية ، ودرس القانون في أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح في باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مرحة وتزوج وسقط صريع مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولا معكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كالفن وعين أستاذاً لليونانية في جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتياً من فرنسا التي تضطهد الهوجنوت أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ؛ فأصدر في سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين في عقاب الهراطقة) De haereticis a civili magistratu punindis libelus وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الديني مستحيل لإنسان قبل أن الكتب المقدسة وحى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبنى العقيدة الدينية التى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها — إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر — لكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى — والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون لمؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما الديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حقاً إن العهد الجديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتص من اللصوص والقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى الجدل فى كراسة دينية بعنوان : **Contra libelum Calivini** ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديكارت فى مخطوطة أخرى بعنوان **De arte dubitnnd** بأن جعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المحاورات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية التى كانت تجتاح فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس »(٧٨) ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشذ عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالفن إن وفاته المبكرة حكم عادل من إله عادل .

٨ ـ كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ ـ ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفى إلى مذهب الموحدين — الإيمان بإله ليس ثلاثة فى واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى فى هذا الشك الأساسى بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه الهرطقة أكثر من أى شىء آخر لأنه وجدها متفشية فى مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شىء بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسد لا يصدق قدراً محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله . وكان لماتيو جريبالدى ، وهو أستاذ فى فقه القانون فى بادوا ، بيت صيفى بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة — بالنسبة للجميع ، فدعى للمثول أمام المجلس ، ونفى من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكفل لنفسه التعيين فى وظيفة أستاذ للقانون فى جامعة تيبنجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كلمة عن شكوك جريبالدى . فألزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث ، وبدلا من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأثراً بداء الطاعون فى عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندراتا ، وهو طبيب إيطالى يقيم فى مدينة جينيف للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولندة حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جنتيلى ، من كالابريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى مدينة جينيف ، فألقى فى غيابة السجن حكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فتراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عندما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن فى دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاتادراتا فى بولندة ، وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الحنث بقسمه والهرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك فى سبيل الرب استمر كالفن يعيش فى بساطة وقد حكم جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوهام أتباعه . وتدعم مركزه بمرور السنين . وكان ضعفه الوحيد فى جسده الواهن : كان يشكو من آلام فى رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والنقرس ، وهصرت الحمى جسده وأبرزت عظامه وشكلت وجهه فبدت تقاطيعه مشدودة تنم على القسوة والكدر . وأصيب بمرض فى ١٥٥٨ — ٥٩ استمر طويلا وتركه ضعيفاً واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر فى الدراسة والتوجيه والوعظ حتى عند ما كان يحمل حملا فى مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته فى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للمجد الأبدى . وفى اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سورات غضبه ، ورجاهم أن يتشبثوا بالعقيدة الطاهرة للكنيسة التى اتبعت الإصلاح وجاء فاريل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع الأخير . وبعد مرور بضعة أيام قضاها كالفن فى الصلاة والعذاب وجد السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثيرلوثر ، ولكنه سار فى طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية رباطاً وثيقاً بالأصول التيوتونية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد لكى يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان الدين بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت

البروتستانتية فى سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية فى هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية فى كثير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس مكنتها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينوس تلميذ ميلانكتون فى إعداد وعظ هيدلبرج الذى أصبح تعبيراً مقبولا لعقيدة الإصلاح الدينى فى ألمانيا وهولنده . ووفق بيز وبولينجر بين مذهبى كالفن وزونجلى فى الإقرار السويسرى البروتستانتى الثانى (١٥٦٦) الذى أصبح وثيقة رسمية للكنائس التى اتبعت الإصلاح الدينى فى سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن فى جنيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس فى مقاومة محاولات مجمع الكرادلة والجمعية المبجلة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاق فى العمليات الاقتصادية ، وبعد وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة فى جنيف مزاياه الإدارية - (التوجيهية) التى كان كالفن قد ظفر بها لها فى الشئون غير الدينية . وفى القرن الثامن عشر خفف تأثير فولتير من التقليد الكالفينى ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية فى جلد وصبر لتسترد مكانها فى المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدر ونزعة أخلاقية خالية من الصرامة ، وكان ٤٢ فى المائة من السكان فى عام ١٥٩٤ كاثوليك و٤٧ فى المائة منهم بروتستانت (٧٩) .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير فى جنيف هو النصب التذكارى للإصلاح الدينى « المبجل الذى يمتد فى بهاء على طول سور بستان ويحتفل بانتصارات البروتستانتية وترتفع فى وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية » .

وفى غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التى أقامها كالفن تنبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين فى سبيل توفير التعليم للجميع وتفقيههم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء فى هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسبانى الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال الدين فى سكوتلنده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للنزعة الرواقية فى عقيدة صارمة الفضل فى خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين والمتطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج فى نيوانجلاند ، وثبتت قلب كرومويل واهتدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين . وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم والحكم الذاتى إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم حق اختيار حكامهم وأصبحت جماعة المصلين التى تحكم نفسها بنفسها بلدية تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهى نفسها فى صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التى تقول بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعى إلى أوربا بعد حرب الثلاثين عاماً وفى انجلترا بعد ثورتى عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفى أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير الفخار بالانتخاب الإلهى إلى اعتزاز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت القسوة المذعورة التى ولدت رب كالفن إلى رؤية أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر فى مفهوم الألوهية . وعقداً بعد عقد نبذت الكنائس التى تسلمت زمام القيادة من كالفن عناصر عقيدته القاسية ، وواتت الجرأة المشتغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا فى

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس مبجل دون أن يسبب أى اضطراب أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً »(٨٠) . ونحن نشعر بالشكر لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل المبجل بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformation*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson, W., *Charles V*, I, 372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luther, *Works*, I, 26; Thesis 75.
6. Beard, *Luther*, 257.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121; Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M. C., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 158.
13. Beard, 165.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvii, in Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Ganss, H. G., in Cath. En., IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. Ibid., 89.
18. Cath. En., IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. Cath. En., IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe, Wm., *Leo X*, II, 95, 105-7.
25. Pastor, VII, 367.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. Ibid., 278-4; Ranke, 195; Cath. Ed., IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 382; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 56.
33. Cath. En., IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20, 1581, in Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melanchthon*, 88.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Hutten*, 263.
39. In Pastor, VII, 389; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, in Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 68.
44. Ibid, 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, italics mine.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, in *Works*, II, 188.
51. Ibid., 257.
52. In Janssen, III, 129.
53. *Works*, II, 269-71.
54. Ibid., 298.

55. 302-10.
56. 299.
57. 331.
58. 3.8.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-8; Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*, 331.
62. Adams, Brooks, *Civilization and Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Janssen, III, 178.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *Hy of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton, *Here I Stand*, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 421-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Bainton, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaff, *German Reformation*, 29.
77. Bainton, *Here I Stand*, 185; of Cath. En. IX, 446d, and the Protestant authors there cited.
78. Creighton, *Hy of the Papacy*, VI, 176.
79. Carlyle, Thos, *Heroes aud Hero Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Sand*, 186.
81. Acton, 101.
82. Bainton, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, H. O., *Thought, and Expression in the 16th Century*, II, 213.
85. Bax, *German Socity*, 142; Lecky, *History, of Rationalism*, I, 22.
86. Janssen, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 305-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard, 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talke*, 118.
104 *Werke* (Walch), VIII, 2042, in Beard, *The Reformation of the 16th Century in Relation to Modern Thought and Knowledge*, 161.
105. Luther' *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI, 142-8, in Maritain, *ThreeReformers*, 38 and Beard, *Reformation* 156.
107. In Paulsen, *German Education*, 47.
108. In Jassen, III, 240.
109. Schaff, *German Reformation*, 85-6.
110. Luther, *T.T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T.T.*, 2.
113. Ibid., 91,96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
118. Sermon of March 6, 1521; Janssen, XII, 316.
119. Maritain *Three Reformers*, 80.
120. Smith, *Reformation*, 658.
121. Lecky, *Rationalism*, I 22,
122. *T.T.*' 577, 597; Janessen, XIV, 87.
123. Janssen, XII, 317.
124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
125. *T.T.*, 579-86, 6
126. Luther' *Works*, III, 235-7.
127. *Works*, II, 39'.
128. Ibid., 316.
129. *T.T.*, 288.
130. Romans, x, 9.
131. Mark, xvi, 16.
132. *Works*, II, 316.
133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330, 142, 130; *Werke* (Erlangen), XVIII, 260.
134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX, 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
135. O'Brien, G., *Economic Effects of the Reformation*, 41.
136. *Works*, II, 328-9.
137. Ibid., 331.
138. Romans, ix, 18.
139. Luther, *De servo arbitrio*, in in Janssen, IV, 104.
140. *De servo arbitrio*, in Lecky, *Rationalism*, I, 140.
141. In Fülöp - Miller, R., *Saints That Moved the World*, 291.
142. Janssen, IV, IV, 114.
143. *T.T.*, 96.
144. Ibid., 178.
145. *Works*, II, 188.
146. *Werke*, XXVIII, 142-201. in Bax, *German Society*, 188-90.
147. *Works*, III, 258-61.
148. In Janssen, III, 268.
149. In Allen, J. W., *Political Thought*, 330.
150. *Works*, IV, 25.
151. Ibid., 26, 29.
152. *Works*, II, 160.
153. bid., IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechard, E., *German Civilization*, 250.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*, 84-5.
5. Richard, 250; *Camb. Mod. Hy*; II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janssen, III, 221; Schapiro, 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod. Hy*, II, 177.
10. Janssen, III, 342.
11. *Comb, Mod. Hy*, II, 198.
12. Kautsky, 116-119.
13. Ibid, 121.
14. 130.
15. Ranke, *Reformation*, 338.
16. In Kautsky, 139.
17. Ibid., 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. Ibid., 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants' War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in European Hy*, 2891; Bax, *Peasants' War*, 156-60.

. Ranke, 344.
27. Bax, *Peasants' War*, 101.
28. Ibid., 118-30.
29. In Jaussen, IV, 208.
30. Bax, 76, 224.
31. Ibid., 205.
32. 229.
33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
34. Bax, 265 6.
35. Ibid., 312-5.
36. 303.
37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
38. Bax., 336-7.
39. Armstrong, *Charles, V*, I, 222.
40. Ranke, 360.
41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
42. Ibid., 165.
43. 164.
44. *Works*, IV, 261.
45. Ibid., 261-72.
46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
47. Ranke, 728.
48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
49. Kautsky, 164.
50. Ibid., 166.
51. Allen, *Political Thought* 48.
52. Ranke, 732-3.
53. Schaff, *Swiss, Reformation*, 82.
54. Janssen, IV, 114.
55. Kautsky, 176.
56. Ibid., 185.
57. 187.
58. Ranke, 729.
59. Kautsky, 192.
60. Ranke, 757.
61. Kautsky, 255-6.
62. Ibid., 257.
63. 260.
64. 273.
65. Ranke, 745-6.
66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.
67. Kanteky, 299; Ranke, 755.
68. Smithson, 181.
69. Fosdick, *Great, Voices of the Reformation*, 285.
70. Payne, *Anapatists*, 16,

CHAPTER XVIII

1. Cath. En., XV, 773.
2. Schaff, *Swiss, Ref.*, 6.
3. Ibid.
4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
5. Schaff, 24.
6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
7. Schaff, 32.
8. Ranke, 513.
9. Schaff, 52-3.
10. Fosdick, 183.
11. Ibid., 173, 191.
12. Lea, *Auricular Confession*, I, 519.
13. Fosdick, 190.
14. Schaff, 59.
15. *Camb. Mod, Hy*, II, 321, 334.
16. Smith, *Erasmus*, 301.
17. Schaff, 94.
18. Bainton, *Hunted Heretic*, 36-8.
19. Erasmus, Epistle of May 9, 1529, in Schaff, *Swiss Reformation*, 112.
20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
21. In Janssen, V, 231.
22. Schaff, 177.
23. ibid.
24. Bossuet, *Variations*, II, 29.
25. En. Brit., XXIII, 998.
26. Schaff, 188.
27. Smith' *Luther*, 290.
28. *T. T.*, 801.

CHAPTER XIX

1. Kauffman Collection, Berlin.
2. *Werke*, XLII, 582, in Maritain, 171.
3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. Ibid., 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton, *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 737.
12. Ibid., 751.
13. InSchaff, *Swiss ReJormatiou*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Lnther*, 354.
16. Schaff, *Gecman, Reformation*, 465.
17. Bainton, 804.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.
20. Luther, *Works*, I, 7.
21. Jansren' XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, In Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
26. *T.T*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquer, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 355.
32. Ibid., 326.
33. In Janssen, XI, 253.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. Ibid., 349.
38. Ibid.,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. bid., 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. Ibid., 413.
46. Luther, *Works*, I, 76.
47. bid., 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen). XXXII, 217-33, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 15.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos, Metsch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus, 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60 *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI, in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. Id., *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 366.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, Commentary on Psalm LXXXII.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46 - 63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssn, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. *T.T.*, 889.
75. Smith, *Reformation*, 104; Panosky, Dürer, 1283; Cath. En., IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. Ibid., 342.
78. Robertson, J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirkheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Hutten*, 290.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. Ibid., 221.
90. Ibid., 22;Froude,*Erasmus*, 283-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. Ibid., 255.
95. Erasmus, *Epistles*, I, ep. lxxxv.
96. Ibid., ep. ccclxvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb , 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. Ibid.,
101. Bainton, *Here I, Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 881.
103. In Allen, *Political Thought*, 80.
104. Froude, 403.
105. Ibid., 357.
106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. Cf. *Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Celibacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. Id.. IV, 47.
8. Id., IX, 180.
9. Id., XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 887.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. Ibid., 109-11.
14. En. Brit., XI, 288.
15. Jansen, V, 271; Ranke, 614.
16. Cath. En.; XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy*. II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128 ; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 862-3.
22. Ibid., 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. Ibid., 188.
25. Cath. En., IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I Stand*, 346.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 809.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in Cath. En., IX, 456d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 351.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 352.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Jaussen, VI. 81-6.
40. *Comb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 215f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 216f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 405.
48. Ibid., 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. Ibid.
51. *T.T.*, 683.
52. Ibid., 15.
53. 19.
54. 235.
55. InRobertson, *Charles V*, II, 158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 276.
59. Ibid., 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. Id., VII, 139:
62. Id., IV, 362-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 161.
64. In Janssen, VII, 189.